سفى رخلافسكي

# حمار المسيح

## الأصولية اليهودية - الحاضر والجذور

ترجمه عن العبرية

إسماعيل دبج

# حمار المسيح

# حمار المسيح

تأليف: سفى رخلافسكي

ترجمة: إسماعيل دبج

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية



دمشق – ص.ب 443 هاتف: 2134433 (11 - 963 +)

فاكس: 3314455 – 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الثانية: 2005 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها
على صفحة الشبكة التالية:
http://www.furat.com

سفي رخلافسكي

# حمار المسيح

ترجمة

إسماعيل دبج

# الفصل الأول

## اغتيال رابين

لقد أسفرت الرصاصات الثلاث المحكمة في ساحة المدينة عن ثمارها المرجوة، فسقط إسحاق رابين صريعاً، إسحاق رابين بطل الحرب والسياسي المحبوب ومن يحمل عملية السلام على كاهله، وجاء بعده، حسب الخطة الخلاصية، شمعون بيرس المكروه، وحسب الخطة أيضاً، سلم الأخير السلطة لمن استحقها بفضل العناية الإلهية وبفضل المسدس: اليمين. وبهذا يكون التراجع عن الخلاص قد توقف ولم يعد بعد ما يبرر تلكؤ مجيء المسيح.

أما العملية العجيبة فقد بدأت بعد تلك الرصاصات. فخلال وقت مذهل في قصره جرى اختزال عملية القتل إلى فرد واحد مجذوب. لقد التقت مصلحة واضحة لليمين مع مصلحة شخصية أقل وضوحاً لليسار في رقصة ما بعد حداثية قدمت تفسيراً حداثياً للحادث: «شخص واحد مختل عقلياً قتل رئيس الحكومة. كان هناك تشويه سمعة للجمهور المتدين. رابين غالى في موقفه من المستوطنين. الأمن العام فشل واستُغل سياسياً»، وكل المذنبين عوقبوا. هناك من عوقب في الساحة وهناك من عُوقب في صناديق الاقتراع. وحل الخلاص على صهيون.

في فجر كل سبت تُتلى في أرجاء البلاد صلاة من أجل سلام الدولة، ولهذه الصلاة أهمية فكرية بعيدة المدى، من حيث إنها تشكل الخط الفاصل بين الحريديم وبين الصهيونيين المتدينين. فالمقطع الاستهلالي في هذه

الصلاة: «بارك دولة إسرائيل مبتدأ خلاصنا»، يضع من يتلوه في موقف المؤمن بالقيمة الدينية لدولة إسرائيل ولرسالتها الصهيونية ولغايتها المسيحانية تحديداً.

ليس ثمة في عالم اليهودي أداة أقوى من الصلاة. فالصلاة هي التي أخذت ومنذ خراب الهيكل تقوم مقام تقديم القرابين، وهي التي تحل وتربط وترفع وتنزل.

بعد وقت قصير من وصول حكومة رابين، هذه الحكومة المعروفة بلقب «حكومة الشر»، أدخلت جهات دينية عديدة تغييرات على الصلاة من أجل سلامة الدولة. وقد حدث هذا في عام 1992، أي قبل وقت طويل من اتفاق أوسلو «الخائن». أما سبب التعديل فهو أن صلاة سلامة الدولة تتضمن الدعاء التالي: «يا رب ابسط عليها مظلة سلامك، وأرسل نورك وخشيتك على قادتها ووزرائها ومستشاريها، وامنحهم المشورة الجيدة من لدنك»، أي الطلب من الرب الاعتناء بعافية وسداد رأي قادة الدولة، إلا أن الصلاة لسلامة الدولة لم تصمد بعد انتقال الحكم عام 1992، وقد كانت صيغ متعددة للتغيير، يجمع بينها القاسم المشترك المتمثل في إلغاء الدعاء لصحة وعافية وسداد خطوات وزراء الحكومة. كذلك كان هناك من لم يكتف بهذا التعديل فذهبوا إلى ابعد وأضافوا جملة: «أزل حكومة الشر من البلاد» وهو دعاء اللعنة نفسه الذي كان يقال ضد هتلر. والبعض غالى أكثر فذهب إلى صلاة الثمانية عشر المقدسة التي تؤدى ثلاث مرات في اليوم وتشكل أساس الصلاة اليهودية. إذ في هذه الصلاة أيضاً ألغوا الدعاء لسلامة قادة الشعب، وزادوا بأن استبدلوه بالدعاء لإزالة حكومة الشر.

قد يبدو للعلماني أن الصلاة وصيغها ليست إلا مجرد كلمات، إلا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمؤمن، فأي تغيير في الصيغة المقدسة للصلاة يعني بالنسبة إليه هزة إيمانية، ولا يبقى الأمر مجرد أقوال بل يتعداه إلى الأفعال. فحسب مقولات الشريعة، فإن التوقف عن الصلاة لسلامة وزراء الدولة وكذلك الصلاة من أجل موتهم، إنما هو بمنزلة إعلان بأن الملكوت قد

أصبح دناسة، أي إعلان الثورة على الحكومة التي فقدت أهليتها وأصبحت متمردة لعينة على الرب. إن إعلان الثورة بالمعنى السابق تم على يد كبار شيوخ الصهيونية المتدينة ومارسه جزء لا بأس به من الجمهور، ولم يعد الأمر يقتصر على حالات هامشية لا أهمية لها، إذ كان من بين الذين أدخلوا التغيير في الصلاة اثنان من كبار شيوخ الصهيونية المتدينة الثلاثة في حينه وهما الرابي تسفي يهودا انريا والرابي شاؤول يسرائيل. أما الثالث الرابي ابراهام شابيرا فلم يأمر بالتغيير بسبب منصبه كحاخام الدولة الرئيسي، لكنه دعمه ولم يبد أية ملاحظة ضده.

بعد انتخابات 96، أي بعد أن أنقذت العناية الإلهية الشعب، وحتى قبل أن تؤدي الحكومة الجديدة القسم، عادت صيغة الصلاة التقليدية للكنس (ومع ذلك عندما أخذ يبدو في الظاهر أن نتنياهو بدأ بالانحراف قليلاً نحو اليسار، أخذ البعض يدعو في الصلاة للجيش بدلاً من الدعاء للحكومة).

يقول المدراش: جرحان لا يلتئمان أبداً: جرح من يرى الهيكل خرابا وجرح من يرى ملك إسرائيل يسقط صريعاً. وقد أخذ المدراش هذا القول من داود الذي قال أعظم مرثاة في رثاء شاؤول الذي كان يطلب نفسه: «ظبي إسرائيل على هضابك قتيلاً. كيف يسقط الأبطال صرعى».

تعتبر الديانة اليهودية أن قتل ملك أو رئيس إسرائيل على يد أبناء شعبه اليهودي أحد الأمور التي تستوجب الغفران. ووفق الموروث فإن الخراب أصاب الهيكل بسبب الموبقات الثلاث وهي سفك الدم وسفاح المحارم والوثنية. أما الهيكل الثاني فقد حل الخراب به بسبب البغضاء غير المبررة، وهي توازي في وزنها الموبقات الثلاث السابقة. أما الآن في جيلنا فإن الأمر لم يتوقف عند البغض بل تعداه إلى قتل ملك إسرائيل وهي خطيئة أساسية تهدد البيت الثالث.

وعليه فإنه لزاماً على أية حركة دينية ترى في دولة إسرائيل قيمة دينية مهما ضئلت، ولزاماً كذلك على أية حركة ترى في الدولة بداية

الخلاص، لزاماً عليها المسارعة إلى إعلان الحداد الديني على الإثم بالغ الخطورة المتمثل في قتل ملك إسرائيل، وهو الإثم الذي قد يحمل في أحشائه عقاباً فظيعاً على الشعب كله. ثمة اعتقاد عام لدى الجمهور بأن الصهيونية الدينية ترى في الدولة قيمة دينية كبرى، وبالتالي كان يفترض أن يكون رد فعلها على القتل متناسباً مع ذلك.

لقد كان الحاخام عوباديا يوسف هو الوحيد الذي طلب، مع الإعلان في الإذاعة عن محاولة الاغتيال وقبل إعلان الوفاة، من شعب إسرائيل تلاوة المزامير، وهذا هو رد الفعل المتوقع من كل يهودي. غير أن صوت عوباديا يوسف بقي صوتاً يتيماً. أما مجلس يهودا والسامرة، وفي محاولة للنأي بنفسه عن القاتل، فاكتفى بالإعلان عن صدمته. وكلمة الصدمة ليست تعبيراً دينياً ولا تحمل مغزى تعاليمياً. لقد وفروا على الجمهور تلاوة المزامير التي تتلى على كل مريض.

تقضي التعاليم تلاوة آيات من المشناة بعد وفاة أي يهودي من أجل صعود روحه. وبعد موت شيوخ ذوي مكانة فإنهم ينظمون الجمهور الديني والتلاميذ طبعاً لدراسة المشناة لعام كامل. أما على رابين فلم تُقرأ المشناة بطريقة منظمة، لا عام ولا أسبوع ولا يوم، كما لم يُعلن عن يوم حداد ديني أو عن عام حداد ولا حتى صيام ولا تمزيق ثياب بشوارع المدن ولا صلاة استغفار. لا شيء بالمرة.

لقد مرت هذه الحادثة ذات المعنى الأقوى إيديولوجيا منذ قيام الدولة دون ردة فعل من الحداد الديني. بعض المتدينين تلفظوا بعبارة الصدمة العلمانية، وجرى تبادل اتهامات مشبعة بالشمانيا، وكانت هناك مشاركة من أعداد قليلة في إشعال الشموع. ولكن لم يُعلن عن توبة الشيوخ الربابنه عن أفعالهم مثل تغيير صلاة سلامة الدولة حتى لا تتضمن دعاء لسلامة وزراء الحكومة. والأمر الأساسي أنهم لم يقيموا حداداً دينياً ولم يفعلوا الحد الأدنى المطلوب الذي يتناسب والحدث، بل حتى لم يكرسوا على اسم رابين اجتماع قراءة التوراة لأن هناك من أفتى أن رابين لم يكن متديناً ولذلك فهو آثم.

توجد على مكتب الرابي تسفي يهودا هكوهين كوك، ابن الرابي إبراهام إسحاق هكوهين كوك مؤسس الصهيونية الدينية المسيحانية بلا منازع، صورتان. الأولى للرابي الأب والأخرى لهرتسل. وعندما سُئل كيف يضع صورة الكافر أجاب أن هرتسل هو رسول الله ولذلك فهو مقدس. هذا ما كانت عليه وجهة نظر الصهيونية الدينية بالدولة في تلك الأيام. أما الآن فالوضع قد تغير.

بعد الاغتيال بعدة أيام أقيم في القدس اجتماع صلاة استغفار ومراجعة النفس. لم يحضر هذا الاجتماع أي من الربابنه المتطرفين. دخل بني كتسوبار للحظة وتمتم بشيء ضد خطيئة مجرد انعقاد هذا اللقاء واختفى. في هذا الاجتماع وجه الرابي يوئال بن نون الاتهام إلى الربابنه الذين أصدروا فتوى إهدار الدم وفتوى حكم الخائن على إسحاق رابين. فكانت النتيجة أنه نُبذ كلية في مستوطنته عفرا وكذلك من الجمهور المتدين عموماً. وبعد ذهاب الكاميرات نهض الرابي مناحيم فليكس من ايلون موريه وقال: نعم، الآن ورابين صريعاً فهو ملكوت، أما قبل ذلك فقد كان كافراً. إننا نعيش الرامبان الذي أفتى بحكم الموت وبئس المصير على كل من يتخلى عن أجزاء من أرض إسرائيل فيجلب الخراب والشتات.

قبل جهنم القتل بعد عدة أشهر، عقد رؤساء المجتمع الصهيوني المتدين الأحد عشر اجتماعاً في القدس، ومن هذه الغرفة المقدسية التي ضمت هذا الاجتماع خرجت فتوى رفض الأمر. اثنان فقط من الحضور لم يؤيدا هذه الفتوى، أما بقية الربابنه بمن فيهم المستضيف ابراهام شابيرا، الحاخام الرئيسي السابق لإسرائيل، فقد وقعوا على هذا المرسوم الذي يطلب من جنود الجيش رفض أية أوامر لإخلاء قواعد في يهودا والسامرة. في هذه الفتوى لم يتم التطرق أبداً إلى إخلاء مستوطنات، بل إخلاء قواعد عسكرية فقط.

إن الفحوى الدينية لرفض الأمر هو شيء يختلف تمام الاختلاف عن رفض الأوامر لدواع أخلاقية ليبرالية غربية عالمية تقوم على الاعتراف

بحقوق الفرد. فالأمر هنا ليس هو حق الفرد بل واجب الجندي أن يرفض أمر دولته الآثمة عندما تطلب منه تحريك مراكز عسكرية. لا يوجد أي معنى ديني لهذا القرار سوى معنى وحيد وهو التمرد، لأنه بمنزلة إعلان أن الملكوت قد غدا كفراً، أي سلطة تقاتل الرب، مما يستوجب مقاتلتها.

يجدر بنا هنا أن نفهم حقيقة الأمر. إن أحد أسس الهالاخاه هو الامتثال لأوامر الدولة اليهودية التي تعتبر، من وجهة النظر الصهيونية الدينية، تجسيداً لإرادة الرب وبداية الخلاص.

إن هذا الامتثال هو حجر الزاوية في تعاليم الصهيونية الدينية. لذلك فإن الانتقال من الانصياع لأوامر الجيش إلى التمرد عليها يشكل ثورة إيمانية تعبر عن انعطافة حادة عند أصحابها، انعطافة من الإيمان بأن الدولة والسلطة التي على رأسها هما مقدستان إلى الاعتقاد بأن الدولة القائمة هي دولة خطاء. والخطير في هذا الأمر هو أن الذين أعلنوه هم رؤساء المؤسسة التي تسمى صهيونية دينية ويتبوأون مناصب رفيعة في الدولة مثل حاخام مدينة أو حاخام الدولة والتي هي مناصب رسمية، وبعض منهم يتبوأون مناصب عسكرية مهمة مثل رؤساء معاهد عسكرية تحضيرية. إنه تمرد عسكري.

قبل الاغتيال وقبل إصدار الدعوة للتمرد بثمانية عشر عاماً أصدر الرابي تسبي يهودا هكوهين نداء الحرب، وذلك عندما أطلق في السبعينيات فتواه بأنه لا يجوز ولا بأية حال من الأحوال، كما أن ليس هناك من هو مخول بالتنازل ولو عن ذرة رمل واحدة مما منحنا الرب، وأنه لا توجد أية قوة في العالم يمكنها أن تفرض علينا ذلك، لا أمم العالم الشريرة ولا من ينضم إليها، لا سمح الله، من الأشرار من أبناء شعبنا. وعلينا، نحن اليهود الحقيقيين، أن نكافح ضد هذه المؤامرة الرهيبة وضد أعدائنا وضد من يتعاون معهم من اليهود. وعندما سئل فيما إذا كان هذا يعني حرباً أهلية، أجاب بتلك الإجابة نفسها التي قالها أحدهم[1] للملك الروماني: أنت قلت.

---

[1] الإشارة هنا للمسيح عليه السلام -المترجم-.

وأضاف أنه ينبغي التضحية بالنفس وسفك الدم من أجل الحيلولة دون حدوث المنكر وهو التخلي عن الأرض الممنوحة من الرب. وفي السياق نفسه تطرق كوك إلى إسحاق رابين من خلال تعليقه على ذلك الوزير الذي يقول أنه لا يبالي أن يحتاج إلى تأشيرة ليذهب إلى يهودا والسامرة (رابين هو الوزير الذي قال أثناء ولايته الأولى في رئاسة الحكومة، أنه على استعداد للسفر إلى غوش عتصيون بتأشيرة).

غداة تولّي حكومة الشر عملها عام 92، انتشرت بين أطفال المستوطنات لعبة: «إني أقتل رابين»، فكان الأولاد يقيمون الحواجز والمتاريس ويلقون القبض على الخائن ويطلقون النار عليه. كذلك كان مقبولاً لديهم تجعيد صورة رابين وتمزيقها والدوس عليها وحرقها، كل ذلك دون تدخل من الكبار، وإن حصل، فإنه بالتأكيد ليس لشجب تلك التصرفات. كذلك راجت في حينه الشائعة إن رابين ليس يهودياً أصلاً، وإن جدته كانت أجنبية.

بعد القتل بخمسة أسابيع امتلأت مرة أخرى الساحة التي لم تعد تنتمي إلى ملوك إسرائيل. إذ انعقد فيها ملتقى للصهيونية الدينية. في البدء بدا وكأن هذا الملتقى هو لقاء نقد ذاتي، إلا أن عنوانه سرعان ما تغيّر إلى «من أجل وحدة الشعب» ثم تغير ثانية وأصبح لإحياء ذكرى الرابي نيريه الذي كان واحداً من المبادرين إلى إحداث التعديل في صلاة سلامة الدولة. طبعاً لم يُدع إلى هذا اللقاء لا الرابي أبيطال ولا حركته «ميماد».

إثنان تحدثا في هذا الملتقى. الأول كان الرابي مردخاي الون والثاني هو الرابي مردخاي الياهو، الحاخام الرئيسي السابق. فقال الأول إن الصهيونية الدينية هي يوسف وعلى الجميع أن يسجدوا لحرمته إلا أن الأخوة العلمانيين قذفوا يوسف الجيد إلى البئر. أما الثاني فتفوق على سابقه وقال ليس هناك على الإطلاق طرفا خلاف. هناك طرف واحد طاهر وكل أفعاله خيرة وهو الصهيونية الدينية، وهناك معسكر آخر، وهو ليس طرفاً أبداً، وهو جاهل وفارغ وطائش وبالذات دخلاء، ينبغي أن يسير

في شوارع القدس معتمراً قبعة سوداء ويتلو الصلوات مستغفراً لعل السماء ترحمه على تصرفه الفظيع بحق الصهيونية الدينية.

طبعاً لم ترحم السماء العلمانيين الآثمين، إذ لم يمض نصف عام على الاغتيال حتى كانت شوارع القدس ممتلئة بمنشور يدعو: «إذهب واضرب عملاق». وعملاق هو الأعداء اليهود، إنه إبليس، إنه الآخر، إنه الشيطان الذي لا بد من إبادته. هناك صورتان يتبدى فيهما عملاق، صورة خارجية وصورة داخلية، الصورة الخارجية هي كأن يظهر على شكل أعداء إسرائيل القتلة من هامان إلى فرعون. أما الصورة الداخلية فهي غريزة السوء في داخل اليهودي والتي قد تتنكر على شكل امرأة لإغوائه وإسقاطه في أذرع ليليت وإبليس.

لم تكن الحرب التي استنفر إليها كاملو الإيمان في إسرائيل حرباً خارجية فعلية ولا حرباً داخلية. بل حرب لإبادة عملاق – وهو اليسار الإسرائيلي – عن طريق هزيمته بالانتخابات من خلال التصويت لبيبي نتنياهو. في إطار هذه الحرب ضد اليسار أُشرعت أبواب المخازن والكنوز الفقهية والمدارس الدينية القبالية، وقيل للجمهور الحريدي أن اليسار هو «الدخلاء».

يجدر بنا هنا أن نتوقف قليلاً عند مصطلح «الدخلاء» لنوضح أصوله. بحسب مؤلف كتاب «تيكوني هزوهر»، انضم إلى اليهود أثناء الخروج من مصر خمسة أنواع من «الدخلاء» ليسوا يهوداً، بل عماليق تنكروا كيهود. وعلى هؤلاء العماليق المتنكرين كيهود، والذين هم الصنف الأسوأ في العماليق، ألقى الموروث كل آثام الشعب بدءاً من خطيئة العجل، والحيوانات الدنسة التي تعتبر تجسيداً للعملاق، وهي الكلب والحمار، أُقرنت باليسار، مع الاستشهاد بالمأثور الديني أن: «الفتنة أشد من القتل»، وهذا يعني أن آثام اليسار الذي يدفع الروح إلى الخطأ أكبر من إثم النازيين الذين لم يفعلوا سوى إبادة الجسد.

وفي أكثر المنابر مركزية، مثل افتتاحيات «الوتد المخلص» – لسان

حـال ديغـل هتـوراه – تم إيـراد اقتبـاس مـن: «هحــزون إيـش» يقـول: «إن التوترات الدائمة على الحدود يجب النظر إليها كنعمة من السماء، فقد قال الرب لا يوجد سلام للأشرار». من هذا الكلام فهم ربابنة زماننا أنه لا يوجد خطر يوازي خطر اليسار الذي سيجلب السلام، لذلك على اليمين البقاء في السلطة حتى لا يحل السلام وحتى يبقى العلمانيون الأشرار يُقتلون كجنود على الحدود بحيث لا يتسنى لهم الوقت للتفرغ لضرب الحريديم. والحريديم بالمناسبة لا يقبلون، في الظاهر، وجهة النظر الصهيونية الدينية بما يخص مسألة «بوادر المسيح»، أي أن أيام بدء الخلاص تحل في زماننا هذا وهو زمن الدولة.

لكن قبل انتخابات عام 1996، نشروا في كل العالم الحريدي أننا أمام نهاية الألفية الثانية. وإننا دخلنا في سنوات التسعين الربع الأخير للألفية وهو موعد الخلاص الأخير. وإن هذا الزمان هو حقاً زمان بوادر مجيء المسيح، حيث تسود السفاهة قبل المجيء. ولإثبات هذا جرى إيراد اقتباسات من كتاب «هزوهر» ومن «الغامارا» ومن «هجرا» ومن مصادر عديدة أخرى، وأثبتوا أن من معالم مجيء المسيح هو تسلط «الدخلاء» من أي نوع كان، على شعب إسرائيل، وهذا قائم في عماليق هذا الزمان وهم اليسار.

إن الحريديم الذين لا يعنيهم، ظاهرياً من يتولى الحكم في الدولة الآثمة، جاءهم أمر مقدس للتصويت لصالح من اعترف بالسفاح المحرم. إذ إن مضاجعة امرأة رجل آخر هو سفاح قربى، وحكم من يضاجع امرأة رجل آخر هو بالضبط مثل حكم من يضاجع ابنته أو يضاجع ذكراً أو يضاجع بهيمة. ولا يوجد أي مخرج شرعي يجيز وضع رجل أبيقوري على رأس الدولة، وبالأحرى أن ينطبق هذا على رجل اقترف واحدة من الموبقات الثلاث كان أمراً خطيراً بشكل استثنائي، لأن كل الجمهور المتدين بما في ذلك النساء، كان مطلوباً منه، وفق أسلوب الانتخاب المباشر، أن يعطي صوته لخاطئ. كثير من شيوخنا المبجلين اعتقدوا ذلك إلا أنهم صمتوا. ففي أجواء الحرب ضد يهود اليسار التي عمت الجمهور الحريدي والكثير من ربابنتنا

تم رفض الشريعة الاعتيادية. إلا أن هناك حلاً لكل مشكلة، والحل كانت الفتوى الأكثر إطلاقية وهي الفتوى التي أصدرها الرابي شاخ باعتبار أن حكم اليسار هو عملياً حكم إهدار دم (حكم المطارِد، بكسر الراء)، فبالنسبة إلى عقيدة شاخ فإن حكم من يعارض اليهودية هو حكم من يطارد إسرائيل ويجب ضربه وفق ما تقتضيه الحدود.

إن حكم إهدار الدم هو حكم الشريعة الذي يجيز قتل يهودي دون محاكمة من قبل من يستطيع وقف الاضطهاد. يقول هذا الحكم أن من الأفضل إصابة (المضطهد - بكسر الهاء) بأقل ضرر ممكن لإيقاف الاضطهاد، مثل إصابته في القدم أو اليد، وإذا لم يجدِ ذلك فلا بأس أن يصل الأمر إلى الروح، فالمهم هو إيقاف الاضطهاد. وما هو الاضطهاد في حالتنا! إنها مجرد سلطة اليسار، إن لم يكن مجرد وجوده.

إن حكم إهدار الدم لا ينطلق من تحديد الجريمة، إنما هو الأسلوب العملياتي الشريعي. والميزة الشرعية لهذا الحكم أن من يتصرف بحسبه لا يحتاج إلى محكمة. فما دام هناك اضطهاد فإن ضرب المضطهد يصبح مسموحاً بل مطلوباً. وعليه فإن حكم إهدار الدم ليس هو المحرك بل هو السلاح الشرعي، وهذا ينطبق على حالة يغئال عمير وعلى الرابي شاخ. فلم يكن رابين ولا اليسار يركضون والسكين بيدهم. فالذي يحرك الشريعة إنما هو فكر ثيولوجي معين. فالذي كان وراء تصرف عمير هو الموقف الفكري ممن يسلم أجزاء من أرض إسرائيل للغرباء، وخلف هذا الموقف الفكري تقبع ثيولوجيا قدسية الأرض. أما خلفية الرابي شاخ فهي الموقف الصوفي من اليمين واليسار، حيث يجسد اليسار كل نجاسات العالم.

لقد بدت حسابات الذين يريدون إيقاف التراجع عن الخلاص دقيقة، كما أنها ليست سيئة بشكل عام، وأفعالهم عقلانية من زاوية نهجهم. فيهودا عيصيون، الذي كان إيديولوجي التنظيم السري اليهودي والذي ترأس منذ إطلاق سراحه حركة «حي وكيام»، آمن في حينه أن ضرب مسجد قبة الصخرة -أساس وجودنا- سيثير حرب ياجوج ومأجوج إسلامية. وفي هذه

الحرب سيتحد الشعب وينسى خلافاته. قد ينتهي الأمر بإلقاء قنبلة ذرية على إسرائيل. ولكن بما أن الخلاص الثالث أمر محتم، فإن المسيح سيجيء فوراً، وهذا ما حددته مراجع الموروث الديني بأنه لا بد من حدوث كارثة يفنى فيها بشكل أساسي مجرمو إسرائيل العلمانيون قبل الخلاص. والأمر نفسه آمن به باروخ غولدشتاين الذي اعتقد أن مجزرته ستثير ردوداً عربية قاسية تتغلب على عملية السلام. وعلى المنوال نفسه آمن يغئال عمير أنه بتصفية إسحاق رابين الذي يحظى بشعبية، ستتوقف عملية السلام لأن شمعون بيرس لا يملك القوة الجماهيرية للاستمرار في العملية. وتحققت حساباته.

إلا أن الأمر لا يقتصر على أعمال فردية، إذ توجد في إسرائيل حركة كبيرة ترى الرأي نفسه. فإذا أمعنا النظر بنور الواقع المسيحياني الكبير من خلال زجاجة مسودة بقليل من المعرفة، سنتمكن من الوقوف على حقيقة أن ثمة واقعاً دينياً جديداً في أرض إسرائيل. هذا الواقع الذي يتاخم ديناً جديداً. وقد انصهرت في بوتقة هذا الواقع تيارات دينية متعددة مختلفة ومتناقضة ظاهرياً. وفي داخل بوتقة الصهر هذه المؤلفة من كره الآخر من اليسار ومن الرجاء بخير مسيحياني وشيك، خلقت ثيولوجيات هالاخية قبالية ومفاهيم جديدة، ثيولوجيات حفّزت حركات اجتماعية ودينية، ثيولوجيات تعتبر انقلابية في تاريخ اليهود. لقد خُلق عالمٌ يهودي جديد ثوري. وبعد التغير الذي أصاب المفاهيم، حلت التغيرات في الواقع الاجتماعي، وهي تغيرات غائبة عن العين العلمانية. لقد اجتاز هذا الواقع ثورات عدة. وكنموذج على هذا فقد أصبح ممنوعاً ما كان قبل عقد من الزمن مسموحاً به عند المجتمع الصهيوني الديني مثل الرقص المختلط والأعمال المختلطة وحتى السباحة المختلطة. حتى في التعليم الابتدائي أصبحوا الآن يعزلون الأبناء عن البنات، وأصبح الحرص على العفة عندهم أكثر مما هو موجود لدى الحريديم.

وكذلك المجتمع الحريدي أصابه من التغيرات ما أصابه، فهذا

المجتمع يقدّم نفسه على أنه مجتمع محافظ يعيش وفق موروث الماضي، ولكنه في الواقع كيان جديدة كلية. ففي نهاية القرن التاسع عشر كان هناك فقط 1500 تلميذ مدرسة دينية من يهود لاتفيا البالغين خمسة ملايين. ومن يهود العالم كله الذين بلغوا تسعة عشر مليوناً، كان هناك نحو 3000 تلميذ يشيبا. بينما يوجد الآن في إسرائيل أكثر من 10.000 شخص يقال أنهم تلاميذ يشيبا تمولهم الدولة طيلة حياتهم. فمن الخير، كما يقول الرامبام، أن تحفظ نفسك للعالم القادم، لأيام المسيح. أما مفاهيم الحريديم الثيولوجية فهي أيضاً جديدة وثورية. وحتى الجمهور الحريدي الشرقي شهد ثورة هو الآخر، ولم يكتف بتغيير لباسه واستبداله باللباس الاشكنازي القروسطي فقط، أو تقبله لعالم المدارس الدينية التلمودية التي لم تكن موجودة في الشرق، بل تبدل أيضاً كل عالمه الفكري إلى درجة أصبح لا يشبه بشيء ما كان قائماً في الشرق أو في الغرب قبل مئة أو مائتي عام أو في أيما وقت في الماضي.

هناك من يطلق على حريدي هذا الواقع الديني الجديد الذي بزغ في أرض إسرائيل مصطلح حريدية قومية أو «حرقومي» اختصاراً، أما أنا فأفضل تعبير «حريدي مسيحاني» أو «حرماش»[1] اختصاراً.

---

[1] حريدي مسيحاني: أي الحريدي الذي يؤمن بقدوم المسيح ويقوم بأفعال لاستقدامه.

# الفصل الثاني

## المسألة الصهيونية

وضعت الصهيونية منذ انطلاقتها الديانة اليهودية أمام تحد ديني. وتمثل هذا التحدي في ضرورة الحسم المبدئي لمسألة الصهيونية من حيث تصنيفها الثيولوجي: فهل هي إثم أم هي بر، لا سيما وأنها، بقادتها العلمانيين في أغلبهم، تحاول إيجاد خلاص عملي وبوسائل واقعية تتناقض مع السيناريو التقاليدي للخلاص؟

وتعود جذور الحرماش (الحريدي المسيحاني)، إلى التطورات الثيولوجية التي حصلت في الموقف من الصهيونية.

فعلى السؤال ما هي الصهيونية كانت هناك ثلاث إجابات:

الإجابة الأولى هي الإجابة الحريدية الكلاسيكية: الصهيونية هي إثم خطير، فهي تشكل حنثاً بالعهد بعدم الإتيان بأفعال من أجل جلب المسيح، بل يجب انتظاره بسلبية. فالرب يبعث المسيح من خلال أعمال الإحسان وبوسائل روحية لا بقوة عمل عسكري عالمي استيطاني، وما يضيف إثماً على إثم أن الصهيونية يقودها علمانيون خطاة. وقد تعامل الحريديون مع الملتزمين الذين انساقوا وراء الصهيونية تعاملهم مع من ينساق وراء مسيحانية دجالة. واستخدموا ضدهم، بما فيهم الرابي كوك، السلاح القديم نفسه الذي استخدم ضد أتباع شبتاي بن تسفى في القدس، وهو النبذ. أما النجاحات التي حققتها الصهيونية فقد فسرها الحريديون بأنها امتحان لكاملي الإيمان بإسرائيل وامتحان لنقاء إيمانهم الذي يتعارض مع المسيح

العلماني الكاذب. أما الكوارث التي أصابت اليهود في هذا الزمن، وعلى رأسها كارثة يهود أوروبا، ففسروها بأنها عقاب على آثام هذا الجيل، وعلى رأس هذه الآثام الصهيونية وخروجها على انتظار المسيح.

إن هذا الموقف من الصهيونية باعتبارها خطيئة فظيعة بقي سارياً، على الصعيد المبدئي على الأقل، إلى الجيل الأخير. فإلى ما قبل عقد كان يمكن أن نسمع في الشارع الحريدي، ولا سيما الحريدي اللاتفي[1]، تحفظات على مجرد التطرق لمسألة المسيحانية أو لمسألة قرب نهاية العالم، أما الآن فإن المقاربة التي تعارض الصهيونية باعتبارها مسيحانية دجالة آثمة أصبحت محصورة في الطائفة الحريدية فقط. وحتى هنا حصلت تطورات عميقة سنقف عندها لاحقاً.

بشكل عام، غدا الجمهور الحريدي يعيش الأحاسيس والتصورات المسيحانية وأخذ يعتبر وقتنا الحالي زماناً مسيحانياً، أي زمن قدوم المسيح. كذلك أصبح وعد بلفور يعبّر، من وجهة نظرهم، عن موافقة الأمم على هجرة اليهود الأمر الذي عنى نسخ العهد بعدم الإتيان بجهد لاستقدام المسيح. كما تطور الخطاب من الصهيونية العلمانية، وغدا يصاغ بمقولات مسيحانية قبالية، واختفى الموقف الحريدي الكلاسيكي أو كاد.

المقاربة المبدئية الثانية للمسألة الصهيونية كانت المقاربة الكلاسيكية للصهيونية الدينية التي مثلتها حركة مزراحي بقيادة الرابي راينس. فهذه الحركة اعتبرت أن الصهيونية توفر حلاً عملياً لمحنة اليهود، أي إيجاد ملاذ آمن لهم. لقد كان راينس قلقاً من الزخم المسيحاني ومن الثمن الذي يترتب عليه. وعلى الرغم أن رأيه الشخصي بما يخص الرابطة بين الصهيونية وبين قدوم المسيح لم يكن نهائياً، إلا أنه فضل أن يفصل ما بين الصهيونية وتداعياتها العملية وبين الرؤية المسيحيانية. من هنا كان تأييد حركة مزراحي بقيادته لمشروع أوغندا عام 1903. إذ إنه فضل أن تكون الدولة

---

[1] نسبة إلى لاتفيا.

الواقعة لحل محنة اليهود التي تهدد وجودهم وتخليصهم من المذابح في أوغندا لا في أرض إسرائيل. فالأفضل للأرض المقدسة أن تنتظر مجيء المسيح الذي سيجلب اليهود إليها على ظهر سحابة.

وعندما لم يحالف الحظ مشروع أوغندا وتمركزت الصهيونية على أرض إسرائيل، عارضت الصهيونية الدينية في حينه، بقيادة راينس، أي تطرف سياسي ووقفت إلى جانب أية تسوية ودعمت أي تقسيم لأرض إسرائيل. لذلك تقبل الكثيرون من مزراحي خطة بيل للتقسيم عام 1937، وقرار الأمم المتحدة عام 1947. فبالنسبة إلى حركة مزراحي تنبع قدسية الأرض بقدر ما تخدم غاية إنقاذ النفس، وهو توفير الإمكانية لحياة يهودية وبناء ملاذ آمن ليهود العالم. وكان أي معتقد بقدسية الأرض بما هي كذلك، بحيث يحول دون التسوية مع العرب، أمراً مرفوضاً من قبلهم بوصفه قومية علمانية فارغة. وكانت نظرة مزراحي للقومية التي تقدس الأرض بأنها تتنكّر للقيم اليهودية الأساسية. لقد كانت كل الصهيونية الدينية بشكل عام تقف على يسار مباي وبن غوريون. فقد كان هذا شأن حركة «عهد السلام» وبقية التيارات الصهيونية المعتدلة التي ازدادت قوة الصهيونيين المتدينين فيها.

ولكن بعد قيام الدولة ومع تغير الأجيال ومرور الأعوام، أخذ تحولٌ ما يأخذ مكانه. كان في بادئ الأمر تحوّلاً معتدلاً، إذ أصبح التنازل عن الأرض ممكناً فقط عندما لم يكن ثمة خيار آخر، وهذا التنازل يكون بألم. وساقوا مَثَل العملية الجراحية التي تضطر من خلالها للتخلي عن عضو من الجسم للمحافظة على الجسم كله. فهنا نشهد مغادرة للموقف الأصلي الذي كان يجيز التنازل عن أراضٍ دون أن يصحبه ألم ثيولوجي. وهكذا أخذت الصهيونية الدينية تتبنى، في مسألة الأرض والأمن، موقف خريج آخر من مدرسة فولووجن، وهي المدرسة التي تخرج منها راينس، وهو الرابي سولو بيتشيك، الذي يرى أنه ينبغي علينا في مسألة الحدود والأمن التوجه إلى الأخصائيين كما نتوجه في العملية الجراحية إلى الطبيب. هذا الموقف لا يعتبر التنازل عن الأرض حلاً عملياً صحيحاً بذاته، بل حلاً يُقبل اضطراراً.

ومع ذلك بقيت مسألة الأرض في هذا الموقف محصورة في إطار النقاش البراغماتي، بعيداً عن الجدال المسيحياني.

هذه الصهيونية الدينية الكلاسيكية، الأصلية منها أو تلك الأقل اعتدالاً، اختفت تقريباً في سياق عملية تاريخية مذهلة سنتتبعها في هذا الكتاب. ولكن يمكننا القول أن الوحيد الذي ما زال يفتي، وإن كان بمفهوم معين، على الصعيد السياسي العملي بمسألة الصهيونية والحدود وفق الروحية الثيولوجية القديمة للصهيونية الدينية هو بالذات من وقف خارجها وكافح ضد حركتها السياسية (المفدال) محاولاً إزالتها، أي الرابي عوبادياً يوسف.

على النقيض من الحريديين ويوسف، تعاملت الصهيونية الدينية الكلاسيكية مع العلمانيين قادة الصهيونية كأخوة. واعتبرت فكرهم وأعمالهم الدنيوية مشبعة بالروح اليهودية. وأكثر من ذلك، اعتبرت الصهيونية الدينية، وهي التي تعاملت بإيجابية مع القيم الغربية مثل الديمقراطية والتنوير والمساواة، أن تعاونها مع المشروع الصهيوني يشكل تجسيداً روحانياً لا سيما وأن تلك القيم الغربية تستمد أصولها، من وجهة نظر الصهيونية الدينية، من اليهودية والأنبياء. وعليه فإن تجسيدها الصهيوني الاشتراكي الديمقراطي في أرض إسرائيل إنما هو نوع من إعادة الأمور إلى نصابها.

لقد عرضنا حتى الآن المقاربتين الثيولوجيتين الكلاسيكيتين اللتين كانتا منتشرتين مع بداية الصهيونية. الأولى هي الحريدية التي عمت أجزاء كبيرة من اليهودية الدينية في مطلع القرن، واعتبرت الصهيونية تمرداً على السماء وعلى النبوءة المسيحيانية. والثانية هي الصهيونية الدينية والتي كانت تعبر عن الروح الدينية الآخذة في الانتشار في الأوساط اليهودية قبل الكارثة، والتي اعتبرت أن لا علاقة بين الصهيونية والمسيحيانية، وهذه المدرسة رأت أن القيمة الدينية للصهيونية تعبر عن نفسها بقيم أخرى غير المسيحيانية، مثل إنقاذ الروح وإنقاذ اليهود وحتى إقامة دولة وفق نبوءة الأنبياء: دولة مساواة وإنسانية. فإذاً كانت هناك مقاربتان، الأولى ضد

مسيحيانية وهي التي تمسك بها الحريديون، والثانية لا مسيحيانية التي تمسكت بها الصهيونية الدينية التاريخية.

فجاء الرابي كوك بحل مبدع، وإن كان متناقضاً ومتكلفاً، لمأزق المسألة الصهيونية. فبالنسبة إليه يكمن الخلاص الديني الموعود في تلك التجاوزات السافرة بالذات الموجودة في الصهيونية لأسس الديانة اليهودية. فلولا الخطاة لما كان هناك خلاص.، فهناك دور يلعبه هؤلاء العلمانيون الآثمون مدنسو السبت وخارقو تعاليم الطمث، وهذا الدور له قدسية عالية وشأن مهم في عملية الخلاص. فخطاياهم تتضمن إصلاحاً لإثم التنوير وتنطوي في الوقت ذاته على مهمة مسيحيانية. فالعلمانيون، بالنسبة إلى الرابي كوك، هم حمار المسيح -وكلمة حمار مأخوذة من مادة خام[1] أي هم الحمار الذي يمتطيه المسيح الديني الروحاني. ودور هذا الحمار هو أن يقيم الدولة ثم يأتي المتدينون للسيطرة عليها وإقامة الدولة الروحانية المسيحيانية. والأعمال بغاياتها.

للحمار دور مركزي في التقاليد اليهودية. وامتطاء المسيح للحمار يرمز وفق التقاليد الرمزية إلى إخضاع ما يمثله من قوى، فهو الدابة النجسة التي تمثل الشر وعملاق وإبليس. وتقول التقاليد أن المسيح المنتظر يأتي ممتطياً هذا الحمار، أي تلك المادة الخام وقوى الشر بعد أن تكون قد أخضعت. وهكذا، فالصهيونية، بالنسبة إلى كوك، هي الحمار العلماني الآثم، ولكن الذي ينبغي عليه أيضاً، بآثامه وذنوبه، أن يقيم الدولة التي هي بداية الخلاص. وهذا هو دورها الروحاني المسيحياني الذي تلعبه حتى دون قصد منها.

اجتازت نظرية كوك هذه عدة تعديلات خلال الأعوام التي سيطرت فيها على جمهور الصهيونية الدينية (وعلى المعسكر الديني إلى حد بعيد). والتغيير الجوهري كان التأكيد على أن أرض إسرائيل هي مقياس الخلاص

---

[1] بالعبرية الحمار حمور، ومادة خام حومر، تتشكلان من الأحرف نفسها ومن أصل اشتقاقي واحد حسب النص.

(المزيد من الأرض المزيد من الخلاص والعكس بالعكس). إلا أن أسسها الفكرية كانت قائمة منذ البداية في تعاليم كوك الأب. ليس ثمة شك أبداً أن نظرية إبراهام إسحاق هكوهين كوك هي نظرية قبالية رغم أن أتباعه حاولوا عرضها كنظرية فلسفية. وهي تضرب بجذورها عميقاً في تقاليد واضعي القبالاة. وما حقيقة أنها مكتوبة بلغة بسيطة إلا لأن كوك القبالي كان يؤمن أن الزمان المسيحي قد حل لذا يصبح مستور التوراة واضحاً، وتفيض الينابيع ويتحد الظاهر مع الباطن.

وكما سنرى في سياق الكتاب، فإن نظرية كوك القبالية، من وجهة نظري، أصبحت نظرية هذا العهد.

لقد شعر كوك أن عبء التاريخ يقع على كاهله. وشعر أن نهاية النفي وشيكة. كذلك كان يعتقد أن مهمة الخلاص هي مهمة حركة لشعب يوجد في داخله خطاة كثر، وليست مهمة أفراد ورعين. كان كوك على تمام الاطلاع على الحركة التنويرية وعلى علمانية أغلب الطلائعيين. وقد نظر إلى هذه الحقيقة من خلال ضوء مزدوج. فمن جهة اعتبر وبشكل واضح أن العلمانيين خطاة ومن نطفة بهيمة (بينما الملتزمون هم من نطفة آدمية). ولكن من جهة أخرى، ثمة وظيفة للعلمانية بصفتها خالقة للصهيونية والتي شرعت في إقامة الصرح المادي للخلاص الذي يعتبر التمهيد للخلاص الديني.

وكما أسلفنا، نظر كوك إلى الأمور على ضوء نظرية المسيح الراكب على حمار. فهذا الركوب يجسد إخضاع الحمار لقوة المسيح. فالحمار يمثل المادة والشهوة المادية وغريزة السوء وقوة التفاهة وعملاق وإبليس. وهكذا لا يأتي الخلاص إلا بعد أن يتغلب المسيح على شر العالم وشر الإنسان ويخضع كل الشر له.

حسب كوك، فإن الحمار الإسرائيلي يكون في وضع صعب في المنفى. إذ تكون قوى الجسد والغرائز وقوة الرجل اليهودي ضعيفة هزيلة وخائفة. صحيح أن الرغبة المادية والجسد لا بد أن تخضع للروح اليهودية، لكن لا بد

أولاً من البعث الجسدي لشعب إسرائيل المضطهد في المنفى حتى يكون هنالك ما تخضعه. وفي نظره، فإن المستقبل الذي ينتظر شعب إسرائيل في أرض إسرائيل هو مستقبل قوة جبارة، بينما يشكل واقع المنفى قمعاً للحياة والروح، ولا سيما للنفس اليهودية (هنالك ثلاثة مستويات في اليهودي: النفس الغريزية البهيمية، والروح التي أعلى منها، والحياة اليهودية التي هي جزء من الذات العليا). لذلك شجع الرياضة والأنشطة العسكرية وبقية القوى الطبيعية التي أيقظتها الصهيونية.

كذلك كانت كل الأحداث التي شهدها العالم في وقته تشير، حسب اعتقاده، إلى نهاية المنفى: فالحرب العالمية تقوي المسيح وتبشر بقدومه. وعموماً فإن قوى الحرب وما تفجرها من طاقات ترفع قوة الشعب مثلما حصل في زمن الأنبياء عندما كانت إسرائيل على أرضها، علاوة على أن الحرب توقع ضحايا أبرياء الأمر الذي يقرب الخلاص، إذ إن هؤلاء الأبرياء هم بمنزلة قرابين عن آثام الشعب.

لذلك شعر كوك أن خلاص إسرائيل يجب أن يكون بالمادة والروح، بالجسد والنفس. وقبل أن تسود الروح لا بد أولاً للجسد من أن يستيقظ. والذي يوقظ الجسد، غريزة الامه، المادة الخام، إنما هو الحمار العلماني الذي تنطوي شهواته المادية الأرضية على قوة. وبهذه الطريقة، حسب الخطة الإلهية، يضع جزء من الأئمة العلمانيين طاقتهم، عبر الصهيونية، في خدمة بناء الأساس الأرضي من أجل الشعب (مثل المجرمين البريطانيين الذين أقاموا استراليا)، وهكذا تأتي الدولة المادية كمرحلة أولى في الخلاص. فالصهيونيون العلمانيون، والذين هم حسب كوك مجرمو إسرائيل، لا يقومون بدور فقط، بل إن جزءاً منهم يصلح حاله، وخاصة من أولئك الذين أخذتهم حركة التنوير، فيبتعدون عن الذوبان في «مجتمعاتهم»، ويقتربون من الشعب ومن صالحيه في الوقت الذي يكونون فيه يخدمون الشعب بإقامة الدولة. صحيح أن الصهيونيين العلمانيين خارجون على الدين، إلا أن أفعالهم تصب في خدمته دون رغبة منهم.

وكما قيل، فللشر دور في التقليد اليهودي، إلا أن كوك جدد وسار شوطاً بعيداً في نظريته. فالتقليد اليهودي، بشكل عام، يفهم أن الآية: «وتحب الرب إلهك بكل قلبك» تتوجه إلى غريزتي الإنسان، الطيبة والشريرة، حيث إن الغريزة الرديئة يجب أن تكون أيضاً في خدمة عبادة الرب. إلا أن كوك، بالروح البيولوجية التي سادت في القرن التاسع عشر وبخاصة في ألمانيا، نظر إلى الشعب نظرته إلى شخص واحد. وبهذه الروحية فإن الغريزة الرديئة يمكن نسبها إلى ملايين اليهود غير المتدينين. وحيث إن هناك مهمة للغريزة الرديئة، إذاً هناك مهمة مقدسة متناقضة ظاهراً من وراء خلق أولئك الخطاة وأعمالهم.

إن جزءاً من نظرية كوك التطورية التي وظفها في ثيولوجيا خلق الصهيونية، موجود بشكل عميق في التقليد الموروث. فالفكر الديني اليهودي يقول أن الغاية تتجلى في الخاتمة فقط. ومسألة الخلق تفيدنا هنا كمثل توضيحي. إن خلق العالم، وفق التقليد، كان من أجل الإنسان، الذي خلق في الأخير عندما أصبح كل شيء جاهزاً له وأصبحت كل المخلوقات بما فيها الدنيا والنجسة، والتي خلقت في البدء، مستعدة لخدمته. والشيء نفسه بشأن العالم عموماً والإنسان خصوصاً، فلقد خلقوا من أجل اليهودي الذي لا يظهر إلا بعد أن تكون شعوباً كثيرة قد ظهرت وأصبحت جاهزة له.

لقد نظر كوك إلى الصهيونية من خلال هذا المنظور التطوري في الزمان. فبعد العمل المادي الذي سيتولاه الخطاة وينجزونه، والذي سيصلح من جسد الأمة، تأتي الروح اليهودية محمولة على أكف المتدينين وتسود البلاد ويحل الظهور الشامل للمسيح.

لقد لخصنا نظرية كوك بتفصيل أوسع قليلاً مما فعلناه مع التصورين الدينيين الآخرين للصهيونية، ليس لأن روحه المسيحيانية هي التي هيمنت على أغلبية اليهودية في إسرائيل فحسب، بل أيضاً لأنها تتميز بثلاث خاصيات جوهرية تشكل استمراراً وتطويراً بعيد الأثر للتقليد اليهودي:

خاصيتها الأولى هي في مبناها التطوري، أي نظرية الخلاص على مراحل. صحيح أن كوك يواصل هنا، كما سنلاحظ في الفصل التالي، درب من سبقه في المقاربة الغائية للإصلاح الذي يجلب الخلاص، إلا أن كوك، وعلى خلاف من سبقه لا يركز على الأعمال الدينية المشبعة بأسرار الغايات، بل يضع تأكيده على الأعمال التاريخية الواقعية التي ستجلب خطوة خطوة، الخلاص الذي بدأت تباشيره بالفعل.

الخاصية الثانية هي ذلك التطبيق المثير والخلاق والمتناقض للمفاهيم الرمزية التي فهمت بها قبالاة الـ «الآري»[1] الخلق الإلهي، على الواقع الحقيقي. فمن هذا التطبيق تمت نظرية كوك حول الصهيونية.

أما الخاصية الثالثة وهي الأكثر أهمية فهي نظرية الخلاص عبر الخطيئة. إن لهذه النظرية أبعاداً هائلة حتى حين يكون الذين يؤمنون بها قلة، فما بالك حين تصبح أغلبية اليهود في إسرائيل يؤمنون بثيولوجيا الخلاص عبر الخطيئة. وهذا هو الحال الآن، وهنا مكمن خطورة هذه النظرية.

لاح في السنوات التي سبقت قيام الدولة وفي السنوات الأولى من عمرها، إن لواء النصر قد عقد للتيارين الأوليين غير المسيحانيين، الحريدي الضد مسيحاني الذي اعتبر الصهيونية حركة مسيحانية علمانية مرفوضة دينياً، والصهيوني الديني بروحية راينس «المزراحي» والكيبوتس الديني الذي أسهم بالبناء الواقعي للدولة من خلال تغييب وإبعاد الآمال المسيحانية. وقد تميز هذا التيار كما قلنا بمقاربة براغماتية للواقع وبموقف إيجابي، ولربما إيجابي جداً أحياناً، من الحداثة والاشتراكية والديمقراطية ومن روح «التصبار»[2] الطلائعي العلماني التي بدا أنها تسود البلد، كل ذلك من خلال الارتكاز على جذور يهودية وعاطفة دينية.

---

[1] هذا هو اللقب الذي يطلق على الرابي اسحاق لوريا الأشكنازي، أحد أهم شيوخ القبالاة، وهو اختصار: مولانا وشيخنا اسحاق.

[2] تصبار: يهودي من مواليد فلسطين.

أما التيار الثالث، تيار الرابي كوك، فقد كان هامشياً وضعيفاً. فقد نبذه الحريديون بصفته مسيحاً دجالاً، في حين بقيت الصهيونية الدينية تكن له التقدير، ولكن عن بعد.

أقام كوك حركة خاصة به وهي «علم القدس»، وقد تمايزت هذه الحركة عن أغودات يسرائيل الحريدية وعن المزراحي وعن الصهيونية الدينية وعن الصهيونية بشكل عام. نقش كوك القدس على علمه، أي، حسب وجهة نظره، الروح اليهودية التي ستستولي على المخلوق العلماني الذي صنعه خطاة إسرائيل وتقدسه.

سنتتبع في هذا الكتاب مسيرة سيطرة إجابة كوك القباليسة المسيحيانية على أغلبية اليهودية الدينية تقريباً في وقتنا الحالي. وهذا الأمر، من وجهة نظري، هو بمنزلة ابتلاع ثقافة لثقافة أخرى.

من الجدير أن ننهي هذا الفصل بقليل من النبع المقدس للرابي كوك:

«مثلما لا يمكن صنع النبيذ بدون خمائر، كذلك لا يمكن أن يكون هناك عالم بدون خطاة. ومثلما تحافظ الخمائر على النبيذ وتصونه، كذلك تؤدي إرادة الأشرار الفظة إلى حفظ وصيانة رفاه حياة كل الناس العاديين والأتقياء.

وعندما تقل الخمائر ويبقى النبيذ بدون خمائره، فإنه يكون عرضة للخراب والحموضة. لقد أوهن النفي قوة الحياة عند الأمة، وخمائرنا قلت كثيراً لدرجة تهدد وجود الأمة بالذات.

إن عودة إسرائيل إلى أرضه هو حدث حتمي وسيخلق خمائره - الآثمة والمجدفين قبل مجيء المسيح - التي ذكرها يثير كل قلب، هؤلاء هم العناصر العكرة التي بها يتشكل الكيان النقي والسعيد. ونهاية الأمر هو رسوب الخمائر في قعر الدن».

إذاً، حسب إبراهام إسحاق هكوهين كوك، ثمة فرق شاسع داخل الشعب بين التقاة وبين العلمانيين الذين يمثلون الخمائر. ولكن لهؤلاء الخطاة كما للأجانب أيضاً، رسالة تاريخية. وهذه المهمة المناطة بالعلمانيين،

على حد سيناريو كوك الثيولوجي التاريخي، لا بد أن تأخذ مكانها وفق الترتيب التطوري الصحيح، الذي يفترض أن تأتي المادة الخام، والتي هي من نطفة البهيمية، زمانياً قبل الطهارة الدينية وقبل الروح التي هي من نطفة الإنسان، وتعطر العالم بكدحها قبل أن تستقر في قعر الدن.

«يجب أن يسير ترتيب الخلاص وبعث الأمة في أرض إسرائيل وفق ترتيب النبوءة: «وزرعت بيت إسرائيل وبيت يهودا»، «زرع الإنسان لوحده وزرع البهيمة لوحده». إن المجيء الثالث قد أزف. فها هو زرع البهيمة يظهر أمام عيوننا، لكنه لن يسير إلى الكمال إلا بواسطة زرع الإنسان، الذي سيفيض بنور الرب العالي على الأمة وعلى العالم».

# الفصل الثالث

## موجز تاريخ المسيحيانية

لو سئل يهودي عادي، إن كان يوجد شخص مثل هذا، سواء كان مؤمناً أم لا، عما يعتقد أنه سيحصل في أيام المسيح، لكانت إجابته في الغالب الأعم عبارة عن نبوءات يوتوبية حيث ينزل الهيكل جاهزاً من السماء والأموات يبعثون إلى الحياة، ويتبدل العالم إلى الخير المطلق.

أما في الموروث اليهودي فإن هناك اشتراطات محددة للنبوءة المسيحيانية. وحتى نفهم اليقظة المسيحيانية في وقتنا لا بد لنا من الوقوف على هذه الاشتراطات.

لقد وضع الرامبام، النسر الكبير وأكبر مجتهدي إسرائيل، المذهب المضيّق، أو الذي يبدو كذلك ظاهرياً على الأقل. فبالنسبة إليه فإن الفرق بين أيامه وأيام المسيح ينحصر في أمرين وهما استعباد إسرائيل وجمع الشتات. أي أن الأمرين اللذين سيتغيران في أيام المسيح هما انتهاء استعباد إسرائيل الذي يعني عودة اليهودية للاستقلال السياسي وإنجاز جمع الشتات، أي عودة اليهود إلى صهيون. إذاً، وحسب الرامبام، فإن المسيح لا بد أن يكون قد حل بالفعل. فالعهود التي قطعت للشعب قد تحققت كلها بالصهيونية وبقيام دولة إسرائيل.

لقد عرضنا في الفصل السابق ثلاث استجابات على الصهيونية وهي الاستجابة الحريدية والاستجابة الصهيونية الدينية والاستجابة الكوكية - نسبة إلى كوك- المسيحيانية. فبقيت استجابة أخرى غائبة، وهي تلك التي

تستند إلى الرامبام والتي ترى أن المسيح قد جاء بالفعل، ودافيد بن غوريون اسمه.

صحيح أن الرامبام قد اشترط في المسيح أن يكون اليهودي الأكثر صلاحاً في زمانه، غير أن حيازة بن غوريون للشرط الآخر، شرط المسيح الناجح، يتمتع بمغزى ثيولوجي بعيد الأثر، إذ لعل الأمر يتعلق بمسيح خفي..

تتمتع نظرية أن المسيح قد جاء بالفعل بأساس ديني صلد. ورغم أن هذا المذهب لم يفز بصدى على المستوى الشعبي مع أنه يتمتع بأسس هلاخية صلبة، إلا أنه مع ذلك وجد قلوباً تنبض به، وقد انتشر هذا الرأي بشكل خاص عند الحركة ذات الاسم اللطيف «بو علي يسرائيل». وهي حركة حريدية أقامت مستوطنات زراعية تسودها الروح المسيحانية.

سنتوقف طويلاً عند المعاني بعيدة الأثر المترتبة على حقيقة وكأن المضمون الإيجابي لرؤية الرامبام قد تجسد بشكل تام تقريباً في دولة إسرائيل المستقلة وفي الهجرة بقيادة العلمانيين. ولكن علينا في غضون ذلك أن ننتبه إلى حقيقة أن الرامبام حاول قنونة رؤياه المسيحانية في الاتجاه العقلاني الواقعي التاريخي، وقال أن العالم سيبقى سائراً كما هو، وأن الهالاخاه كما نعرفها، ستواصل السيطرة على السماء، وقال إن الأقوال مثل «يربض النمر مع الجدي» ليست إلا أمثلة لا نعرف تفسيرها، وجوهر الأمر أن العالم سيبقى على نهجه الحالي حتى بعد مجيء المسيح: «لا تتوق إسرائيل لأيام المسيح من أجل السيادة على الأجانب، بل من أجل الانشغال بالتوراة والحكمة». أما بعث الموتى، وهو جزء أساسي في مذهبه، فيحدده الرامبام في نقطة زمانية غير محددة، وبمعزل عن مجيء المسيح. وستكون حياة الموتى المبعوثين طويلة ولكن ليست أبدية، بل ستكون بحدود 120 سنة، وبعد موتهم الثاني فقط يكون الخير المطلق في العالم الآخر، حيث يكون الوجود الروحاني أبدياً وحيث يقوم القيوم بذاته بدراسة التوراة. وحتى المسيح نفسه، الذي لا صلة له ببعث الموتى حسب

الرامبام، لن يحيا إلى الأبد، بل إنه سيموت وسيملك من بعده ابنه وابن ابنه كما هو دارج في سلالة آل داود. إنه عالم واقعي من الاستقلال السياسي.

لقد وضع الرامبام تعريفين فقهيين تاريخيين، الأول هو: «بمنزلة المسيح». أن الرامبام يؤسس هنا ويجذر تقليداً طويلاً يزعم أنه يوجد في كل جيل من يستحق أن يكون مسيحاً إنّ حل زمن الخلاص. والذي «بمنزلة مسيح»، وفق هذا التقليد، هو اليهودي الصالح في وقته ومن سلالة داود ويفرض الشريعة على اليهود.

أما التعريف الثاني فهو «المسيح القائم»، وهو الشخص الذي فعل وأفلح، أي حارب حروب إسرائيل وأنجز الاستقلال السياسي وأنجز هجرة اليهود إلى إسرائيل وأنجز إقامة الهيكل. وحسب الرامبام، ليس من المفترض في المسيح أن يجترح معجزات أو يقوم بخوارق أو بعث موتى، بل يكفي منه أن يفعل وينجح في الحياة الواقعية.

يبدو أن الرامبام كان يتقصد من وراء نظريته تلك أن يقلل من خطر ظهور مسيحيانية دجالة، لا سيما أنه قامت في زمانه في اليمن حركة مسيحيانية شكلت تهديداً على اليهود هناك، وكان في مركزها يهودي جاهل يقوم بالمعجزات، غير أن مذهب الرامبام الذي بدا في الظاهر وكأنه مضيِّق، أشرع أبواباً أمام المسيحيانية.

النافذة الأولى التي فتحها ومن خلالها عبر الكثيرون ممن رأوا في أنفسهم المسيح بالقوة طوال تاريخ اليهود كانت نظرية «بمنزلة مسيح». صحيح أن هذه النظرية أغلقت الباب في وجه صانع المعجزات الجاهل، إلا أنها فتحت الأبواب على مصاريعها أمام كل يهودي يعتقد أنه كبير زمانه ويفرض الشريعة على اليهود (لا سيما أنه يمكن تفسير كلمة يفرض بأنها تعني يؤثر فقط) للإدعاء أنه هو «بمنزلة مسيح» وسيكون هو المسيح إن حان الحين. من هذه البوابة، بوابة بمنزلة مسيح دخلت سلسلة ذهبية طويلة شملت الآري (سيدنا وشيخنا يوسف) والرابي حاييم فيكالي وبعل شمطوف

والرابي نحمان من براسلافيا والرابي ميلوفيتش وعوزي مشولام وكثيرين آخرين جيدين سنلتقي بهم.

أما النافذة الثانية أمام المسيحيانية والتي لم تتوضح بجلاء تام إلا مع الصهيونية ومع قيام دولة إسرائيل فهي نافذة «المسيح الواقعي» فما دام النجاح هو المقياس الوحيد حسب هذه الرؤية، فمن الواجب إذاً أن نحاول أولاً، وثانياً إذا حان الحين فليس ثمة احتمال للفشل. وهكذا فقد تحققت النبوءة المسيحيانية بالقيام الفعلي غير الإعجازي لدولة إسرائيل وباستيعابها للهجرة. صحيح أن هذا التحقيق تم على نحو إشكالي من الناحية الدينية لأنه تم بيد خطاة لا ينطبق عليهم الحد الأسبق وهو «بمنزلة مسيح»، إلا أن الوضع هو وضع مسيحياني (وبالمناسبة، يبدو أنه مع مرور الأيام ومع اتضاح قوة قرارات بن غوريون بما يخص الدين والدولة وإعفائه طلاب المدارس الدينية من الخدمة في الجيش، وإقامة الدين في إسرائيل، أنه لربما يستحق اللقب الذي ينقصه وهو «بمنزلة مسيح»). أو ليس (المسيح القائم) الذي بدا وكأنه قائم فعلاً، قد عمل وأفلح وأقام دولة واستوعب الشتات. إلا أن تعريف «بمنزلة مسيح» بدا بأنه لا ينطبق على بن غوريون. إلا أن حقيقة فرضه اليهودية على شعب إسرائيل من خلال قراراته الخاصة بقضايا الدين والدولة تعوض عليه عن الشرط الذي ينقصه).

لقد أبدى الرامبام جسارة في وضعه اجتهاداً يتعارض مع الأسطورة الفانتازية القبالية. وكان لموقفه هذا قوة تأثيرية هائلة، إلا أنه لم يكن الوحيد في الساحة. فإلى جانبه كان هناك دوماً وما يزال يوجد القطب الآخر. في هذا القطب يتم التأكيد على الخلاص ومعجزاته وعجائبه سوية مع التأكيد على الدمار والكوارث التي يأتي الخلاص من رحمها ويتحقق من خلالها.

إن الأسطورة والنبوءة المسيحيتين الضد رامبامية[1] لهما جذور في الأنبياء وفي الكثير من المراجع الدينية، ووجدتا دعماً وتوسعا في نظرية

---

[1] ضد نظرية الرامبام.

السر القبالية بفروعها المتنوعة التي بدأت في الازدهار والهيمنة على الوعي اليهودي من وقت الرامبام فصاعداً.

إن الصورة التي تقدمها «القصص» وشريعة السر ليست متجانسة. فهكذا يوجد فيها على سبيل المثال وصفٌ للمسيح وقد مات ووضع في جنة عدن ثم يعود. وهناك من أتباع القبالاة من يعتقد أن التوراة وأحكامها تتبدل، بينما الهالاخاة تبقى نافذة إلى الأبد، غير أن المبدأ يقوم على حدث لا تاريخي تسبقه كارثة رهيبة. وهذا الوصف ينطوي على عداء كبير إزاء خطاة إسرائيل الذين من المفترض بهم السيطرة والعلو قبل الخلاص النهائي وأن يقضوا خلاله. وهنا ثمة تأكيد على الكوارث التي تسبق الخلاص والتي تدعى باسم «مخاض المسيح»[1]، وعلى الفناء الذي يقضي خلاله أغلب إسرائيل والكثير من الأجانب. وحتى تتم النجاة من الفناء ومن الكوارث لا بد من الانكباب على التوراة أو على توراة السر وهو الأفضل، وقد قال الكثير من شيوخ القبالاة أن عذابات النصيين[2] ستكون وفق النص، أما عذابات أصحاب السر[3] فتكون وفق السر فقط، أي عذابات روحية فقط.

إن الثنائية بين اجتهاد الرامبام المضيِّق وبين نظرية القصص[4] والقبالاة الموسعة تتعايش أحياناً في الوقت نفسه وفي المكان نفسه وحتى في الوسط نفسه. فهكذا، مثلاً، تمسك حركة حاباد في أيامنا بنظرية الرامبام بيد لكي تقول أن الرابي ملوبيبتش هو «بمنزلة مسيح» بما أنه هو صالح العصر العاطل عن المعجزات وفق رؤية الرامبام، وتمسك بيدها الأخرى

---

[1] مخاض المسيح: هي الآلام والكوارث التي تسبق مجيء المسيح المخلص. -م-

[2] النصيون: أو الحرفيون: أي المتمسكين بنص التوراة حسب ظاهره وبحرفيته. -م-

[3] أصحاب السر: أو الصوفيون، أي الذين لا يأخذون التوراة حسب نصها الظاهر وإنما بتأويل نصوصها تأويلاً روحياً صوفياً -م-

[4] القصص: ترجمة لكلمة «اغاداة»، وهي ما توارث من قصص وحكايا عن ابطال وحكماء إسرائيل الأولين، وتحتل مكانة دينية لا تقل عن التوراة. يترجمها البعض بكلمة «أسطورة»، وهي الترجمة الحرفية للكلمة. لكني اثرت كلمة «القصص» ترجمة لها، وذلك لما تحمله كلمة الأسطورة من إيحاءات ودلالات وما اصبحت تدل عليه تاريخياً بحيث قد لا تدل على المعنى الأصلي المقصود من كلمة «اغاداة» العبرية -م-.

بالقصص الضد رامبامبية لكي تقرر ما الذي سيحصل بعد الخلاص وأية معجزات عجيبة في انتظارنا وكم هي بعيدة عن الواقع الملموس في أيامنا.

إن الثنائية والتوتر ما بين النبوءة المسيحيانية التاريخية غير الكوارثية والتي لا تفترض تبدلاً في العالم وبين الرؤيا القصصية[1] التي تقلب الأكوان كان قائماً مع بداية الحلم المسيحياني والوعد المسيحياني الذي أطلقه الأنبياء في أواخر الهيكل الأول والسبي البابلي. وهذه الرؤيا المسيحيانية لها، من أساسها، جانبان: جانب المسيرة التاريخية التي من خلالها تستعيد إسرائيل المنفية استقلالها، وجانب رؤيوي كارثي لنهاية التاريخ.

لسنا معنيين هنا بتتبع مسار تطور الفكرة المسيحيانية في إسرائيل، وما يعنينا هو الوقوف وباختصار شديد عند محطاتها الرئيسية وبخاصة عند الشكل الذي اتخذته وحافظت على نفسها به في تصور وقلوب المؤمنين بها خلال الألف الأخيرة وصولاً إلى أيامنا الحالية. وسنسهب في فصول لاحقة في قسم كبير من نقاط تلك الفكرة.

إن جلاء تاريخ الفكرة المسيحيانية مهم إذا أردنا أن نفهم ما يحدث لنا في وقتنا الحالي، لا سيما أن هذا التاريخ لم يعرض دائماً بالشكل الصحيح.

تعود جذور الفكرة المسيحيانية إلى أواخر أيام الهيكل والسبي البابلي. وتنطوي هذه الفكرة في جوهرها على توقع مزدوج: توقع عملي لنهاية فترة النفي وعودة الشعب إلى صهيون وإعادة الاستقلال لبيت داود، وتوقع روحاني يتمثل في تغيير مطلق في أنظمة الزمان والنظام الكوني تغيراً تتبدل به مفاهيم الموت والعمل وحتى الهالاخاة ذاتها، وهو تغير يقترب من نهاية الكون. وحسب تصور الفكرة المسيحيانية يسبق هذا التبدل الراديكالي إلى الخير وقت كارثي.

عموماً، وعلى الرغم أن قوة الرؤيا الكوارثية كان قائماً في الفكرة مع منطلقها، إلا أن المبشرين بها كانوا يكثرون من التأكيد على الوعد الواقعي.

---

[1] الرؤيا القصصية: اي الرؤيا التي تتنبأ بها القصص. وبصدد كلمة قصص انظر الهامش السابق (4).-م-

في أثناء الهيكل الثاني، ومع الالتقاء مع الهيلينية وتشكل فكرة العالم الآخر، تعاظمت النزعات التاريخية والكوارثية التي تنطوي عليها النبوءة المسيحيانية (وإن بقيت حتى ذلك الوقت ضمن حدود سيناريوهات عملية)، وأعتقد أن النزعات الكوارثية تغذت مما كان في قلوب المؤمنين من إحساس بالفجوة القائمة ما بين تفاصيل الواقع والتي انسجمت مع الغاية المرجوة من حيث قيام الهيكل ووجود يهودي مزدهر، وما بين غياب الاستقلال السياسي الفعلي والذي كان تحت الحكم الهليني. أضف إلى هذا أنه ساد في إسرائيل في ذلك الحين وضع ثقافي بعيد كل البعد عن الحلم المسيحياني على الصعيدين المادي والروحي، حيث كان أغلب الشعب واقعاً وبشكل كبير تحت تأثير الثقافة الهيلينية ولم يكن يميل إلى الدين.

إلا أن الحلم، كما قلنا، لم يتنازل أبداً عن تجسيده الواقعي، بل بقي موجوداً في لا وعي اليهودية كما بقي موجوداً أيضاً في الكتب الخارجية وكذلك في المسيحية في بداياتها عندما كانت هي الأخرى تأمل بعودة فعلية لعيسى على الأرض. إن هذا الرجاء، الذي يدعى فريسية، جرى رفضه بعد ثلاثمائة عام باعتباره لا نصراني، إلا أنه واصل في الخفقان في القلوب، وبخاصة عند البروتستانتية. وكما قال البرت شفايتسر: ليست المسيحية كلها إلا رفضاً للفريسية، أي رفض العودة الفعلية للمسيح.

بالتأكيد لم تتنازل اليهودية عن الحلم الواقعي لعودة الملكوت الأعلى إلى الأرض، واعتبرت روحية شقيقتها الصغرى استصغاراً وكفراً بقدرة الرب. وفي كلتا الحركتين التاريخيتين الكبيرتين اللتين قامتا على أرض إسرائيل في زمن البيت الثاني كان ثمة دور للأرواح المسيحيانية.

فهكذا هو الأمر في تمرد المكابيين الذي اعتبر حرباً أهلية مقدسة ضد اليهود الذين انساقوا مع اليونان. وكان الرجاء أن يعود المُلك إلى نسل داود بعد هذه الحرب. والشيء نفسه بالنسبة إلى التمرد الذي أسفر عن خراب الهيكل، ذاك التمرد الذي تبنى به أعضاء مجموعات السيكاريم - الحمر- (متعصبي الاستقلال السياسي) أساليب الحرب الأهلية والإرهاب

اليهودي لفرض نهجهم الذي هو أيضاً يحمل في طياته أملاً مسيحيانياً لإعادة مملكة بيت داود إلى إسرائيل.

من هذا الخراب الذي جلبه التمرد نجا الرابي يوحنان بن زكاي بأعجوبة وهو في طريقه لإقامة «الفهم والحكمة». هرب بن زكاي من القدس الثائرة في عربة موتى متظاهراً بأنه ميت.

لقد حبذ بن زكاي الأساس الروحاني وبذل جهده لقمع الميول المسيحيانية الواقعية المستعدة للمجازفة بالكوارث.

بعد كارثة الخراب، توقعت القصص اليهودية أن يأتي المسيح على الفور. إذ إن التلمود يقرر أن المسيح ولد في اليوم الذي خرب فيه البيت. ولأن الخلاص تلكأ في المجيء، أصبح يوم التاسع من آب في التقليد اليهودي هو تاريخ مولد المسيح. ولذلك، على سبيل المثال، ادعى شبتاي بين تسفي أنه ولد في التاسع من آب ليثبت أنه المسيح (كذلك وضع جرشوم شالوم تاريخ التاسع من آب كتاريخ انتهائه من الكتاب عن شبتاي).

إلا أن الغاية الحقيقية من هذه الرسالة هي القول أن المسيح ولد بالفعل مع الخراب، وعليه فإن مجيئه وشيك. وبالفعل برزت حركة مسيحية واسعة بعد الخراب بجيلين (وسنرى أن لهذا الإيقاع الزمني المؤلف من جيلين تناظراً كبيراً طوال التاريخ اليهودي). قاد هذه الحركة الرابي عكيفا، وهو من التائبين. ومثله مثل بولس الذي انتقل من اضطهاد المسيحيين إلى قياداتهم، كذلك تحوّل الرابي عكيفاً من باغض متطرف لتلامذة الحاخامات الذين أراد، عندما كان من العامة، أن يعضهم كالحمار، ليصبح أحد قادة حركة الشبيبة المتدينة. وقد بشر الرابي عكيفا في حلقته بالانعزالية والمادية في المسائل العامة وبقضايا الرجل والمرأة (هو نفسه قال أن الزواج بمثل صعوبة شق البحر، وهجر زوجته راحيل لفترة جيل كامل كان خلالها ينام عند مريديه). وكان معارضوه يقولون له أن الشعر سينبت على كف يده ويشطأ العشب على ذقنه قبل مجيء المسيح. وهذا ما حصل فعلاً.

في أجواء هذه الحلقة ازدهرت النظريات المسيحيانية، ومسح الرابي

عكيفا باركوخبا مسيحاً بإعلانه أنه: «درب النجم في يعقوب»، فقادا معاً، باركوخبا والرابي عكيفا، حركة تمرد مسلحة أنزلت خراباً على الشعب القاطن في صهيون واسفرت عن نفي استمر 2000 عام.

أطلق التقليد اليهودي على باركوخبا اسم «كوزبيا»[1] (وقد يكون هذا هو اسمه الحقيقي) وحمله وآثامه تبعة الأحداث التي حصلت لإسرائيل، متجاهلاً السبب الحقيقي للأحداث بإبقائه الرابي عكيفا كبيراً لإسرائيل. وقد أغفل التقليد مسؤولية عكيفا التاريخية على التمرد المسيحياني. هذه النزعة ستصبح، كما سنرى في فصل لاحق، نهجاً رئيسياً في الذاكرة اليهودية بتجاهل الثمن الباهظ للمسيحيانية الواقعية واعتاق الربابنه، وهم المسببون الحقيقيون، من مسؤولية الأحداث.

أبقى الموروث اليهودي على الفكرة المسيحيانية في حالة تجميد معينة منذ المحاولة المسيحيانية لتمليك باركوخبا حتى الحروب الصليبية. في هذه الغضون حينما كانت ما تزال اليهودية تلعق جراحها من الشتات والدمار الذي أصابها وتلاشي الآمال بنت اليهودية عالم كتبها.

في هذا العالم المؤلف من التلمود والقصص واصل الحلم المسيحياني في الحياة، ولكن بصفته أسطورة وأملاً، دونما أية محاولة فعلية تاريخية دنيوية. وبدا أن وظيفة اليهود في جلب المسيح لا تتعدى المحافظة على الشعائر والتعلم والرجاء السلبي.

في القصص كان واضحاً أن المسيح الذي سيأتي بعد أن يكون قد أخضع الحمار – الشهوة المادية – سيقوم بتغيير العالم تغييراً شاملاً، إلا أن الطريق لتحقيق هذا التوقع كان مسدوداً. لقد هزت الحملات الصليبية الوضع اليهودي. فأولاً بدأت بها ألف سنة من ملاحقة اليهود في العالم النصراني، وثانياً، وبمعزل عن ذلك ظاهرياً، وبازدياد التوتر الديني الإسلامي المسيحي، بدأت الملاحقات أيضاً في العالم الإسلامي، وثالثاً لم

---

[1] الكذاب.

يستطع اليهود البقاء غير مكترثين إزاء حركة مسيحيانية نصرانية واقعية وجهتها أرض إسرائيل والقدس.

في فترة بداية الألف الثاني وبعد اندلاع الحملات الصليبية وملاحقة اليهود، انبعثت حركات مسيحيانية عديدة في العالم اليهودي، وكانت كلها، من اليمن إلى صقلية، ذات طابع محلي. وسوية مع الحالة البندولية التي كان اليهود يعيشونها حيث كانوا ينتقلون من ملاحقة إلى إزدهار في إسبانيا، وليس بها فقط، بزغت شمس اتجاهين روحانيين ثيولوجيين، الأول هو الحركة الفلسفية التي كان الرامبام كبير ممثليها، والاتجاه الثاني كان صعود نجم القبالاة.

كما قلنا آنفاً، فقد ضيق الرامبام، ولو ظاهرياً، الأسطورة المسيحانية تضييقاً كبيراً فتجاهل بشكل كامل تقريباً الرؤيا الكوارثية وما يلحقها من ثورة إعجازية، وذلك من خلال صراعه ضد الآمال التي تتوقع أن تتغير الهاخلاة مع تغير الواقع المسيحياني. وبدلاً من كل هذا أعاد الرامبام المسيح إلى التاريخ وأعطاه تعريفاً هالاخياً واضحاً وسيناريو عمل - إذ إن الرامبام عبَّر عن تجاربه القاسية في الاضطهاد الديني ليس بالقصص بل بأحكام دينية صارمة ضد الأجانب (جزء منها سنراه في الفصل السابع) وأغلبيتها سيوضع موضع التنفيذ عندما يتفذ الإسرائيليون، أي في زمن المسيح وسيادة إسرائيل.

رغم معارضة الرامبام الصريحة لتحديد زمن الخلاص، إلا أنه منح الجالية اليمنية الهزيلة الزمان الأخير حسب رأيه، وهو جيلان بعد زمانه (وهو الإيقاع نفسه الذي سار عليه الرامبان والرابي بحيياي والعديد من حسبة النهاية: بعد جيلين بشكل أكيد).

إن عالم القبالاة الذي بزغ مع عالم الفلسفة وانتصر عليها في الساحة اليهودية نصراً نهائياً، ناضل بشكل آخر بمسألة الشتات والمسيح. فقد كانت القبالاة السابقة والتي تختلف عن القبالاة المتأخرة، قليلة الانشغال عموماً بالمنفى والمسيح. ولكنها كانت تحمل في أحشائها قوة

مسيحيانية وذلك من خلال انشغالها في سر العالم. لقد بدأ شيوخ القبالاة يقبضون في أيديهم على قوة كلية القدرة بصفتهم عارفين سر التاريخ السحري وعارفين صور تجلّي الرب فيه. ومع تزايد المشاق والملاحقات في العالم الخارجي أخذت هذه القوى الرمزية الخبيئة تصبح ذات أهمية. وأصبحت لهذه القوة الغامضة التي راكمها اليهود المعذبون في كتبهم القبالية قيمة استعمالية عند الحركات المسيحيانية، لأن مجرد فهم السر الذي يبدل أنظمة الكون ينطوي على قوة مسيحيانية. وكما هو مفهوم، فلقد دعمت القصص المسيحيانية حكمة المخفي في المقاربة الموسّعة والتي ترى ضرورة حدوث الكارثة الكونية قبل الخلاص وتغيير وضع العالم بعده، وذلك من خلال تأكيدها على انتقام المسيح من الأجانب. وبدأت القبالاة في تطوير موقفها من اختيار إسرائيل كشعب مختار يحمل جوهراً يختلف نوعياً عن الأجنبي الشيطاني الأدنى، والذي هو أقرب إلى الحيوان ويقوم وجوده على الخطيئة. وليس عبثاً إن كان من بين مؤسسي القبالاة الرابي اليعيزر الذي قتلت زوجته وأولاده في إحدى المذابح التي وقعت في وادي الراين بعد الحملة الصليبية الثانية. إلا أن وعيد القبالاة لم يقتصر على الأجانب، بل أضاف إليهم الإسرائيليين المتعاونين مع دناسة الأجانب والدهماء وعماليق المتنكرين كإسرائيليين الحاملين لكل آثام إسرائيل الصالحة، بدءاً من العجل حتى أيامنا، وهؤلاء الأشرار هم الذين سيسودون على الشعب قبل مجيء المسيح الذي، كما هو مفهوم، سيفنيهم تماماً.

بعد الطرد من إسبانيا بجيلين بزغت قبالاة الآري[1]. كانت المسيحيانية قد همدت قليلاً في ذروة ازدهار اليهودية في إسبانيا، إلا أن الصورة تغيرت بعد الخراب الذي حل بها وهي التي كانت الجالية الأكثر رفاهية من بين الشتات اليهودي. فتزايد العمل بكتاب الزوهر وبكتاب القبالاة الأول مصحوباً بتزايد «العثور» على كتابات واكتشافات الهية.

---

[1] آري: انظر هامش سابق. –م–

وسريعاً ما نبتت القبالاة الجديدة، قبالاة الآري وهي قبالاة مسيحيانية، واحتلت خلال وقت وجيز موقع الثيولوجيا الأكثر أهمية في اليهودية.

تحتل مسألة المنفى موقعاً مركزياً في تعاليم الآري. فبالنسبة إليه، هناك سر صوفي وبعيد الغور والمغزى وراء تشتيت إسرائيل بين الأجانب، فالعالم كله قائم في حالة نفي. ويقوم سر الخليقة من الأساس في الشتات، حيث نفى الرب نفسه إلى داخل نفسه -قلص حيزه- لكي يوفر حيزاً للمخلوقات. في هذا الفراغ - الرشيمو - الذي نجم عن ذلك، صُبَّت أوانٍ مادية لكي تستقبل فيض النور العلوي، غير أن بعض الأواني تهشَّمت في سياق الخلق لعدم قدرتها على استيعاب الفيض. وبسبب هذا التهشم خرج الكون عن ناموسه فهبطت العوالم التي خُلِقت من عليائها، ولم يبق في الأواني المهشمة إلا ومضات من النور الإلهي. وهذا هو النفي الصوفي. وما جوهر كل التاريخ منذ تهشم الأواني إلا محاولة ترميمها. وقد بدأ الرب ذلك بحزمة ضوء أرسلها من عليائه الطاهرة وأصلح أغلب العوالم، وأنيطت مهمة استكمال الترميم بيد آدم الأول.

كاد الإصلاح أن ينجز مع آدم الأول لولا إثم حواء والتفاحة (الموروث الديني اليهودي يتهم المرأة بالإثم بصفتها تمثل المادة، وهي مثلها مثل الحمار العلماني، يسيطر الشيطان والرغبة عليها)، الذي أعاد العالم إلى وضعه المكسور، وهو وضع النفي. كان بإمكان نوح أن ينجز الترميم، إلا أنه ثمل في خيمته.. فانتقلت المهمة منه إلى إسرائيل الذين هم فقط الاستمرار لآدم وهم فقط بنو آدم. وكان للعالم فرصة لأن ينصلح مع نزول الوصايا، إلا أن خطيئة العجل (بإثم الدخلاء) أفسدت كل شيء -فهي كفر بالرب- وأعادت العالم إلى حالته الخربة. ومذ ذاك أصبح واجب إسرائيل أن تصلح ما أفسدته، وكانت كلما أضاعت فرصة من فرص الإصلاح تنزل عليها كارثة حتى وصل الأمر إلى النفي. والنفي ليس نفياً لإسرائيل فقط، بل إن الروح القدس منفي معها، وكذلك كل العالم لا يكون في وضعه السليم في حالة النفي اليهودية.

من التهشيم والفساد والفرص الضائعة انخلق ملكوت القشور -

ملكوت الآخر - مملكة الشيطان وليليت وصمائيل، ومهمة هؤلاء هي محاولة فرض سيادة الشر على العالم والإنسان، مستعينين في ذلك بممثليهم في العالم الذين يجسدون قوتهم وهم الحمار والكلب والمرأة المغوية والعماليق، والأجانب الأشرار مثل الإسماعيليين وبقية الشياطين والأرواح التي تتقوى من أخطاء الإنسان. ومنذ اختيار اليهود كإنسان على الأرض وقوى الشر تتزايد مع كل خطأ يرتكبه اليهود. ذلك أن كل عمل خير يقوم به اليهودي يخلق ملاكاً بينما يخلق كل عمل شرير ابليساً.

إذاً هناك سر عميق وراء النفي. وقد أُرسلت إسرائيل إلى الأمم الخاطئة التي ليست من بني آدم والتي يسيطر عليها عالم الظواهر، وهذه الأمم هي جيش الآخر، وهي أيضاً الطرف اليساري، إنها إبليس.

إن غاية الرسالة الإسرائيلية هي إخراج النور المخبوء في مملكة الظواهر، أي تلك البقايا من الضوء الإلهي والحيوات الإسرائيلية التي بقيت في الأمم. وحينها، أي بعد إتمام الرسالة المقدسة وإصلاح العالم، تبقى مملكة القشور والأجانب وحكومتهم بدون قوة، وستتلاشى مع مملكة إبليس وأرواحه، وسيتجلى ضوء المسيح المنقذ. إذاً فإن النفي ليس مجرد عقاب لإسرائيل، بل هو أيضاً رسالة لإصلاح نفي العالم عن الرب، ووظيفة هذه الرسالة هي تدمير الشر.

بالنسبة إلى آري، فإن الإصلاح النهائي وشيك جداً. وهذا هو السبب في أن السر أخذ ينجلي الآن. ذلك أن انكشاف الأسرار، بحسب القبالاة، هو من علائم التغيير المسيحياني. وهكذا فإن المزيد من الإصلاح وبخاصة إذا قام به التقاة، يقرب كثيراً تجلي نور المسيح. إن أعمال الصلاح هي التأدية اليومية للفرائض إن أُديت بنوايا قبالية صحيحة. وعلى هذا النحو، فإن بإمكان اليهودي، بحسب الآري، أن يقضي على مئات الألوف من الشياطين (الذين ولدوا من الزرع اليهودي المقدس الذي قذف خارجاً بالاستحلام الليلي أو بالاستمناء أو عندما لم يحافظ اليهودي على نفسه داخل زوجته فسقطت بضع نقاط في الخارج).

وهكذا تخيل مريدو الآري أن للفرائض القائمة على قصد سليم في فوضى الوجود اليهودي تأثير رفرفة جناح فراشة الذي يحدث إعصاراً في الجانب الآخر من الكرة الأرضية[1]، إنه إعصار الخلاص.

إن الثورة في مفهوم الآري تكمن في أنه قدم وصفة عملية لمجيء واقعي ووشيك للمسيح مع محافظته في الوقت ذاته على صورة التغيير الأسطوري المسيحاني للعالم كما هي موجودة في القصص والقبالاة وعبر تعظيم معنى التغيير المسيحاني بحيث لا ينهي نفي إسرائيل فقط، بل ينهي النفي الكوني الإلهي أيضاً. وهذه الوصفة هي عبارة عن تراكم خطوات واقعية صغيرة تجلب في اتحادها معاً التغيير الأكبر. في هذه الثورة دشن آري ما يمكن أن نطلق عليه من وجهة نظري اسم «الثورة البروتستانتية في اليهودية»، هذه الثورة التي استكملها الرابي كوك كما سنرى في الفصل السادس. إن أهمية هذه الثورة تكمن في الانعطاف مرة أخرى إلى العالم الواقعي، إلى أعمال الفرد في هذا العالم التي تقود إلى تغيرات جذرية في العالم. صحيح أن الأعمال الفردية عند آري بقيت بمنزلة «أعمال صغيرة» وجزء من عالم الفرائض ونواياه، إلا أن ثورة «دونم بعد دونم وشجرة بعد شجرة» إنما خلقت على يديه بشكل مبدئي.

يقرر الآري أن التغيير الشامل للعالم إنما ينجز من خلال أعمال فردية، عملاً هنا وآخر هناك، يقوم بها عارفو السر في العالم. وما آلام النفي إلا رسالة. وإن الحياة في وسط الأثمة ضرورية، وإن المسيح لا يصلح العالم بل يأتي إلى عالم قد أصلح. وإن اليهود في عيشهم في المنفى في داخل مملكة الخارج، مملكة الطرف الآخر، إنما يهيئون بعذاباتهم وبورعهم لإصلاح العالم.

وبصفته ممثل روح صفد[2]، فإنه كان مهيئاً لرؤية قصة يوسف دي

---

[1] نظرية الفوضى الكونية: نظرية فيزيائية تزعم أن كل حدث مهما ضئل شأنه له مضاعفات مباشرة وغير مباشرة على كامل الكون، فمثلاً إن إعصاراً في أمريكا الشمالية قد يكون سببه رفرفة جناح فراشة في الصين —م-.

[2] أي مدرسة صفد الدينية اليهودية. — م -

لارنيه الذي حاول انقاذ العالم بقبالاة عملية ونجح في تكبيل الإبليس صمائيل بالسلاسل، وكان على وشك القذف به إلى الهاوية ليلاقي حتفه، لولا أنه استجاب لطلب صمائيل بقليل من الدخان، وعندما صعد الدخان إلى أنفه امتلأ قوة وتحرر من قيوده فتأجل الخلاص إلى وقت بعيد. إن هذه القصة التي تم ترويجها كتحذير من القبالاة العملية إنما تمثل خير تمثيل الإحساس بقرب الخلاص كما تمثل التقدم الفعلي إليه وتشير إلى أن خطوة أخرى في الاتجاه الصحيح ستجلب المسيح.

كان ينقص نظرية الآري صورة واضحة عن شخص المسيح (وذلك، بحسب رأيي، لأن الآري وأتباعه اعتقدوا أنه هو المسيح، هذا الاعتقاد الذي حافظ على نفسه كسر محصور بين الأتباع كما هو مألوف في العديد من التوقعات المسيحيانية، إلى أن يأتي وقت الانكشاف). بعد آري بعامين، أي في الوقت الذي استولت فيه نظريته على أفئدة كل شتات إسرائيل وجدت نظريته تجسيدها المسيحياني - ولكن ليس على النحو الذي كان يرتجيه - في شخص اسمه شبتاي تسفي.

استطاعت حركة شبتاي تسفي، وهي الأكبر من بين الحركات المسيحيانية في العصر الحديث، أن تستقطب أغلب اليهود في الشتات. وكان لولب هذه الحركة شاباً يهودياً من غزة اسمه ناتان اشكنازي وعرف باسم ناتان الغزاوي، الذي أثبت من خلال استخدام نظرية الآري وإبداعه القبالي، أن شبتاي هو المسيح.

شبتاي تسفي من مواليد ازمير وابن الأربعين، ومريض بالفصام، كان تلميذاً ذكياً ولكنه لم يكن ضليعاً في الشريعة. وميزته الأساسية، علاوة على صوته الجميل، كان قيامه بأعمال غريبة ذات مغزى قبالي واعتبرها هو أنها إصلاح للشعائر. من ذلك تحويل يوم التاسع من آب إلى يوم سعد.

على رغم الخلاص عبر الخطيئة، وعلى رغم غرابة هذا المسيح، وعلى رغم الخطر الذي سيواجهه اليهود إن تلاشت آمال هذه الحركة المسيحانية، رغم كل ذلك سار وراءها كل يهود العالم بشيوخهم وربابنتهم، ومخيلتهم تصور

لهم الأحكام التي سينزلها أخوتهم - الأسباط العشرة - بالجوييم. لم تنته هذه الحركة مع اعتقال السلطة التركية لشبتاي. وفقط بعد أن تخلى هذا المسيح عن دينه وتحوّل إلى الإسلام خفتت الحركة مبقية وراءها قلة قليلة من المؤمنين بالمسيح الذي أعلن إسلامه.أثبت زخم الحركة الشبتية مدى قوة الحلم المسيحاني الذي يوحد مختلف الشتات اليهودي. صحيح أن الحركة الشبتية لفظت أنفاسها، إلا أن هذا ليس هو حال الصدى المسيحياني الذي انطوت عليه. إذ ما لبث بعدها أن ظهر مسيحون آخرون منهم من هو غريب مثل يعقوب فرنك الذي حاول جلب الخلاص عبر الخطيئة (يأتي المسيح في جيل من الأخيار، أو في جيل كله مذنب. فما دام ليس هناك تقاة، فلعلنا نصبح كلنا أشرار.. هذه النزعة واردة في الشبتية إلا أنها لم تعبر عن نفسها بشكل كامل إلا عند يعقوب فرنك). ومنهم من كان أكثر التزاماً مثل يهودا حسيد وآخرين. إلا أن التغيير الأساسي كان ذاك الذي وقع في تعامل اليهود مع التاريخ الحقيقي وفي قوة رجائهم المسيحياني.

في القرن الثامن عشر بزغ نجم الحركة الحسيدية، كحركة شعبية قبالية ينحصر انشغالها الرئيسي، على خطى الآري، بالإصلاح الشخصي الذي سيصلح، بروح العقيدة، الفرد وتناسخاته التي تنطوي عليها روحه، مما سيؤدي في النهاية إلى الخلاص الشامل، كل هذا من خلال إفراد مكانة خاصة للرجل الصالح ولأعماله والارتباط به.

وهكذا برزت توقعات مسيحيانية حول الكثير من مؤسسي الحسيدية. لقد امتازت الحسيدية ببناء عوالم دينية رمزية تم بواسطتها تلطيف آلام الواقع الحقيقي. وقد استمدت من هذه العوالم القوة لتوقع التغيير ولا سيا التغيير الروحاني، دون أن تغفل تغيير ما هو واقعي.

إلى جانب الحسيدية ظهرت حركة المعارضة اللاتفية التي اهتمت بالتعليم التلمودي وشجبت الحماس الصوفي الحسيدي. ومع ذلك فقد كان الكثيرون من زعامة المعارضة شيوخاً قباليين قبل أي شيء آخر، مثلما هو حال الجارا، شيخ فيلنا.

لقد استوطن النتاج المسيحياني وبخاصة ذلك النابع من القبالاة في قلوب الكثيرين في انتظار سلبي للحظة المناسبة، اللحظة المسيحيانية، لرفع صوتها بفعل إيجابي.

يمكننا النظر إلى حياة اليهودي المؤمن كحياة تتراوح بين الأعمال وبين تفسيرها، بين الشعائر وبين جوهرها الثيولوجي لدى كل تيار من التيارات الدينية. ومن هنا يمكننا اعتبار التوتر القائم بين المذاهب الموسّعة وبين المذاهب المضيِّقة للرؤيا المسيحيانية كحالة مناظرة للتوتر القائم بين الظاهر وبين الباطن، بين الهالاخاة والتلمود الرباني وبين القبالاة والحسيدية، وكذلك كحالة تناظر التوتر بين الفرائض الدينية اليومية وبين المغزى الكامن من خلف الحياة اليومية وخلف الفرائض، وهذه هي الميتافيزيقا اليهودية.

إن حياة المؤمن تتأرجح بتوتر بين النظام المفصل الذي توفره الهالاخاة في كل مناحي الحياة وبين مغزى هذا النظام، هذا المغزى الذي يمكنه أحياناً تقويض ذلك النظام بالذات.

إن الإنسان اليهودي المتدين غارق في الهالاخاة والتلمود، ولكنني أعتقد أن النفوذ الأكبر عليه هو نفوذ الفكر اليهودي: أي الفلسفة والثيولوجيا والصوفية.

هناك قوة هائلة للفكرة المسيحيانية كامنة في العالم الميتافيزيقي بأقانيمه الثلاثة: الوعظ، والتصور والقبالاة، بل أكثر من ذلك، فقد كانت القبالاة تسجل ازدياداً في قوتها على حساب البراغماتية اليهودية في أوقات اليقظة المسيحيانية. ففي الوقت المسيحياني كانت الهالاخاة، بنظامها اليومي الدقيق والهاجسي تقريباً والتي تحدد أسلوباً واحداً سليماً للقيام بكل تفصيلة من تفاصيل الحياة وفي كل لحظة وفي كل وجبة طعام حتى الذهاب إلى دورة المياه، هذا الترتيب الهالاخي يتسلسل في الأوقات المسيحيانية إلى توقع الانقلاب الذي سيحل في النظام العالمي والشخصي. هذا النظام الذي سيتغير دفعة واحدة بفضل الالتزام بالطقوس اليهودية. إن هذا الالتزام المطلق بالطقوس يحمل في أحشائه توقعاً فوضوياً هائلاً ومشحوناً.

لقد جاء القرن التاسع عشر إلى العالم اليهودي بالثورة التنويرية التي بدت التغييرات التي أحدثتها للكثيرين، عن خطأ، وكأنها أنزلت الستارة على الأسطورة المسيحيانية القبالية.

مع سقوط أسوار الغيتو والقبول الجزئي لليهود في العالم المسيحي اندفع اليهود إلى العالم ممتلئين بحافز الخلق. في هذا الوضع تشكل عالم يهودي جديد، عالم واسع من الجمهور العلماني الذي كان في نهاية القرن التاسع عشر بشكل أكثر من نصف يهود العالم. إلى جانب هذا العالم اليهودي اللاديني قام عالم ديني جديد يبحث عن طرق جديدة لتجسيد رؤيا الأنبياء بالإنسانية والاشتراكية والليبرالية الأوروبية.

لقد رغب العديد من «اليهود الجدد»، وبما يملكون من زخم هائل، في إنقاذ وتغيير وفهم العالم. فكانت مساهمة اليهود في الثورة الثقافية التي أنجبت ثقافة القرن العشرين مساهمة واسعة جداً. وكانت حصتهم، ولكن ليس كعرق، كبيرة في هذا المجال. إذ جلب العديد من اليهود إلى العالم الثقافي الأوروبي الذي انفتح أمامهم جزئياً، طاقة علّمنة كبيرة وبها أفكار خلاصية انصهرت في الثورة الثقافية التي تمركزت حول مواضيع الإنسانية والتنوير والتعددية، والتي تثق بقدرتها على جلب السماوي والأرضي إلى الإنسان. فساهموا في الثورة في عالم السيكولوجيا (فرويد، لوين) وفي عالم الموسيقى (شنبرغ) والفيزياء (انشتاين) والفن والفكر (كافكا، دبلين، بروست، تسويغ، سونين، لافيتسكي) والفلسفة (برغسون، جوير، لويجس) والسياسة (ماركس، تروتسكي، روزا لوكسمبرغ). وما إيراد الأسماء هنا إلا على سبيل المثال لا الحصر.

تركت هذه الثورة تأثيرها على الوعي الداخلي اليهودي من خلال تأثيرها على اليهودية الدينية التي أخذت تتوجه بمزيد من القوة لتوسيع عالمها الديني والمفهومي من خلال تحديثها للعالم الحسيدي، مستحدثة، من بين أشياء أخرى، نتاجه العاطفي لخلق عوالم جديدة، عوالم تمتزج بها أيضاً أفكار غير يهودية. ومع هذا العالم الديني الجديد تشكل عالم يهودي لا

ديني وشمل في مطلع القرن أغلبية اليهود. وهذا العالم أنتج ثقافة يهودية لا دينية عريضة، وأقام حركات عملاقة مثل البوند، ومؤسسات ثقافية مثل مؤسسة «تريون»، وعوالم من الفكر والأدب بالعبرية واليديشية خصوصاً، كما خلق حركة صهيونية[1] تهيمن عليها الاشتراكية والإنسانية.

لقد لاح وكأن عالم القبالاة بأرواحه ومسحائه قد دفن في قبو التاريخ، وإن الفكرة المسيحيانية قد تعلمنت لصالح محاولات جلب خلاص دنيوي لا ديني، بأسلوب خطوة بعد أخرى، من أجل روح إسرائيل والإنسان بشكل عام. وبدا أن الخلاص الحديث، سواء كان بالصهيونية أو بالاشتراكية والإنسانية، إنما يمتح من أنبياء إسرائيل وأنه سيخلق عالماً واقعياً لا دينياً، وإنسانياً بحيث يكون بمنزلة الجنة على الأرض. إلا أن الشياطين صعدوا إلى السطح من أعماق جوف الأرض وأسقطوا سماء القرن العشرين على اليهود الجدد: مرة في منتصف القرن في أوروبا الحضارية التي شعر اليهود أنهم ساهموا في خلقها، ومرة أخرى من داخلهم، في أرض إسرائيل، التي بدا فيها أيضاً وكأن الحلم اليهودي العلماني بوطن حديث قد أخذ بالتحقق.

---

[1] واضح ان هذا الوصف للصهيونية بالاشتراكية والإنسانية هو وصف مغالط للحقيقة والواقع — م.

# الفصل الرابع

## البحر المضطرب

### بوابة انتصار القبالاة

لا يحتوي النص الرسمي لليهودية على تناسخ الأرواح. والأكيد أنه حتى وقت قريب كان مقبولاً لدى الجمهور اليهودي العريض وجود مسيح وجنة عدن وبعث للموتى، أما تناسخ الأرواح، فموجود في الهند. إلا أن اليهودية ليست هي نصها الرسمي. فالأغلبية المطلقة من المؤمنين اليهود يعتقدون بتناسخ الأرواح. بل أكثر من ذلك، فإن العالم المثيولوجي الذي أوجد تناسخ الأرواح وخلق ليليت وجيش الشياطين وجعل من قذف المني خارجاً إثماً خطيراً وبمنزلة سفك للدم - أيديكم ملطخة بالدماء - ومنه، من هذا المني، يخلق آلاف وملايين الشياطين وأبناء الشياطين -، إن هذا العالم الثيولوجي، عالم القبالاة، هو دون شك عالم المعنى الأكثر أهمية في اليهودية وله التأثير الأكبر على وقتنا. لم يكن عالم القبالاة في حاجة للانتظار حتى جيلنا ليعلن انتصاره على الفلسفة اليهودية. فقد كان الحلف الذي انعقد بين حفنة أرستقراطية من عارفي السر وبين الجمهور العريض راسخاً قبل جيلنا. ويعود سر هذا الأمر إلى ميثولوجيا اليهود الحقيقية. إلا أن عالم القبالاة لم يسبق له، ومنذ عهد شتاي تسفي، إن فاز بمثل السيطرة التي يتمتع بها الآن على الروح اليهودية. فعندما هاجر يهود اليمن على أجنحة النسور إلى إسرائيل، فور انتهاء حرب الاستقلال، بطريقة متعجلة ومليئة بالعثرات التي ما زال بعضها يرافقنا حتى اليوم، جلبوا معهم عبر الرحلة

الصحراوية المرهقة كتاباً واحداً، وهو كتاب هزوهر[1]. فكل عائلة يمنية تقريباً حرصت أن يكون هذا الكتاب معها قبل التوراة والمزامير. وقد أصبحنا جميعاً الآن يمنيين. ففي شوارع المدن يرفع شباب حباد كلمات اللو بيبتشار، بأنه يجب في زماننا هذا كشف أسرار القبالاة أمام العامة - هنا يستند المسيح إلى أن إحدى علائم مجيء ابن داود هي إشاعة أسرار توراة السر اليهودية على العامة: «تتفجر الينابيع».

على الدوام كانت القبالاة وتفاسيرها تصبح حجر الأساس في أوقات اليقظة المسيحيانية، ولكن، وكما قلنا، فحتى قبل جيلنا الحالي كان يمكن، حسب اعتقادي، تصنيف هزوهر في المكان الثاني بعد التوراة، بصفته الكتاب اليهودي الأكثر تأثيراً، حتى قبل التلمود والأنبياء.

والأمر نفسه يمكن أن نقوله عن الكتب المنسوبة إلى الآري المقدس، فهي تقع ضمن الكتب اليهودية الخمسة الأكثر نفوذاً. علاوة على هذا، لم تكن تلك الأجزاء من القبالاة التي تطرح مجموعة الرموز الصوفية المجردة هي التي يزداد ثقلها في العالم اليهودي، بل تلك الأجزاء التي تضم المنظومة الرمزية التي تعالج كل تفصيلة، سواء كانت إنسانية أو غير إنسانية - الحيوان والجماد- في الواقع الحقيقي.. لقد امتلأت أرض إسرائيل وكل منحى من مناحي الحياة فيها بقوة المغزى القبالي.

لماذا إذاً تحمل أغلبية الجمهور الإسرائيلي وغير اليهود في العالم مفهوماً مختلفاً عن اليهودية؟ ثمة أسباب ثلاثة لذلك. السبب الأول واضح وهو عادة اليهودفي حصر ما يريدون حصره وإبقاءه ضمن نطاق ضيق من الأتباع المخلصين، وبخاصة ما يعتبر أنه مخصص في الأصل للنخبة من عارفي السر القادرين على فهم بواطن التوراة.

أما السبب الثاني، وهو الأهم، ولذلك من الجدير التوسع به، فهو ذلك الجهد الواعي الإيديولوجي المؤلف من جناحين لعرض صورة مختلفة

---

[1] هزوهر: السطوع أو الإشراق، وهو كتاب ينسب إلى الرابي شمعون بار يوحاي، وهو المرجع الأساسي للقبالاة - م -.

لليهودية. الجناح الأول كان جهود جماعة «حكمة إسرائيل» في القرن التاسع عشر في ألمانيا وفيما بعد في كل العالم، لإعادة إنتاج وعرض يهودية تلائم العالم الحديث، يهودية تساعدهم، وبمساعدة الانعتاق، في دمجهم كأتباع لديانة موسى في الحضارة الألمانية التي تقر بجماليات اليهودية. أما الجناح الثاني فهو جهود الصهيونية لأخذ مكان شرعي لها بين الأمم وفي أرض إسرائيل. ولأجل هذا تم إنتاج تبريرات وأساطير وأدبيات تربط جذور اليهود بأرض إسرائيل.

إن جماعة «حكمة إسرائيل» وأغلبيتهم من الربابنة الأرثوذكس الحديثين، كانوا اليهود الأوائل الذين بدأوا عملاً أكاديمياً منهجياً يستهدف فهم وعرض اليهودية. وكان قد سبقهم في ذلك رجال ليسوا يهوداً تطوعوا في جهد مماثل، أغلبهم من النصارى الذين لهم دافع ديني محدد، والقلة منهم كانوا باحثين أقل التزاماً. وكما أسلفنا، حاولت جماعة «حكمة إسرائيل» فهم، وبالأساس عرض، ما اعتبروا أنه جدير بالعرض، ولم يكن الجزء الأكبر من القبالاة، من وجهة نظرهم، جدير بذلك. ولذا لم يكن ثمة مكان في ما عرضوه للشياطين والأرواح والأشرار وليليت وتناسخ الأرواح والدخلاء. ومثلهم مثل الكثير من اليهود على مر التاريخ، ما لم يعجبهم أخفوه. فخرجت اليهودية من مدرستهم بقالب جديد بدا لهم ملائماً أكثر، وعقلانياً أكثر، ومناسباً أكثر للعصر الحديث. وقد أقاموا يهوديتهم هذه على ثلاثة أسس: الأول المحافظة العملية على الشعائر، والثاني هو المبادئ الفلسفية (وتستند في أغلبها إلى «مرشد الحائرين»)[1]، التي اعتبروا أنها تقتلع اليهودية من الأسس اللاعقلانية وتقيمها على فهم للكون وميتافيزيقا قادرين على التعايش مع العالم الذي صاغته قريحة الفلاسفة اليونان. والأساس الثالث هو الرؤيا الاجتماعية الأخلاقية التي كانت الأساس في كتب الأنبياء ثم أصبحت أساساً لحركات أخلاقية وحسيدية.

---

[1] مرشد الحائرين: كتاب ينسب إلى الرامبام، وهو من أمهات المراجع الدينية اليهودية الفلسفية - م.

إن هذه هذه الرؤيا الاجتماعية الأخلاقية كانت هي الأساس، من وجهة نظر مفكري اليهود في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، الذي قامت عليه الأفكار الحديثة على مختلف مشاربها من الاشتراكية إلى الديمقراطية إلى الليبرالية.

الجناح الثاني في الجهد لإنتاج يهودية جديدة هو المشروع الصهيوني. وقد تعايشت فيه أطياف مختلفة كان اللون البن غوريوني هو الأساس من بينها. وهنا أيضاً كان لا بد لغير المرغوب فيه أن يختفي. إلا أن ما يجب إخفاءه هنا كان أكثر، فإلى جانب القبالاة بأرواحها وشياطينها، توجب إخفاء كل ما يعتبر النفي رسالة، بما في ذلك التلمود وهو الكتاب التعليمي اليهودي الرئيسي. من هذه المدرسة الصهيونية خرجت يهودية جديدة كل الجدة رغم أن محدديها اعتبروها عودة للأصول. وهذه اليهودية بصيغتها الصهيونية، كما أكدنا وسنؤكد، لا تتعارض مع التقليد المسيحياني الذي يرى أن العهد المسيحياني لا يغيّر أسس العالم فقط بل يغير أسساً في اليهودية أيضاً (وكما رأينا أدناه، كان بن غوريون يستحق تتويجه بتاج «مسيح قائم» إن لم يكن بتاج «بمنزلة مسيح»، إذ يحتمل أنه بأفعاله الثورية في اليهودية استكمل اقنومي مسيحيانيته).

وقد أرسيت هذه اليهودية في صيغتها وإخراجها الصهيوني أيضاً على أسس ثلاثة: الأساس الأول هو التناخ، كتاب الكتب، كما هو، وفي قراءة مباشرة حديثة وتاريخية وبدون وسطاء. لقد أبعد التقليد اليهودي كتاب التناخ نفسه عن أعين أبناء اليهودية -فهو أكثر قداسة من أين يتداوله الجميع- وعمل فقط في تفسيره لدرجة أصبح فيها الشباب الحريدي لا يعرف التناخ كما هو. وقد رأت الصهيونية أنها في مشروعها لا تنقذ الأرض فقط بل أيضاً تنقذ الكتاب الذي سكنه اليهود على حد تعبير هنريك هاينة.

الأساس الثاني لليهودية بصيغتها الصهيونية كان العمل في الأرض، أي تخليص الأرض، وقد أصبحت العودة للأرض ولأعيادها الزراعية (عيد الأسابيع، والتجمع في المظال، وعيد عومر في الفصح) في لحظة من

اللحظات كتاب الشعائر الجديد. هذا علاوة على اكتشاف الماضي عبر علم الآثار والحرب من أجل مستقبل التناخ في أرض إسرائيل ومعرفة البلاد من خلال أقدام الطلائعيين وإعادة بناء أساطير قديمة جديدة مثل باركوخبا ومتسادا.

والأساس الثالث لليهودية بصيغتها الصهيونية كان رؤيا الأنبياء -ضوء للغوييم- الشاملة لليهود باعتبارهم مساهمين في الإنسانية، بدءاً من التناخ ومروراً بالمبدعين اليهود في العصر الحديث، وأخيراً في العودة إلى أرض التناخ وإنشاء دولة إنسانية تقوم على منطلقات رؤيا الأنبياء.

كان هذان المسعيان، سواء الذي قامت به «حكمة إسرائيل» ومركزها ألمانيا قبل الكارثة، أو المسعى الصهيوني في أرض إسرائيل وفي أوروبا الشرقية قبل الكارثة، لإنتاج يهودية جديدة، كانا هائلين وجذبا الجماهير بسحر جمالهما وأثرا على الكثيرين. إلا أنهما كانا يعانيان من عيبين أساسيين، أولهما يخص الماضي وهو إخفاء الجوانب غير المرغوب فيها سواء تلك التي اعتبرت غير عقلانية أو تلك التي ترى في النفي رسالة. وكانت القبالاة من الجوانب الأساسية التي وقع الإخفاء عليها. ولكن يجب أن نلاحظ أن ما جرى هو إخفاؤها وليس الصراع ضدها. أما العيب الثاني فكان يتعلق بالمستقبل -وسنناقشه تالياً- ويتمثل في صعوبة تأصيل المفاهيم الجديدة في الهالاخاة وفي الصلاة وفي جسم اليهودية ومؤسساتها، وهو الأمر الذي من الصعب بدونه الحفاظ على التجديد وعلى الاستمرارية بما يتجاوز اعتبار التجديد أمراً ظرفياً يتعلق بالظرف والجيل يذهب بعدهما مع الريح.

يتضح مما سبق أنه كان لكلا المسعيين لإنتاج يهودية جديدة تأثيراً هائلاً على صورة اليهودية لدى الجمهور اليهودي اللاديني وكذلك لدى المعنيين باليهودية من غير اليهود.

كانت هناك ثلاث فئات من اليهود المتدينين أو التقليديين ممن تأثروا بالروح اليهودية الحديثة وأبدعوا بتأثيرها. وكون قوة هذه الفئات يكمن في

الماضي هو السبب الثالث للفجوة القائمة بين صورة اليهودية وبين اليهودية الفعلية في زماننا.

الفئة الأولى والأكبر من هذه الفئات هي يهود شرق أوروبا. هذه الفئة اجتازت تحولات عدة خلال القرن التاسع عشر، وكانت مع نهايته غير متدينة في أغلبيتها. جزء من هذه الفئة ذهب إلى أرض إسرائيل إما كأتباع للصهيونية أو كأتباع للصهيونية الدينية، بينما بقيت أغلبيتها العظمى في شرق أوروبا وأبيدت في الكارثة.

أما الفئة الثانية التي تأثرت برغبة المزج بين اليهودية والحداثة وأفلحت في تأصيل مفاهيمها داخل الجسم الديني اليهودي فهي الحركة الإصلاحية التي انطلقت من ألمانيا وثم، ويفرق ملموس، الحركة الإصلاحية المحافظة التي تمركزت في الولايات المتحدة. وكما أوردنا آنفاً، فإن هاتين الحركتين، وعلى خلاف الآخرين الذين سعوا وراء عقلانية عصرية، لم تكتفيا فقط بإباحة الإخفاء أو بالشروح والتغييرات الظرفية التي تنتهي مع انتهاء الظرف، بل عدلتا أساس الدين والصلاة ما مكنهما من مأسسة ذاتهما وساعدهما في الحفاظ، نسبياً، على بقائهما. غير أنهما لم تتمكنا من بلوغ وضع من النفوذ على الأرض المقدسة وبالتأكيد ليس على اليهودية المتدينة فيها.

الفئة الثالثة من الجمهور الذي تأثر بمسعى التحديث هم جماعة «التوراة والعامة» الذين تحولوا في أرض إسرائيل إلى «التوراة والعمل». كان لهذه الجماعة التي كان مركزها في ألمانيا تأثير هائل في وقت ذروتها على الصهيونية المتدينة ومن خلالها على اليهودية بصورها المختلفة. كما كان لهذه الحركة نفوذ لا بأس به في شرق أوروبا أيضاً. لقد وجدت أفكار حكمة إسرائيل صدى لها في قلوب هذه الفئة التي لم تعتقد أن محاولة الدمج بين اليهودية وبين الحداثة والإنسانية والاشتراكية تنطوي على تغيير في اليهودية، بل على العكس. كما أن شجب الرامبام للشياطين بدا لهم أكثر مصداقية من كل عالم القبالاة المشبع بالشياطين والأبالسة والساحرات من

كل حدب وصوب. وأكثر منها فلقد شعرت الصهيونية الدينية الكلاسيكية أنها بفهمها الإنساني والديني للحسيدية ولأفكارها الموسّعة للسر إنما هي أقرب من أي تيار آخر إلى المثيولوجيا اليهودية الحقيقية، وأقرب بالتأكيد ممن يعتقد أن الوجود الصوري هو الواقع الحقيقي.

سنعالج في الفصل التالي إخفاق هذا التيار في تأصيل نفسه وتحوله من ثم من تيار مركزي إلى حال هامشية وتراجعه أمام القوى المسيحيانية والقبالية. ولكننا ننوه هنا إلى الأهمية القصوى التي ينطوي عليها غياب التأصيل في الدين، تأصيلاً يأخذ مكانه في النصوص وفي الفتاوى وفي الميثولوجيا التشريعية. فكما لاحظنا، كان من الجائز سابقاً الاختلاط بين الجنسين وحتى الرقصات المختلطة كان جائزة في بني عكيفا وفي الصهيونية الدينية، وكان هذا أمراً طبيعياً وسليماً ويتلاءم مع الروح الحقيقية لليهودية من وجهة نظر أصحابه، ولكن لكونه لم يتمأسس في تشريع ديني صريح ونظامي جرفته الهالاخاة والقبالاة التي تعترض عليه وفرضتا العزل بين الجنسين على كل اليهودية في إسرائيل منذ الثمانينات.

وخلافاً للصورة التي تأخذها اليهودية في تصور كل معني بها، متديناً كان أو غير متدين، يهودياً أو غير يهودي، فاليهودية الدينية ذاتها إنما هي تلك الموجودة في قلب الملتزمين بها. بعد الكارثة والإبادة وما نتج عنها من تبدلات في بنية الشعب اليهودي، برزت قطاعات ثلاثة هي التي تشكل مجتمعةً اليهودية المتدينة في إسرائيل. وهذه القطاعات عرضة لتغيُّرات راديكالية لاحقة، ولكنها جميعها تشهد تعاظم قوة القبالاة فيها وبشكل درامي أحياناً.

القطاع الأول هو جمهور اليهود السفارديم. لم يتعرض هذا الجمهور في البلاد العربية إلى محاولات «اجتثاث» الظلال غير العقلانية في اليهودية، حسب تعريف حكماء إسرائيل، وكان أبناؤه غارقين كلياً في عالم القبالاة -في اليمن بشكل خاص وعلى نحو ألطف في بقية أماكن الشتات-، ولكن دون شك كانت القبالاة الثيولوجية هي الأساس عندهم جميعاً، وكان

هذا هو شأن المهاجرين اليهود من البلدان العربية إلى أرض إسرائيل، إذ بقوا بعيدين بشكل عام عن المحاولات المباشرة للنضال ضد القبالاة وصمدوا أمام كل المحاولات الحريدية لإثبات تفوق الفقه التلمودي الإشكنازي كما صمدوا أمام محاولات الصهيونيين لإثبات تفوق الصهيونية العلمانية الإشكنازية. ومع تعاظم قوتهم الذاتية التي تنبع من إحساسهم بكونهم أغلبية ديمغرافية مغبونة تعاظمت قوة القبالاة وإن بدت في الظاهر كعودة للأصول ولكنها في الحقيقة تتجاوز ذلك وبتلاوين جديدة ومسيحيانية سنتحدث عنها فيما بعد.

تتمتع التغيرات في يهود الشرق في أرض إسرائيل بوزن في وقتنا الحالي. فحتى ما قبل الكارثة كان يهود البلدان العربية يشكلون أقل من 10% من كل يهود العالم، ولذلك كان وزنهم هامشياً. ولكن بعد إبادة أغلبية يهود أوروبا في الكارثة وبسبب ميل اليهود من الأصل الغربي إلى إنجاب محدود ونتيجة لتزواجهم من غير اليهود، وصلت نسبة اليهود من الأصول الشرقية إلى 25% من يهود العالم. وبما أن الأغلبية الساحقة من اليهود الشرقيين هاجرت إلى إسرائيل على عكس اليهود الاشكناز والغربيين، فإنهم يشكلون الآن 45% من يهود إسرائيل. ولأن اليهود الشرقيين ينحون للهوية الدينية ولا سيما نحو الهوية السلفية أكثر مما يفعل اليهود الاشكناز، فإنهم يشكلون الآن أكثر من 50% من اليهود المتدينين في البلد، ونحو 70% من كل اليهود المؤمنين في إسرائيل. ومع أن القوة العددية لليهود الشرقيين لم تجد بعد انعكاسها داخل النخبة الربانية، إلا أن ثمة ثقلاً كبيراً لما يشهده هذا الجمهور من تغيّر.

أما القطاع الثاني الذي يشكل نسيج اليهودية الدينية في البلد فهو الجمهور الحريدي الذي سنتوسع لاحقاً في التغييرات التي أصابته والذي ينطوي هو أيضاً على قوة قبالية كانت فاعلة على الدوام، ولكنها تصاعدت مؤخراً تصاعداً جارفاً سواء في وسط الأتباع أو في أوساط المعارضين.

أما القطاع الثالث فهو الجمهور الصهيوني الديني الذي كان التحول

الذي أصابه هو التحوّل الأكثر دراميـة، هـذا التحـوّل الـذي سيملأ صفحات هـذا الكتـاب. وقد لعب انتصـار القبـالاة دوراً رئيسـياً في هـذا التحوّل الـذي أصاب هذه الفئة وحوّلها من صهيونية دينية إلى مسيحيانية حريدية.

مـا هـو سـحر القبـالاة؟ وكيف انتقلت هـذه النظريـة الباطنيـة لتصبح، بعد أن كان أتباعها قلة في البدايـة، القـوة الثيولوجيـة الصاعدة ذات النفوذ الواسـع في أوقات المحن والكوارث كما في أوقات الرفاهيـة على حد سـواء؟ هذا ما سيكون موضع معالجتنا.

أمـا الآن فإننـا نوجـز ونقـول إن القبـالاة تقـوم علـى ثلاثـة أس تسـتمد قوتها منها. الأساس الأول هو التفسير الميتافيزيقي. أي السر الكوني الكبير الـذي يفسـر معنـى العـالم وأسـراره منـذ الخليقـة وصـولاً إلـى المعنـى والمغـزى الكامن في كل شعيرة. فهناك سر كبير يقبع في كل جزيئة وتفصيلة. واضح أن ثمـة قـوة جذب هائلـة فـي الدخـول إلـى نطـاق الغوامـض الإلهيـة وأسـرار الخليقة وسفر التكوين.

يعمل التفسير التأويلي في أوقـات النفـي والضعـف حين لا يكون قد تبقـى إلا قـوة التـأويل، ويعمـل أيضـاً فـي أوقـات التحـوّل والقـوة عندمـا يكـون النجاح قائماً، فيصبح نشاطه هائلاً حيث يقدم تفسيرُ السـر المفتـاحَ لتراجع الواقـع لصـالح قـوة الإيمـان. إذاً فالتفسـير الميتـافيزيقي يتمتـع بقـوة وحيويـة عندمـا تكـون الفجـوة هائلـة بـين الرغبـة وبـين الواقـع وحينمـا لا يسـتطيع التفسـير الحرفـي تقديـم العـزاء والسـلوان، ويتمتـع أيضـاً بـالقوة نفسـها والحيوية عندما يبدو للمؤمنين أن الشر، من خلال انعطافة حادة، قد تحول وأصبح خيراً مسيحيانياً، إذ في مثل هذا الوقت يصبح التفسير الميتافيزيقي مطلوباً ليقدم سر هذا التحوّل الدرامـي. فـلا نظير لقوة التأويل في أوقات الهبوط وأوقات الصعود على حد سواء، علماً أن أوقات المحن اليهودية تفوق أوقات الراحة.

الأسـاس الثـاني للقبـالاة وقوتها هـو الأسطورة، أي قصـة عمـل الـرب ودور اليهودي الذي أصبح شديد المركزية منذ الرابي اسحاق لوريـا اشكنازي

(الآري المقدس). فكما شاهدنا آنفاً تعطي رواية الآري مغزى لتشتيت اليهود. إذ تضفي هذه الرؤية دوراً سحرياً للشتات، كما أنها تنسب إلى كل عمل صغير رسالة لتغيير العالم إذا كان هذا العمل الصغير يساعد في صلاح اليهودي ومعه صلاح العالم كله. لا يوجد لدى اليهودي قوة توازي قوة نظرية التهشيم والإصلاح وبخاصة في أوقات المحن الشاملة ولكنها لا تقل قوة في أوقات الأمل المسيحياني أيضاً.

الأساس الثالث هو مقاربتها للطابو. فالقبالاة تمتح القوة من مقاربتها للنطاق المحظور. أولاً من خلال مقاربتها للطابو الذي يقول «ممنوع التجسيد» أي حظر إعطاء وصف خارجي مهما كان للرب الخفي. لكنها بجرأة شديدة وبوعي لهذه الجرأة التي تلطفها من خلال استعمال كلمات مثل «حسب الظاهر»، عملت نظرية التأويل طوال الوقت -حسب الظاهر- بالتجسيد، فعالمها مملوء بجيش من النعوت والملائكة والشياطين، كما أن قوى الرب وقوى الطرف الآخر -الشرير- تتجسد بأعضاء الجسم وبالحيوانات وبالشعوب، بالرجل والمرأة، وببقية المخلوقات. فكل شيء حي وكل شيء له مكانة في الدراما الإلهية.

وثانياً من خلال مقاربتها لطابو الجنس. فالقبالاة تكثر من الحديث بموضوع الجنس مع أخذ الاحتياط لنفسها بإظهار التشدد في أغلبية الحالات، بدءاً من التوجيه بإقامة العلاقات الجنسية في أمسيات السبت فقط (مرتين في الشهر إذا أخذنا في الاعتبار الامتناع عن الجنس بسبب الطمث) – لأنه في هذه الأمسيات فقط تُعطى حيوات جديدة، وإلا فإن روحاً سيئة من الوقاحة وترك اليهودية والمروق ستدخل إلى الجنين – مع الحرص أن يحدث هذا الفعل الجنسي في منتصف الليل لأنه في هذا الوقت تقل المجازفة بأن يكون أحد ما يعبر الطريق، فتميل المرأة الطائشة للتفكير في عابر الطريق ذاك فيصبح الولد ابنه، وتكون قسمات وجهه شبيهة بقسمات ذلك العابر. وانتهاء بالأسماء القدسية العديدة التي تتمتع بمزية القدرة على منع الغريزة من الانفلات فتحدث الخطيئة الكبرى وهي قذف الزرع في الخارج.

ثالثاً: تنبع قوة القبالاة من الطابو المفروض على الانشغال بالسر ذاته. وعلى الرغم أن حظر الانشغال بالقبالاة على من دون الأربعين لم يتم الالتزام به أبداً، إلا أن السرية البالغة ما زالت تحيط بكل أسرار القبالاة ولا سيما تلك المسائل الحساسة مثل مسألة المسيح والدخلاء ومسائل أخرى.

يجدر بنا التنويه هنا أننا أغفلنا في معرض سرد أسس القبالاة ذكر منظومة الرموز الغامضة المجردة وما يصحبها من حالة صوفية. كما أغفلنا ذكر قوة الجاذبية عند القباليين العمليين. وعن حق فعلنا ذلك. إذ إن نفوذ القبالاة على قطاعات مؤمنة عريضة، هذا النفوذ الذي ينبع من الأسس الثلاثة التي أوردناها، إنما يكمن في قدرتها على تطبيق منظومتها الرمزية على الواقع وعلى النص وبالتالي تقديم التفسير الذي يُعتبر الأكثر عمقاً للنصوص اليهودية. وبذلك نجحت القبالاة في أن تحتل المكانة الرئيسية دون منازع بين المدارس التفسيرية اليهودية التي يتألف منها العالم الثيولوجي اليهودي.

يعتقد الجمهور المتنور اللاديني، على ما يبدو، أن القبالاة، بأشكالها المختلفة، تنقسم إلى أساسين: قبالاة نظرية وهي منظومة من الرموز تعالج سر العالم وتمنح أتباعها سمواً صوفياً، وقبالاة عملية والتي هي منظومة من السحر والتعاويذ والبركات واللعنات. هذان الأساسان قائمان فعلاً في القبالاة إلا أنهما لا يشكلان ولا بأي شكل من الأشكال جوهرها. فجوهرها هو تلك المنظومة من التفاسير التي تعطي بمساعدة لغة مرموزة مغزىً محدداً لكل جزئية في الواقع ولكل طبقة من طبقات النصوص اليهودية المقدسة. ولأن التفاسير تنجح في أغلب الأحيان في خلق الأساطير، لذلك تمكنت القبالاة بما يحيط قوتها السحرية من هالة وبفضل إنتاجها لمنظومات من المعاني تلائم كل ظرف وظرف، أن تصبح لدى المتدينين اليهود الجهة الأساسية التي تقدم تفسيراً للواقع وللنص على حد سواء.

ثمة قوة كلية القدرة وعجز في آن واحد في القبالاة وفي تفسيرها. وهذا على أية حال هو الشيء المشترك في كل التاريخ اليهودي، وهو ما عبر

عنه ليفي أشكول بعبارته: «شمشون القوي الضعيف»، أي الشعب الناجح والمضطهد الذي يمتلئ دربه بالآلام.

إن اليهود الذين يتذبذب وضعهم ما بين ثراء فاحش للأقلية من التجار ذوي النفوذ وبين أغلبية فقيرة، الذين شهدوا حالات متبدلة من وضع ازدهار هائل كما في أسبانيا وألمانيا إلى كوارث فظيعة، إن اليهود وهذا شأنهم يتجاذبهم إحساسان؛ إحساس داخلي بالقوة لدرجة التفوق وإحساس بالخوف والدونية. وليس هناك ما يستطيع أن يعبر عن هذه الحالة أصدق تعبير كما يفعل عالم القبالاة. ففيه التهشيم والاصلاح، وفيه سر النفي والخلاص كما صاغها الآري، وفيه أيضاً القبالاة المسيحيانية القادرة على تغيير العالم، هذه القبالاة التي خرَّجت المخلِّصين بدءاً من شبتاي تسفي ومروراً ببعشاط والرابي نحمان من براسلافيا وحركة حاباد وانتهاء بالرابي كوك.

والقبالاة، فضلاً عن كونها خير من يفسر بشكل جيد سر النفي والرسالة التي ينطوي عليها، فهي أيضاً تمنح اليهودي وبشكل خاص اليهودي الذي يشعر أنه مهان وملاحق وأنه ورقة في مهب الريح وعرضة للاحتقار والمذابح، تمنحه القوة الفضلى بكونها، وكما سنلاحظ لاحقاً، تفسر لليهودي سر المعاناة بسموه الداخلي، كما تقدم له مفتاح السر لفهم العالم من خلال معاناته. فكما يمكن لرفرفة فراشة في سنغافورة أن تحدث عاصفة في الطرف الآخر للمعمورة وفق نظرية الفوضى، كذلك يستطيع اليهودي الصالح من خلال عمل صلاحي واحد أن يقلب وينقذ العالم، وما ضعفه الظاهري في العالم الواقعي إلا غلاف خارجي. فالسر هو الذي يسود. فها هنا نرى انقلاباً في وضع العالم، انقلاباً أحدثه مفهوم اليهودي الصالح ومفهوم الولي الخفي. فالذي يسيطر على العالم حقيقة هم أولئك الذين يبدو وكأنهم مُسيطَر عليهم، إنهم المحيطون بالعلم. وبهذا قدمت القبالاة لليهودي في المنفى ما كان بأمس الحاجة إليه وهو السيادة. فها هو، بفضل السر، يعرف المجرى العالمي بل يسيطر عليه أيضاً. وهذه السيطرة، المتخيلة

في معظمها، والتي تستجيب في لحظات المحن والشتات للاحتياجات الروحية للإنسان، وتبحث عن المؤازرة الدينية في عالم مجنون، هذه السيطرة تنقلب إلى امتياز وتصبح قوة محركة حقيقية في أوقات اليقظة المسيحيانية. إذاً، ما هي أوقات اليقظة المسيحيانية؟ الذي يحدث في أوقات اليقظة المسيحيانية، أي في أوقات بشارة الخلاص هو أن حلم الخلاص، هذا الحلم الذي رعته الأجيال، يصبح في هذه الأوقات عند المؤمنين كأمراً حتمياً قد تحقق بالفعل أو أخذ في التحقق. ومنذا الذي يفهم هذا الأمر، ومن هو المتنبئ به إنْ لم نقل صانعه؟ إنه رجل القبالاة. وكما أشرنا، لقد عمل أغلب عظماء إسرائيل حتى في الحياة الواقعية، سراً وعلانية، تحت تأثير القبالاة. وكنموذج على ذلك فإن يوسف كارو، مؤلف كتاب «شولحان عاروخ»[1]، كان رجل قبالاة قبل أي شيء آخر، وكانت كل أحكامه الدينية تنبع من عالمه القبالي. في أيام اليقظة المسيحيانية لا يعود التأثير الخفي للقبالاة كافياً. فكما سنرى فيما بعد، ينقلب عالم القبالاة في ظروف اليقظة المسيحيانية رأساً على عقب وينتقل من الانشغال بالسر والرمز إلى إخضاع عالم الواقع لسلطة الرموز. فتعود الاستعارة إلى الواقع لتصلحه ويأخذ رجال القبالاة في النظر إلى النبوءة كضرورة قبالية بالغة الأهمية.

وعلى هذا النحو أطلق الرابي أبراهام اسحاق هكوهين كوك النداء الكبير: «أخوتنا الأعزاء، حكماء التوراة، كُتَّاباً وذوي تأثير، حتى نحن أثمنا وتحامقنا، تعلمنا وبحثنا، تجادلنا وجددنا، لكننا نسينا الرب وجبروته. لم نصغ إلى صوت أنبياء الحق وصوت أخيار الحكماء الذين صرخوا وأعلنوا بصوت عال أن نهاية نهر التلمود العملي وحده ستكون الجفاف والخراب إن لم نضخ إليه باستمرار مياهاً جديدة من البحر، أي من عالم القبالاة».

---

[1] شولحان عاروخ: المائدة الجاهزة: هو احد اهم الكتب المرجعية في الفقه اليهودي. -م-

## الفصل الخامس

## دارة على جانب الطريق

كان من نتائج الحركة الصهيونية ظهور الصهيونية الدينية. وقد جسدت هذه الأخيرة في بدايات الصهيونية وفي بداية الدولة وعبرت عن المزج ما بين التليد والطريف من خلال اعتقادها أنها قادرة على إيجاد العام داخل الخاص، والاشتراكية والإنسانية داخل رؤيا الأنبياء والمعنى الأخلاقي والشامل في الطقوس الفردية الدينية. ومن هذا المنطلق اختارت الفلسفة اليهودية على حساب القبالاة، لشعورها أن الفلسفة قريبة من اجتهاد الرامبام في مزجه بين العلم والدين ومعارضته المسيحيانية السياسية من خلال اعتماده على القاعدة الفقهية «ويعيش بهم»، هذه القاعدة التي تفترض علاقة براغماتية وليس صوفية مع أحداث الساعة. ولذلك وتمشياً مع قناعاتها هذه أقامت الصهيونية الدينية حركة كيبوتسية رائعة. وكان الكيبوتس الأشهر الذي أقامته هو كيبوتس (تيرات تسبى - بيت الغزال)، كما أقامت جامعة غايتها التوحيد ما بين العقلانية العلمية العامة وبين حكمة إسرائيل، وأنتجت توليفة فكرية أصبحت أسلوب حياة لقطاع واسع من الناس.

كان جلياً للصهيونية الدينية أنها تعيش الظرف على نحو صائب وتخيلت أن هذا الظرف سيطول. إذ بدا لها، في تلك الأيام الأولى من الدولة، أن البلماخ الظافر والصبار الطليعي هما الرد الوحيد الممكن للمحافظة على البقاء بعد الكارثة، كما بدا أن الحريدية آخذة في التلاشي

مع انتهاء حالة الشتات، في الوقت نفسه الذي بدا فيه أن الصهيونية الدينية والكيبوتس الديني هما الدرب الصائب والعصري لمواصلة التقليد داخل التيار التاريخي المنتصر.

إلا أن هذا الذي بدا بالغ الوضوح للآباء المؤسسين لم يكن كذلك بالنسبة لأبنائهم، وكل من يتحدث مع متدينيين قوميين ممن نشأوا في إسرائيل الخمسينيات سيتفاجأ إذ سيكتشف أن هذا الجيل لم يكن يعيش ذاك الإحساس المريح. فقد بدا لهذا الجيل، جيل زبولون هامر، أن شمس الصبار العلماني، وشمس نبيه وحزبه، أي المباي، ستبقى مسيطرة إلى الأبد على سماء ايلون، مما جعل العديد من الشبيبة الصهيونية المتدينة يشعرون أنهم هامشيين في هذا المعسكر الذي لا يقودونه بل يقادون فيه.

وخلافاً للآباء، لم يكن واضحاً لهذه الشبيبة كيفية مواصلة الدمج بين الحداثة والتقليد، ولا كيفية تجسيد الروح النخبوية التي ورثتها عن آبائها. بل على العكس من ذلك شعرت الشبيبة الدينية الصهيونية في الخمسينيات أنها مختلفة عن صانعي الواقع، أي الصبار العلماني. وفي الوقت نفسه لم يروا في الجسر الذي أقامه الآباء بين التليد والطريف إلا سيراً بين الكراسي، وبالتالي سقوطاً بين الكراسي، فلا كسبوا لا هذا ولا ذاك. وتبدى لهم أنهم لا هم بالطلائع المقاتلة والقادة مثل العلمانيين الكيبوتسيين، ولا هم دارسون للتوراة مثل تلميذ الشيخ الحريدي.

إن هذا الشعور بالفجوة القائمة بين الغاية المنشودة وبين الواقع القاسي ليس بالجديد، فقد حفل به التاريخ اليهودي إبان ملاحقات المنفى.

وكما نذكر، فقد عبرت هذه الفجوة عن نفسها في التسعينات بعد اغتيال رابين بالإحساس بأن الصهيونية الدينية هي يوسف الذي في الجب، أي ذلك الأخ الممتاز الذي قذف به إلى البئر وطوح من انتمائه للنخبة إلى حضيض الأهمية التاريخية. مفهوم أن فجوة الخمسينيات كانت تختلف تماماً في مضامينها عن الفجوة القائمة في التسعينيات ما بين الغاية وبين الواقع. ولكن في كلتا الفجوتين ثمة صيغة تتجاوز الفجوة المركزية التي

عاينها التاريخ اليهودي والتي أنتجت المرة تلو الأخرى المسيحيانية التي تردم هذه الفجوة بين الغاية والواقع. ولقد تضافر تغير ثقافي تاريخي مع حلفين سياسيين في خلق هذه الفجوة القائمة ما بين حلم الآباء الصهيونيين المتدينين وبين واقع أبنائهم في الخمسينيات.

لقد اختار بن غوريون، أول رئيس حكومة لإسرائيل ومؤسس ثقافتها السياسية، إقامة حلفين سياسيين مع الجمهور الديني. الأول فيهما كان مع الصهيونية الدينية والثاني مع الحريديين. لقد وفر التحالف مع «مزراحي» لبن غوريون الحرية في المسائل الخارجية والأمن - كانت الصهيونية المتدينة حينذاك أكثر اعتدالاً من بن غوريون - وأعطاها بالمقابل السيطرة الرسمية والمالية على المسائل الدينية بما في ذلك الأكل الحلال والربانية وجهاز القضاء الشرعي. كما مُنحت الربانية السيطرة التامة على مسائل الزواج والطلاق. وتطورت هذه السيطرة لتصبح مؤسسة من مؤسسات الدولة، تأخذ تمويلها من الحكومة، مع أن المفدال، وهو الذراع السياسي لمزراحي، هو الذي يملك حصراً حق تعيين الوظائف فيها. أما الثمن الأساسي الذي أخذته الصهيونية الدينية فكان الإطار التعليمي شبه المستقل، أي التعليم الحكومي الديني الذي تمتع بحكم ذاتي معين علاوة على التمويل الحكومي. بيد أن أخطر ما حصلت عليه الصهيونية الدينية من بن غوريون كان تحويل الشباب المهاجر إليها ولا سيما الشباب من الهجرة الجماعية الشرقية في أساسها والتي كانت في أوجها في الخمسينيات.

حلف بن غوريون الآخر كان مع الحريدين. بشكل عام لم يشترك هذا التيار في السلطة كما أنه لم يعارضها بشكل كلي، ومقابل هذا الامتناع عن المعارضة حصل الحريديون على مركز مستقل وعلى إطار تعليمي مستقل كلياً مع تمويل حكومي. وبسبب عدم اشتراكهم في الائتلاف الحكومي لم يأخذ الحريديون من بن غوريون مؤسسات ربانية بتمويل حكومي، كما أخذ المفدال. كما لم يحصلوا أيضاً على تلاميذ لهم من أوساط الهجرة الواسعة، ولكنهم حصلوا على الإعفاء من الخدمة العسكرية. في البدء كان هذا

الإعفاء مقتصراً على البنات وعلى المختارين من التلاميذ الأبناء، إلا أنه اتسع لاحقاً ليشمل أغلب الشباب الحريدي، ويبقى نافذاً ما دام يحصل على مصادقة من الشيوخ، ما وفر للأخيرين، بفضل بن غوريون، أداه للسيطرة على جمهورهم.

(يحتمل أن بن غوريون فاز، بحلفيه الاثنين، بإثبات إضافي على أنه «بمنزلة مسيح»، بما أنه يفرض اليهودية على الشعب.. وكما نذكر فإن بن غوريون خليق بالمطلق، بصفة الذي فعل ونجح، بالمرتبة العليا وهي «المسيح القائم»).

إلا أن بن غوريون لم يعزز موقع الدين في الدولة لكي يفوز بلقب «بمنزلة مسيح» فدوافعه كانت أخرى، وارتكزت على تقديره، بأن المتدينين ضعاف جماهيرياً وسياسياً، فكان حلفه معهم مدفوعاً بطموحه للحصول على قوة واسعة ليواجه بها من كان يشعر بالقلق حياله ويعتبره منافسه الأساسي وهو حركة «أحدوت هعفودا»[1]. وعلى هذه الخلفية أقام بن غوريون تحالفاً إضافياً مع البرجوازية الليبرالية متمثلة في حزب «الصهيونيون العموميون» صاحب شعار «لنجعل الحياة ممكنة في هذا البلد» ودفع لهم من حصة الصبار الطليعي، أي أشركهم في السلطة.

«أحدوت هعفود» المنافس الذي خشيه بن غوريون كثيراً، كان حزباً اشتراكياً وعملياً، بل كان حزباً وحركة، فهو الذي رعى الحركة الكيبوتسية وهو الذي أقام القوة العسكرية اليهودية «البلماح»[2]. لقد حصلت الحركتان العماليتان -مباي واحدوث هعفودا-، بدون الشيوعيين، على أغلبية ساحقة من 65 عضواً في أول كنيست. إلا أن بن غوريون لم يشكل تحالفه الحكومي مع اليسار الذي كان يخشى قوته، بل مع المتدينين والليبراليين الذين اعتقد أنه بالإمكان السيطرة عليهم. وبسبب قلقه ذاك من قوة اليسار التي تشكل بديلاً له، أقدم بن غوريون على حل البلماح وعلى تفكيك الإطار التعليمي

---

[1] اتحاد العمل. — م -

[2] سرايا الصدم. — م -

الاشتراكي «الشغيلة»، وعلى قمع «تمرد البحارة» وعلى شق الحركة الكيبوتسية في عام 1952، هذا الانشقاق الذي قصم ظهرها.

وكانت الشبيبة الصهيونية المتدنية، من زاوية ما، هي الأخرى من بين ضحايا خوف بن غوريون من البديل اليساري، فهؤلاء الشبيبة أحسوا بما كان آباؤهم يخفوه عن أنفسهم، وهو استخفاف بن غوريون بقوة الدين والمتدينين. وبالفعل فإن بن غوريون ما كان يقيم التحالفات إلا مع من يعتقد أنهم ضعفاء وأنهم أدنى منه ويمكنه شراءهم بهدية لرئيس القبيلة، ما ولد لديهم الإحساس أن بكوريتهم قد بيعت بطبق من العدس. صحيح أنهم يسيطرون على الربانية وعلى الطعام الحلال وعلى المطاهر وعلى التعليم الديني، بيد أن القضية الأساسية، قضية السياسة والأمن، بقيت في يد الصبار وتحديداً في يد الذي احتكر تمثيله السياسي: صاحب السمو حزب مباي. إن تحديد ما هو أساسي على النحو السالف كان ثمرة تغير وانقلاباً تاريخياً ثقافياً بعيد المدى وقع على اليهود، إذ نرى هنا بروز عالم من الأولويات تأتي المسألة الأمنية السياسية تحديداً على قمته.

سيتردد في هذا الكتاب تعبير «جوقة المعنى»، وأقصد به الإشارة إلى البيئة الثقافية والتفاسيرية التي في كنفها تعيش الأفكار وتتفاعل معها. ذلك أن الفكرة الواحدة قد تُستوعب وتُفهم بمعنى معين في بيئة معينة من اللغة والمعنى، بينما تُفهم بشكل مغاير في ظل بيئة أخرى. وكذلك فإن المنطق البسيط والبديهي يتغير مع تغير عالم اللغة ومع تبدل وجه المعنى.

إن الأجواء التي عاش فيها آباء الشبيبة الصهيونية ومؤسسوها يختلف عن الأجواء التي عاشتها الشبيبة، ففي أجواء الآباء كانت التوليفة التي استحدثوها ومزجت بين الشريعة والعلم، بين الفرائض الدينية وبين حسن السلوك، بين الإنسانية والأنبياء، كانت واضحة وجلية، فعالمهم كان العالم الأوروبي. فكان العالم الذي بنوه لأنفسهم عالماً روحياً دينياً ومن جوهره اشتقوا الخلطة القائمة على رغبتهم في التماهي مع الجانب المنير من أوروبا، جانب التنوير والحضارة، مع رغبتهم في الإبقاء على التميز

والإرث الثقافي اليهوديين. في هذه البيئة كان الأساس هو مسائل الروح والمجتمع والثقافة وحسن السيرة الذي قدمه التقليد على الشريعة. هذه الأمور فُهمت في ذاك العالم كثقافة وليس كمرشد لتوسيع حدود الدولة أو للحصول على القوة. إلا أن كل هذا ما عاد بديهياً بذاته في سنوات الخمسينيات. لقد ترعرعت الشبيبة الصهيونية المتدينة في عالم مغاير عن عالم الآباء وعلى أرض مختلفة وفي مناخ في الشرق الأوسط يختلف عن مناخ الآباء. ففي هذا المناخ حلت الصراعات المسلحة محل المسائل الروحية والثقافة. وزد على ذلك أن العالم اليهودي الأوروبي لم يعد موجوداً أبداً، إذ إنه أبيد على يد هتلر وأعوانه من ألمان وغير ألمان. ولكن ما تم إبادته هنا ليس يهود أوروبا فحسب، بل معهم الحلم اليهودي الأوروبي.

بدءاً من الخمسينيات أصبح من الضروري لكل تركيبة فكرية أن تكون مستوعبة في العالم الإسرائيلي الذي يقاتل دفاعاً عن بقائه. وهو عالم يختلف تماماً عن الحلم اليهودي الأوروبي المباد. ولم تكن ثمة فرصة في هذا العالم الإسرائيلي لتوليفة الصهيونية الدينية. فما بين المقاتل وبين الرابي في صحراء المتوسط كانت الصهيونية الدينية هي الضحية. لقد انهارت عوالم الصهيونية الدينية الكلاسيكية وحلت محلها موسيقى هرمونية جديدة أخذت تصدح تحت الشمس الإسرائيلية. لا يمكن فهم الأفكار بمعزل عن سياقها وعن بيئتها الثقافية وعن جمهورها. وتلك الأفكار التي أنتجتها الصهيونية الدينية كانت مُستوعبة في سياقها الحضاري في أوروبا حين كان يهود أوروبا هم جمهورها، ولكنها لم تعد قابلة للاستيعاب في سياق جديد يعطي الأولوية للواقع وللمسألة السياسية ويتألف جمهوره من المهاجرين.

في بداية القرن قام شاب يهودي حسيدي مع أبيه الرابي بزيارة بلاط الأدمور[1]. وفي يوم الجمعة عندما كان كل الحسيديين يغنون: «سلام عليكم يا ملائكة الرب، ملائكة الأعلى. رأى الشاب السماوات تنفتح. إلا أن هذا

---

[1] ادمور: لقب يطلقه الحسيديون على شيخهم وهو اختصار: سيدنا ومعلمنا وشيخنا. —م—.

السحر سرعان ما تلاشى، إذ ما إن انتهت وليمة الجمعة ودخل السبت حتى شاهد الشاب الحسيديين يسقطون بوجوههم على فضلات الأكل.

وعلى هذا النحو، ففي عالم ثيولوجيا ما بعد الكارثة ليس هناك مكان ليوم الجمعة بل ليوم السبت فقط. لم يتبقَّ إلا الفضلات، لم يبق للديني إلا أقل القليل، أما الكثير فقد استأثرت به المسائل الواقعية.

في الدولة الإسرائيلية المقاتلة احتلت مسألة المؤسسات المقام الأول على خلاف ما كان عليه الحال وما ميز الجالية اليهودية في المنفى ذات البنية نصف التطوعية، حيث كان يمكن لأقلية متعلمة أن تؤثر بشكل غير رسمي، لا بل تقود أيضاً. وبمعنى ما فإن الييشوب[1] اليهودي ما قبل الكارثة وقيام الدولة حافظ على طابع الجالية، وكانت البنى التطوعية، مثل البلماخ وحركات الكيبوتس، تلعب دوراً قيادياً فيه، إلا أن هذا كله تغيّر بعد الكارثة ومع قيام الدولة (ومن ضمن التغيير أن كثيرين من الذين تطوعوا للقتال وللقيادة شعروا أن الدولة أخذت منهم «الدولة» و«الحلم»).

كانت الدولة الإسرائيلية في الخمسينيات تعيش مرحلة البناء السريع للمؤسسات، لا سيما أن حجمها تضاعف في ذلك الوقت جراء الهجرة الجماعية التي استلزمت وجود العديد من المؤسسات لاستيعابها، وكان التيار الديني القومي من بين القوى التي شاركت في بناء هذه المؤسسات، إذ أنيطت به مهمة كبيرة وهي إنشاء جهاز قضاء شرعي، وجهاز لتحديد الأكل الحلال، ومؤسسة الحاخامية العسكرية والحاخامية المدنية، ومحاكم للأحوال الشخصية وإطار تعليمي واسع ومتوسع بفضل ذلك الجزء الكبير من الهجرة الذي توجه إليه سواء لأنه متدين أو بفضل الاتفاقات الرسمية، لقد احتاج بناء المؤسسات الكثير من العمل واحتل الأولوية على حساب الانشغال بعالم الفكر. فقد أبرز هذا الواقع الآخذ بالتمأسس العديد من الاحتياجات واستدعى زج كل الطاقات فيه. إلا أن المؤسسات احتاجت إلى

[1] الييشوب: مجتمع السكان اليهود في فلسطين قبل قيام الدولة. -م-.

من يشغلها واحتاجت بخاصة للعديد من الربانة، مما وضع الصهيونية الدينية أمام كشلة، فاليهودية الأوروبية، وهي الطاقة الإنسانية التي خلقت مزراحي، كانت في أغلبها قد أبيدت في الكارثة.

زد على ذلك أن العديد من الأشخاص الذين أمنوا بالتوليفة التي زاوجت ما بين اليهودية والقيم الأوروبية لم يكونوا ربابنة، إنما كانوا مثقفين. ومع أن معرفة العديد منهم لتراث إسرائيل فاق، عمقاً واتساعاً، معرفة الكثيرين من ربابنة وقتنا، إلا أنهم لم يكونوا ربابنة. ففي أوروبا كانت نسبة أولئك الذين اتخذوا من الدين مهنة، دون الحديث عن أولئك الذين «مهنتهم هي دينهم»، ضئيلة قياساً إلى نسبتهم في أرض إسرائيل. والذي حال دون زيادة نسبة هؤلاء في أوروبا كان خطر البطالة باسم التفرغ للتوراة وغياب الدعم المالي، وأفكار القرن العشرين التي آمنت بالعمل والاشتراكية. وفقط في إسرائيل توالت أموال الدولة خلق تلك الطبقة الذين «مهنتهم دينهم»، كذلك فإن مثقفي الصهيونية الدينية، هنا في إسرائيل كما في أوروبا، زجوا بثقافتهم إلى ميدان العمل والإبداع والأكاديميا وليس إلى الربابنة. كما أن العديد من مؤسسي الصهيونية الدينية توجهوا لتجسيد قضيتهم وفق ديانة العمل الصهيونية، إلى الكيبوتس والعمل - كانت الحقول الزراعية محترمة حينذاك، لكنها كانت بعيدة عن المركز، وبالتالي بعيدة عن التأثير المؤسساتي وعن العمل الرباني الرسمي في مركز البلاد-.

هذا النقص في الربابنة وفي المعلمين الجيدين للتوراة وضع الصهيونية الدينية أمام الرغبة والحاجة إلى بناء هائل من المؤسسات؛ مثل المؤسسات الربابنة، وإلى ما هو أهم من ذلك وهو المؤسسات التربوية لكي تستوعب المهاجرين المتدينين ولا سيما وأنه كان ثمة تقدير أن هذه المؤسسات الأخيرة ستنهض بواجب مزدوج وهو الاستيعاب من جهة، وفي الوقت عينه إنتاج القوة السياسية المستقبلية التي ستعطي صوتها للمفدال من جهة أخرى. وقد ملأ المعلمون الحريديون، وهم الذين لم يكن من السهل عليهم إيجاد عمل نظراً لابتعادهم عن السلطة، هذه الفجوة ما بين العرض

والطلب. كان النقص في الثقافة العلمانية عند هؤلاء المعلمين مع وعيهم الحريدي قد نأيا بهم عن الاندماج في الواقع العلماني، لكنهم كانوا يملكون ما هو مطلوب، وهو الشهادة التربوية الربانية المناسبة.

كان لهذا الاحتكاك مع الجمهور الحريدي أثره، إلا أن هذا الأثر كان ملموسا أكثر ما يكون في المدارس الدينية الثانوية التي بدأت في النمو في الخمسينيات، كما كان له دور حاسم في الثورة الدينية التي شهدتها إسرائيل. لقد نشأت المدارس الدينية الثانوية في الأساس على قاعدة الرغبة المعلنة لتعميق الدين سوية مع التضلع في العلوم العلمانية بواسطة نظام داخلي بعيد عن المجتمع العلماني. وقد لاقت هذه المدارس نجاحا باهرا. سنتوقف لاحقا عند الدوافع الخفية الدينية - القبالية وراء إقامة هذه المدارس وهي استخدامها كأداة تغيير مسيحياني، غير أننا سنكتفي هنا عند تحديد الأسباب الصريحة التي كانت وراء ذلك النجاح. من هذه الأسباب قدرة تلك المدارس على جباية الأموال، والحاجة الرسمية إليها، ورغبة الآباء، على ضوء تحول المؤسسات التربوية الاعتيادية إلى مؤسسات يغلب عليها المهاجرون، في إيجاد مؤسسات نخبوية لـــ«أناسنا» بل حتى لأبناء طائفتنا.

أما الروح العلمانية التي سادت إلى جانب الروح الحريدية في هذه المدارس وملأت جدرانها بالملصقات والصور فلم تكن روح فرانز كافكا بل لا حتى روح أحاد هعم، بل صور مئير هارتسون بظل وحدة ا.ا. ودورة كاملة بتلامذتها وأستاذها يسسخار مائير تركت المدرسة الأساسية «كفار هرواة» التابعة للرابي نيريا، وذهبت إلى النقب وأقامت في نتيبوت المدرسة الحريدية «عزتا» التي جذبت إليها طلبة من أبناء الصهيونية الدينية ممن «تشجعوا» واستبدلوا القبعة السوداء بالقبعة المنسوجة. ومن الجهة الأخرى كان الكثير من خريجي المدارس الثانوية يطرحون القبعة كلية عن رأسهم أما بعد الخدمة في الجيش أو خلالها. وهكذا تحوّل أكثر من ربع الشباب الديني الصهيوني إلى العلمانية بينما تحوّل لأقل من الربع بقليل إلى

الحريدية ولم يبق تقريباً إلا النصف من أبناء النخبة الصهيونية الدينية ملتزمين بالصهيونية الدينية. وهكذا لاح أن ذلك الجسر الذي كان بديهياً في الأمس قد بدأ ينهار أمام الشمس الإسرائيلية التي بدت كأنها تضعهم أمام اختيار إما وإما: إما يهودية نقية أو علمانية صهيونية.

كان من الطبيعي أن تجد ظاهرة صعوبة الاستمرار في الصهيونية الدينية الرد الملائم.فعلى الصعيد المؤسساتي الذي تحدثنا عنه برزت مسألة المعلمين وبخاصة معلمي اليهودية في المدارس الدينية الثانوية المدعوين «راميم» أي رؤساء المدارس الدينية. وبدا أن حل هذه المسألة إنما يكمن في خريجي «مركز الرابي كوك»، علماً أن تلك المزاوجة الفريدة التي قامت بها يشيبوت[1] المركز ما بين صهيونية قبالية مسيحيانية وتشدد حريدي، وتعليم ديني مع تأييد الخدمة في الجيش مع موقف سياسي مسيحياني يميني، كانت هامشية في الأيام الأولى من عمر الدولة. إلا أن تمركز هذه المدارس على أعداد المعلمين والربابنة خلق احتياطياً بشرياً مثقفاً يحمل إجازات شرعية، وبدا أن هذا الاحتياطي مناسب للحلول محل الحريديين، لأنه صهيوني على الأقل، فهو لذلك يستطيع تقديم الاستجابة الدينية لروحية هارتسيون الموجيكية التي شاعت بين الشبيبة. وبعيداً عن عين الآباء عقد معلمو هذه المدارس الدينية الثانوية الداخلية تحالفاً جديداً مع الشبيبة، هذا الحلف الذي استولى على الأفئدة بعد عام 1967.

لقد كان هذا الحلف ما بين الربابنة على مختلف مشاربهم وبين الشبيبة من خلف ظهر «أصحاب البيت»، أحد سمات التغيير الجارف الذي لحق بالصهيونية الدينية لكنه كان أيضاً إحدى سمات الصهيونية كحركة تغييرية.

سيتردد في هذا الكتاب مصطلح «طبقة وسطى ثقافية»، وأستخدمه للدلالة على الشريحة الواسعة التي تحمل بديهيات الثقافة. فهذه الشريحة هي التي تحتفظ بلغة المجتمع وقيمه المعيارية. لقد لاقت هذه الطبقة،

---

[1] يشيبوت: جمع يشيبة وهي المدرسة الدينية اليهودية.

بمفهومها الاقتصادي، نقداً قاسياً من كارل ماركس بصفتها طبقة تتعاون مع سادة المجتمع وتنتج، وعلى الأخص تسوِّق، المعنى والوعي الزائف على حد تعبير كارل ماركس، والذي يتسرب منها إلى باقي طبقات المجتمع. كما وُجهت انتقادات لهذه الطبقة من مفكرين ما بعد حداثيين بصفتها طبقة صانعة للوهم الحضاري الحديث، وللمعيار الأوروبي الرجولي الأبيض للقيم، وللنخبوية الزائفة. إلا أن الطبقة الوسطى بصفتها إنما هي التي تمنح المجتمع تقاطيعه ويستحيل دونها قيام أية ديمقراطية. فإن غابت هذه الطبقة، مع كل عيوبها، برز وضع اقتصادي استقطابي، وهو الأمر الذي ميز أغلب بلدان أمريكا اللاتينية. كما أن غيابها يخلق الصعوبة في استمرار عمل الديمقراطية المستقرة، مما يضع المجتمع في وضع ثوري، يبدو أن الموقف النظري من هذه الطبقة، بمعناها الثقافي، يحتاج إلى إعادة نظر ديالكتيكية جديدة.

على الغالب، يكتسب أي مجتمع ملامحه من الطبقة الوسطى المزدهرة التي تحمل على ظهرها، عموماً، ملامحه. فهكذا قامت الديمقراطية الليبرالية وعلى هذا النحو نشأت الجالية اليهودية في المنفى. إننا نقصد بـ«الطبقة الوسطى» هنا كما أسلفنا «الطبقة الوسطى الثقافية» أي تلك الطبقة التي تعيش على بديهيات الحضارة السائدة. كقاعدة، كانت هناك طبقة وسطى عريضة في المجتمع اليهودي في المنفى، وكانت تحمل ثقافة دينية معينة ومنحت المجتمع ملامحه الأساسية الثابتة. هذه الملامح تهتز في الفترات الثورية. في مثل هذا الوضع جاء التحالف بين قباليين عمليين وبين بعض الشرائح الشعبية، وهو -هذا التحالف- هو الذي أولد حركة شبتاي تسفي-، وهذا الوضع هو الذي أنتج التحالف ما بين معلمي النظرية الاشتراكية اليهودية الصهيونية في روسيا وبولندا في مطلع القرن وبين جموع الشباب الذين حولوا ديانتهم إلى الصهيونية الاشتراكية العلمانية ذات الطاقة الجسدية. لقد لقي التحالف ما بين الشبيبة وبين معلمي الشريعة التشجيع من المجتمع الإسرائيلي. فدولة إسرائيل، بصفتها دولة

هجرة واسعة، يمكن، من وجهة نظري، نعتها بأنها دولة «طوائف البناء». إذ كان لهؤلاء الأبناء، بصفتهم يمتلكون اللغة، تأثيرٌ قويٌ على الآباء. ولا نقصد بكلمة اللغة هنا تلك اللغة الفعلية، مع أنها مهمة جداً بالطبع، بل نعني فهم الواقع. فهؤلاء الأبناء، وعلى خلاف الأباء الذي واجهوا كمهاجرين صعوبات تأقلم مع الواقع الجديد ومع الذهنية الجديدة وصعوبات في إيجاد عمل وفي تدبير أمورهم، تملكهم شعور معزز بالواقع بأنهم يفهمون الحياة وطرقها أفضل من آبائهم وبأنهم قادرون على سبر ثناياه لإيجاد المعنى، وقادرون أيضاً، أن استدعت الحاجة، على الانتقام لما عاناه آباؤهم من مشاق الاستيعاب لعدم معرفتهم كيف يردوا بسبب غياب اللغة. نضيف إلى ذلك أن الثقافة الرسمية الإسرائيلية المؤسساتية كانت تشجع هذا الحال الانقلابي من خلال وضعها رهانها كله على الشبيبة، ما دامت هي التي ستحارب وهي التي ستدخل بوتقة الصهر في المجتمع، ولاسيما بوتقة الجيش، وتخرج منها بشخصية الصبار الذي سيبز كثيراً جيل الصحراء أي جيل آبائهم. إذاً فأن جوقة المعنى الإسرائيلية تُبنى أساساً من قبل الشباب. على هذا الضوء نرى أن المجتمع الإسرائيلي يشجع أوضاع التغير الحضاري النوعي السريع في الوقت ذاته الذي لا توجد فيه طبقة وسطى ثقافية في المجتمع الإسرائيلي بحيث يمكن لها أن تكون،من خلال هويتها الواضحة، مرساة لهوية المجتمع. ويصحب غياب وجود هذه الطبقة في إسرائيل وفرة في التيارات الاجتماعية الثقافية الدينية السياسية الطائفية التي هي الأخرى لا يوجد لأي منها ملامح هويه ثقافية لأن كلاً منهايفتقد إلى طبقة وسطى ثقافية قوية بما يكفي لتثبيت ملامحه. والحال، فإنه باستطاعة أية روح معنى يحملها الشباب أن تقوض ما كان يبدو بديهياً. أما «أرباب البيت» في الصهيونية الدينية، أي تلك الفئة الاجتماعية التي تقع تحت تأثير رؤية المؤسسين والتي كانت ترى، من خلال أفقها اليهودي الأوربي، أن كل التوليفات الفكرية للمؤسسين جميلة سواء تلك التي زاوجت ما بين الاشتراكية و الأنبياء، أو تلك التي جمعت بين الفلسفة اليهودية والإنسانية، وبين الديانة الحسيدية

والميتافيزيقا العامة، وكانت راسخة في وجدانهم، فلم يستطيعوا إنتاج استمرارٍ حضاري لهم، لا بل إنهم كانوا أعجز من أن يصمدوا أمام رياح التغيير لاسيما بعد أن أبيد عالمهم اليهودي الأوربي واجتثت أحلامهم وباتت لغة واقعهم لغة في طور الاحتضار، في الوقت الذي وفر فيه الواقع البديل، الواقع الذي لا يفهم إلا لغة القوة، والذي اقتضت التغيرات التي وقعت به معنى جديداً بأعمال جديدة، وفر هذا الواقع إمكانية ثورية هائلة للشباب الذي نشأ في البلاد وستتجسد هذه الإمكانية في التحالف بين الشبيبة التي شعرت أنها نخبوية لكنها مهملة وبين ربابنة «مركز الرابي». إذ أن هؤلاء الربابنة أعطوا الشبيبة الصهيونية المتدينة التي شعرت أنها يوسف، حلماً كبيراً مضافاً له ما هو أكثر من البقرات السبع السمان. فقد كان في حوزة ربابنة «مركز الرابي» إجابة تفاسيرية لضائقة الشباب الصهيوني المتدين، كما كان في حوزتهم إجابة على كل أسئلة الجيل، وأهم من ذلك كانت لديهم أسطورة دينية تقدم الشباب كحملة رسالة بصفتهم طلائع التغير الاجتماعي المسيحاني الشامل. وقد تجاوز الأمر هنا الفرائض الفردية أو فريضة وضع الشال إلى فرائض شاملة تعطي للشبيبة المتعطشة للقوة دوراً قيدياً أكثر مما طلبت. ففي هذه الأسطورة وفي هذه الفرائض لا توجد أُتُن فقط، بل أيضاً الكثير من الحمير الممتازة.

لقد ترددت أصداء إجابة المركز في المدارس الداخلية الثانوية الدينية ولاسيما بعد عام 1967، إلا أنها كانت تملك قوة في هذه المدارس حتى قبل ذلك التاريخ.

لقد قدم «مركز الرابي» تفسيراً ميتافيزيقيا قبالياً واضحاً لأحداث الساعة، فنحن، حسبهم، نعيش ظرفاً مسيحيانياً. وما المصائب التي أصابت اليهود مثل الكارثة، إلا آلام مخاض المسيح، وما دولة إسرائيل إلا مبدأ الدولة المسيحيانية وبداية تنفيذ الوعد الإلهي. أما لقوة الهيمنة العلمانية، والذي هو حسب الظاهر مشكلة دينية قاسية، فثمة تفسير. فلهؤلاء العلمانيين دور من حيث أنهم يسرٍّعون الخلاص وينفذون، من خلال

معاصيهم، تعاليم سياسية لا يعونها . أما الشبيبة الصهيونية الدينية فلها دور آخر وهو امتطاء الحمار، إذ ينبغي عليها أن تؤثر وأن توجه وأن تقود المادة والدولة المادية التي أقيمت بأيد علمانية، قيادة لا تقتصر تداعياتها العملية على الحياة الدينية اليومية، بل تتجاوز ذلك إلى رسم اتجاهٍ عامٍ.

ومنذ عام 1967 أصبح الحديث يدور عن أسلوب علمي، حسب الظاهر. فالحديث أصبح عن رسالة لها هدف بعيد الأثر في المجال السياسي و العسكري والدولي، وفي مسألة الحدود بنحو خاص. أي تلك المسائل التي أصبحت أساسية في الواقع الإسرائيلي واصبح التعاطي معها عملاً محترماً وأهم وأكثر إلحاحاً من مسائل الثقافة والمجتمع.

إن التعاطي السياسي، وفق أسلوب «مركز الرابي». أصبح بعد حرب الأيام الستة موضوعاً عملياً مصحوباً بأعمال استيطانية علاوة على أنه يصادر أسطورة الاستيطان من الطلائعين العلمانيين ويخلق موطئ قدم ديني في المناطق، في «المجال الحيوي». الذي انفتح في الشرق، فإنه أيضاً ينفذ، حسب الظاهر، أمراً دينياً مهماً وهو استيطان أرض إسرائيل . وهكذا أصبح بإمكان الشاب المتدين أن يتفوق في ضربة واحدة على خصميه الذي شعر بالدونية حيالهما . فهو يستطيع، من خلال قيامه بفريضة الاستيطان، أن يشعر أنه طلائعي ومستوطن أكثر من الصبار العلماني، وان يشعر أيضاً أنه متدين أكثر من تلميذ الحاخام الحر يدي . وهكذا شعر الشباب المتدين ذوي القمصان المرقعة والمسلحين بالبندقية وبقبعة عريضة وأهداب ورموز اللباس الصباري كما فهموه، شعروا أن الحفوف التناخية تحمل أجنحة . وبفعل قوتهم حلّق هيرمس الديني نحو الشمس المسيحيانية، نحو المكان القيادي الذي يستحقه . لم يكن تأثير «مركز الرابي» في المدارس الدينية الثانوية مصادفة. ولربما يستطيع المتألم مما أ صاب الصهيونية الدينية أن يقول: «على أهلها جنت براقش». فمنذ البدء كان الرجال المركزيون في إقامة المدارس الدينية الثانوية من أتباع «مركز الرابي» ألا إنه لم يكن ثمة تقدير أن هويتهم تلك ستكون لها عواقب بعيدة المدى ، لاسيما وأن هذا حدث في

الخمسينات عندما كان العمل هو القيمة الأساسية في المجتمع الإسرائيلي. لذلك كان من يتظاهر ويتصرف كأنه صهيوني ديني، يعتبر، عن خطأ، أنه كذلك في حقيقته.

وهكذا، على سبيل المثال، فإن الذي أسس أول مدرسة دينية، مدرسة قرية هروآة، التي تحمل اسم الرابي كوك (هروآة-الرابي إبراهام هكوهين)، كان موشي تسبي نيريا، أب جيل القبعة المخرمة. كان نيريا من رجال الرابي كوك، وكان مشروعه كله، وأن يكن بشكل غير معلن في البدء، مدفوعاً بحوافز كوكية[1] مسيحيانية. فعندما وصل نير إلى البلاد في بداية الثلاثينات، دخل إلى دائرة الرقص المختلط في بني عكيفا التي كانت تضم أبناء وبنات يلهون سوية. لم يعرف هؤلاء الراقصون أن الرابي الذي يراقصهم يعارض الاختلاط بشدة. إلا أنه كان، وفق طريقة الرابي كوك، يدرك أنه لن يستطيع التأثير عليهم إلا إذا دخل إلى وسطهم ورقص معهم، ثم فيما بعد يقودهم إلى الوعي الديني الشرعي بتحريم الرقص المختلط.إن سر دخول نير إلى هذه الدائرة كان مفتاح كل أنشطته وعلى رأسها مشروع المدارس الدينية الثانوية. ثمة طرفة راجت في الماضي ضد بني عكيفا تقول إنهم يُدعون «بني عكيفا» لأنهم يقصدون الفترة التي سبقت توبته الدينية، عندما لم يكن بعد الرابي عكيفا بل عكيفا ابن العامة. ويبدو لي، أن الرابي نيريا نظر إليهم النظرة نفسها، ولكنه كان يؤمن أن باستطاعته أن يضيف لقب «الرابي» إلى «عكيفا». وبالفعل، فقد استطاعت هذه الروح المسيحانية التي مسحت باركوخبا، أن تسيطر بفضل الرابي نيريا على حركة بني عكيفا وانبتت الوجوه وأكف اليدين الكثير من الأعشاب الضارة. لقد كان الرابي نيريا واثقاً، من منظوره المسيحياني الكوكي الذي يفترض الاستيلاء على روح الدولة المادية، إن الذي سينفذ هذا الأمر وسيقود إنما هم الشبيبة الصهيونية المتدينة. ولكن لابد للمرشحين للقيادة من أن يكونوا في البدء طلائع الثورة المسيحانية وأن يجتازوا تحولا هم أنفسهم. والطريقة الفضلى

---

[1] - كوكية : نسبة إلى الرابي كوك - م-

للوصول لهذا هي الابتعاد عن المجتمع الاعتيادي وعن منزل الأهل الذي يتأثر بالصهيونية العلمانية، والعيش في ظروف مدرسة داخلية حسنة الرقابة .

إذاً، لقد استغل نيريا وأصحابه حاجة السكان المتزايدين للمؤسسات واستغلوا التمويل الذي يهزأ بقوة متديني بن غوريون، واستغلوا رغبة العديد من الأباء في ظل الهجرة الواسعة في مؤسسات تربوية نخبوية، ورغبة الشبيبة في أن يكون لها دور وموقع قيادي، استغلوا كل ذلك لإقامة مشروع غير معلن الأهداف، من خلال عدم الإفصاح العلني عن معتقد اتهم المسيحيانية. وما كان عوناً لهذه الثورة حقيقة أن أغلب الجمهور قبل عام 67 وبعده أيضاً، لم يدرك مضاعفات غرابة معتقدات الرابي كوك. فرجال الرابي كوك كانوا يبدون مختلفين قليلاً وغريبي الأطوار قليلاً وهامشيين، ولكن لم يبد عليهم أنهم يحملون طاقة ثورية بعيدة المدى، إذ كانوا يتطرقون إليهم «كشباب طيبين» يشجعون الخدمة العسكرية في الوحدات القتالية، وفي فترة متأخرة أخذوا يشجعون الخدمة في المستوطنات الحدودية. وفي المجتمع الإسرائيلي كان العمل هو الأساس. لابد من إدراك أن الثيولوجيا، بما هي كذلك وبصفتها قائمة على القبالاة، لا تفصح عن مضامينها للجمهور العريض، فهي مخصصة لمن يستطيع الاستيعاب. والذي يستطيع الاستيعاب هم «رجالنا» و«الشباب المثقف على يدنا». وكما سنرى لاحقاً، بقيت الدعوات المسيحيانية ومعتقدات أخرى محصورة في نطاق «ذوينا»، إلى أن يلوح أن الجمهور قد أصبح ناضجا ليستوعب. وفي الواقع الإسرائيلي كان من السهل المحافظة على بقاء الأحاديث محصورة، سواء لان المستمعين في جوقة المغنى الإسرائيلية مهيأون للأفعال وليس لنصوص نظرية، أو لأن اللغة الثيولوجية باتت غير مفهومة من قبل الجمهور العلماني العريض ومن نخبته أيضاً.

حقاً كان هناك من أرادوا التحدث إلى الجمهور العريض، إلا أنهم ظلوا أقلية. فعندما قال الرابي شلو افينار، رابي بيت ايل و يشيبة «عطيرت

كوهنيم»، على سبيل المثال، انه ليس ثمة داع لاستخدام الذريعة الأمنية، بقي اجتهاده هذا محصورا في إطار الجدال الداخلي بين «الاتباع». فالمبرر الأمني أكثر إقناعاً واستيعابا في العالم العملي، لذلك تقرر الاستمرار في إشهار هذا المبرر وإخفاء الذريعة المسيحيانية للمشروع الاستيطاني.

لقد أضحت العقيدة الكوكية مستوعبة من قبل الجمهور الديني، كما استطاعت ثيولوجيا كوك أن تجر وراءها، خلال وقت وجيز، كل الشبيبة الصهيونية الدينية وأن تدخلها في إطار رسالتها المسيحيانية. وهكذا، وخلال وقت بالغ القصر أصبح رجال الصهيونية الدينية الكلاسيكية ولغتهم، ورجال الكيبوتس الديني، والمؤمنون بالاشتراكية والإنسانية بروح الأنبياء. والذين كانو مركز الجمهور، أصبحوا مجموعة هامشية مفارقة ومجذوبة إلى حد ما. ففي جوقة المعنى الجديد، أي القبالية المسيحيانية الكوكية، لم يعد كلام الصهيونية الدينية مقبولاً. ولم يقتصر الأمر على أنها لم تعد تجد القبول، بل إنها ما عادت قادرة على التعبير عن نفسها. ويحضرني هنا شخص رائع مثل موشيه اونا، رجل سديه الياهو وعضو كنيست سابق ومن قادة المفدال، وهو يندب لي في مقابلة إذاعية إنه لا يستطيع بعد الحديث لأن الإرهاب المسيحياني يسكته بصفته كافراً، وانه حاول الكلام مراراً إلا أن دروكمان وصحبه كانوا يصرخون ويصرخون بوجهه إلى أن يصمت.

كانت الكثير من الأفكار الصهيونية الدينية بمنزلة مسلمات وتعيش في القلوب، إلا أنها لم تدون، وأن جرى ودونت فإنما كان ذلك كأسلوب وليس كقرار شرعي، وينطبق هذا على كل المجالات في المجتمع والروح و السياسة. والمثال الأسطع على هذا كان في مجال العفة ودخول الرابي نيريا التخريبي لدائرة الرقص المختلط. فحتى الثمانينات كانت بني عكيفا حركة مختلطة من الأبناء والبنات، وكانت التربية فيها مختلطة، وكان فيها مجموعات رقص مختلطة في المسبح، ولم يكن رجال الصهيونية الدينية يعتبرون هذا الاختلاط ضعفاً أو تجاوزاً لحدود العفة، بل على العكس، فقد كان في نظرهم، يستجيب لمبادئ الإنسانية والإنسان والمجتمع العادل

وينسجم مع المسعى للوصول إلى حالة المساواة. وهكذا، وعلى الرغم من الفتوى الشرعية التي تحرم على المرأة إشغال وظائف عامة، فقد كنا نجد المرأة في إسرائيل تشغل منصب عضو كنيست وتحتل منصب قيادة مجموعات ومسؤولة في أعمال عامة. لقد كان الطموح للوصول إلى هذه المزاوجة بين التقليد الديني وبين الحداثة و المساواة من المسلمات الثقافية للمؤسسين اليهود الأوروبيين، غير أن هذا الطموح صيغ صياغة فكرية سياسية وليس صياغة دينية. ولكن كل ما لا يُحددً كشريعة لا يصمد أمامها. فانهار العالم المختلط أمام متعصبي الفصل.

من الظواهر التي ترافق أية حركة مسيحيانية، علاوة على الفوضى المبهجة إلى حد العنف، ظاهرة التشدد عموماً، والتشدد في علاقة الرجل بالمرأة خصوصاً. فهذا ما حصل في عهد شبتاي تسفي، وهذا ما كان عليه الحال في زمن الرابي عكيفا، وهذا هو أيضاً الحال في اليقظة المسيحيانية الحالية. ويعود بروز هذه الظاهرة على مدار التاريخ المسيحياني إلى السهولة التي يمكن بها لأية حركة مسيحيانية أن تنصب نفسها حامية للشرع، ولهذا السبب، على سبيل المثال جعل ناتان الغزي دعوته للالتزام بفرائض الصوم وكبح الشهوات تسبق تبشيره بشبتاي تسفي الذي يمكن أن يكون خلافيا.

إن الميزة التي يمنحها التمحور في مجال الجنس هي أن هذا الميدان يسمح بإحداث تغير اجتماعي فيه خلال وقت وجيز لاسيما عندما تكون العزيمة المعززة بالخلاص الوشيك متوفرة. وما يساعد على ذلك أن مواضيع العفة هي من المواضيع الظاهرة والعلنية والتي للشرع فيها قوة جماهيرية واسعة. وللتشدد في مواضيع العفة، كقاعدة، قوة دينية هائلة، لأن من الصعب الاعتراض عليه من جهة ومن السهل دعمه دينياً من جهة أخرى. والعفة تثبت أن الذين يلتزمون بها يتمتعون بقوة إرادة ضخمة، وهم، لذلك، جديرون بالموقع الذي يطالبون به، أي موقع القيادة كحملة رسالة. والروح المسيحيانية، من جهتها، تملأ من يعيشها قوة إرادة هائلة. والشبيبة

الصهيونية المتدينة والتي أصبحت كوكية، أخذت بالالتزام بالمحظورات ولاسيما في مجال العفة مع الحرص على إظهار ذلك، لتثبت عن هذا الطريق، من بين أشياء أخرى، نخبويتها، ولتثبت بالوقت ذاته، على حد قناعتها، الدونية الأخلاقية والسياسية لرجال الصهيونية المتدينة، وهم الذين، من وجهة نظر الكوكيين، يخلطون المقدس مع الدنس، ومن ضعف الشخصية لدرجة أنهم لا يملكون ما يكفي من القوة للمحافظة على العفة والامتناع عن الاختلاط.

كل شيء انتهى الآن. فلم يعد في بني عكيفا لا رقص مختلط ولا سباحة مختلطة ولا أنشطة مختلطة. وحتى في التربية حصل الفصل بين الجنسين، لا بل إن هذا الفصل لم يقتصر على المدارس الثانوية إنما شمل أيضاً تلك المدارس الابتدائية التي تُدعى حكومية دينية. لقد انتهى الاختلاط كما انتهت معه تلك الروح الرائعة التي زاوجت بين الصهيونية والدين والعلم والحداثة والشريعة والإنسانية وأنبياء إسرائيل والتوراة والعمل، فكل هذه التوليفات استبعدت، كما استبعد معها التلاقح الفكري مع الغرب اللايهودي ومعه مزاوجة الأفكار الاشتراكية مع الصهيونية العلمانية واختلاط الجنسين. فكل هذا اعتبر مروقاً وجرى استبعاده.

لقد وصفنا هذا التغير الذي أصاب الصهيونية الدينية والذي هو بنيوي في جزء كبير منه. إلا أن الأساس ليس البنية، بل الروحية. وكما هو دارج في المسلسلات الأمريكية، فأن روحية كوك المنتصرة ستتردد في الفصل التالي، وليس فيه وحده.

# الفصل السادس

## القبطان كوك يبحر

قبل حرب الأيام الستة بثلاثة أسابيع، وقف الرابي تسبي يهودا هكوهين كوك، ابن المؤسس إبراهام اسحق كوك، في مدرسته الدينية «مركز الرابي» وأخذ يحاضر ويصرخ ويندب أمام تلامذته: «أين نابلسنا، أين خليلنا، أين بيت ايلنا»، ولم يمض شهر حتى كانت كلها بيديه. فكانت هذه نبوءة تحققت بالنسبة للتلاميذ.

بناء على الأنوار البهية للرامبام، فأنه يُحكم على النبي من خلال نبوءة طيبة تنبأ بها وتحققت. أما النبوءات الرديئة فيمكن ألا تتحقق لأن أبواب التوبة مفتوحة أمام الشعب الخاطئ، مثلما حصل مع النبي يونان الذي سخط لعدم تحقق نبوئته على نينوى، إذ أن تلك المدينة تابت فألغيت عقوبتها. وبما أنه لا يجوز القيام بالمعجزات والأعاجيب التي يجترحها المرشح للنبوءة، لذلك لا يبقى أمام النبي لإثبات نبوته إلا النبوءات الطيبة. والنبي الحقيقي هو الذي تتحقق نبوءاته الطيبة، فنبوءاته لارجعة عنها ولا بد لها من التحقق.

لقد تحققت نبوءة الرابي كوك الأب المسيحيانية بقيام الدولة والهجرة. وهاهي نبوءة الابن الذي وضع تأكيداً إضافياً على أهمية عودة المناطق لإسرائيل تتحقق. فها هو القلب المقرائي[1] الذي بقي ما بين 48-67 خارج البلد، يعود للسيطرة الإسرائيلية. صحيح أن هذه المناطق، باستثناء القدس، لم تضمها الدولة العلمانية وبقيت خارج نطاقها، إلا أنها أصبحت

---

[1] مقرا: احدى تسميات التوراة.

منطقة استيطان يـهودي، اسـتيطان جديـد وحديـث ومتجـدد. ولأن التـاريخ اليهودي، أو على الأقل خلال الألفي عام الأخيرة، فقير جداً فـي النجاحـات، لذلك يتمتع بقوة تغييرية هائلة.

كـان لا بـد للمعالجـة الثيولوجيـة اليهوديـة للتـاريخ فقـير النجاحـات والاستلابي، من أن تكون ذات نوعيات تفسيرية مؤثرة. وقد تراوحت هـذه التفاسير ما بين الميل إلى التجاهل واعتبار كل الآلام كعقاب، وبين اعتبارها محنة، أي فرصة لتطهير النفس وإقامة رسالة الإصلاح. بل أكثر من ذلك، فلقد قدم التقليد تفاسير تقلب الأحداث رأساً على عقب وتصور الكوارث إما بأنها نجاح كبير أو إشارات لنجاح وشيك من وجهة نظر آلام المسيح-أي الآلام التي تجلب الخلاص-أو ما هو أدنى من ذلك وهو اعتبار نجاة أفراد من الإبادة معجزة سماوية.

وقد حظي التفسير القبالي للمصائب، أي ذاك الذي يرى في الشتات والأمة مهمة سحرية هدفها إصلاح الخلق، بالقبول الأوسع لدي اليهود في المنفى. فوفق آري وتابعيه يمثل النفي اليهودي حالة العالم وحالة أوانية المهشمة، وأن للأفعال اليهودية في المنفى وللفرائض الدينية ولمخبوءات التوراة وكذلك للآلام، لها كلها وظيفة مسيحيانية واحده. وهي إنقاذ إسرائيل. وعبر هذا الإنقاذ يتم إنقاذ العالم كله وعبره يصل الكون إلى الوضع المنسجم الذي كان يجب أن يكون قبل الخطيئة حسب ما شاء الخالق. لقد أظهر غرشون شالوم الصلة القائمة ما بين نمو قبالاة الآري وشيوعها، بتفسيراتها لمسألة الشتات وآلامه وبين محنة الطرد من أسبانيا ومذابح عامي «1648-1649[1]» وذلك حين كان الفقه القبالي يملك، وهو الذي يلقي رسالة إلهيه عظيمة على عاتق اليهود، القوة التفسيرية الأمتن، أو يقدم الإجابة على أسئلة الجيل. ونحن نرى أن الصلة ما بين التفسير الباطني وبين المحن غير محصورة في الطرد من أسبانيا وظهور الآري

[1] يشير المؤلف هنا إلى ما يقال أن القوزاق ارتكبوا في هذين العامين مذابح بحق اليهود في جنوبي روسيا. - م-

وشبتاي تسفي، بل إن هذه الصلة تتعدى ذلك ولها أبعاد في أحداث أخرى عديدة منها بداية نمو القبالاة نفسها مع الحرب الصليبية وكوارثها.

منذ بداياتها قدمت قبالاة كوك المسيحيانية تفسيراً متماسكاً لأحداث التاريخ ولأسئلة الجيل وقضايا الساعة، كما وقدمت تفسيراً ناظماً للمشاق والكوارث الجسدية مثل المذابح والمطاردة وثم للكارثة. فبحسب كوك فإن المذابح التي سبقت الكارثة والحروب ومصائب أخرى، ما هي إلا بشرى لقدوم المسيح. فهكذا كتب كوك عن الحرب العالمية الأولى، وقت الأحداث التي نظر إليها الكثير من اليهود على أنها نهاية اليهودية، كتب في مقال يحمل العنوان ذا الدلالة «أنوار الحرب» يقول: «عندما تكون ثمة حرب كبيرة يستيقظ المسيح.. ويستقر العالم ويعلو صوت القمرية في أرضنا. وموت أولئك الأفراد الذين يقضون في خضم الحرب بلا محاكمة هو موت افتداء كموت الصديقين.

بنهاية الحرب يتجدد العالم بروح جديدة وتظهر أكثر أقدام المسيح. وبقدر ما تكون الحرب كبيرة، كماً وكيفاً، بقدر ما يتعاظم الأمل في مجيء المسيح الذي فيها».

وكانت الحرب العالمية الثانية، بلا شك أكبر حجماً وكيفاً وموتاً بلا محاكمة... فالكارثة أيضاً تنطوي على سر.

أجادت قبالاة كوك كذلك في تفسير المصائب الروحية مثل التعلمن الواسع. فالموروث يقول إن الدفع على الإثم أخطر من القتل، أي أن الذي يدفع اليهودي إلى العلمنة أسوأ من الذي يقتله. وعلى خطى الآري الذي رأى في النفي رسالة بين ظهراني عالم الغوييم الكافر، كذلك رأى الرابي كوك رسالة لليهود في كفر العلمنة. وغاية هذه الرسالة إصلاح الجسم اليهودي وإصلاح الوضع الدنيوي، من خلال ما فُهم على أنه دخول إلى نطاق الشر. من المفهوم أن ثمة فرقاً جوهرياً هنا بين الآري الذي رأى اليهود يقيمون فقط في وسط الغوييم دون أن يرتدوا عن دينهم وبين كوك الذي يرى في العصاة العلمانيين مبعوثين من الرب.

لقد أدخل كوك روحاً جديدة إلى مفاهيم الآري. فنظريته تنطوي على تجديد بعيد المدى في فلسفة الدين يجعل منها نظرية جديدة وإنْ كانت تنتحل لباس ولغة المفاهيم القديمة. فكوك، بمعنى معين، عادل الصديق مع الخالق. لقد قال الآري، في نظريته، إن الرب قلص نفسه إلى داخل نفسه كي يفسح المجال للخليقة وكي يحدث فراغ لخلق الخليقة المادية فيه. وكما نذكر، فقد كان هذا جرأة كبيرة من الآري، جرأة أثارت الكثيرين عليه. إذ تحدث عن رب ينفي نفسه إلى داخل كينونته كي يفسح في المجال للمادة الدنيا، ثم بعد ذلك يبدأ الإصلاح وإشراق النور الإلهي المقدس على المادة الأدنى. بيد أن الرابي كوك يذهب إلى أبعد من ذلك حين ينقل الدراما السحرية إلى حقل الإنسان اليهودي مستخدماً أدوات الآري الروحية لكي يعطي الصهيونية صورة متناقضة، مخضعاً خلال ذلك مفاهيم التقليص الآرية (نسبة إلى آري) لتاريخه هو.

من خلال هذه المفاهيم نظر كوك إلى خلاص شعب إسرائيل وإلى خلق مملكة المسيح على الأرض المقدسة. إذ كان يعتقد أنه ينبغي على اليهودية الدينية أن تقلص ذاتها في الوقت الحالي كيما تفسح مكاناً لخلق المادة، أي إنتاج العلمانيين، وبعد أن يخلق العلمانيون الوجود اليهودي في أرض إسرائيل وبعد أن يقيموا الدولة، بعد ذلك يأتي جوهر الخلاص و الذي يقوم، كما هو في قصة خلق العالم وإصلاحه عند الآري، في الفيض الروحاني.

عند الآري كان الذي يفيض هو الرب، بينما الذي يفيض عند كوك فأولئك اليهود الذين اختزلوا أنفسهم في داخل تقواهم الدينية.

في قصة خلق العالم، حسب قبالاة الآري، بدأ الرب بناء على خطته، بعد التقليص الذي وفر الحيز والدور للمادة الدنيا، في سكب نوره على المادة الخام، لولا أن تلك المادة لم تصمد أمام فيض النور الإلهي فتهشمت. فعاد الرب، بواسع رحمته، وأصلح المادة المهشمة بنوره. وفي خلق الصهيونية، حسب قبالاة كوك، فإنه ينبغي الآن على الصديقين اليهود وعلى اليهودية

المتدينة، بعد أن قلصت نفسها وفسحت المجال لخلق العلمانيين ومعهم المادة العلمانية من ثقوب الدين، أن تفيض بنورها وتصلح، بالروح اليهودية، المادة العلمانية. وبهاذا تكون معادلة فعل اليهودي لفعل الرب في الخلق قد اكتملت.

قد يكون التجديد في المسائل العلمانية ضئيل الشأن، إلا أنه يحمل أبعاداً زلزالية في المسائل الثيولوجية. وهذا ما فعله كوك. فهو أولاً، محمولاتٌ على ظهر الإنسانية وأجوائها التي تضع الإنسان في المركز الأول، أودع في يد الصديق قدرات إلهية. صحيح أن بذور ذلك كانت واردة في الحسيدية إلا أنها لم تُصَغ صياغة ملحمية كهذه. وثانياً يباشر كوك في نظريته عملية نطلق عليها «نزع المجاز»، (نفصل ذلك في الفصل الخامس عشر) وهي إعادة الرموز المجردة التي اتسعت لتشمل سر الأكوان، إلى الواقع الملموس في الأرض المقدسة.

وثالثاً-وهذا هو التجديد الأكثر إدهاشاً-فإن كوك يتخذ من سلوك الرب، كما ورد في أسطورة الآري، نموذجاً لكي يخرق التوراة! فإذا كان الرب قد قلص ذاته إلى داخل ذاته لكي يفسح مجالاً لخلق المادة الخام الدنيا، إذاً فإنه من الجائز لليهود أن يتعلموا منه. ومن هنا فإنه-كوك-يجيز ويقول بضرورة تقليص اليهودية لذاتها لتوفر حيزاً لنتاج اليهود العلمانيين منتهكي الشرع. فهذا لا بد منه ليتمكنوا من إقامة المادة من جديد وإقامة الجسد اليهودي بكل غرائزه. ودور المتدينين الفاعل إنما يبدأ، كما كان الحال مع أبيهم الرب، بعد الانكماش. كما حافظ كوك أيضاً على مبدأ الانتخاب. فإذا كان اليهود قد انتخبوا في قصة الخلق ليحملوا كلمة الرب ليفيضوا بها على العالم المادي اللايهودي، فهكذا في قصة خلق دولة إسرائيل، فاليهود المتدينون هم المنتخبون لحمل كلمة الرب و الإفاضة بها على العالم المادي الصهيوني.

يجب التأكيد هنا أن الموروث حافل بالحالات العديدة التي كان فيها للأغيار دور، ينفذون من خلاله ودون وعي منهم، رسالة إلهية، سواء كانوا

طيبين مثل كورش ملك فارس الذي ساعد في بناء الهيكل الثاني أو كانوا غوييم أشراراً، مثل فرعون، الذي يساعدون بأعمالهم السيئة خطة إلهية. إلا أن ملحمة كوك فريدة من نوعها بشكل مطلق. أولاً، من خلال منحها دوراً مقدساً لليهودي اللامتدين. فالموروث لم يعط مثل هذا الدور إ ذا استثنينا الفرنكية[1] التي كان مجالها يختلف نوعياً.وثانياً، بفتواه لخرق الدين كجزء في خلق الصهيونية وثالثاً يقرر الموروث أن كل الأشرار الذين يساعدون الخطة الإلهية بأعمالهم دون أن يعوا ذلك، إنما يعاقبون في النهاية. فهذا ما حصل لكل الرسل الأشرار من فرعون وأشور حتى هتلر. أما اليهود منقذو الدين فلا يعاقبون مباشرة، أو على الأقل لا يعاقبون ماداموا ينهضون برسالتهم. إن دور الرسالة في وسط العالم النجس أُلقي على كاهن اليهود حتى قبل أسطورة الآري، إلا أن هذا الدور أعطي لليهود التقاة الذين يعون أعمالهم ويقيمون الشعائر. وبعض القباليين الخلافيين الذين رفضهم الموروث، مثل ناتان الغزي ويعقوب فرنك، أجازوا للتقاة حتى أن يأثموا من أجل الخلاص. إلا أن مذهب كوك المغالي و القائل أن مهمة اليهودية بالذات هي التقليص الذاتي وفسح المكان للملايين من اليهود العلمانيين الأثمة، والذين حتى لا يعرفون مهمتهم الخاصة، إنما هو جديد مستجد.

يتضح كذلك، كما سنرى لاحقاً، أن المغزى الذي كانت تنطوي عليه مهمة العلمانيين الأشرار (مثل فرعون واشور) قد تناثر في سياق التاريخ، فهاهي مسألة العقاب الذي يستحقه المبعوث الآثم للرب بقيت مفتوحة، أو لعلها كانت تنتظر خروجاً على المهمة يرتكبها يسار علماني.

لقد سمحت الأسطورة بما هو أكثر من ذلك. ففي قبالاة آري ظهرت كارثة التهشيم في سياق قصة الخلق. وكما نذكر، لقد تهشمت المادة الدنيا لأنها لم تصمد أمام النور الإلهي، مما أحدث خللا في الخطة الإلهية. وكل مساعي الترميم، وكذلك الآثام التي خربت مرة أخرى، من إثم حواء فصاعدا، إنما أتت بعد الخلل الأول.

---

[1] نسبة إلى يعقوب فرنك وقد ورد ذكره في فصل سابق -م-.

لقد تنبأت أسطورة الخلق التي قدمها كوك بالمستقبل. ولم يقتصر هذا التنبؤ على قيام الدولة، والتي أورد اسمها «دولة إسرائيل»، بل تنبأ أيضاً بالخلل والتهشم. وكما نذكر، فلقد توقع كوك تمرد المادة العلمانية التي ستحدث الخلل وما يعقبه من كارثة وآلام المسيح، والتي بعدها فقط يأتي الخلاص التام. وبهذا ضمّن كوك وصفه لخلق الصهيونية الوصف القصصي القبالي للخلاص، وأفسح فيه مكاناً لتمرد العلمانيين، وكذلك للعقاب الذي سينزل على رأسهم وللخلاص الذي سيأتي بعدئذ. وبهذا تكون قصة الخلق قد اكتملت. فالخلق الكوكي شامل، من التقليص حتى الإصلاح.

وكما سنرى في السياق، فإن أسطورة الخلق الإنساني التي قدمها الرابي كوك-قصة خلق الصهيونية كنسخة خاطئة عن قبالاة آري كانت ذات قيمة استعماليه كبيرة. إذ لا نظير لها في تفسير أحداث القرن العشرين. إنها منقطعة النظير في انفتاح الأفئدة لها. إذ لم يقتصر أمرها على أنها قدمت التفسير لأحداث القرن العشرين، بل نظر إليها كمتنبأة بها بفضل وقوف الرب إلى جانبها. ولان قبالاة كوك فسرت الصهيونية العلمانية الخاطئة تفسيراً قبالياً خلاصياً، بضفتها تقوم بدور في خدمة اليهودية الدينية التي تقلص ذاتها إلى ذاتها كمرحلة في الخلق، فإنها تنسب بذلك إلى نفسها نجاحات الصهيونية التي لا تفعل أكثر من أن تقوم بوظيفتها المادية، ثم يأتي من بعدها حاخامات القبالاة الكوكية ويوحدون العالم، أي يوحدون ما بين الجسم العلماني وبين الروح اليهودية ليهيئوا النفس الشاملة للمجيء النهائي للمخلص. ولأن ذلك كذلك، فإن قباليي كوك بالذات يكونون هم المفسرون وهم المتنبئون، لا بل صانعو العملية كلها. وهكذا لم يكن من شأن أي نجاح تحققه الصهيونية العلمانية إلا إضافة المزيد والمزيد من الوقود إلى محركات التفسير القبالي المسيحياني المتناقض الذي قدمه كوك. وقد كان قيام الدولة وتأسيسها والهجرة إليها، وهي الأمور التي تنبأ بها كوك، من هذا الوقود. وقد أضيف وقود فريد من نوعه للمحرك المسيحياني عندما أدى إسحاق رابين، وكان حينها حمارا جيداً وليس متمرداً، دوره

الإنقاذي وأضاف مناطق إلى دولة إسرائيل بما في ذلك الخليل ونابلس والقدس العتيقة ذاتها.

لقد شكل انتصار الجيش، ورابين على رأسه، انتصارا باهراً لتسبي يهودا هكوهين كوك، واعتبر، من وجهة نظر أتباعه، إثباتاً على أنه نبي حقيقي مثل أبيه.

كان الرابي كوك قد وضع خلال أعوام رئاسته لمركز الرابي تأكيداً إضافيا على الأرض المقدسة.

يسمح فقه كوك المسيحياني القبالي وضع تأكيد على المهمة الروحية للنخبة الدينية المفترض أن تستولي على المخلوق العلماني، وهو دولة إسرائيل، وهو الفقه الذي سيشهد تنامياً بعد اتفاقات أوسلو والتخلي عن أراض. إلا أن كوك اختار أن يؤكد على الرابطة الوثيقة ما بين تقدم الخلاص وبين الأرض، هذه الرابطة التي تعززت بفعل الانتصار العسكري عام 67. فإذا كان النبي يمتحن بنفاذ نبوءته الطيبة، فإن امتحان الخطة المسيحيانية وامتحان المسيح يكون فيما إذا فعل ونجح. وكان النجاح هائلاً حقاً. والنجاح ملزِم.

يجدر بنا هنا التوسع في تداعيات نجاح الثقافة الثيولوجية اليهودية الجديدة. وللتناقض فإن فقر التاريخ اليهودي بالنجاحات هو بالذات الذي مهد التربة أمام الثورة التي يمكن، حسب اعتقادي، أن نطلق عليها اسم: «الثورة البروتستانتية اليهودية». يحتاج هذا الكلام إلى توضيح. إذا كان يمكن اختزال أساس الفكرة البروتستانية النصرانية، كما صاغها الاتجاه الكالفاني، بكلمة، فهذه الكلمة هي الاختيار الإلهي. لقد تعرضت الفكرة التناخية حول اختيار الرب للشعب اليهودي إلى خصخصة على يد البروتستانتية وأصبحت اختياراً مسبقاً من الرب لأفراد منتخبين. وكيف نعرف من هم الذين اختارهم الرب؟ إنهم أولئك الذين فعلوا ونجحوا. ان نجاح أفراد في العالم الدنيوي يثبت الفضل الإلهي الكامن فيهم أساساً. وهذه الفكرة شجعت التوجه إلى العالم الدنيوي العقلاني مصحوباً بالتأكيد

على العمل والتوفير. فالنجاح المالي المتراكم في الأيدي المختارة إنما يبرهن، شاقلاً وراء شاقل، الاختيار الإلهي وعظمته في كل واحد يصيب الثراء. وقد لعبت هذه الفكرة البروتستانتية الكالفانية دوراً مهماً في نمو الغرب الرأسمالي. إن علو شأن النجاح المادي كقيمة دينية كان يتعارض مع التقليد الكاثوليكي الذي يشجب الثراء تمشياً مع قول المسيح: «أن دخول جمل من سم إبرة أسهل من دخول ثري إلى ملكوت الرب». (صحيح أن الكنيسة نفسها أثرت، لكنها شجبت هذا الأمر عند الأفراد). أما الكالفانية فقد قررت العكس تماماً وقالت إن «النجاح يثبت»، وشجعت بذلك أتباعها على الإثراء باعتباره تنفيذاً لأمر الهي سام.

إن التوجه إلى العالم الدنيوي، حيث النجاح فيه يثبت الفضل الإلهي، شجع الرأسمالية كما خلق أيضاً حركات مسيحيانية بروتستانتية، حاولت أن تثبت أيضاً، من خلال قوة مبادرتها، اختيارها الجماعي وذلك عبر إنزال السلطة السماوية إلى الأرض. وقد نشطت مثل هذه الحركات في أوربا وبرز منها: من بين أخرى، حركة الهوست وحركات توماس مينتسار ودفيد يوربس والكويكرز، ولكنها كانت قوية أيضاً، بل أساساً، في بلاد الاختيار الجديدة، الولايات المتحدة وجنوب إفريقيا. لقد قامت الفكرة النصرانية أساساً على الأعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض-للإنقاذ-، ورغم ما واجهته هذه الفكرة من قمع على يد الأكليروس الكاثوليكي ثم على يد مارتن لوثر، إلا أنها كانت تنهض على الدوام لاسيما وأن البروتستانتية بالذات تشجعها. وفي بلاد الهجرة، مثل الولايات المتحدة، كان الكثيرون ينظرون إلى أنفسهم بصفتهم شعب إسرائيل المختار الذي جاءه الخلاص في أرض التناخ[1] الجديدة.

أما في أرض التناخ القديمة[2]، فكان للصهيونية في بدايتها، وبالذات في ردائها العلماني الاشتراكي، تشابه روحي مع الحركات البروتستانتية.

---

[1] تناخ: كلمة منحوتة من الحروف الأولى من الكلمات العبرية: توراة- أنبياء- كتابات. والتناخ هو الكتاب الذي نطلق عليه، في الشائع، اسم التوراة- م-.

[2] ارض التناخ القديمة: يقصد المؤلف ارض فلسطين – م –

فالصهيونية، على خلاف يهود المنفى، ركزت على العالم الدنيوي مع تأكيدها على التقدم الوئيد، دونماً بعد دونم ومعزاة ثم أخرى، نحو الخلاص في هذا العالم. كانت لدى الصهيونية أسطورة حول شعب دنيوي يسير نحو هدفه بعقلانية وعلى مراحل، شعب يتمتع بمزايا روحية ويشكل العمل بالنسبة إليه هدفاً وقيمة بحد ذاته دون علاقة بالنتاج. العمل من أجل العمل. لقد حاولت ثقافة الصبار الأشتراكي أن تخلق مثالاً جديداً على نقيض مطلق ليهودي الشتات اللامنتج حسب تقديرها، من خلال تركيزها على هذا العالم وعلى النجاح فيه. أن اوري، الصبار الميثولوجي، كان ذا تقاطيع تشبه الأسد، بغرة شقراء وعينين زرقاوين وجسد متين. وقد أثبت هذا الصبار، من خلال نجاحاته، أنه المختار، وأثبت بشكل خاص صحة ونجاح المشروع الصهيوني التاريخي. فالصهيونية، إذاً، استخدمت نموذجاً معلمناً عن الفكر الكالفاني.

أضاف الرابي كوك وحركته إلى الثورة البروتستانية الصهيونية في اليهودية النواة الدينية اليهودية بمسوح جديد مستحدثة. فلقد شعروا أنهم نخبة النخبة. وكان رجال كوك يعتقدون أنهم يرون غاية التاريخ الخفية وأنهم حملة رسالة مسيحيانية متفردة. فالاجتهاد الكوكي أعطى النجاح قوة إضافية إذ اعتبره دالا على الإشارة الإلهية التي تثبت وتحسم بأن هذا الطريق الصحيح وأنه الطريق الذي اختاره الرب.. وأنه هو الخطة الإلهية. ومن وجهة نظر كوك، فان الخطة الإلهية واضحة له تمام الوضوح: وتتمثل بأسطورة خلق الصهيونية من داخل اليهودية كما وصفت أعلاه. وهذه الأسطورة، كما في البروتستانتية، تركزت على العمل الدنيوي وعلى أن البرهان على صحته إنما يكمن في نجاحه بالذات.

وعندما تكون الأسطورة منطوية على أمر متناقض يعطي الحق بخرق جماهيري للدين، فمن المستحسن أن تثبت الأسطورة نجاحها.

تحمل قبالاة آري، وهي التي تركت الأثر الأعمق على قبالاة كوك، ثورة بروتستانتية في أحشائها. وذلك من جهة تأكيدها أن الخلاص لا يصلح العالم دفعه واحده، بل إنه-إصلاح العالم-يتم عبر خطوات بطيئة، خطوة

خطوة، وأن أغلب أعمال الإصلاح إنما هي أعمال أفراد مختارين والذين بعد نجاحهم واستكمالهم للإصلاح في الأرض يأتي خلاص العالم بطريقة سحرية. فالخلاص من عند الرب لا يأتي إلاّ بعد أفعال الإنسان اليهودي. وزاد كوك على هذا بأن أكد ليس فقط على الفعل الفردي، بل على الجماعي، الفعل في هذا العالم التاريخي الواقعي.

وأكثر من ذلك، فكما في البروتستانتية الكالفنية، كذلك عند كوك، فالأفعال على الأرض، الأفعال التي تأتي بالخلاص، ليست أفعالا دينية في منطلقها، بل هي أفعال دنيوية واقعية تعطيها الثيولوجيا الجديدة قيمةً ومعنى دينيين. وكما يليق بالتفوق اليهودي، فلقد تفوق كوك على كالفن، فلم يكتف بالأعمال الدنيوية الصريحة في لا دينيتها، بل تجاوز ذلك إلى الخطاة الحقيقيين. فالذين يقومون عنده بالأفعال المقدسة إنما هم العلمانيون الآثمون بحق الدين، فنجاح هؤلاء المبعوثين الغريبين، مجرمي إسرائيل، هو الذي يعطي البرهان على الاختبار الإلهي.

إلى الإرث القديم القائل أن كل شيء مناط بالسماء وان كل ما يحدث في العالم إنما يحدث حسب مشيئة الرب، وإلى معنى النجاح باعتباره إثباتاً لنبوة النبي الحقيقي، إلى هذا أضاف كوك مساهمته التي اعتبرت النجاح دليلاً على الانتخاب الإلهي. فالنجاح يولد اليقين بما يخص إرادة الرب كما تتجسد في التاريخ الواقعي. فوفق النجاح والتقدم في إنقاذ الأرض، قطعة بعد أخرى، واستيطاناً بعد آخر، وانتصاراً عسكرياً بعد انتصار، تجري البرهنة على الزمان المسيحياني المظفر.

وفي الواقع الذي أنتجه انتصار عام 67، غدت الإجابات التي أعدت في مدرسة الرابي كوك قوة منتصرة، وعملت هذه القوة لصالح شبيبة الصهيونية المتدينة العطشى لدور وموقع. ولكن ليس لصالحهم هم فقط. إذ يتضح أن التربة كانت قد مهدت جيداً. فلقد شهد الجيل الذي جاء في الفترة الواقعة ما بين موت الرابي كوك الأب عام 1935 وبين حرب الأيام الستة، شهد حدوث الكارثة وقيام دولة إسرائيل، تماماً مثلما هو وارد في

نبوءات كوك حول آلام مخاض المسيح و الخلاص. وعمل المركز، تحت قيادة الابن، في التعليم والتوضيح والتعميق وأيضاً في تدريس نظرية الأب القبالية المسيحيانية في الخلاص عبر وضع تأكيد خاص على الأرض. وفي الجيل الذي جاء بعد الأب تمأسس المركز وأتسع واستغل حقيقة كونه صهيونياً وحريدياً تقريباً ليحصل على تمويل علماني وعلى تبجيل ديني في وقت واحد. ولأن هذه المدرسة التي أطلق عليها اسم مركز، اعتبرت هامشية وغير ذات شأن، لذا لم يثر تمأسسها وتجذرها أي إحساس بخطر مسيحياني، لاسيما أن المركز كان يتمتع بالقدرة على تبني لغة غير مسيحيانية، بل براغماتية كما بدت للخارج.

لقد عمل مركز الرابي بزخم كبير في ترويج مفاهيم الرابي كوك في وسط الصهيونية الدينية، فرجاله هم الذين بادروا، دون أن يعلنوا عن انتمائهم، بمشروع المدارس الدينية الداخلية، والكوادر والمعلمون الذين عملوا في تعميق الدين وعلى نشر التفسير المسيحياني في أوساط الشبيبة كانوا من خريجيه. وكما كان الحال مع الصهيوني العمومي، كذلك كان الأمر مع مركز الرابي، فوجود نظرية شاملة تقول بأهمية الفعل وتقول إن المجموعات الطلائعية هي التي تجسد هذا الفعل، أدى إلى خلق طاقة علمانية ضخمة.

تحت قيادة كوك الابن، جرى التأكيد على ثلاثة عناصر في نظرية الأب القبالية التفسيرية لأحداث التاريخ. فأولاً جرى التأكيد على مسألة الأرض إذ جاءت الأرض الإسرائيلية المقدسة ضمن الثلاثي المقدس: توراة وشعب وأرض، حيث يكون لتحرير كل شبر من الأرض تفسير غيبي. وثانياً تم وضع تأكيد على النجاح بصفته دلالة تاريخية على صوابية الطريق. وكانت مدرسة كوك تحتفل بكل حدث يأتي مصداقاً للخطة الإلهية الإنقاذية مثل إقامة دولة إسرائيل وحرب الأيام الستة. أما التأكيد الثالث، فكان على المجموعة البشرية ذات الدور المميز في السيناريو المسيحياني، وهذه المجموعة البشرية هي الصهيونية الدينية والشابة منها على وجه الخصوص. فهذا الشباب، بفعل فهمه للسر المسيحياني الكامن في الصهيونية، قادر على

مسك الحمار من إذنيه ومباشرة تنفيذ المطلوب وهو الامتطاء الديني للمشروع العلماني النجس لكن ذي الدور. إلا أن الابن، على خلاف أبيه، شاهد بأم عينيه هذه المجموعة البشرية المختارة وهي تقوم وتتكون، وكان هذا أيضاً بفضل أعماله في العالم الواقعي. وهكذا فإن توقع الأب بشأن حكماء المخبوء الدينيين ما عاد توقعاً غيبياً نصف سلبي، بل تحول في نظرية الابن ليصبح صيحة حرب وخطة عملية تماماً.

لقد تلاءمت نظرية كوك الأب وتأكيدات كوك الابن بشكل دقيق مع ما كانت الشبيبة الصهيونية المتدينة في حاجة إليه بعد عام 67 ألا وهو الوحي السماوي.

وفرت نظرية الأب للشباب، وبروحية عملية التجلي المسيحياني، الإجابات الغيبية على نكسات الدهر ونجاحا ته وأعطتهم في الوقت ذاته الدور المشتهى النابع من تكليف رباني مسيحياني والذي يلقي على عاتقهم مهمة الاستحواذ على المخلوق العلماني، وما يعنيه هذا من شهادة على نخبوية الشباب الديني وعلى دوره كقائد للشعب زد على ذلك أن نظرية كوك طرحت أيضاً برنامج عمل دنيوياً بالكامل، مما جعلها تجذب خلال وقت قصير أغلبية الشبيبة الصهيونية المتدينة إلى عقيدتها وإلى برنامجها العملي. وفي أثر الشبيبة، وإنّ كان ببطء أكبر، جاء الآباء أيضاً ومعهم مندوبوهم السياسيون في الكنيست. ولم يمض عقد من الزمن حتى أضحت مفاهيم الرابي كوك تتمتع بسيطرة دينية على الأغلبية المطلقة في المعسكر الصهيوني الديني، واختفت الصهيونية الدينية القديمة التي كانت تؤمن بالتنوير و الديمقراطية والاشتراكية والتعاون مع القيم الغربية عن مسرح التاريخ كما لو أن الأرض فتحت فاها وابتلعتها. ولقد فتحت الأرض فاها عن حق. فها هو كوك يشرح في عقيدته أن أساس كل الفجيعة الإنسانية يعود إلى تصرف كورح الذي قال إن القطيع كله مقدس للرب، منكراً بذلك قدسية المختارين اليهود، لذلك ابتلعته الأرض. وبلغه كوك:

«القول بأن القطيع كله مقدس إنما هو هزؤ بكل مضمون مقدس.

لذلك وجب الجحيم عليه». على الأرض اليهودية المقدسة ليس ثمة مكان لأفكار المساواة. وكل الذي كان صهيونياً دينياً شرع في التنبؤ بلغة موحدة. فقد غدوا كلهم كوكيين وتغير قاموس اللغة دفعة واحدة.

لقد تسارعت المسيرة الكوكية المسيحانية بفعل صيرورتين تاريخيتين مترابطتين: الأولى اجتماعية سياسية وأسفرت عن تغير الحكم في إسرائيل لأول مرة في تاريخها واستيلاء اليمين وبعض المتدينين على السلطة عام 67. وهذه السلطة فتحت الأبواب، من بين أمور أخرى، أمام الاستيطان في يهودا وسامرة. والصيرورة الثانية كانت ثقافية اجتماعية أسفرت عن أفول الصبار بوصفه النموذج المعياري الإسرائيلي. لقد حكمت الحركات العمالية الوجود اليهودي في إسرائيل بدءاً من الثلاثينات حتى عام 77، سياسياً وثقافياً، وخلقت أسطورة الصبار اليهودي العمالي الطلائعي الذي قيل أنه يحيا ويعمل في هذا العالم على نحو علماني لا ديني، وقد ترافق ذلك بتنشيط جهاز قيمي رجولي شخصي محارب من أجل العالم الإسرائيلي. ولقد هيمنت صورة الصبار على الأجواء من خلال إثبات حضور مهيمن في الثقافة والاستيطان والجيش. إلاّ إن هذه الهيمنة استندت دوما إلى أقلية بشرية حملتها على أكتافها. صحيح أن هذه الأقلية كانت واسعة ألا أنها لم تكن أغلبية. لقد تقبلت مجموعات عديدة في الواقع الإسرائيلي الهوية الإسرائيلية بروح الصبار العلماني إلا أنها لم تكن مؤمنة بها حقاً. ففي الأيام التي جاءت بعد الكارثة وبعد قيام الدولة والهجرة الجماعية لم تكن أياً من تلك المجموعات تستطيع أن ترفع رايتها لذا بدا أن الصبار العلماني هو المنتصر. ومما ساعد على هذا حقيقة أن كل واحدة من تلك المجموعات كانت قد أصيبت بنائبة. فيهود الشرق كانوا يشعرون فور هجرتهم أن التغيير الذي حل بنمط حياتهم كان قد كسرهم، والحريديون من الجهة الأخرى كانوا محطمين بفعل الكارثة التي أبادت يهود أوربا، وهذا بالطبع كان حال الناجحين وكذلك حال المجموعة التصحيحية المهزومة. وحتى أبناء الصهيونية الدينية الحليفة التي سارت

خلف بن غوريون لم يجدوا في أنفسهم في الأيام الأولى للدولة القوة الكافية للتعبير عن أنفسهم.

لقد كان الوقت الذي مر ما بين عامي 48-77 كافياً لإعلاء صرخة التحدي التي أطلقتها تلك المجموعات التي عاشت حتى ذلك الوقت تحت البساط والتي كانت تشكل مجتمعةً أغلبية ضئيلة، وكافياً كذلك لجعلها تقيم تحالفاً فيما بينها على هدف واحد وحيد وهو إسقاط الحكم العمالي.

كانت الشريحة الاشكنازية العمالية ذاتها، مع غياب فئة المؤسسين، التي كان للأبناء موقفٌ مختلطٌ إزاءها من التقدير والخنوع والغضب، قد بدأت بفقدان الثقة بنفسها وبخاصة بعد حرب يوم الغفران وبعد هزيمة عام 77 التي جاءت على أثرها.

كانت هوية الأبناء قائمة على صراع عملي مستديم أكثر من قيامها على تفسير إنساني ومتين ومغاير للتاريخ وللإرث اليهوديين. لقد كان مثل هذا التفسير موجوداً وقائماً في صدور آبائهم المؤسسين، إلا أنه لم يتأصل ولم ينتقل إلى الأبناء فاختفى مع اختفاء الجيل المؤسس. ولم يبق إلا المنتوج، أي الدولة.

ولأن ذلك كذلك، لم يستأنس الأبناء من اللحظة التي توقفوا فيها عن مواصلة الاستيطان العملي في مناطق يهودا والسامرة، في أنفسهم الثقة لبلورة إرادة الاستيطان الشخصي في إطار مفهوم وهوية جماعية مستقرة «طبيعية» غربية يهودية تتماشى مع زمن السلم. وفي غياب هذه القدرة على رفع راية الهوية العلمانية اليهودية- الغربية الجامعة لزمن السلم- تلقفت راية المحارب الطليعي المستوطن أيدٍ أخرى. إلى داخل الواقع الإسرائيلي الذي بدأت بر جزته بعد عام 67 تكشف ضبابية شخصيته، والذي يسمح فيه الوقت الذي جاء بعد الانتهاء من ترميم جيل الكارثة والهجرة، برفع التحدي في وجه مركزه، إلى هذا الواقع تسلل، وبزخم، الشباب الصهيوني المتدين مزوداً بعقيدة مسيحيانية وبأجوبة على سؤال الجيل وببرنامج عملي واقعي. وسرعان ما تبنى شارات الطليعي. فعلى منوال ثقافة الحدود

الأمريكية، أضافت هذه الحركات البندقية والقمصان المربعة، والبندقية إلى الصورة المسلحة بالقبعة والتي أصبحت هي الآن مستوطنة الحدود. إلا أن الحدود من وجهة نظرهم تقع في قلب البلد.

لقد كان المشروع الاستيطاني مشروعاً محسوباً جيداً وواعياً لنفسه، وكانت رأس حربته غير موجهة نحو العرب كما يمكن الاعتقاد، بل موجهة نحو الداخل، ضد العلمانيين والأشرار منهم بشكل خاص واليسار على رأسهم. فلم يكن العرب يشكلون من وجهة نظرهم تهديداً لهم، بينما السلطة العلمانية الراهنة بعقيدتها الصهيونية هي التي تشكل هذا التهديد. فعلى نقيض الفهم الصباري للاستيطان الذي كان يحاول تجاوز المناطق المكتظة بالعرب وركز على استيطان المناطق الخالية في البلاد، فإن رجال كوك تجاوزوا العرب بطريقة أخرى وهي عدم الاعتراف بوجودهم من أساسه. فالعرب لا يشكلون أية مشكلة بالنسبة للكوكين لان الأخيرين، واستنادا إلى مادة وافرة في الأصول، رأوا أن العرب لا بد أن يذهبوا بطبيعة الحال، وإذا بقوا فلابد أن يبقوا فاقدي أية حقوق. ومشكلتهم الرئيسية إنما مع الإرادة اليهودية. لقد كان المشروع الاستيطاني الكوكي سياسياً وبسيطاً وموجهاً نحو الدخل يحكمه منطق أنه إذا استوطن ما يكفي من اليهود في مناطق يهودا والسامرة فلن تكون هناك حكومة مهما كانت يساريتها تملك ما يكفي من القدرة السياسية لإخلاء مستوطنين يهود والإضرار بأسطورة الاستيطان لان هذا يعني المجازفة بحرب أهلية.

لذلك لم يكن المقصود بالاستيطان التأثير على الخارطة العالمية أو على الشكل الذي ستتقسم به البلاد حسب ما يرى العالم، بل التأثير على الخارطة الداخلية. ومثلما أقام الصبار العلماني المستوطنات في وجه السلطة البريطانية، بهذه الطريقة نفسها أقيمت المستوطنات. إلا أن السلطة العدوة هذه المرة كانت الحكومة الإسرائيلية المقدسة ظاهراً.

إن جوهر الحرب الأهلية-حرب ثقافية وحرب أهلية-كان قائماً كما قلنا منذ البداية في نظرية الرابي كوك الأب. فالقداسة التي نُسبت إلى

العلمانية إنما نسبت إلى أفعالهم الاستيطانية فقط، إذ إنهم ينفذون بتلك الأفعال دوراً في المشروع الإلهي المسيحاني الذي يتجسد على أيدي العصاة. وحتى صورة العلماني نفسه، الحمار النجس العماليقي، بقيت في عالم كوك شريرة على الإطلاق. ومن هنا فعندما يتوقف الحمار عن السير وفق الخط يفقد قدسيته ويصبح خادماً لبلعام الشرير، وحينها يصبح جائزاً، بل واجباً، كما يفتي كوك الابن، محاربة العلمانيين وحتى سفك دمهم. وقد قيل هذا فعلاً قبل اغتيال رابين بعقدين. في الخمسينات، سار كوك الابن في مظاهرة مقدسية ضد تدنيس السبت. وعندما سئل كيف يتظاهر ضد الدولة المقدسة وهي كرسي الرب على الأرض حسب نظرية كوك، أوضح أنه لا بد من الامتثال لأوامر رابي المدينة والتظاهر، إلا أنه هو يسير فقط في هذه المظاهرة ولا يشترك فيها حقيقةً، إنه لا يجوز التظاهر ضد الحكومة المقدسة.

إلا أن ما كان صحيحاً في الخمسينات لم يعد صحيحاً بدءاً من سنوات السبعينات. فإذا ضربنا صفحاً عن إحساس المشروع الكوكي بقوته المتنامية، فقد بدا أنه يدخل إلى مرحلة جديدة، وهي المرحلة التي ينبغي فيها إفاضة النور اليهودي على المادة العلمانية الدنيا، وهي المرحلة التي يحدث فيها الخراب وتهشيم الأواني العلمانية التي لن تصمد أمام النور الإلهي الديني.

بعد عام 67، وبقوة مضاعفة بعد عام77، بدأ مجال استيطاني جديد في النمو في المجال الحيوي في الشرق.

لقد كانت منطقة التوطن [1] اليهودي التاريخية تقع تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية القيصرية وشملت مناطق في ليتا الكبرى وفي بيلاروسيا وأكرانيا وبولونيا الروسية. ففي هذه المناطق فقط كان الوجود اليهودي مسموحاً. وقد كانت أغلبية الشعب اليهودي في منتصف القرن

[1] منطقة التوطن اليهودي: يقصد بها الأماكن التي كان مسموحاً لليهود الإقامة فيها في الإمبراطورية الروسية.-م-

التاسع عشر، قبل الكارثة وقبل الهجرة متركزة فيها. لقد عاش اليهود في هذه المناطق داخل بلدات كانوا يشكلون الأغلبية فيها، بينما كانوا أقلية بالنسبة إلى المحيط العام، إذ إن الوسط الريفي الشامل المحيط بهم كان غير يهودي، بل كان معادياً. كما أن السلطات كانت تسمح، ووقت الأزمات تشجع، الأعمال العدائية ضد اليهود. في هذه المناطق وهذه الظروف تبلور الوعي اليهودي الحديث وازدهرت الحسيدية الشعبية وفيها نمت المستوطنات اللاتفية الأرستقراطية وفيها نمت العوالم الروحية الرمزية كما نبتت فيها حركة التنوير اليهودية الحديثة والصهيونية.

ما ميز هذه المناطق هو العلاقات البين يهودية فقط رغم كونهم أقلية ضمن المحيط العام. أما منطقة الاستيطان الكوكية في يهودا والسامرة فقد تميزت بشروط مسيحانية فاخرة مما قلب معنى منطقة الاستيطان رأساً على عقب. فاليهود الآن هم الذين يحتلون رأس التلال وهم السلطة فيما يقبع العرب في الأسفل. أما تجاهل الكوكيين للعرب فلم يأت بفعل الضرورة أو كبديل روحاني، بل كان ثمرة استبداد القوة. لقد أصبحت منطقة الاستيطان اليهودي في يهودا والسامرة مركزاً للصهيونية الدينية الواقعة تحت الهيمنة القبالية المسيحانية الكوكية. فمن أعالي منطقة الاستيطان بدا لهم العالم العلماني كعالم أدنى ينتمي إلى مرحلة سابقة من مراحل الخطة الكوكية. وماذا بشأن الغوييم الذين في الأسفل؟ أنهم غير موجودين أبداً؟؟ في داخل المنطقة الاستيطانية والقدس معها نمت واتسعت مفاهيم كوك، واستوطن ربابنة فيها. إنها حضارة جديدة تبزغ هنا.

في الحركات المسيحانية، كما في الحب، تصبح الرغبة التي تعززها بعض الإشارات في الواقع، تصبح واقعاً داخلياً أكيداً. وهكذا لاح وكأن المسيح قد حل بالفعل. وما حدث عند الشاباتية ثلاثمائة عام قبل عام67، حدث مجدداً عند الصهيونية الكوكية وبخاصة عند الموجود منها في المنطقة الاستيطانية في يهودا والسامرة. فلقد أصبح الحلم اليهودي حقيقة واقعة في صدور المؤمنين، وضعاف الإيمان فقط هم الذين لا يرون

هذه الحقيقة بل يؤذونها. وكما في حركات مسيحانية عديدة بدءاً من عيسى مروراً بشبتاي تسفي وانتهاء برجال لوبا بيتش في عهدنا الحالي، أصبحت مسألة الإيمان هي الأساس. من هذا المنطلق أطلق أوائل النصارى على أنفسهم لقب «المؤمنين»، وهو اللقب نفسه الذي أطلقه أتباع شبتاي على أنفسهم. وفي حالة كوك الذي تمحورت نظريته على إحلال الخلاص عبر استيطان الأرض، أصبح الإيمان بأرض إسرائيل الكاملة هو المسألة الحاسمة. وبهذا يكون المجال السياسي قد أصبح هو المسألة الحاسمة التي تفرز الذي يؤمن مثلنا بحلم الأرض الكاملة من أولئك اليهود الذي يساعدون أعداءنا من خلال معارضتهم للخطة الإلهية. وعلى هذا الأساس قامت حركة «غوش امونيم[1]». لقد ازدهرت في يهودا والسامرة حضارة دينية كاملة بمؤسسات عديدة و موازنات مالية ومدارس دينية واصلت رسالة المدارس الدينية الثانوية. وتمشياً مع روح كوك فقد أجازت هذه الحضارة الخدمة العسكرية على أن تكون تحت رقابة الربابنة الذين ينتمون في معظمهم لمسيحانية كوك. إذ اعتبرت الخدمة العسكرية والقتالية منها بأنها مهمة عامة هدفها الوصول إلى قيادة المشروع الصهيوني كما وعد كوك. فبشكل محسوب وواع تم ارسال شباب الصهيونية المتدينة لأخذ مواقع قيادية في الجيش مع المحافظة على رقابة مدارسهم عليهم وذلك عبر استغلال المدارس الدينية التي تمزج ما بين وقت الجيش ووقت التدريس مما يسمح بتكوين قوة عسكرية متجانسة منصاعة لربابنة كوك المسيحانيين.

في داخل المناطق، وفي كريات أربع وبيت ايل على نحو خاص، تشكلت نخبة ربانية كوكية صاغت مبادئ العقيدة الكوكية صياغة جيدة وبزخم هائل وحدية. في هذا المركز الديني الجديد قام ربابنة مثل دوب ليئور، رابي كريات أربع ورئيس المدرسة الدينية فيها، وزلمان ميلاميد، رابي بيت ايل ب، وموشية فيلدمان، وكانوا يتلقون المساندة من المركز

---

[1] غوش امونيم: تعني كتلة الايمان أو جماعة المؤمنين.- م-

الديني الأقدم وربابنته مثل تسبي نيريا وشاؤول يسرائيلي وابراهام شابيرا ومردخاي الياهو وحاييم دور كمان، وطبعا من يهودا كوك نفسه إلى حين وفاته عام 1891. وهذه النخبة من الربابنة أصبحت هي مصدر المعنى الأساسي بالنسبة للشبيبة الصهيونية الدينية. وهنا أيضاً بدا للمؤمنين أن نبوءة كوك حول المرحلة التي يفيض بها الأولياء، الأولياء الموجودون في المركز، قد أخذت تتحقق. انه لعظيم وكبير مركز الرابي.

يعيش مركز الربابنة، الناشط الجديد والذي نما في داخل يهودا والسامرة، في يقينية مسيحانية مطلقة. فبالنسبة له ليس ثمة بد من الخلاص الثالث، فهذه العملية حتمية ولا راد لها. قد يكون هناك مد وجزر في مسيرة الخلاص، إلا أن الاتجاه ثابت، والمد والجزر يتوقفان على أفعال الشعب، فأفعال الإيمان والاحتلال هي أفعال طيبة، كما أن هناك أفعالاً تعيق الخلاص لا سمح الله.

ثمة مذهب منطقي ومنظم عند الرابي ليئور، رابي كريات أربع، وعند قوة ربانية أساسية ذات تمثيل ونفوذ (نورد الرابي ليئور هنا بصفته يشكل نموذجا للكثيرين، حتى أنه كان يمكن أن يصل إلى منصب الحاخام الرئيسي لولا ذيوع الاشتباه بأنه كان متورطا في الأعمال السرية). وهذا المذهب يقوم كله على العقيدة المسيحانية الكوكية. فوفق هذا المذهب هناك مكافأة وعقاب واضحان على كل أمر. وأن سفر أيوب لم يفهم من قبلنا كما يجب. فلقد حدثت الكارثة، وفق هذا المنطق، لأن اليهود أخطؤوا ولم يهاجروا إلى أرض إسرائيل بعد وعد بلفور، وحرب لبنان هي عقاب على إخلاء يميت، وكذلك كانت الانتفاضة هي العقاب القاسي على الخروج من لبنان. فكل منطقة تقع ضمن حدود الوعد لابد من احتلالها ان استطعنا إقناع الشعب بذلك، أما ما هو موجود بين أيدينا فيجب عدم التنازل عنه ولا بأية حال من الأحوال. وهنا لا مجال للأخذ بقاعدة إنقاذ النفس، فالأولوية للأرض. وما دام هناك عرب في الأرض فنحن في حالة حرب، إذ لا يوجد بين العرب من هو بريء، وينبغي المبادرة إلى ضربهم

حتى في مدينة سليمان أو في غيرها. والمشكلة الوحيدة في هذا الصدد هي السلطة عديمة الإيمان.

إن مشكلة الجمهور العلماني هي عدم الإصغاء وعدم فهم اللغة. فعلى سبيل المثال، وقبل أكثر من عقد، تحدث الرابي دوب ليئور، في سياق مسلسل إذاعي لي حول الثورة في الصهيونية الدينية، تحدث بشكل صريح وقال إن «تعريف البريء لا ينطبق على السكان العرب كلهم ونحن في حالة حرب مع الجميع، نساء وأطفال وأولاد».

لذا لم يكن من باب المصادفة أن يصرخ نوعم فريدمان مطلق النيران في الخليل وهو يُعتقل: «تعريف البريء لا يصح عليهم...» إلا أن الإذن العلمانية لم تدرك معنى هذه الكلمات عندما أذيعت من الراديو، وبدا لها أن الذي خارج السياق هو ما يقوله هذا الرجل.

كان دوب ليئور طبعاً من المراجع الروحية للحكة السرية الأولى، كما كان مرجعاً روحياً لباروخ غولدشتاين الذي قال ليئور عنه: «أنه أكثر قداسة من ضحايا الكارثة». إن الاعتداء على العرب لا يحتاج إلى أكثر من الإعلان الشرير المثير والشامل: «نحن في حالة حرب» مع القول إن: «كل العرب لا يصح عليهم تعريف البريء».

يمكن تلخيص الفهم المسيحاني الجديد بالأسس الثلاثة التي تنتظر أفعالاً(وأي شيء مهما كان تافهاً لجلب الخلاص).

نحن الخلاص الثالث الحتمي.

جوهر الخلاص يتمظهر بكمية الأرض التي نسيطر عليها.

ليس للسلطة أو للجيش قيمة بذاتها، فقيمتهما تتحدد بالأفعال التي يفعلونها لمسيرة الخلاص.

يمكن القول إن كل من يجتاز سامبتيون[1] الأسس الثلاثة الآنفة ينتقل من كونه صهيونياً إلى مسيحاني على استعداد لمحاربة الصهيونية العلمانية.

---

[1] سامبتيون: نهر اسطوري موجود في مكان ما خلف جبال الظلمة دائم الثوران وقذف الحجارة والحصى لدرجة لا يمكن اجتيازه إلا في أيام السبت حيث يهدأ. - م-

إذ يبدو لكل من يجتاز تلك الأسس أننا وصلنا إلى المرحلة الأخيرة من عملية الخلق التي قام بها كوك، وهي مرحلة التمرد العلماني الذي ستقضي عليها الأبوكوليبسا.

لقد آمن بهذه العقيدة أغلب ربابنة الصهيونية الدينية بدءاً من منتصف الثمانينات. إذ إن أغلبيتهم اجتاز الامتحان وأصبحت الخدمة بالجيش بالنسبة إليهم خدمة في جيش الهجوم بدلاً من أن تكون خدمة في جيش الدفاع الإسرائيلي. وفي الوقت نفسه فقد الانصياع لأوامر القادة مفهومه التلقائي.

كل حركة مسيحانية تشهد إرهابا مسيحانياً ضد غير المؤمنين وبالذات في الأوقات التي تواجه فيها الخطة الإنقاذية بعض الصعاب. إذ إن المؤمنين يعتقدون أن العوائق تحدث بجريرة غير المؤمنين. وبلغة كتاب «نظرية التعصب» للرابي يعقوب عمدين حول الفترة الشاباتية: «لقد كره المؤمنون أكثر من كل شيء آخر أولئك غير المؤمنين ولو استطاعوا شرب دمهم لفعلوا».

الدم لم يشربوا، أما أعمالاً إرهابية ضد من يُعتقد أنه معيق للخلاص فقد فعلوا كما هو معروف. لقد تحدثنا فيما سبق عن الأعمال الإرهابية وسنتحدث عنها مرة أخرى في هذا الكتاب. إذ يجدر بنا التوسع في منطقهم الذي يقول إن النظرية تتوضح على ضوء التطبيق في أرض الميعاد. فمنذ البدء ربطت نظرية كوك الخلاص بالخطايا المقدسة التي يرتكبها مبعوثو الرب ضمن خطة الانقاذ، مع أنه لم يكن واضحاً في الحالات الإرهابية اليهودية أن وجهتها كانت ضد الخطاة. وقد تمسكت هذه الأعمال الإرهابية التي اعتبر الكثير من منفذيها أنها تحظى بمصادقة الرابي ليئور وأنها تحت تأثيره وروحية ربابنة آخرين كذلك، وأنها تطبيق لنظرية كوك حول الخلاص عبر الخطيئة- أي أنها كانت تخطيطاً مسيحانياً عقلانياً دقيقاً وليس مجرد عمل تعسفي انفعالي.

لقد حاولوا توجيه كل الأعمال التخريبية السرية إلى نقطة

أرخميدس، أي النقطة التي تعني إصابتها تغييراً في التاريخ وتوقف التلكؤ في المسيرة الخلاصية. لقد كانت الحركة السرية الأولى تحت القيادة الروحية ليهودا عتسيون، قبالي وفيلسوف كوكي خلاق ومثير للإعجاب، مع تأثير أقل للربابنة وفيلدمان وليفنغر.

وكان لهذه الحركة هدفان: الأول منهما، وقد تحدد بعد المسيرة السلمية وإخلاء يميت، وهو الأقل شأناً من الاثنين، فتلخص بضرورة إيقاف الاستمرار الخطير للمسيرة السلمية التي تؤثر سلباً على تقدم خلاص الأرض، ويتم هذا الإيقاف بالاعتداء على العرب لاعتقادهم أن مثل هذا الاعتداء سيسفر عن موجة من العنف المضاد الأمر الذي سيضع حداً للمسيرة السلمية. كما كانت هناك نية أحبطها الشاباك في اللحظات الأخيرة لتفجير ست حافلات عربية مليئة بالركاب.

أما الهدف الثاني للحركة السرية، وهو الهدف الأساسي والذي قال عنه يهودا عتسيون أنه يكرس له كل حياته، فكان تفجير المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد تم التخطيط لهذا التفجير بدافعين: الأول هو تطهير البقعة القبالية الغامضة، أي المقام الأرضي للرب، من الأوثان الإسماعيلية، بشكل يقوي ويسرع الخلاص. أما الدافع الثاني والأساسي فكان الاعتقاد أن هذا التفجير سيثير حرب يأجوج ومأجوج إسلامية ضد اليهود، وقد تكون حرباً ذرية، وقد يفنى الكثيرون فيها، إلا أن المسيح سيأتي بعدها، لأن الخلاص الثالث لامناص منه.

وكذلك فعل بارخ غولدشتاين إذ اختار موقعاً دينياً حساساً، مغارة المكفيلة، وعيد الانتقام من الغوييم، أي عيد البوريم الذي قتل فيه اليهود الآلاف من مبغضيهم، لتنفيذ فعلته. وبالفعل وكما أمل غولدشتاين، جرّت فعلته في إثرها أعمالاً انتقامية من قبل حماس مما ساعد على صعود اليمين وتعزيز الخطة الخلاصية.

أما قاتل رئيس الحكومة فلقد توجه إلى إسرائيلي فرد لأنه كان بإمكانه، بفضل ماضيه العسكري وشعبيته، أن يقود المسيرة. وكما قلنا فإن

رابين اغتيل على نحو عقلاني كسياسي يحظى بشعبية وليس كصانع سلام. وبالفعل، فلقد فشل خليفته اللامحبوب، وأصبح السلام الذي يعيق الخلاص مدحوراً.

لقد كانت الحسابات بما يتعلق بمعيقي الخلاص عقلانية ودقيقة، ولم تتأخر أعمال القتل إلا لأن هناك من اعتقد، خاطئاً، أن القتل سيعود عليهم بالضرر عملياً وليس لأنه مرفوض أخلاقياً.

بدءاً من الثمانينات لم يعد بالإمكان الحديث عن ثيولوجيا صهيونية دينية غير تلك الخارجة من مدرسة الرابي كوك. لقد تم استكمال عملية الاستيلاء التام على الصهيونية الدينية لدرجة أن راب معتدل نسبياً مثل الرابي عميطال نُبذ من المعسكر من جراء اعتداله النسبي، وبقي لستة أعوام لا يستطيع الظهور في بني عكيفا. وكذلك تمت الإطاحة بالرابي المعتدل فرومان عن ربانية تكوع. وعلى المنوال نفسه أصبح يوئال بن نون، وهو من رجال مركز الرابي والقائلين بأرض إسرائيل الكاملة، منبوذاً لا يستطيع في مستوطنته عوفرا جمع الحد الأدنى من الجمهور.

وقد أُسكت تماماً وأصبح خارج الدائرة بالنسبة للجمهور الصهيوني المتدين كل صوت يخرج على معسكر المعنى القبالي المسيحاني. كما أن النقاشات في داخل المعسكر المسيحاني غدت داخلية على وجه الإطلاق. وكان الرابي شلومو أفينار هو الوحيد الذي ناهض قرار عصيان أوامر الجيش لأنه عنى تمرداً ضد الدولة. وافيناركما نذكر، هو رابي بيتايل ب ورئيس المدرسة الدينة عطيرت كوهنيم، وكان مستغرقاً في حياكة ملابس الكوهين الأكبر وفي استعدادات مسيحانية كثيرة. وقد كانت معارضته تنبع من تفسير قبالي مسيحاني يختلف اختلاف ضئيلاً عن تفسير رفاقه. إلا أن هذا لم يشفع له. فلم يعد ثمة مكان لثيولوجيا أخرى.

وكذلك الأفعال، مثل التمرد الصريح الذي قام به جماعة هذه أرضنا وبني ألوان، حتى وإن لم تجد الدعم الجارف، فإنها أيضاً لم تتواجه بمعارضة. وكما هو الحال في أوضاع مسيحانية أخرى، فزيادة الخير خير.

لقد استمر الربانة الذين يُحسبون معتدلين، حتى بعد انضمام نتنياهو الظاهرى إلى المسيرة السلمية، في تمني حدوث حرب، واستمروا في الإيمان بالحرب التي ستفجر كل شيء والتي سيتم بنهايتها طرد العرب من البلاد، ليستطيع المخلص القدوم إلى أرض نقية. لقد تلاشت أية أصوات غير تلك التي تصدر عن جوقة المعنى المسيحاني كما حددها كوك الابن. ولم يعد هناك صوت يتردد في هيكل الجيل إلا الصوت المسيحاني. ولم يعد ممكناً نعت هؤلاء بأنهم صهيونيون متدينون، بل أصبحوا مسيحانيين قباليين حريديين-حرماشيم [1]قباليين- وهذا التغير، كما سنلاحظ لاحقاً، لم يقتصر على الذين كانوا صهيونيين متدينيين. لقد تبدلت التخوم وجرفت الثورة المسيحانية الجميع. وطرأ على المفاهيم الأساسية التي تعالج العالم العلماني والغريب شرحٌ جديدٌ.

---

[1]- جمع حرماش، وحول هذا المصطلح المنحوت من كلمتي حريدي- مسيحا في انظر بداية الكتاب – م-

# الفصل السابع

## منزل الأجنبي (الغوي)- هل للأجنبي نفس

تعتبر مسألة مرتبة الغوي من المسائل الأكثر حساسية في نقاش الثيولوجيا اليهودية، قديمها وجديدها على حد سواء. وقضية مغزى فكرة الاختيار (اختيار الرب لليهود -م-.) وتداعياتها على علاقات اليهود مع غير اليهود كانت من المسائل الأكثر سخونة والمشحونة بالانفعالات والدماء، سواء في الثيولوجيا ذاتها أو في الدراسات عنها.

لقد قاد الخوف الواقعي والذي عززته محاكم التفتيش وذراع الكنيسة الطويلة إلى أن يُصاغ جزء من الجدال حول هذا الموضوع برموز لا يفهمها إلا الراسخون في العلم. وقد أصاب هذه المسألة خفوت آخر حتى في الدراسات والأبحاث وذلك بفعل مسلسل المجازر التي ابتدأت مع مطلع القرن التاسع عشر وصولا إلى الكارثة، وبفعل رغبة اليهود في أن يصبحوا مقبولين ورغبتهم في تقديم يهودية جميلة، وكل هذا على خلفية أن هذا النقاش- وهذه الخلفية ما تزال قائمه في أيامنا- يوفر مادة للاساميين الذين يسعدهم تجاهل الاضطهاد الذي عاناه اليهود، وهو الخلفية التي أنتجت أفكاراً يهوديةً ضد الأجانب، ويسعدهم نزع هذه الأفكار عن السياق العنيف الذي كان وراء بزوغها لكي يثبتوا أن اليهود مجبولون على الشر.

إلا أن الصمت الثقافي لا يفعل سوى تعزيز ما يدور في الظلام، وليس ثمة مطهِّر أفضل من نور الشمس الساطع.

في الأساس ثمة وجهان لمسألة الاختيار، الوجه الأول عبء ودور ومهمة: ضوء للغوييم.

والثاني امتاز لليهودي بما هو كذلك يحصل عليه منذ ولادته ويقوم في أعماق كيانه ويميزه عن الغوي. لقد كان من الطبيعي أن تنتج عهوداً من الاعتداءات على يهود الشتات غير القادرين على الدفاع عن أنفسهم، اتجاهات فكرية وجدت عزاءها وانتقامها في القول بتفوق اليهود، واتجاهات أخرى تؤكد أن سلوك اليهود اللاعنيف هو دلاله على سموهم الروحي. كما كانت هناك اتجهات عثرت في نظرية الباطن على أفكار خفيّة تشير إلى السمو الطبيعي لليهود. لقد تحدثنا وسنتحدث في هذا الكتاب عن العلاقة القائمة ما بين بزوغ القبالاة بشكل عام، والقبالاة المسيحانية بشكل خاص، وبين المحن اليهودية.

إن منزلة الغوى وفكرة الاختيار الإلهي لإسرائيل هما من المسائل التي كان الانتقال فيها من الحضارة اليهودية التي سادت حتى الكارثة إلى ما هو قائم في أيامنا شديد الوضوح. وليس من قبيل المصادفة أن الأمر كذلك. لذلك لا بأس من اعتبارها نموذجاً على هذا الانتقال، بل سبباً أيضاً. وسنفعل هذا قبل مواصلة وصف سمات الثورة في مختلف الاتجاهات اليهودية وذوبانها في نهر المعنى القبالي المسيحاني.

أكد الجهدان الثقافيان الرئيسيان في القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين في العالم اليهودي، أي «حكمة إسرائيل» و«الصهيونية»، على الجانب المضيء من فكرة الاختيار والموقف الغوي. فجرياً على نهجهما، اختارا ما أحباه في الموروث الديني. ولقد كان لجهدهما تأثير هائل على اليهودية وعلى الصهيونية، وبالأخص على صورة اليهودية في الأعين اليهودية غير المتدينة وفي الأعين غير اليهودية غير اللاسامية.

لقد لاح للكثيرين أنه من الجلي أن تعاليم التناخ إنما هي تعاليم شاملة ولا سيما الوصايا مثل «لا تقتل» و«لا تسرق»، وإنها تمنع الاعتداء على الإنسان بما هو كذلك. بل أكثر من ذلك، فلقد بدا، على ضوء التنوير والصهيونية، أن اليهودية تمتاز بموقف إيجابي متميز تجاه غير اليهودي بصفته: «الغريب القاطن عندك» والذي يجب ايلاؤه عناية خاصة وتوفير

الحماية له من استبداد السلطة. لقد نفضت بعض العيون اليهودية وبسرور بالغ طبقات من التفاسير التي لم ترق لها عن هذا النص التوراتي، وسعدت باكتشاف الوصية: «وإذا سكن معكم غريب في أرضكم فلا تضطهدوه. كمواطن منكم يكون بينكم الغريب الساكن معكم، وتحب له ما تحب لنفسك» وقالت إنه يمثل روح اليهودية الحقة والمرغوبة. وبالفعل فالمقرا حافل بالاهتمام بوضع الغريب. أما التبرير المتكرر «لأنكم غرباء كنتم في أرض مصر»، فهو يدل على الأسلوب الثيولوجي الذي يختار سلوكاً كرد على محن اليهود القاسية في المنفى يختلف كلية عن السلوك عندما يكون الشعب مستقلاً ومالكاً للقوة.

يبدو أنه كان واضحاً أمام أغلبية يهود نهاية القرن التاسع عشر أن اليهود أصحاب رسالة في خدمة الإنسانية والعالم كله. بل أكثر من ذلك، فقد كان باستطاعة المتنور اليهودي التفاخر بالوصايا الإنسانية التي حافظت على بقائها رغم المحن شديدة القسوة ولا سيما عند الأخذ في الحسبان في أية شروط قاسية من الملاحقة بزغ الموروث الديني.

لكن ليس كل الوصايا الشاملة اجتازت المحن. فالعكس هو الصحيح. فالثيولوجيا اليهودية الجديدة والتي تؤمن بها أغلبية اليهود في إسرائيل، تضع التأكيد على خطوط أخرى مغايرة في الموروث الديني. وهذه الخطوط ليست بالهامشية كما أنها ليست حصراً على القبالاة التي حولت المحنة إلى انتقام في نظريتها حول سر الكون، بل موجودة أيضاً في الفكر الفلسفي والهالخي. أما الفارق فهو أن هذه الخطوط المغايرة أضحت في الواقع الجديد تملك قوة- مسدس-لتحول كل ما خرج كصرخة ألم إلى أوامر عمل مباشرة ولتطبق على أرض الواقع ما أُنتج أساساً، إبان عهد المنفى الطويل والقاسي، كعالم رمزي وليس كعالم حقيقي-عملي.

إن النسر الأعظم، الرامبام، قال في مسألة الغوييم بفتوى: «لا ندفع ولا نرفع» والتي تعني أنه محظور على اليهودي إنّ رأى غويا يغرق أن ينقذه، وكذلك محظور عليه دفعه إلى الماء ليغرق. هذه الفتوى صالحة عندما تكون

السيطرة للغوييم وعندما يكون اليهود أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أمام رد الغوييم. أن يكون ممنوعاً إنقاذ الغوي عندما يكون اليهود في وضع قوة، فهذا أمر لا يحتاج إلى تأكيد، ولكن يبقى قائماً السؤال وهو وفي أية ظروف يجب دفعه للماء ليغرق!.

إن الأسلوب الذي اختاره الرامبام لتلطيف، إلى حد ما، فتواه القاسية تجاه الغوييم، مستنداً إلى حقيقة أن اليهودية كانت في زمانه تقبع تحت سيطرة الغوييم، يبقى هو الأسلوب الذهبي في الهالاخاة. ولهذا الأسلوب مصطلح آخر وحمال للأوجه أكثر وهو مصطلح «من أجل السلامة[1]» وفحوى هذه القاعدة الفقهية هي أنه يمكن لليهودي في حالات كثير أن يتصرف على خلاف النص الحرفي للشريعة من أجل السلامة. فهكذا يمكن دفن أموات إسرائيل مع الغوييم من أجل السلامة، وكذلك يمكن تهنئة الغوي في عيده من أجل المحافظة على السلامة...إلخ.

أعتقد رجال «حكمة إسرائيل» وأغلبية يهود القرن التاسع عشر أنه من البديهي أن تكون الأساليب السلمية من الوصايا الجوهرية الأساسية في اليهودية، فاليهودية عندهم هي ديانة السلام، والسعي للسلام شيء أساسي فيها، وطرقها هي طرق حسن المعشر ومسالكها مسالك سلام هذا دون أية علاقة بالخوف العملي من الغوييم في المنفى.

ينظر أغلب الثيولوجيين اليهود اليوم، والذين يُعتبرون من أهل الظاهر، إلى أساليب السلامة على ضوء آخر تماما، وأدق تاريخياً في أحيان عديدة. بالنسبة لهم لا يتعلق الأمر بفطرة يهودية بل القلق الواقعي من الانتقام ووهن قوى اليهود في المنفى هما اللذان أمليا تعديلاً شرعياً أجاز، لأسباب «إنقاذ النفس» قاعدة «وعشت معهم» أي أننا أمام حالة «مبدئياً وظرفياً»، فمبدئياً لا يجوز دفن أموات إسرائيل مع الغوييم، ولكن نظراً للظرف المعطى وخوفاً من انتقامهم في ظروف المنفى، فإن ذلك يجوز.

---

[1]-من اجل السلامة: هذه القاعدة الفقهية يمكن ترجمتها «مبدا الحيطة من اجل السلامة»، اي ان يظهر اليهودي مالا يبطن وقت الضرورة- م-.

ومبدئياً ممنوع معالجة الغوييم حتى مقابل أجر، ولكن ظرفياً، وفقط من جراء الجوف من سخطهم على اليهود فإنه يصبح جائزاً.

تتوفر لدى الدين اليهودي الجديد في أرض إسرائيل أدوات قوية للعمل ولفهم جديد لليهودية، وهذه الأدوات هي أساسا الوصايا و الفتاوى ومعرفة الباطن المرتبط بأرض إسرائيل، وقد حظيت الشريعة بما فيها وصية «لا تقتل» بفهم جديد يستند إلى الباطن أساساً وعلى الظاهر أيضاً.

لقد كانت أرض إسرائيل بمنزلة حلم لأغلب مجتهدي ومنتجي اليهودية. وقد استطاعوا أن يدخلوا إلى مصطلح «أرض إسرائيل» والذي كان مفهومها مجرداً بالنسبة إلى أهل المنفى، والذي ينطوي في حقيقته على معنى مسيحاني، كل تشددهم الشريعي وكذلك رغبتهم في الانتقام التي غلت في عروقهم ضد الغوييم المضطهدين. مفهوم أنه لا بد وأن يتغير معنى اجتهادهم مع تحقق الحلم وانتقال الأرض فيزيائيا إلى أيدينا، إذ لا يعود الأمر يتعلق بملكوت من الرموز كتعويض عن العالم الواقعي، بل بملكوت القوة الحقيقية. قرر الرامبام أنه يمكن للغوي البقاء في الأرض المقدسة ضمن شروط خاصة فقط، وفي ظرف من انعدام المساواة حتى مع تحقيق تلك الشروط. والشرط الأول هو التزام بالفرائض السبعة لأبناء نوح.

فكما هو معروف هناك 613 فريضة على الرجل الإسرائيلي بينما على المرأة الإسرائيلية 44 فريضة فقط، أما الغوي فعليه سبع فرائض فقط (وذلك لان نفس الغوى من مرتبة دنيا، حسب التفسير القبالي الذي سنعالجه فيما بعد) فعلى سبيل المثال، محظورة على الغوي امرأة رجل آخر، ولكن ابنته ليست محظورة، وذلك كيلا يعتبر نوح مخطئاً. كذلك لا يجوز للغوي أن يزيد أو ينقص في الفرائض، فهو ليس جدير بذلك. ووفق الشريعة والرامبام فان حكم الموت يقع على الغوي الذي يلتزم بيوم السبت، لأنه بذلك يكون قد تعدى على الفريضة: «امرأة رجل». فيوم السبت[1] هو امرأة إسرائيل، فيكون الغوي إذا التزم به قد دنس قدسية

---

[1] السبت: يشار له بالعبرية كما يشار إلى المؤنث

السبت وهو امرأة إسرائيل، كذلك محظور على الغوي أن يختار لنفسه يوم عطلة آخر، وان فعل وأوقف عمله في هذا اليوم، مثل السبت، وجب عليه الموت. وحسب تعبير الرامبام: «الغوي الذي يعمل بالتورات، وجب الموت عليه. فلا يعمل إلا بالفرائض السبعة. وكذلك الغوي الذي عطل في يوم عادي واتخذه لنفسه كيوم سبت، وجب عليه الموت». لابد للغوي إذاً، إنْ أراد البقاء في أرض إسرائيل، أن يطبق الفرائض السبعة المفروضة على أبناء نوح، وهذا ليس بإرادته، بل لأن موسى أمر بذلك. فالدين اليهودي هو الحقيقية. وكذلك ينبغي على الغوي أن يلتزم أمام محكمة إسرائيلية من ثلاثة قضاة بعدم انتهاك الفرائض السبعة، علاوة على تعهده بعدم القيام بفرائض دينية أخرى. وإذا ما طبق الغوي ذلك يكون عليه التنازل عن حقه في أية ملكية مهما كانت وعن حقه في تملك أرض في إسرائيل، وعليه أن يكون مستعدا ليكون حطاباً أو سقاء وأن يقبل دفع ضرائب باهظة. فقط تحت هذه الشروط يجوز للغوي أحيانا البقاء في أرض إسرائيل ولكن كمقيم وليس كصاحب حق كالإسرائيلي (وفقط مع غوييم يقبلون على أنفسهم مثل هذه العبودية يجوز التوقيع على سلام). وكما قلنا لا يستطيع الغوي امتلاك أرض (مثلما منع الغوييم ذلك على اليهود بشكل عام في المنفى). ومفهوم طبعا أنه، وفق أغلب فقهاء أيامنا، لا يستطيع التصويت في انتخابات ديمقراطية، فما بالك أن يُنتخب هو لوظيفة ما أو أن تُعطى له وظيفة ما، فالقاعدة تقول «لا تؤمر غويا عليك». لقد غدا من الصعب في أيامنا هذه الدفاع عن الديمقراطية بصفتها أمرا جيدا مبدأ بالاستناد إلى حجج يهودية أساسية اعتبرت بديهية حتى إلى ما قبل جيلين فقط. فحتى القلة من المجتهدين المعتدلين والذين يتقبلون الديمقراطية فهم إنما يتقبلونها عمليا لا مبدئيا نظرا لأننا أخذنا الدولة بفضل الديمقراطية. ان موضوعة وصايا أبناء نوح السبعة لا تسري في إسرائيل فقط. فعلى اليهود أن يقتلوا، في أي مكان لهم السيطرة فيه، أي غوي يتمرد. وفي لغة الرامبام: «أوصى موشيه ربابنتنا

من قبل الرب أن يخضعوا كل إنسان للوصايا التي فرضت على أبناء نوح. ومن لا يقبلها يقتل».

وتشكل الوصية «لا تشفق» أداة شرعية عظيمة القوة. فحسب الرامبام فان النواهي الثلاث هي:

لا تظهر الإعجاب بالغوييم لئلا يبدون جيدين وحسنين في أعين إسرائيل.

لا تعطف على الغوييم - لا ترحم أو تحسن إلى الغوييم.

لا تعطي الغوييم مقاما على الأرض - فليس لهم مكانا في أرض إسرائيل، وبالتأكيد ليس مستقرا دائما كأصحاب عقارات.

فالرامبام إذاً، ومعه كل قضاة عهدنا، يفرغ مضمون مفهوم «الغريب» من محتواه العملي. فمقابل التناخ المليء رأفة تجاه الغريب (والذي معناه القرائي هو الأجنبي) - لأنكم غرباء كنتم في مصر - يصبح هذا الغريب المقرائي غير موجود في الواقع. فشرط قبول الغريب ما عادت تنطبق ولا على أي شخص في الواقع. والأنكى من ذلك أن الرامبام يقرر أنه حتى هذه الشروط لا يُعمل بها إلا في اليوبيل، أي مرة كل خمسين عاماً بعد مجيء المسيح، أما قبل ذلك فلا مجال لأي غوي في الأرض المقدسة.

أن جزءاً مما يمتلئ به المقرا من إحسان في معالجته للغريب، والذي يطلق عليه الاسم الشرعي: «غريب مقيم»، وجهه التقليد القبالي إلى «غاري تصيدق» أي الغرباء الذين تهودوا أصولا «بيد أن معظم الإحسان أُحتفظ به إلى رفيقك»، أي ابن الشعب اليهودي. وخارج أرض إسرائيل وعندما يكون اليهود في وضع ضعيف، فان القاعدة المعمول بها هي التالية، حسب فتوى الرامبام:

(لا تقطع عهدا مع عبدة الأوثان.. ومحظور العطف عليهم، لأنه قيل «لا تشفق»، لذلك أن رأيت أحدا منهم ضائعا أو يغرق في نهر، فلا ترفعه، وإذا رأيته على وشك الموت لا تنقذه، لذلك فانك بهذا تعلم أنه ممنوع عليك معالجة عبدة النجوم ولو مقابل أجرة، ولكن أن تقتله بيدك أو تدفعه نحو

البئر، فهذا ممنوع، لأنه ليس في حالة حرب معنا. ليست كل هذه الأمور واردة، بل فقط في الوقت الذي يتشتت فيه اليهود بين عبدة النجوم أو عندما تكون يد عبدة النجوم شديدة على إسرائيل).

«أن هذا الحكم المخفف يصبح فقط في أوقات ضعف إسرائيل»

لقد أصدر الرامبام ثلاث فتاوى واضحة فيما يخص أرض إسرائيل. وهي فتاوى يجب على إسرائيل القيام بها عندما يدخلون الأرض المقدسة. ومازال النقاش دائرا وبقوة وبتداعيات سياسية عملية لدى يهودية أيامنا حول ترتيب هذه الفتاوى وأسلوب تنفيذها في العالم الواقعي، وهذه الفتاوى هي: تعيين ملكٍ، وإبادة العماليق وبناء القدس.

إن الاستناد إلى الرامبام في هذه المواضيع شائع جدا في يهودية وقتنا في إسرائيل. فهو بالغ الفائدة، سواء لأنه عظيم إسرائيل أو بسبب جدوى الاستناد إلى مجتهد يعتبر غير متطرف. إلا أن الرامبام، في أرض إسرائيل الجديدة وعندما تثور الحاجة إلى فتاوى تعالج مسألة الاستيطان، يخلي مكانه لأن فتاويه لم تعالج هذه المسألة. ومثلما حدث مع كتابه «مرشد الحائرين» ذي النفوذ الواسع على متنوري إسرائيل، فقد بقي خارج المعسكر بالنسبة إلى معظم مجتهدي إسرائيل، بل هناك من أحرقه بتهمة أنه مصاب بالأبيقورية، ولم يأخذوا الا بكتبه الشرعية مثل كتابه «مشناة توراة»، كذلك حصل معه فيما يتعلق بأرض إسرائيل. ففي مدرسة كوك، وفي مدارس أخرى أيضاً، يتبعون الرامبام فقط عندما يكون في ذلك خدمة «للاتجاه الصحيح» بينما يتجهون في بيت كوك، وفي غيره، في أحيان أخرى إلى الرامبان الذي وضع تأكيدا على أرض إسرائيل وعلى الاستيطان فيها وعدم جواز تركها يبابا. علماً أن اليباب بالنسبة إليه هو عدم وجود استيطان يهودي فيها.

سنعود لاحقا إلى النقاش في مسألة مدى انطباق الوصايا «لا تقتل» و«لا تسرق» على غير اليهود، وإلى انتصار أحد التيارات انتصارا حاسما في هذه المسألة. ولكن ما أصبح يحتل الصدارة والحسم في مسألة الغوييم في أيامنا هذه ليس الشريعة بل القبالاة والايديولوجيا.

تقدم القبالاة تفسيرا ميتافيزيقيا للعالم، فهي تعي سر الخليقة. فرموز القبالاة لا تقتصر على مقاربة خفايا الخليقة فقط، بل إنها، وأساساً، تفسر النصوص والواقع على حد سواء. صحيح أن فعل الرب ملموس في كل أمر، وأنه لا بد في النهاية من الوصول إلى الهارمونيا المحسوسة، لكن في أثناء ذلك، وفي العالم الحسي بالتأكيد، فثمة دراما تدور بين الخير والشر، بين الإلهي و الشيطاني، بين التهشيم و الإصلاح، ولا بد للخير من أن يقهر الشر. وفضلاً عن ذلك فثمة تراتبيّة من القداسة لكل شيء، بدءاً من النجس وصولاً إلى الإلهي.

لقد اعتبر العديد من رجال القبالاة، وبشكل صريح أن اليهود، وهم على رأسهم، يمثلون زبده الخليقة. فبفعل الصلة الوثيقة ما بين اضطهاد اليهود وبين ظهور القبالاة ولا سيما القبول بها باعتبارها تقدم الإجابة على أسئلة ومحن الحقبة، فإن العزاء الكامن في القول بتفوق اليهود تجذر وتعمق في تفسير القبالاة للأمور. وكلما ازدادت أعوام الاضطهاد ازداد عدد الذين يشتغلون في تفسير أسرار الواقع بحيث فاق عددهم عدد أولئك المنشغلين بالأسرار الإلهية. لقد تفوق الانشغال برمزية الواقع على الانشغال بالرموز الأكثر تجريدية. وللواقع سر عميق.

لقد قرر الرابي كوك الأب، ابراهام اسحاق هوكوهين كوك، وبلغة فصيحة وبالأسلوب الواضح الصريح الذي عبّد الطريق أمام مذهبه وأمام سيطرته، ليهود زمانه ما يلي: «أن الفرق بين النفس الإسرائيلية وجوهريتها وأشواقها الداخلية وطموحها وميزتها وموقعها وبين نفس جميع الغوييم على مختلف أصنافهم، لهو أكبر وأعمق من الفرق بين نفس الإنسان ونفس البهيمة. فالفرق بين الآخرين (الإنسان والبهيمة) هو فرق كمي، ولكن الفرق بين الأوليين (اليهودي والغوي) فهو فرق جوهري نوعي».

وكما سنرى، فإن ما قرره كوك أعلاه مغروس عميقاً في الموروث القبالي، إلا أنه ذو خصوصية مضاعفة في وقتنا. فأولاً من حيث تجذر هذا المفهوم لدى الجمهور اليهودي الديني، وثانياً وهو الأهم، من حيث تغير

الظرف والسياق من مضطهدين وجدوا العزاء في سر قوتهم كلية القدرة المهملة، إلى أصحاب قوة ويرغبون في استخدامها منذ أن أصبحوا يملكون دولة وقوة عسكرية قومية وشخصية. لقد تغير معنى كل تلك (المنظومة) التي قلبت الوصايا الإنسانية للمقرا في عهود النفي الطويلة فور أن عاد اليهود إلى أرض المقرا وبدؤوا باستعمال قوتهم لتطبيق المجاز على الأرض المقدسة. لقد تدفقت من عظماء إسرائيل الكثير من المياه التي سممتها الملاحقة والاضطهاد. وعندما رغبت اليهودية الجديدة في أرض إسرائيل أن تمنح مياها من أرض الموروث مما تركه لها سلفها الإنساني، فاضت عليها ينابيع معدنية كثيرة وعلى هذا النحو أشيد البيت الثيولوجي الجديد على أسس قدسية صلبة.

سنورد هنا القليل من المياه المقدسة لعظماء إسرائيل، يقول المهرال[1]:

«كما توجد أنواع وسطى بين الإنسان وبقية الأحياء، كالقرد مثلاً، كذلك يوجد إنسان ولكنه ليس إنساناً ناجزاً، فالإنسان الناجز هو إسرائيل». ويوصل المهرال:

(لا يطلق اسم الإنسان على أمم العالم. وعبارة «الإنسان الذي خلق على صورته» لا تشمل كل النوع البشري). وأيضاً:

«يطلق عليكم أنتم اسم إنسان، ولكن لا يطلق على الأمم. ان منزلة إسرائيل تجاه الأمم مثل منزلة الأمم إلى الحيوانات غير الناطقة. فالمادة عديمة الأهمية بالنسبة لليهودي مثلما أن الحمار تافه ولا قيمة له بالنسبة لمن يركبه. والأمر معكوس عند الأمم» وما يقوله الرابي يهودا هليفي حول كون إسرائيل فقط هم الإنسان، هو التالي: «(إلى السائل) أو ليس أفضل أن كل الحيوانات ناطقة؟» في البدء، قلت،حل الأمر الإلهي على فرد من كل عائلة، والذي كان نواة الاخوة وعزيز أبيه، فهو الذي تلقى النور، بينما كل الآخرين لم يكونوا سوى قشور فلم يتلقوا ذلك النور، إلى أن جاء أبناء يعقوب

---

[1] المهرال، الراباد، الرمحال: القاب تطلق على ائمة الفقه عندهم، وكل منها اختصار لعدة كلمات تشكل اللقب الكامل للأمام المقصود.

والذين كلهم منتخبون ونواة، وتميزوا عن باقي «أبناء آدم» بمزايا إلهية والتي جعلت منهم وكأنهم أبناء جنس آخر- «جنس ملائكي».

ويضيف الرابي يهودا هليفي موضحاً أن ثمة أربع درجات في الطبيعة: الجماد، النبات الحي، الناطق. وفوقهم تأتي الدرجة الخامسة العليا والإلهية وهي إسرائيل. إن توضيح هليفي هذا حول كون اليهود من درجة قائمة بذاتها وأسمى من كل بقية الأمم والطبيعة، أصبح في جيلنا أمراً بديهياً عند كل الثيولوجيا اليهودية الجديدة. وإليكم ما قاله أيضاً الراباد:

«لأن الغوييم هم كالبهائم -(شعب يشبه الحمار) -فالرياح ستحملهم جميعاً. ومن يعطيهم أي قدر فإنما يقبض على الريح». وكذلك يكرر ما جاء في الجمارا: «أنتم قطعان رعيتي الإنسانية أنتم تدعون بالإنسان. ولا تدعى أمم العالم إنساناً». وهكذا فإن الراباد والمهرال ويهودا هليفي وغيرهم من عظماء إسرائيل يقطعون أن الغوييم ليسوا بشرا، وفي كل مكان توجد فيه فريضة موجهة للإنسان فالمقصود بها اليهودي حصراً. ولهذه الفتوى قوة هائلة في التقليد كما أنها أصبحت في أيامنا حجر الزاوية في شريعة وفهم هذا الجيل.

يقول الرامحال:

«تتقسم كل الخليقة إلى نوعين: الأول هو كل خليقة العالم من السفلي إلى الأعلى. والثاني هو الذي يشمل النوع البشري، أي إسرائيل الذين هم الجنس الآدمي حقا». «الأمم. لقد صدرت المشيئة بحقها لتبقى في مرتبة دنيا، وهي من البشرية التي كان من الأفضل ألا توجد... ولكن بما أنها تحتوي على مظهر إنساني، وحتى ان كان دونيا، لذا أراد المقدس المبارك أن يكون لها شيء مما هو جدير بالبشر الحقيقيين. وفي العالم الآخر لن يكون فيه غير إسرائيل. ولنفس تقاة أمم العالم سيعطى واقعا من نوع أخر ويكونون ملحقاً بإسرائيل ذاتها. وهؤلاء سيكونون ملحقون بهم مثل الرداء الملتصق بالإنسان. ومن هذه الراوية (الالتصاق) سيصيبهم شيء من الخير. ولا يحق لهم أن يحصلوا على أكثر من هذا أبدا».

والرامبام يوضح في تفسيره للمشناة، لماذا يعفى الثور الإسرائيلي الذي ينطح ثوراً غوياً:

«إذا حدثت مقاضاة لإسرائيلي مع غوي، فان القضاء بينهما يجب أن يكون كما سأوضح لك، فإذا كان قضاؤهم يبرئ ساحتنا فإننا نقضي لهم وفق قضائهم ونقول لهم هذا هو قضاؤكم. وإذا كان الأفضل لنا استخدام قضائنا، تفعل هذا وتقول لهم هذا هو قضاؤنا. لا تتصعب هذا الأمر ولا تتردد فيه، مثلما لا تتردد في ذبح الحيوانات مع أنها لم ترتكب أي أمر رديء».

أما الرابي تصديق هكوهين فيقول:

«أنتم تُدعون إنسانا وليس أمم العالم. فقط إسرائيل تدعى إنساناً.

بالنسبة إلى إسرائيل فان كل الغوييم هم بمنزلة بهيمة على صورة إنسان..

وعندما يأتي المخلص سيقر الغوييم أن لا أحد يدعى إنسانا إلا إسرائيل..

ولكن الآن أيضاً هم بمنزلة بهيمة قياساً إلى إسرائيل».

كقاعدة، اليهودي هو غاية الخليقة. والأمم هي كأكوام من الرمل وإسرائيل كجوهرة، فكل شيء لخدمة الجوهرة.

ونقرأ في كتاب الزوهر:

«(النفس الحية) يقال على إسرائيل: هم الذين يملكون نفساً حية مقدسة وسامية. و(بهيمة وزواحف ودواب الأرض) هم بقية الشعوب، إذ أنه ليسوا نفساً حية، بل أنهم من قوى اليسار النجسين».

ووسعت القبالاة إلى أبعد مدى أقوال عظماء الشريعة والتفسير في مسألة الغوييم، فبالنسبة إليها فإن الغوييم ينتمون إلى مملكة الشيطان. وكتاب الزوهر المقدس ينظر إلى حتى الذين يتهودون أصولاً باعتبارهم أدنى روحياً من إسرائيل: إذ لهم مكان تحت جناح الألوهية ولكن ليس في داخلها. كما ان مقامهم ليس مع شعب إسرائيل في جنة عدن العليا نظرا لان جذرهم الروحي لا يتناسب وذلك. انه من الواضح للزوهر أن الشرارة الإلهية والتي بفضلها جاء الإنسان على صورة وشكل الرب موجودة في إسرائيل فقط.

وفضلا عن ذلك، فلقد تواجد الإسرائيليون فقط، والرجال منهم تحديداً في لقاء جبل سيناء. وقد طهر هذا اللقاء الرجل الإسرائيلي من دنس الأفعى التي هيمنت على الإنسان منذ خطيئة آدم الأول. هذا اللقاء لم يحضره الغوييم، ولذلك بقوا ضمن نجاسة الأفعى ممثلة الشيطان على الأرض. إذاً، فان اليهودي فقط هو الإنسان. وقد فتحت القبالاة بقولها هذا، على خطى عظماء غير قباليين، أبوابا أمام جعل «لا تقتل» لا تسرى إلا على اليهودي. فبالنسبة لها، كما بالنسبة إلى كبار المفكرين، يجب كلما مرت كلمة إنسان في الأصول أن نفهم أنها تعني إسرائيل.ومن هنا فان العبارات التي استخدمها الانسانيون مثل «الإنسان الذي خلقه الله على صورته» إنما تعني اليهودي لاغير. ومن ثم فان عبارة «أحباء إسرائيل أبناء الله «فهي تخص اليهود المحافظين على الشعائر. فالواضح عند القبالاة أن ثمة نسباً وحيداً ومباشراً يقود من آدم الأول، المتضمنة فيه كل أنفس إسرائيل، مرورا بإبراهيم إلى يعقوب ومنه إلى كل أبنائه، وهذا النسب هو نسب الاختيار الوحيد ونسب الفيض الإلهي، النسب الذي يفيض الشرارة الإلهية المقدسة إلى الإنسان اليهودي فحسب، طالما أن عالم الغوييم كله، حسب الآري وقباليي الإصلاح، ليس أكثر من عالم القشور، أي مملكة الشر، مملكة المادة التي لا توجد إلا بفضل وجود قدسية إسرائيل بين الأمم.

ترى القبالاة المسيحانية في عمومها، أنه عندما يتم استكمال عالم الإصلاح وتخسر القشور، فانهم، القشور، يبقون بدون حياة، لان فضلة نفس الإنسان اليهودي تؤخذ منهم. ومن هذه الزاوية، فعندما ينجز الإصلاح ويأتي الخلاص والمسيح، لن يبقى لعالم الغوييم كينونة مستقلة، بل سيختفي عن العالم أو يستعبد لإسرائيل. والغوييم، حسب الآري، ليسوا مثل الحيوان الصالح للأكل، بل أدنى منه. جاء في حزقيال: «وعشقت معشوقيهم الذين لحمهم كلحم الحمير ومنيهم كمني الخيل». على العموم، أخذ التقليد من قصة التضحية باسحق درسا شرعيا. فلقد طُلب من الغلمان الخدم البقاء والجلوس مع الحمير فيما يذهب أبرا هام ليقوم بالعمل المقدس وهو تقديم

ابنه قربانا. من هنا استنتجوا أن مكان كل الغوييم مع الحمار، فهم شعوب شبيهة بالحمار. وواضح أن هذا يصح على العرب، لان إسماعيل كان أحد غلامي أبرا هام اللذين بقيا وقت التقديم مع صديقهما الحمار.

أن العلاقات مع عالم الغوييم وفق القبالاة والإصلاح معقدة وشائكة. في الأساس من هذه العلاقة تقع مهمة «تحرير المعتقلين»، وهو إخراج الخير الإسرائيلي القليل المتبقي في الأمم لصالح إسرائيل وضد الأمم الشريرة التي سيصيبها الخراب من جراء النشاط القبالي وما يحتويه من حكمة السر. حيث إن كل شيء إنما هو جزء في حرب سحرية مع الشيطان ورسله. فهكذا، على سبيل المثال، يفسر صاحب كتاب «جالي رزي» ميل كبار إسرائيل للزواج من أجنبيات زواجا خاطئا. فهكذا، حسب الموروث، تزوج يهودا من تامار، يهوشوع ورحاب، بوعز وروث(هذا الزواج سيخرج المسيح من صلب داود). شمشون ودليلة، موسى وصفورة. فهو يقول مفسراً هذا الأمر أنه جزء من خطة مزدوجة: لإخراج من القشور الأجنبيات الخير الضئيل الكامن فيهن، وأيضاً لتحقيق القول: «مهدميك ومخربيك منك يخرجون»، وذلك لتتوفر الإمكانية لإبادة الغوييم بقواهم هم. وعلاوة على ذلك فثمة صراع غيبي هنا، لان الشيطان هو الذي يدفع بنساء الغوييم أمام كبار إسرائيل ليهلكوا روحهم القدسية، غير أنه لا يعرف أن القوة العليا تسير بهذا الشكل غير المباشر لتُخرج عبر هذه الأنفس الأجنبية أنفس تقاة أمم العالم.

وكذلك ميل الحسيدية، وبالأخص حسيدية لوبابيتش وثم براسلافا، لأخذ أغاني الغوييم وإلباسها لباساً يهودياً وتحويلها بذلك من دنس شيطاني إلى مقدس، إنما هو أيضاً جزء من ذلك الاتجاه لمحاربة عالم الغوييم.

ومثال لطيف على هذا العزف المسيحاني حدث في صيف عام 96عندما أقيم اجتماع حاشد من قبل حسيدي حركة حاباد، والذين مازالوا يعتقدون أن الرابي من لوبابيتش مازال حيا يرزق كمسيح، رغم ما بدا وكأنه مات، وفي قبالتهم، في بارك هيركوني التل ابيبي، وقف حسيدو بارسلاف

المسيحانيين من الفرع الذي يستخدم أسلوب: «نحمان مؤهل». إن حسيدي بارسلافيا هؤلاء، والذين يؤمنون بمسيح مؤهل، لا يستطيعون بالطبع احتمال مسحاء حاباد الغوغاء والعماليق المتنكرين كيهود.

لذلك عزفت دبابة شعائرهم بصوت هادر لكي تصمت حسيدي حاجاد الدجالين، تلك المعزوفة التي أنقذوها من أغنية ألمانية بإلباسها كلمات مقدسة.

وعليه فإن عالم الغوييم بأجمعه، حسب معظم الفكر القبالي، هو عالم نجس دوني، وجوهرياً هو عالم ملحق بإسرائيل ليس من غاية له سوى الخضوع وخدمة إسرائيل. أما عالم الغوييم فإنه يبذل محاولات شيطانية للخروج عن غرضه وإيذاء إسرائيل المقدسين. وبالفعل فلقد أوذوا أكثر من مرة، وليس في عالم الغيب بل في عالم الشهادة الذي هو وليد الغيب. في الموروث اليهودي الرئيسي، كما يفهم ويشرح الآن من قبل أغلبية العالم الديني، فإن عالم الإنسان هرمي يقف الإنسان اليهودي على قمته وهو فقط من يستحق صفة الإنسان. وفي قاعدة هذا الهرم هناك الغوي المنحط والذي وإن كانت له نفس فإنما هي من نوع أدنى. فالنفس تمتطي الجسم كما يمتطي الإنسان الحمار. (فالحمار عند اليهودي) ملحق براكبه الذي يخضعه، ولذلك فإن الجسد ثانوي بالنسبة إلى النفس.. واليهودي هو نفس إلهية بكليته، ولذلك فمن السليم أن ندعوه إنساناً. بينما الغوي، في أحسن أحواله، فيحمل إمكانية الإنسان، إلا أن النفس عنده تافهة وملحقة للجسد، للحمار، للمادة وغرائزها.

إن جوهر الغوي هو جسد آثم، حمار دنس، والقليل من النفس الذي يملكه خاضع كلية للدناسة الجسدية التي تحدث جوهره الحقيقي وتبعده عن أن يكون جديراً بأن يدعى إنساناً (الأمر الذي يفسر سر الشكر: مبارك أنت لأنك لم تخلقني غوي)، هذا الشكر الذي يقال في صلاة الفجر، والذي يأتي قبل «مبارك أنت لأنك لم تخلقني عبداً» و«مبارك أنت لأنك لم تخلقني امرأة». إلا أن التقسيم لا يقف هنا، فالعالم اليهودي منقسم بدوره إلى درجات

عدة بعضها مرتبط بالأعمال، والشعائر والإصلاح، وأغلبها ينبع من جوهر النفس. ففي الإنسان ثلاثة مستويات: الذات وهي الدرجة الدنيا في هذه المستويات وهي موجودة في كل كائن حي، والدرجة الأعلى منها هي درجة الروح ثم النفس فثمة مستويات فريدة والتي لا يفوز بها إلا المنتخبون من اليهود. وليس هذا فقط، فجذر النفس يختلف من يهودي إلى آخر. إن الجذور التي تنبع منها الأنفس كانت موجودة في الأعضاء الستمائة والثلاثة عشر لآدم الأول، وفي كل عضو من أعضائه هناك 613 صنفاً من الأنفس. هناك أنفس سامية وأصلها من الجبين، وهناك أنفس خاطئة مثل تلك التي جاءت من الفم الذي ساهم في خطيئة آدم الأولى، هناك أنفس أكثر انحطاطاً وصولاً إلى العقبين وهما رمز الانحطاط الذي يعيش مع الأفعى الدنسة لذلك يقولون «عقب المسيح» وهي فترة الظلمة والدناسة والتي تسيطر فيها الأنفس الخاطئة قبل مجيء المسيح. وكذلك فإن عالم الغوييم متعدد الأقسام الداخلية وكذلك وفق درجة دناستهم وشيطانيتهم. والأسوأ فيهم هم العماليق بالطبع، الذين هم مملكة الشر روما وألمانيا، ثم يأتي إسماعيل بعدهما والذي هناك ديمونولوجي[1] كامل مكرس له. أمام إسماعيل،الذي قيل عنه: «سيكون رجل برية، يده في الجميع ويد الجميع فيه» والمقصود أنه متوحش من نوع الإنسان وليس إنساناً من نوع بري. وأكثر من ذلك فإن مستقبل كل الغوييم أن يصبحوا أصحاب حضارة، وإسماعيل فقط يبقى برياً.

لقد وجد هذا الخوف من إسماعيل والصورة التي رسمت له طريقه إلى الكثير من النصوص اليهودية التي غدا استعمالها شائعا من قبل القبالاة المسيحانية الحديثة في أرض إسرائيل التي تتطلع إلى السيطرة على كل أرض إسرائيل والى تطهيرها من العرب الغوييم، وهذا بالطبع مصحوباً بمعارضة السلام مع الإسماعيليين لأنه قد يعيق الخلاص ويؤخر المسيح الذي يقرع على أبوابنا، ويؤخر بيت الاختيار(القدس-م) «وهذا الاسم لم يأت مصادفة بالطبع».

---

[1]-ديمونولوجي: علم الشيطان- م-

في هذه الحضارة اليهودية المزدهرة في صهيون-وهي حضارة قبالية مسيحانية- تعاظم عدد القباليين والمجتهدين الذين يسعدهم أن يطلب رأيهم في مسألة وضع الغوييم. ومن وجهة نظر العديدين منهم فان الذي يؤخر الخلاص الشامل هو وجود الغوييم الدنس في أرض القدس، والذين لا يعيشون هنا فقط بل لهم حقوق المواطن دون أن يتخلوا عن دينهم الرديء، بل على العكس. لقد برز التناقض القائم بين اليقينية المسيحانية التي تفعم قلب العديد من اليهود المتدينين وبين الحياة اليومية العلمانية التي تعكس مخاض وعشية قدوم المسيح، في عدة مناحٍ، من بينها مسألة العلماني، واليساري العلماني بشكل خاص، ومسألة فسق النساء العلمانيات وما يحتوين عليه من إغراء جنسي، إلا انه برز بشكل أساسي بمسألة الوجود العربي في البلاد. فكيف يمكن لهذا الأمر أن يحصل رغم فتوى الرامبام وكل كبار إسرائيل تقريباً، والتي تمنع هذا الوجود وتمنع بشكل خاص أن يكون مصحوباً بحقوق المواطن. ان هؤلاء القباليين والمجتهدين، وبينهم مردخاي الياهو ودوب ليئوروالرابي كدوري، والرابي من لوبابيتش، وإسحاق غيزنبورغ (حيث ليس مصادفة أن حركة الآخرين، حاباد، ومع اليقينية المسيحانية في قلبها، والتي تقول أن كل اليهود هم مقدسون على نقيض ما تقوله أغلب تيارات اليهودية في زمننا والتي ترى أن جزءا من اليهود هم عما ليق، وجدت أن سخط الرب ورسله نزل وينزل على العرب) ومعهم الرابي يسرائيل ارييئل ويهودا عتيصون وآخرون عديدون، نقبوا في الأصول وخلقوا نموذجاً ثيولوجياً واضحاً وصريحاً تقبله الأغلبية الساحقة من ربابنة وقتنا. ومع ذلك فان العديدين منهم يسعدهم أن يخفوا عن الجمهور العلماني دورهم في بلورة الموقف الثيولوجي من الغوي وذلك بسبب الأبعاد التي تترتب عليه.

لقد تراكمت لدى الثيولوجيين الجدد ما كان موجوداً في الهالاخاة والمدراش والقبالاة من تعابير ضد الغوييم، فأخذوها وصهروها كلها في نظرية قبالية هلاخية متبلورة والتي تتعدى أحكامها الجانب النظري الفكري إلى فرائض يجب القيام بها، متجاهلين بذلك السياق الذي أنتج تلك المواقف

الضد- غوييم-، وهو سياق من محن واضطهاد لم يكن في حينه ممكنا الرد عليه، إلا عبر كتابة أسرار مرموزة تقول بالتفوق الفطري وعبر أحكام ليست موضوعة للتطبيق، مما وفر عزاء على المعاناة في العالم الواقعي. ان هذا التجاهل للسياق، مصحوبا بالانتقال إلى العالم الفعلي المسلح، هو الذي يجعل قلب العوالم ممكنا.

بالنسبة إلى الثيولوجيين الجدد، فان «لا تقتل» تنطبق على اليهود فقط، وكذلك أيضاً وصية «لاتسرق». فالغوييم لا يملكون نفساً، ومبدئياً لابد من طردهم من البلاد، وإذا كان هذا ليس في المتناول، فيجب إبقاؤهم في شروط بالغة الإذلال.

يجب التذكر أن هذا يقال في الوقت الذي يملك فيه اليهود القوة. ففي هذا الوقت تزداد قوة الادعاءات ضد الغوييم. وقد أدخلت إلى هذه الادعاءات مواد جديدة مأخوذة من أيام الاضطهاد والملاحقة والتي لم تكن في حينها موضوعة قيد التنفيذ بل كانت تنتظر أن تتحول إلى فعل عندما يغدو ذلك ممكنا، أي عندما يصبح اليهود أقوياء بعد مجيء المسيح.....، واليهود الآن هم بلا شك في وضع قوي من وجهة نظر الربابنة الحاليين.

وكما قلنا، فليس القبالاة وحدها التي توضح الفرق، بين اليهودي والغوي، فكثيرة هي الفروق بين الاثنين في فقه الشريعة كذلك.

وهكذا يقول الرامبام على زيت المسح[1] الذي ممنوع سكبه على أي إنسان:

أن تمسح به الأواني والبهائم والغوييم الذين هم مثلها، فهذا مسموح لأنه قيل «لا يمسح به لحم أدمي، ولكن الغوي، حسب فقه الرامبام، ليس آدمياً». وقال كذلك حول مسألة إنقاذ الروح:

«كان هناك مكان فيه غوييم وإسرائيليون، بل ألف غوي وإسرائيلي واحد، وحدث انهيار على الجميع، في هذه الحالة ننقذ الجميع بمعية

---

[1]- زيت المسح: زيت كان يعده قدماء اليهود بخلطه ببعض العطور ويستخدمونه لمسح أواني المسكن- م-

الإسرائيلي». بينما الإسرائيلي الذي ينقذ حياة غوي في السبت فان حكمه هو الموت. وبشأن السرقة، حسب الرامبام والمقرا والمشناه:

«كل من يسرق إسرائيلي (يسرق ويبيع - ولكن ليس سارق الغوي) فانه ينتهك النواهي. وكذلك في موضوع الاتصال الجنسي:

«إن مجامعة الأجنبي لا تعتبر هنا زنا. إذ مكتوب أن لحمهم كلحم الحمير، وفي البهائم لا يوجد زنا. مضاجعة الغوي تعتبر كمضاجعة البهيمة».

وكذلك في مسألة نجاسة الغوي: «إن قبور الغوييم لا تتجس[2]، إذ قيل(وأنتم قطيعي، إنسان أنتم). أنتم تدعون إنساناً، وأما أمم العالم فلا تدعى هكذا».

إن هذه الجملة التي كان أول ظهور لها في سفر حزقيال، وأخذت حدتها في تفسير الرابي شمعون بار يوحاي لها، بقيت تتكرر، ولكن ليس في كتاب الزهور فقط-المنسوب إلى بار يوحاي. فلقد تهافت عليها معظم كبار إسرائيل ليسلبوا الغوييم صفة الإنسان. وهكذا فإن الغوي الذي يعتبر نجساً وهو حي، يفقد هذه النجاسة عندما يموت، مثلما يفقد الإسرائيلي بصفته إنساناً الروح القدسية التي فيه عندما يموت. فالإنسان الميت يفقد الجزء العلوي الإلهي الذي بفضله اعتبر على شاكلة الرب. أما الغوي وهو غير الإنسان، فلا يعود ينجس وهو ميت.

تقول اليهودية أن في الإنسان أجزاء ثلاثة: من الأم، من الأب، من الرب. وما قيل أعلاه عن الإنسان يصح فقط على من يدعى إنساناً، أي اليهودي. أما الغوي فإن الجزء الذي يصاغ إلى الجزأين اللذين أخذهما عن أبويه فهو جزء عالم الشيطان الدنس. فالغوي لا يوجد فيه جزء أو صورة من الرب.

وتحدد الشريعة أن ذبح الغوي نجساً كذبح القرد، والغوي يتحدر من

---

[2]- علماً أن الجثة الآدمية والقبور الآدمية تنجس عند اليهود وعلى من يلمسها أن يتطهر منها- م

سلالة قابيل الذي ليس بابن لآدم الأول، بل هو ابن الأفعى، بسمها وقذارتها التي أدخلتها إلى حواء عندما أغوتها بشأن التفاحة. ومن هذا الاتصال الجنسي بين الأفعى وحواء يأتي الغوييم، لذا لم يكن من باب المصادفة أن أكد الرابي كوك بلغة دقيقة في مرامزها أنه من القابيلية (نسبة إلى قابيل) الادعاء أن كل الشعوب متساوون مع إسرائيل وأنه لا يوجد شعب وحيد مقدس، فهذا بالنسبة له هو السم الروحي.

وهكذا من قابيل تتولد المسألة الأكثر تفجراً، ألا وهي مسألة «لا تقتل» وعلاقتها بالغوييم. صحيح أن القتل ممنوع، ولكن من يقتل واحداً من الغوييم لا يُقتل بسبب ذلك كقاتل الإسرائيلي. فبحسب الرامبام، فإن قاتل الإسرائيلي فقط يعتبر منتهكاً للوصية الناهية عن القتل «لا تقتل».

وعلى غرار الرامبام يذهب أيضاً دافيد كوخبي وكتاب «التقاة» «لا يدعى قتلاً إلا ما وقع على إسرائيلي. فالمكتوب هو الذي يقتل رفيقه». «فقتل الرفيق يعتبر قتلاً». وكذلك يقول الرابي بحياي على الوصية الأولى: «من يسفك دم إنسانٍ، دمه يسفك» ويشرح كالتالي:

-: الإنسان هو الإسرائيلي، فقد قيل: «أنتم قطيعي أنتم الإنسان».

-: من يد الإنسان، تعني: من يد إسرائيل

-: من يد حيوان: ممالك بابل، وميدي ويونان وروما

-: من يد رجل لأخيه: من يد عيسو

أما في لغة الرامبام الأوضح:

من قتل غريباً قاطناً، لا تقضي عليه المحكمة بالموت. لأنه قيل «لا يضمر أحدكم الشر على صاحبه» وليس من الضرورة القول أنه لا يُقتل بسبب الغوي.

لا يوجد إذاً بقتل الغوي، ولكن من يقتل واحداً لا يقتل بسبب ذلك (وليس هنا ما يفيد أنه يجب معاقبته). وكما هو مفهوم فالعقاب في اليهودية يتماشى مع خطورة الجرم. فمن يضاجع عمته، ومن يدنس السبت لكي ينقذ أحد الغوييم من الموت، فحكمه هو الموت. ولكن من يقتل أحد الغوييم، فلا

يحكم عليه بالموت، فهو لم يخرج على «لا تقتل». كل هذا ونحن لسنا في وضع حرب مع الغوييم. ففي وضع الحرب تصبح القاعدة السارية هي «الطيب في الغوييم هو الميت».

تجدر الملاحظة هنا أنه يشار في جزء من الكتابات إلى الغوييم بأسماء عديدة، مثل: عبدة الأوثان، السامريين، كنعانيين، الحمر، الشعوب السبعة، وبالأخص العكومين (وتعني عبدة الكواكب والبروج). فليس ثمة داع للخطأ في ذلك. فكل هذه الألقاب تعني كل الغوييم. وكان الرامبام قد قرر أن تعريف «عكوم» ينطبق على المسلمين وعلى النصارى.

إذاً، فإن الأصل الذي له صياغات مختلفة هو: «الغوي الطيب هو الغوي الميت» أن كان هذا في وقت الحرب. ووقتنا الحالي هو وقت حرب وفق فهم العديد من الربانية. لقد تم تقليص كل الكرم الذي عاملت به التوراة الغوييم كغرباء وطلبت الاعتناء بهم كالإسرائيلين أو حتى أكثر(وتحب الغريب لأنكم غرباء كنتم في مصر)، كل هذا الكرم تم حصره خلال عهود المنفى القاسية على يد كل المنتجين تقريباً في «المتهودين منهم» فقط، وجزء صغير منه حول إلى تخفيف الحكم على «الغريب القاطن» مع كل اشتراطاته الشديدة. ولكن كل غير اليهود الواقعيين الموجودين في عالمنا لا ينطبق عليهم القاطن.

تقع الشريعة في أيامنا تحت سيطرة الثيولوجيا المسيحانية التي يسعدها أن تطبق على أرض الواقع كل التشدد الذي نما أثناء المنفى. وفي أحسن الأحوال فإن الشريعة تتعامل اليوم مع غير اليهود في إسرائيل بصفتهم مجرد غوييم، مع كل الدلالات التي يحملها هذا التعبير، وكغوييم في زمن الحرب في أرض إسرائيل، حين تكون السيطرة لليهود، مع الدلالة الوحيدة الصريحة الناجمة عن ذلك.

ثمة أسبابٌ ثلاثة كانت وراء التأثير الهائل الذي تتمتع به هذه الثيولوجيا ومعها القباليين والمجتهدون على الجماهير العريضة:

وجود الجوقة المسيحانية- القبالية التي تعمل كطبل أجوف يردد

المعنى الرئيسي لهذه المرحلة، ضامة إلى نفسها كل الأصوات الدينية الأخرى.

وضع الحرب والإرهاب السائد في إسرائيل والذي يعتبره جهور واسع كوضع دائم ومرتبط بالحالتين التي تستمد القبالاة المسيحانية قوتها منهما، وهما حالة العجز اليهودية والحالة المرتبطة بها وهي حالة اليهودية الكلية القدرة. إذاً فإن وضع الحرب و الإرهاب يحيل إلى الماضي، ماضي المذابح والكارثة، وإلى الوضع الذي كانت فيه اليهودية تعاني جسدياً، ولكنها في ذات الوقت احتفظت بقوتها العليا كلية القدرة النابعة من سموها الروحي. فما تلك العذابات إلا الظلمة التي تسبق فجر المسيح الوشيك والذي سيسيطر على العالم والذي لا يؤخر مجيئة إلا وجود بعض ضعاف النفوس من اليهود. فالظلمة واعتداءات الغوييم تسبق الفجر (ولكن ها هنا، تظهر اليد اليمينية الصحيحة والمنتقمة).

لقد شخص البرفسور غورشون شالوم شبتاي تسفي بوصفه يعاني من حالة من الفصام ويبدو لي أن وضع اليهودية في المنفى، ولربما أكثر منها، وضع الجمهور الديني كما هو عليه الآن في إسرائيل، يتناسب مع ذلك التشخيص الفصامي. إن الوضع القومي الذي أطلق عيه ليفي اشكول اسم «شمشون المسكين» يبحث عن إجابات ذات نكهة فصامية. ويبدو أن القبالاة المسيحانية في انتقالها من حالة العجز الشاملة إلى حالة القدرة الكلية إنما تتلاءم مع ذلك التشخيص بشكل دقيق.

السبب الثالث لهيمنة الثيولوجيا الحالية المتشددة في مسألة الغوييم هو عجز المعترضين على هذه الفتاوى عن طرح بديل يهودي ديني موثوق. يبدو أنه في عالم المعنى الحالي، عالم الجوقة المسيحانية القبالية، تبدو الأصوات اليهودية الإنسانية الشاملة كأصوات نشاز وأساساً كأصوات لا تستطيع أن تبرر نفسها بطرح تعبير وأساس ديني صلب ومكتوب ومبرهن عليه لادعاءاتهم المتنورة. لذلك فإن رغبتهم تبدو لليهودية الأخرى، بما في ذلك اليهود المتدينون، كتعبير عن ضعف روحي، كإنسانية غويّة مجمّلة

ينقصها السند من الأصول، فرفضت من الجمهور على اعتبارها نظرية أجنبية.

إن النظرة الضد الغوييم تتمتع بوفير القوة وتزخر بتعابير سنعالجها لاحقاً، ولكنها لا تزخر بالتعابير فقط. إن النظرة المتطرفة في مسائل الغوييم لا تنعكس فقط في الأعمال الإرهابية أو في الرياضة-كحالة الرابي عيدو آلبا-الذي عمل تحت توجيه الرابي الرئيسي سابقاً، مردخاي الياهو، في مسألة هل تنطبق وصية «لا تقتل» على الغوييم، بل إنها، وكما سنلاحظ في الفصول التالية، ذات قوة كبيرة في التعليم الحريدي الشاسي[1] والديني القومي.

ولكي نقف على نموذج صغير يمثل واحداً من الآلاف العديد من الأقوال التي لم تعد عزاء خفياً، بل تربي وتنشئ، ما علينا سوى رؤية صحيفة شاس «يومياً»، ففي ملحقها للأطفال ورد الاقتباس الرئيسي من كبار إسرائيل:

«أنتم الإنسان- اليهودي فقط هو إنسان، والغوي ليس إنساناً». وهذا يتكرر مراراً في الصحف وفي محطات الراديو الدينية العديدة التي أخذت في الازدياد منذ منتصف السبعينات، وفي الأشرطة وفي كل وسيلة لتوزيع نور اليهودية. فإذاً، لقد فقد الغوييم في روحية يهودية عصرنا روحهم، ويبدو أنه ليس الغوييم وحدهم من خسر ذلك..

---

[1]- الشاسي: نسبة إلى حزب شاس الشرقي الحريدي والذي له جهاز تعليم ذو استقلال ذاتي – م-

# الفصل الثامن

## دين المسيح- حاباد

حسيدية حاباد هي واحدة من الحسيديات الكبيرة في دولة إسرائيل (إلى جانب حسيدية غور)، كما أنها تعتبر الحسيدية الأكبر في العالم اليهودي عموماً، وهذا لأنها الحسيدية الكبيرة الوحيدة التي تقوم بالهداية[1]، وتستوعب إلى صفوفها اليهود العلمانيين بحماس.

كان لحاباد وللمذهب المسيحاني للأدمور السابع من بيت لوبابيتش، الرابي مناحيم مندل شينا ورسون-لوبابيتشار-دور مهم في الثورة المسيحانية القبالية التي شهدتها اليهودية الدينية في إسرائيل في الجيل الأخير. ولعله يأتي في المرتبة الثانية بعد فكر كوك المسيحاني.

لقد طرحت حاباد نفسها، من نواحٍ عديدة، بصفتها حالة حدودية تنتمي في وقت واحد إلى الجانبين من جهات عدة. وربما استطاعت لهذا السبب أن تخترق الكثير من الحدود. حاباد هي بلاط حريدي حسيدي، ويصفتها هذه فهي تعارض الصهيونية وترى فيها مروقاً على الدين وعلى المسيح. وأغلب أعضائها لا يخدمون في الجيش. ولكنها في الوقت ذاته متورطة في السياسة إلى حد كبير ومنذ فترة طويلة. فهي تدعم بدون حدود احتلال الجيش الإسرائيلي وترغب منه أن يحتل المزيد من الأرض. كما أنها تتكلم بتعابير عسكرية، فهي تشغل دبابات الأوامر الدينية وتنفذ عمليات سياسية يمينية مكشوفة وعديدة. كما أنها، وعلى نقيض نهج أغلبية اليهودية

---

[1]-الهداية: أي هدايا الضالين وغير المؤمنين وارشادهم إلى التوبة الدينية- م-

الحريدية، تعمل على نطاق واسع في تشجيع الهجرة اليهودية إلى الدولة الصهيونية. حاباد هي بلاط حسيدي قديم. كل الحسيديات الأخرى تقريباً تعمل كأخويات دينية مغلقة، ولذلك فإنها لا تشجع على التوبة والانضمام إلى صفوفها، وإذا حصل وانضم إليها أحد عن طريق الزواج أو عن طرق أخرى، فلا بد له أن يخضع لفحوص وتدقيقات حسيدية مهينة. أما حاباد فإنها تعمل بأسلوب مغاير تماماً. فهي تشجع التوبة والانضمام إليها بدون أيما تدقيق (الاستثناء الوحيد هي حركة براسلاف الحسيدية، وهي حركة صغيرة جداً، وهي أيضاً مسيحانية). وعلاوة على ذلك، فإن حاباد تنشط في مجال التأثير على أكبر عدد من اليهود للالتزام ولو بشعيرة واحدة، مثل وضع شال الصلاة أو إشعال شموع الحانوكا. وهذا الأسلوب ترفضه وبشكل مطلق أغلب اليهودية الحريدية. ان أغلب الحسيديات مغلقة أمام الصحافة. فإقامة جدران الغيتو بينهم وبين العالم الحديث هو أمر حياتي بالنسبة إليهم، بينما نرى حاباد تدير، ومنذ أمد بعيد، عمليات إعلامية واسعة عبر لافتات الطرق والصحف والتلفزة وتنتهز بشغف أية فرصة تلوح لها للانكشاف الإعلامي. أسلوب التعليم في أغلب الحسيديات، ما عدا حسيدية براسلاف، اجتاز انقلابا خلال الأجيال الأخيرة وتقبل عمليا أسلوب التعليم اللاتفي مع أولوياته التعليمية وتركيزة، على الأقل من زاوية الزمن المخصص، على التوراة. بينما لحاباد نهج آخر تماماً، فأغلب وقت وعقل رجالها مكرس لكتابات أئمتها السبعة، مع تأكيد خاص على الإمام الأول وتأكيد زائد على الإمام الأخير وهو الرابي مناحيم مندل شيناورسون.

إن موقع حاباد الحدودي هذا ما بين الضد صهيوني، والصهيونية القومية، وما بين الحريدية والانفتاح على العالم الحديث، أتاح لها قوة تأثيرية كبيرة. وسنقف فيما بعد على نتائجه وعلى استغلاله، لكن من الجدير بادئ ذي بدء أن نتعرف على سره العميق.

ثمة سبب واحد مشترك وراء موقع حاباد الحدودي وفرادتها والتناقضات والتعارضات التي اتسمت بها. وهذا السبب هو أنه كانت للذي

تولى قيادتها منذ عام 1950، وهو الرابي مناحيم مندل شيناورسون، اللوبيتشار، نظرة خاصة للعالم، فهو ينظر إليه من خلال بعد صهيوني أو ضد صهيوني أو حريدية مغلقة أمام العالم الخارجي.

لقد كانت نظرته للعالم تنطوي على سر، وهذا السر هو اعتباره لنفسه مسيحاً حقيقياً قائماً، فكل أعماله تصدر عن هذه النظرة التي غدت يقينية بالنسبة إليه منذ وصوله إلى كرسي «الادمورية[1]» في حاباد عام 1951.

وعلى خلاف ما يطرحه الكثيرون، ومن بينهم باحثون، بأن مسيحانية حاباد الفعلية ابتدأت في التسعينات مع مرض الأدمور كتصرف يائس من جانب الحسيديم، فإن الحقيقة هي عكس ذلك، إذ إن ادعاء المسيحانية كان المحرك المعروف والمخفي أحياناً، الذي حرك كل نشاطات حاباد في عالم المحسوس خلال الجيلين اللذين أعقبا الكارثة تحت القيادة المطلقة لمن رأى نفسه طوال الوقت كمسيح إسرائيل، ومناحيم اسمه. منذ منشأها وحاباد تعتبر نفسها مسيحانية. إلا أنها لم تشهد في حياتها فورة مسيحانية فعلية كالتي شهدتها تحت قيادة الرابي السابع والأخير. لقد تفردت حاباد منذ بدايتها بأبعاد ثلاثة:

لقد اعتبرت نفسها الحركة الوحيدة والواضحة التي تواصل درب خالق الحسيدية، بعل شمطوف.

أكدت حاباد أكثر من أية حركة حسيدية أخرى (مرة أخرى باستثناء حسيدية براسلاف)على عالم القبالاة مع الاقتراب من التيارات القبالية المسيحانية التي تدعو إلى تعليم العامة ينابيع القبالاة في الزمان القريب من قدوم المسيح. وحتى اسم الحسيدية مأخوذ من القبالاة مع التأكيد على تفوق وإبداع حاباد. فكلمة حاباد مأخوذة من الأحرف الأولى من الكلمات: حكمة، فهم، علم. فبحسب القبالاة هناك مراتب عشرة للتجلي الإلهي، وتأتي الحكمة والفهم على طليعتهما فهما الأقرب إلى التاج الالهي، بينما المعرفة

[1]– ادمورية: من ادمور، وهي اختصار لقب: سيدنا ومعلمنا وشيخنا. وهي المرتبة العليا في حاباد والحسيدية عموماً– م–

هي مرتبة إضافية إلى المرتبة العادية، وكان التمركز فيها واحدة من ثمار إبداعات حاباد.

من خلال البعدين السابقين، اعتبرت حاباد نفسها أنها الأعلى مقاماً في العالم الحسيدي وبالتالي كقائدته بالقوة. وطالما الأمر كذلك، وبما أنها تؤمن بسمو الحسيدية التي هي من ثمار الاقتراب من الخفي وبواطن التوراة في النظرة الحسيدية- اعتبرت حاباد نفسها جديرة بقيادة الشعب الإسرائيلي بأجمعه.

لقد سار كل أدموري حاباد على الدرب الذي شقه الرامبام وعقيدته القائلة إنه في كل مرحلة هناك يهوديٌ هو «بمنزلة مسيح الجيل»، أي اليهودي الذي يصبح المسيح الحقيقي إن جاء الخلاص في ذاك الوقت، وان لم يجئ الخلاص فيكون ذلك بسبب ذنوب ذلك الجيل. وفق مبدأ فتوى الرامبام، فان التعريف: «بمنزلة مسيح» يصح على اليهودي الأتقى في مرحلته والذي يفرض التوراة على إسرائيل. ومن هنا فإن كل أدموري حاباد ذهبوا مذهب الكثيرين نفسه ممن اعتبروا أنفسهم بمنزلة مسيح من كبار القبالاة والحسيدية مثل الآري وحاييم فيطال وبعل شمطوف ورابي براسلافيا، اذ إنهم هم، نظراً لتفوق حاباد، رؤساء الجيل.وما ساعد في ادعائهم لتاج «بمنزلة مسيح» -والمحفوظ لرئيس الجيل-هو التقليد الحابادي القائل بأنهم من سلالة بعل شمطوف والذي هو من سلالة راشي والذي يعتبر من سلالة بيت داود. أي أن أدموري حاباد ينتمون، حسب اعتقادهم، إلى بيت داود.

صحيح أن واحداً من أدموري حاباد لم يتخذ خطوات فعلية في العالم الواقعي كنتيجة لاعتبار نفسه جدير بلقب «بمنزلة مسيح» باستثناء الادمور الأول، والذي هو الآخر لم يفعل ذلك إلا على نطاق ضيق ومحدود. فمثلهم مثل غيرهم من اليهود على مر العهود انتظر رجال حاباد بسلبية المشيئة الإلهية التي قد تختار هذا الجيل كجيل الخلاص وبالتالي تختارهم هم بالذات كرسل مشيئة، كمسيح بالفعل. إلا أن الصورة تغيرت تغيراً تاماً مع استلام الادمور الأخير لمهام منصبه.

لقد قُبل مناحم كصهر في بيت الادمور السادس. إلا أن جدارته في الوصول إلى الادمورية لم يكن أمراً مفروغاً منه عند كل الأعضاء. فلقد أمضى فترة ليست بالقصيرة في برلين وباريس حيث درس الرياضيات والفيزياء. وعلى الرغم من نبوغه في التوراة إلا أن شخصيته وقربه من العالم العلماني أثارت أسئلة حوله، دون أن تستطيع الحؤول دون تعيينه في المنصب. لقد مات الادمور السادس عام 1950، وصعود الرابي مناحيم للمنصب بعد ذلك بسنة، أي عام 1951.

كان واضحاً بالمطلق للرابي أن هذا الجيل، جيل ما بعد الكارثة وما اكتنفها من آلام المسيح هو جيل الخلاص الأخير -ولم يعد الأمر منوطا بهذه الأفعال أو تلك، أو بإصلاح الجيل من خلال الشعائر-. فلقد تحدد ميعاد الخلاص ولابد له من أن يحدث في هذا العصر. قد يكون من شأن الإصلاح أو الوعي بقرب الخلاص أن يساعد في التعجيل فيه وفي تجنب آلامه، إلا أن الخلاص بذاته لابد وأن يتم في هذا العصر. وأن يتم، كما هو مفهوم، على يد المسيح الذي في العصر والذي هو مناحيم مندل شيناورسون، والذي ينتقل بذلك من «بمنزلة مسيح» إلى «مسيح حقاً[1]»، و«حقا» هي الأحرف الأولى من مناجيم مندل شيناورسون.

لقد وضع الرابي من لوبابيتش تأكيداً إضافياً على اجتهاد الرامبام في موضوع المسيح، والقائل أن «بمنزلة المسيح» هو اليهودي الذي من سلالة داود والأتقى في عصره، ويفرض التوراة على إسرائيل. بينما «المسيح الفعلي» هو من عمل ونجح: أي يجمع شمل الشتات وينهي استعباد الأمم وثم في النهاية يبني القدس. ولقد رأى مناحيم مندل أن أفعاله تستجيب مع اشتراطات الرامبام وهذا هو السر الأول في نشاطاته. ولا غرو في ذلك فهو مرجع بصفته أدمور حاباد، فهو إذاً صالح العصر، فضلا عن سلالة داود نظرا لانتسابه إلى بعل شمطوف عبر الراشي. ولقد كانت نشاطاته

---

[1]- هنا تلاعب بالألفاظ من المؤلف. فكلمة حقاً او فعلاً او بالفعل بالعبرية هي «مَمَش» وهي تطابق الأحرف الأولى من مناحيم مندل شيناورسون- م-.

الأولى منذ أن تولى مهامه القدسية عام 1951 واستمرت طوال حياته تستهدف البرهنة على أنه يفرض التوراة على إسرائيل. ويُعتَبر فارضاً حسب التفسير المعمول به من يؤثرّ بنجاح. وإلا فما معنى التوسل لوضع الوشاح لمرة واحدة، أو إشعال شموع السبت والحانوكا، أو إقامة شعيرة صغيرة في مشفى أو في محطة سكة حديدية أو في معسكر للجيش؟ ولقد كانت هذه الأمور من وجهة نظر الرابي إثباتاً إضافياً على لقبه، إذ إن كل توسل لإقامة شعيرة إنما هي فعل من أفعال فرض اليهودية من قبل المسيح على اليهود. وهكذا استطاع اللوبيبتشار أن يحقق من خلال تضرعات اتباعه لوضع الشال اللقب الأول وهو «بمنزلة مسيح».

فهو من وجهة نظره، صالح العصر ومن بيت داود ودارس للتوراة ويفرض التوراة على إسرائيل. بدءاً من أعوام الستينات بدأ الربابنة في الانتقال إلى مرحلة «عمل ونجح فعلاً»، أي مرحلة العمل المسيحاني بالفعل. وهي المرحلة التي ينتقل فيها المرشح من «بمنزلة مسيح» إلى «مسيح فعلي» والذي هو التجلي للمسيح. وكما نذكر فلقد حدد الرامبام النجاح باعتباره مقياس المسيح، لان المفترض أن المسيح سيجمع شمل الشتات وينهي استبعاد الأمم. وبما أن الرابي مناحيم مندل يعتقد أن أفعاله ونبوءاته فيما يخص يهود الاتحاد السوفيتي هي التي فتحت أبواب الهجرة، فهو إذاً يجمع شمل الشتات، بينما نشاطاته السياسية لتمهيد الأرض الحسية، والتي ستستقبل المسيح والرب، لتكون أوسع ما يمكن، ونشاطاته ونبوءاته من أجل أرض إسرائيل الكاملة وأكثر، إنما تثبت واقعياً، من وجهة نظره، انه هو من يقود الشعب نحو الانعتاق النهائي من عبودية الأمم. ولم يبق أمامه إلا بناء بيت المقدس الذي ينتظر تجليه النهائي، وتقبل حكمه من قبل جماهير بيت إسرائيل الذي ينبغي عليهم الإقرار بكونه ملكاً مسيحاً، لأنه لا يوجد ملك بدون شعب.

مخلصاً لنهج خفايا التوراة وعلم التسويق الأمريكي، لم يعلن الرابي ولم يتحدث، حتى سنواته الأخيرة، بشكل صريح أمام العامة عن كونه الملك

المسيح، قائلاً لتلامذته إن الوقت لم يحن بعد لتتويج صريح كهذا، لأن الجمهور العريض مازال غير ناضج لفهم هذه الخطوة، ولن تكون مكافأة التبشير بقول الحقيقة أمام آذان غير مستعدة لها إلا الخسارة، فتتحطم الأواني.

إلا أن كل نشاطاته في هذا العالم الحسي الواقعي لم تكن الأعلى ضوء النظرة المسيحانية. ففي أقواله الأولى إلى أتباع الحسيدية بعد موت الأدمور السادس أوضح لهم تصوره الفكري. فقد كان الأدمور السابق، حسب وجهة نظره، بمنزلة مسيح، وأن الأتقياء مثله لا يموتون بل يبدون كذلك للعين العادية بينما هم في الحقيقة يستمرون في الحياة والنشاط في هذا العالم. أما هو، الرابي الحالي، فمفهوم أنه التجسيد الروحي للرابي السابق الذي يستمر من خلاله في الحياة والعمل، وإن كان بشكل غير مرئي، في المهمة المسيحانية أساساً. ووضع الرابي مناحيم مندل إضافته بأننا نعيش في عصر الخلاص النهائي وما علينا الا أن نفتح أعيننا لنراه. ومما ساهم في تعميق يقينية هذا الأمر أن من علائم الخليقة أن يكون في حاباد سبعة أدموريم (مثل أيام الخليقة السبعة)؛ حيث في اليوم السابع، أي يوم السبت، يأتي المسيح. وقد تعمق هذا الإيمان وتجذر بفعل الاعتقاد بأن سلالة حاباد لا تنقطع إلى أن يأتي المسيح من بيت داود ويكون راباً لا أولاد ولا أصهار له وبالتالي لا يمكنه أن يواصل السلالة، ولذلك فإن المسيح ملزم أن يتجلى في عصر هذا الرابي ولابد له كذلك من أن يكون أدمورا في حاباد.

وبصفته مسيحاً قائماً، فلقد اعتبر الرابي مناحيم مندل نفسه جزءاً من النفس المثلثة، النفس الأسمى – آدم – داود – المسيح. وبصفته ذا قامة مثل قامة آدم الأول فلقد اعتبر أنفس حاباد، كما هو مفهوم، تتسلسل منه. وكما نذكر، فان كل الأنفس التي في العالم كانت متضمنة في آدم الأول ويتوقف سمو كل نفس منها على مصدرها، على جذرها، وفي أي عضو من أعضاء آدم كانت مغروسة. وعلاوة على ذلك، فلقد استخدم الرابي أحياناً رمز «آدم الأول» للإشارة إلى نفسه. وهو رمز عالي القيمة ويعلو على كل

المراتب. أما رجال حاباد فلقد رأى فيهم مبعوثين له وكعضو من أعضائه، وفق التقسيم القبالي الذي يقرن المراتب العشرة بأعضاء الجسم، بدءاً من حَمَلة كلمته والذين هم الفم وانتهاء بالرسل العاديين الذين هم الأدنى، أي القدمين. ومفهوم بالطبع أنه نفسه هو تأتي من العينين والجبين وأنها أسمى من الجميع. فهو من خلال قوة رؤيته-قوة العينين اللتين تبصران وتعيان كل شيء-يفيض بالنور الإلهي على العالم. ومن هنا كان أكثر ما يحبه فيه حسيديوه هي نظرته الحارة وما يصاحبها من إحساس بأن الرابي يراهم.

لقد انتشر رسل الرابي، مزودين بحرارة نظرية، في كل القارات، ولم يدعوا أية زاوية أو ركن في العالم يوجد فيه تجمع يهودي إلا ووصلوا إليه. لقد شكلوا بالنسبة إلى الكثير من اليهود في العالم نقطة اللقاء الوحيدة مع العالم اليهودي. وبفعل نشاطهم المتفاني وإخلاصهم تاب الآلاف من اليهود على أيديهم في روسيا وإسرائيل وفي الولايات المتحدة بشكل رئيسي. واستجاب مئات الألوف لطلب تنفيذ شعيرة مثل وضع الوشاح أو إشعال شمعة، وكثيرون فازوا في أخذ دولار مقدس من يد الرابي بذاته. ملايين من اليهود يعرفون صورة الرابي. وكان من بين الآلاف الذين انجروا إلى الثورة المسيحانية أبناء تيارات أخرى. فمثلاً كان هناك من أتباع كوك ممن يؤمنون بالزمان المسيحاني دون مسيح معين، على أمل، إن لم يكن بإيمان كامل، أن يكون الرابي مناحيم فعلاً هو المسيح، فهو بالتأكيد جدير بهذا التاج ومن المستحسن الفوز ببركاته.

وعلى ضوء ما تقدم يغدو مفهوماً إذاً لماذا لم يكن بإمكان الرابي أن يخطو على أرض إسرائيل ولم يأت إليها في زيارة أبداً. إذ إن المسيح يشرع، ما أن تطأ الأرض المقدسة، في المرحلة النهائية لمسيحانيته ولا يعود بقادر على الخروج منها. لذا فإنه حدد إقامته مؤقتاً في نيورك في منزل رقم 770 والذي وفق الحساب القائم على حروف الهجاء يعني «بيت المسيح[1]».

---

[1]- في العبرية كل حرف من احرف الهجاء يدل على رقم. فيستخدمون احياناً احرف الهجاء بدلاً من الأرقام للأشارة إلى رقم معين أو تاريخ. وبيت المسيح بالعبرية هي: «بيت مشيح» وهي مكونة من

مفهوم أن مسيحانية الرابي الحسيدية القبالية وأنشطة التبشير-الإعلامية في أرجاء العالم واجهت معارضة أيضاً. وكان المعترضون الأساسيون هم «المعارضة»، أي تحالف المدارس الدينية واللاتفية التي كانت تقليدياً ضد الحسيدية وضد التعميم الشعبي لليهودية وبشكل خاص ضد المسيحانية الصريحة. والطرفة التي تقول «أي دين أقرب من غيره لليهودية؟ أنه لوبابيتش»، هذه الطرفة راجت لأعوام طويلة في أوساط المدارس الدينية، وهي تقليصٌ لطرفة سابقة كانت تقول قبل تقليص الفجوات في العالم الديني: «ما هي الديانة الأقرب لليهودية؟ إنها الحسيدية». إلا أن المناهضة المكشوفة والصريحة ضد حاباد انتهت منذ منتصف الثمانينات.

لقد وصل الصراع في تلك السنوات ضد حاباد والذي قامت به الدوائر اللاتفية تحت قيادة الرابي شاخ إلى درجة حرب إبادة علنية، وذلك لتضافر أسباب عديدة، منها:

تعاظم المسيحانية وعلانيتها في حاباد.

الصراع ما بين أطراف المعسكر الحريدي للسيطرة عليه بعد أن شهد ازدياداً في قواه وقدرته.

كان الرابي شاخ، وفق رؤيته الاجتماعية السياسية لدولة إسرائيل،ملزماً أن يطلب لنفسه ولنهجه موقعاً قيادياً. فكان الصراع ضد حاباد ومسيحانيتها وسيلة في هذا الصراع من أجل السيطرة.

أعلنت القيادة الليتوانية النبذ على حاباد، وطُلب من الحسيديين مقاطعتها، وعندما رفضوا، كما هو متوقع، انشقت القيادة الحريدية سياسياً إلى حزب ليتواني وحزب حسيدي. ولما هدأت أصداء هذه الحرب كانت حاباد في قلب المعسكر. وكما سنرى في الفصل التالي، فلقد أخذت رياح مسيحانية قبالية، وأن لم تكن حابادية بالضرورة، تقضم بالقلعة الليتوانية التي يقودها الرابي شاخ حتى غيّرتها من الداخل تغييراً شاملاً.

---

الأحرف (ب،ي،ت، م، ش، ي، ح)فإذا جمعناها وفق دلالتها الرقمية كان الحاصل 770- م- حسب الحساب التالي: ب=20، ي=10، ت=400، ش=300، ح=8، م=40 - م-

لقد امتاز الادمور من لوبابيتش[1] بالانفتاح النظري والعملي على العالم الحديث والعلماني مما أكسبه تقدير العالم العلماني والغربي تالياً. لقد سار الرابي هنا على درب سلكتها من قبله الكثير من الحركات المسيحانية في اليهودية. فمن طبيعة أية حركة مسيحانية أن تنظر إلى نفسها بصفتها محدثة لتغيير عالمي، ولذلك تكون لديها حساسية عالية تجاه أية متغيرات كونية، وتستطيع أن تنظر بإيجابية إلى التغييرات والثورات باعتبارها إشارة إلهية على التغير المسيحاني. وفضلاً عن ذلك فإن اليقينية المسيحانية التي تخفق في القلوب تعتبر أن العالم موجود في مرحلة انتقالية مسيحانية، وإن نواميس العالم ستتغير بعد مجيء المسيح. فهكذا تعهد شبتاي بن تسفي، مثلاً، لنساء استانبول، أنه جاء كمسيح لإصلاح خطيئة آدم الأول، ولذلك فإنهن، النسوة، مُعفيَن من اللعنة القديمة ولم يعد من الواجب عليهن الانصياع لأزواجهن الذين يسيطرون عليهن بفعل المشيئة الإلهية بعد الخطيئة الأولى. كذلك عيسى ويعقوب فرنك، فكل منهما ساهم بطريقته في ثورة أنثوية ما. وتيارات عديدة في القبالاة ترى أنه في العصر المسيحي تتغير نواميس العالم ولا يعود الرجل (رمز اليمين) يسيطر على المرأة (رمز اليسار)، بل على العكس. والعكس من ناحيتهم هو المساواة، والمساواة تعني سيطرة المرأة حسب اعتقادهم.

وأيضاً مناحيم مندل شيناورسون شعر أن حركة تحرير المرأة الأمريكية والثورة النسوية هما جزء من بشائر زمنه المسيحاني (كونه المسيح – م –). إذ انهما تغيير يبشر بالزلزال المسيحي، مع أنه، حرصاً على مكانته التقليدية، لم يبادر إلى إدخال تغييرات شرعية أنثوية إلى بلاط حاباد. وليس الثورة النسوية فحسب، بل أيضاً كل تغيير عالمي تقريباً اعتبره الرابي مناحيم مندل إشارة تثبت الزمان المسيحاني، هذا علاوة على أنه اعتبر أن الجزء الأكبر من هذه التغييرات إنما حدث إما بفعل تأثيره هو أو بفعله المباشر سواء كنبي أو كمبشر. وهكذا نظر إلى

---

[1] أي رابي حاباد مناحيم مندل – م –.

الثـورة العلميـة والتكنولوجيـة بإيجابيـة وسـعد باسـتخدامها وإعطائـها مضموناً يهودياً.

بشكل عام تمنح اليقينية المسيحانية قلوب المؤمنين بها، ومنتجيها على الأخص، شعوراً باليوفوريـة وحالـة من الإحسـاس بـالثورة الكلية، كما تغرس فيهم الإحساس أنهم قادرون على استيعاب العالم بأجمعه، بوروده وتناقضـه، في قلبهم، بينما هم يقومون بإصلاحه حسب ما يتناسب مع عقيدتهم.

إن كل القوى الديونيزية الفاعلة في الكيان البشـري، فـي الموسـيقى، في ثقافة الجسد، في الحرب، والتي تشكل فـي العموم تهديداً على الثقافة الدينية التقليدية، ولا سيما على الثقافة اليهوديـة المنغلقة على نفسها داخل تخومها في وجه العـالم المعـادي، كل هـذه القوى الديونيزيـة تجد لـها صدى وإقراراً في القلب الصوفي المسيحاني.

إن هـذه القبـالاة والتـي تبـدو لأول وهلـة وكأنـها قبـالاة عـالم الغرائـز الهائج والمفتوح، هي التي كانت، في أحيان كثيرة، وراء انجذاب أعداد هائلة إلى شيخها القبالي الساحر. فلقد انجذب إليها العديد من الرجـال والعديد من النسـاء بمـا يتجاوز حصتهن التقليدية فـي أيـة حالـة دينيـة، بحبـل مـن الافتتـان، حيث وجدوا فـي هـذه القبالـة متنفسـاً واعترافـاً بنوازعـهم وبقـوة الحيـاة النابضـة فيهم. وليـس أي متنفـس، بـل متنفـس روحـي يضفـي علـى الجيشان الداخلي فيهم مغزى ومعنى ويجعله جزءاً من ملكوت علوي متناغم ويوفـر للعضو الإحسـاس بـأن هـذا المعنى الجديد المعطـى لـهم إنمـا يعكس أجراس السكينة المسيحانية.

في هذا الانفتاح الظاهري على العالم الديونيزي يقبع سـحر جاذبيـة عيسى وناتان الغزي وشبتاي تسفي ويعقوب فرنك والرابي كوك أيضاً الذي جذبـت إليـه انطلاقـة روحــه وتمتعـه بمبـاهج الحيـاة الدنيـا العديـد مـن الأشـخاص الذيـن وجدوا عنـده متنفساً لقواهـم الحيويـة، ودربـاً للعمـل مـن خلاله والمساهمة فـي الوقت ذاتـه فـي توسيع الحسـيدية إلـى منـاطق وقلـوب وجيوش عديدة.

إذاً، فان القدرة على الانفتاح اليوفوري هي ما ميز القبالاة المسيحانية، سواء قبالاة كوك أو قبالاة مناحيم مندل، وما لعب أيضاً دوراً مهماً في بناء قوتها الكبيرة البانية والهادمة في آن واحد. إن هذا النموذج من الجمع بين مسيحانية متطرفة وانفتاح على العالم الحسي ما يزال قائماً حتى الآن، والمثال الأفضل عليه هو اسحاق غيزنبورغ، أبرز الخلاّقين بين قباليي عصرنا، وبلا شك القوة الأكثر إنتاجاً في حاباد اليوم، والذي يعتبر نفسه مسيحاً حقيقياً واستمراراً للرابي على الأرض، والذي سنعالج أمره في فصل القباليين الجدد. فهو ذو مواهب ملحمية ويهوى الموسيقى والرياضيات والفنون الشرقية، ويقود مع حبه هذا، ومعه كل المعجبين والمعجبات المنجذبين إلى هذا الانفتاح، قبالاته نحو إبادة العرب. وهو يفعل كل ذلك بصوت ناعم مبتهج طروب كأجراس الرياح وبعينين تغشاهما المحبة.

بناء على هذا، فإن الرابي مناحيم مندل لم يعتبر نفسه رائياً لعلائم التغيير المسيحاني فحسب، بل أساساً، المؤثر على هذه العلائم. فهكذا اعتبر أن فتح أبواب الاتحاد السوفياتي ليس إلا تنفيذاً لنبوءاته وأساساً كنتيجة لنشاط رسله أعضاء جسمه هناك. وبالطريقة نفسها نظر إلى انتصارات الجيش وحتى إلى انهيار الاتحاد السوفياتي. أما اتفاقات نيويورك حول الحد من التسلح بين الدول فرأى فيها علامة مميزة. فبحسب الأسطورة القديمة فان المسيح يبقى قاطناً في روما - مركز العالم - إلى حين استكمال تجليه. وهكذا، أصبحت نيويورك هي مركز العالم وذلك بفضل إقامته فيها. ولهذا السبب تم كتابة الاتفاقات للحد من التسلح النووي بين الدول العظمى فيها، وإليه يعود الفضل في هذا، فضلاً عن أن الاتفاقات بحد ذاتها جاءت مصداقاً للنبوءة القديمة «ويصهرون سيوفهم معاول».

من الواضح أن معجزات أقل شأناً، مثل حرب الخليج والتي تعهد الرابي أن أحداً لن يصاب بها، إنما تحدث تحت قيادة الملك المسيح. فبحسب السيناريو الخلاصي المسيحاني، فإن ملك فارس سيتحدى ملك العرب مما

يقود إلى حرب يأجوج ومأجوج بينهما، وتباد أغلبية إسرائيل خلالها، إلا أن هذه الإبادة مُنعت مؤقتاً بفضل الرابي المسيح.

إذا كانت العلاقة بين السبب والنتيجة واضحة للرابي، فلاشك أنها كذلك أيضاً لآلاف مريديه ومبعوثيه الذين يرون المعجزات في كل مكان: فكل ديك يستطيع، بمعجزة، أن يأمر الشمس بالشروق كل صباح.

لقد أعطى الرابي مسألة تنفيذ توجيهاته بما يخص الأرض وزناً نوعياً. فقد كان واضحاً لديه أن الأرض التي سيأتي إليها وستستقبل تجليه النهائي كمسيح لابد وأن تكون واسعة. ومن ثم فإن واجب أولئك المنشغلين بالماديات، مثل جنود الجيش، أن يبذلوا طاقتهم ودمهم في توسيع «المسكن الدنيوي» أي الأرض التي تنتظر المسيح والرب، وهي أرض إسرائيل. من هنا فقد اعترض، بصفته مسيحاً، على التخلي عن أية حبة رمل، كما نظر بخطورة شديدة، هو الذي يمتنع حسيديه عن الخدمة في الجيش وفقاً لتعليماته، إلى الانسحاب الإسرائيلي من أرض جاسان، أي ذلك الجزء الواقع غرب القناة (ولكنه شرق النيل ضمن حدود الوعد) الذي احتلته القوات الإسرائيلية في حرب يوم الغفران (مقابل الاحتلال المصري لشرقي القناة). ومن البديهي أنه اعتبر أي انسحاب آخر من سيناء أو لبنان أمراً خطيراً وانتهاكاً لمشيئة المسيح، دع عنك، والعياذ بالله، الحديث عن يهودا والسامرة وإعطاء عربها حكماً ذاتياً فيهما.

إن هذه الفتوى الحابادية ضد إعادة مناطق تقدم لنا نموذجاً بيانياً على مسيحانية يمينية مناهضة للصهيونية. فريانيو حاباد، وعلى خلاف مسيحانية كوك، لم يستخدموا فتاوى دينية خاصة بأرض إسرائيل لتبرير رفضهم التخلي عن مناطق، بل استخدموا ذرائع شرعية عامة غير خاصة بأرض إسرائيل وذلك كي يقدموا مصداقاً للصهيونية من جهة، وليضمنوا، في الوقت ذاته، توسيع المنطقة الواقعة تحت السيادة الصهيونية التي تنتظر جلالة المسيح، من جهة ثانية.

وعلى رغم الغلالة الشفافة اللا سياسية لحركته، إلا أن الرابي،

بصفتـه ملـك إسـرائيل، انخـرط فـي العديـد مـن الأنشـطة السياسـية مثـل المظاهرات كما استخدم قواه في الكنيست ولقاءاته لكي يؤثر على الجماهير في البلد.

كـان الرابـي يبـدي حرصـاً فائقـاً أثنـاء لقاءاتـه مـع الإسـرائيليين والسياسيين منهم بوجه خاص، على تأكيد سمو جلالته، الأمر الذي كثيراً ما كان يفوت الأعين العلمانية لضيوفه الإسرائيليين. ونورد هنا مثالاً على ذلك. ففي عام 1966، زار رئيس الدولة زلمان شازار الولايات المتحدة للمشاركة في تشييع ايزنهاور، وشازار، بصفته أصلاً من حسيدي لوبابيتش، أراد أن يأتي الرابي للقائه. وافق الرابي على اللقاء ولكنه رفض أن يذهب هو إلى شازار وطلب أن يأتي الأخير إليه. هذا رغم أن واحداً من حاشية شازار، وهو اللواء يوسف جبيع، كان تلميذ حاخام وأوضح له أنه لا يجوز للملك أو رئيس أن يذهب للقاء حاخام، وأن الواجب يقتضي العكس. إلا أن الرابي الذي يعتبر نفسه ملكاً رفض الذهاب، مما اضطر شازار أن يرضخ للأمر ويذهب هو إلى الرابي. وبهذه المناسبة، مناسبة اللقاء، قدم الرابي إلى شازار هدية هي عبارة عن عدة كتب كهدية منه إلى المكتبة القومية في القدس، أما هذه الكتب الهدية فهي الكتب المحفوظة عند حاباد وتنتقل من أدمور حابادي إلى آخر حتى مجيء المسيح. بالطبع لم يدرك شازار مرمى هذه الهدية والتي تقول أنه لن يكون هناك أدمور آخر. فالمسيح موجود.

على النقيض من التيارات المركزية في القبالاة المعاصرة، فان حاباد، وتحت توجيهات الرابي، اعتبرت أن الشعب الإسرائيلي كله صديقون: «وشعبك صالح كله» وكما سنرى لاحقاً فإن تلك التيارات القبالية التي تعتبر أن جزءاً من يهود إسرائيل، واليساريين منهم بشكل خاص، هم عماليق متنكرون كيهود، شهدت تعاظماً في الأوساط اليهودية الدينية في إسرائيل. إلا أن الرابي رأى أن شعبه هو شعب المسيح، وعليه فانهم جميعاً صالحون ويحتوون على قبس إلهي. إلا أن هذا الفضل الإلهي الذي مُنّ به على اليهود غير المتدينيين، حُجب عن غير اليهود عموماً وعن المقيمين منهم في أرض

إسرائيل خصوصاً، إذ يتعين على هؤلاء الأخيرين أن يخلوا الأرض المقدسة لكي يوفروا مكاناً طاهراً لصاحب القداسة المسيح الملك. من هذه الزاوية كان الرابي شديد التأكيد على الأمر الديني: «غوي واحد في البلاد» (الذي يعني اليهود فقط)، ويقرنه مع: «شعبك كله صالحون». وبالفعل فإن الشمس المسيحانية كانت معلقة وبالحجم الكبير على باب الصالح المبارك من كريات أربع غولد شتاين[1]. فلقد دفعت هذه الشمس الحابادية التي تهيئ من خلال إشراقها لقدوم المسيح، الدفء إلى قلبه، إلى قلب مردخاي العصر وهو ينطلق قبل شروق أعين الغرباء ليحصد أكبر كمية ممكنة من لحم الإسماعيليين في مغارة قبور الآباء لكي تتمكن روح المسيح، وقريباً جداً، من بعثهم، بعث الآباء أمام أعين الغرباء.

لقد بدأت شمس المسيح في الظهور في الشوارع بدءاً من نهاية الثمانينات. ففي هذه الأعوام، وبعد وفاة زوجته عام 1988، ومع اقتراب نهاية أيامه الدنيوية، بدأ الرابي يتحدث بشكل يزداد صراحة عن كونه المسيح. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل انه سمح، لا بل أمر بإذاعة ذلك علناً. فبحسب الرابي، لقد غدا كل شيء معداً، وكل التوضيحات انتهت والمسيح قائم وينشط في العالم ولم يبق إلا فتح العينين لرؤيته، ولا بأس أيضاً من الهتاف لمجيئه المتحقق فعلاً الآن، وهذا الهتاف ليس للاطمئنان على مجيئه بل لمكافأة المؤمنين. وبناء على ذلك أخذت حاباد، وبناء على تعليمات الرابي، في الخروج إلى الشوارع بشكل متزايد، وليس فقط من أجل الاقتراب من اليهود، بل أيضاً من أجل رفع العقيرة بالقول: أن المسيح هنا، إنه الرابي.

وكان آخر شيء منّ به الرابي على حوارييه قبل سقوطه فريسة للمرض الذي أقعده، هو إخبارهم بكلام رباني، أي بكلام لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، ان المسيح حي وقائم بينهم ومناحيم اسمه، فانعقدت حلقات الرقص وأخذت تدور وتنشد فيما هي تحظى بتأييد مبارك

---

[1] يشير المؤلف هنا إلى باروخ غولد شتاين مرتكب مجزرة الحرم الإبراهيمي في الخليل. واسم غولد شتاين الأول «باروخ» يعني مبارك. – م –

من اليد اليمنى المقدسة: «ليعيش سيدنا ومعلمنا ورابينا الملك المسيح للأبد».

في الثالث من تموز عام 1993، توفي الرابي مناحيم مندل واختفى عن الأعين الدنيوية. لقد وقع الموت الطبي بعد مرض طويل حرم الرابي في البدء من قدرته على الكلام (كان مع ذلك لا يزال قادراً على الهاب مريديه بنظرته المقدسة النافذة وبحركة يده المشجعة)، ثم أفقده القدرة على الحركة فبقي لفترة طويلة قبل الموت في حالة بقاء طبية مستقرة. ولم يكن من شأن هذا المرض إلا تشجيع الحسيديين. أو ليس المسيح منذوراً للأمراض وللآلام مادام يحمل آثام شعبه!

لقد تحدث الحسيديون بتلك الكلمات بالفعل. فإذا كان الموروث التناخي واحداً، فإن تفسير النصوص واستخدامها يتبدل حسب الحاجة. وإذا كانت الحاجة متشابهة فإن تفسير النصوص متشابهة. وهذا ما رآه الحسيديون المريدون بوضوح باعتبار الرابي يحمل ذنوب شعبه ويتألم بدلاً عنهم ويعفيهم من عقاب مخاض المسيح. فالقاعدة الأساسية تقول إنه يحتمل حدوث أزمة قبل التجلي الأخير. فالتجلي الكامل عرضة للصعود والهبوط، من آلام المخاض والانبعاث، من الجنون إلى الاكتئاب. ومن هذا المنطق فإن التغيير المأزوم للجسد إنما هو أمر منطقي أيضاً. لم يكن من شأن موت الرابي، ظاهراً، أن يزلزل أركان القناعات. فالمنطق البسيط يقول انه يمكن للجسد الميت إحداث التغيير المسيحاني، طالما أنه رسول الله، بالقدر نفسه الذي يمكن أن يحدثه به الجسد الحي، لا سيما وأن الموروث يؤمن ببعث الموتى. وإذا كان بعث الموتى يمكن أن يحصل، مثلما قال الرامبام، قبل مجيء المسيح أو في ابانه أو حتى بعده، فما الذي يمنع، والحالة هذه، أن ينبعث المسيح ذاته حياً. إن أبواب الاجتهاد لا تغلق. والأصول هي الأخرى تنطوي على مادة وفيرة تجعل من الممكن أن يكون المسيح ميتاً. ورغم هذا، فان الثالث من تموز أوقع ما بدا لأول وهلة وكأنه زعزعة، وذلك لأسباب عدة:

1- لا يؤمن الاعتقاد الشعبي العام غير المسيحاني بمسيح ميت، بل يؤمن بمسيح حي ابن امرأة.

2- حسب الفهم الاعتيادي لفقه رامبام والذي تمسكت حاباد به، فإن النجاح هو محك المسيح، فإذا فشل، وبالتأكيد إذا قُتل أثناء تأدية رسالته، فإنه لا يكون المسيح الذي وعدت به التوراة، بل يكون واحداً من ملوك بيت داود الذين ماتوا مع أنهم كانوا يحملون إمكانية أن يكونوا المسيح.

3- كثرة الآمال المسيحانية التي خابت في التقليد الإسرائيلي، ومنها الآمال التي علقت بعظماء في إسرائيل لا يقلون أهمية عن الرابي، مثل حزقيا هو وأري وبعل شمطوف. وكان المخرج الذي استنبط لهم هو مخرج «لم نفز»، ومعناه أنه بينما من الصحيح أن كلاً منهم قد كان مسيح عصره، أي بمنزلة مسيح، إلا أن أياً منهم لم يتحول إلى مسيح حقيقي لأن ذنوب العصر أجلت ساعة الخلاص.

كان المأمول أن تسلك حاباد كلها ذاك المخرج التفسيري الذي مر عبره العديد من اليهود عبر التاريخ اليهودي عندما كان الهوس يخلي مكانه للاكتئاب.

وبالفعل فقد بدأت حاباد في عبور تلك النافذة المخرج، غير أن العديد من المؤمنين ومعهم الكثير من القباليين رفضوا الهبوط إلى منزلة «بمنزلة المسيح». ومع الوقت أصبحت هذه الحركة الشعبية التي استمرت في اعتقادها أن الرابي هو المسيح وأنه لم يمت إلا ظاهرياً، والتي بدأت أول الأمر أنها لا تشمل إلا القلة فقط، أصبحت عقيدة معظم جمهور حاباد.

وكما قلنا، فللتفسير أبواب واسعة. فلم يعدم المفسرون ما يكفي من المادة في الأصول التي تقدم تبريراً لتفسيرهم. ولكن أساس الأسس يبقى الاعتقاد اليقيني الداخلي. فمنذ اللحظة التي انتقل فيها الوعد الميتافيزيقي من مجرد أمنية نفسية إلى إحساس حقيقي بأمر يتحقق راهناً وليس في وقت غير معين في مستقبل غير محدد المعالم، بل الآن فعلاً، منذ تلك اللحظة أصبح اليقين الداخلي هو الأمر الحاسم.

لقد توفرت لحظة نموذجية ودلالية من ناحية التاريخ الديني على ستاد كرة السلة في يد الياهو في تل أبيب وذلك حينما قرر التيار المسيحاني في حركة حاباد والذي لم يزل يعتقد أن الرابي مازال حياً يرزق، إقامة ثاني أكبر تجمع لهم. أُعد الاستاد وأعدت المنصة وفي وسطها وضع كرسي ملوكي مُذهَّب للرابي بتنجيد أحمر يرمز للون العدل الإلهي. جلس الربابنة على المنصة. وأمام القاعدة الملأى بنحو ثمانية آلاف من المريدين الهازجين، وببث مباشر عبر الأقمار إلى كل أرجاء المعمورة بما فيها نيويورك وباريس وغيرهما، ألقيت عدة خطابات، إلا أن الأجمل من بينها كان الخطاب الذي ألقاه الرابي مردخاي هلفرين من هرتسليا، فلقد حدد هذا الرابي أن السؤال الأساسي هو: «مع من نحن، هل نحن مع الإيمان والألوهية، أم مع الواقع؟».

وفعلاً، فلقد اختار العديد من الحضور أن يكونوا مع الإيمان ومع الاعتقاد بأن الرابي إنما اختفى كامتحان، بينما هو وملوكيته المسيحانية مازالا قائمين، وهو الأمر الذي يصدق أيضاً على إجاباته اليومية على بطاقاتهم التي مازالوا يضعونها في كتب مواعظه، فتأتيهم الإجابات عليها إما عبر ما يرونه من أحلام في الليل أو من خلال الصفحة التي وضعت فيها البطاقة. فوجود البطاقة في تلك الصفحة بالذات ليس من باب المصادفة. وعلى هذا النحو أخذ يطلق على من واصل الاعتقاد منهم بتواصل ملوكية الرابي ومسيحانيته اسم «المؤمنون»، وهو الاسم نفسه الذي أطلق على أتباع شبتاي تسفي وحواريي عيسى المسيح.

إن الإيمان بالرابي أهم من كل الفرائض الدينية. فهذا الإيمان بالذات هو الذي سينقذ حامله ويمنع عنه آلام مخاض المسيح تماماً مثلما اعتقد رجال شبتاي تسفي ويسوع.

لم يكن الجدال الاجتهادي بحاجة إلى كل ذلك الحماس الذي مارسه البعض من خلال احتساء العرق والرقص على الطاولة احتفالاً بارتقاء الرابي في سلم المسيحانية الذي حدث مع موته الظاهري. فالأصول المرجعية هبت لتساند المفسرين. فهذه الأصول حافلة بالتفسيرات التي

طُرحت للجمهور باعتبارها النص المقدس ذاته، وهي تحتوي على الكثير مما يبرر القول أن واقعة موت الرابي ليس إلا موتاً ظاهرياً ويبدو كموت أمام العين الاعتيادية فقط. ولعلنا نورد هنا أهم هذه الأصول وكيفية استخدامها:

أ- ما جاء بكل وضوح في كتاب الزوهار في سياق عرضه للسيناريو المسيحاني حيث يقول أن المسيح يُخفى في جنة عدن لفترة مؤقتة في منتصف عملية تجليه، ثم يعود للأرض ويستأنف استكماله رسالته الإنقاذية.

ب- النموذج الامتحاني الذي تعرض له الشعب في جبل سيناء. فبحسب أحد التفاسير التقليدية فان ما حدث في جبل سيناء بإبعاد موسى وكأنه مات إنما كان امتحاناً للشعب بأمر من الرب. فأخطأ الشعب بتحريض من الغوغاء اللا يهود بإثم العجل. لذلك، فليس هناك ما يمنع، من وجهة نظر المؤمنين بالرابي، اعتبار اختفائه امتحاناً، وامتحاناً أخيراً لقوة إيمانهم، مثل امتحان جبل سيناء.

ج- كان على المؤمنين بالرابي أن يناضلوا ضد الإدعاء المستند إلى الرامبام والذي يقول أن المسيح الذي يُقتل يعتبر فاشلاً. في هذا الصدد رد المؤمنون بالتأكيد على حقيقة أن الرابي لم يقتل في حرب، والأهم من ذلك، أكدوا، أن مسيحانية الرابي وملوكيته قد بدأت بالفعل، فها هي صنائعه بارزة للعيان مثل لم شتات إسرائيل وإسقاط ممالك والانتصار بالحروب وما شابه. وعليه، فما دامت مسيحانيته قد بدأت فلا مجال أبداً لتوقفها. مفهوم أنه قد يكون هناك مد وجزر وامتحانات، إلا أن العودة عن المسيحانية الموعودة التي قد حلت بالفعل فأمر مستحيل.

د- قول الرابي عندما مات الأدمور السابق بأن موته ليس إلا موتاً ظاهرياً وأنه ما يزال حاضراً بيننا فعلاً.

هـ- وكما هو مفهوم، فالمرجع الأساسي الذي عاد إليه المؤمنون هو أحاديث الرابي نفسه، وبشكل خاص أحاديثه عن نفسه بصفته يتفوه بنبوءات أكيدة، عندما قال أن عصرنا هو الخلاص النهائي، والمسيح قائم وموجود ومناحيم اسمه. وكذلك عادوا إلى قيادته للمصلين في الدعاء: «فليحيا

سيدنا ومعلمنا وشيخنا الملك المسيح إلى أبد الآبدين». فهل يعقل أن يكون الرابي المقدس وصاحب الرعاية الدائمة لنا قد خدعنا؟؟ أو يعقل أن يكون كل شيء كذباً؟؟

كان الصراع الذي حصل في حاباد بعد موت الرابي على قيادتها وعلى استمرار طريقها مثيراً، وقد دار تحت تأثير عاملين كان لهما الأثر الملموس عليه، وهما: جوقة المعنى المسيحاني، والبنية الديمغرافية لحاباد.

فحاباد، وكما سنرى تالياً، هي اليوم طائفة من الوافدين (وقد تكون في هذا الجانب تلخيصاً لإسرائيل كلها). فالحرس القديم من حسيديي الحركة الذي ينتمي إليها بفعل الوراثة العائلية أو بفعل الانتساب إلى سلالة لوبابيتش لا يشكل الآن في الحركة إلا أقلية لا تتجاوز نسبتها 25٪ من كل البنية (وهذا ينطبق على كل الحركات الحسيدية)، وينحصر تأثيرهم ونفوذهم في الربانية وفي القيادة التقليدية ولا يتجاوز ذلك.

لم ينظر جزء كبير من هؤلاء القدامى، حتى وان لم يقروا بذلك، بعين الرضا إلى الهياج الذي دار حول الرابي أثناء حياته، كما اعتبروا ما دار من هياج بعد موته بمنزلة كفر وتحطيم للحسيدية، وانحوا لائمة ذلك على أكتاف الوافدين الكثر، أي أولئك الذين دخلوا الحسيدية بفعل الهداية والتوبة، وأعفوا الرابي صانع ذلك الهياج من أية مسؤولية.

لم يكن لدى القيادة القديمة شكوك بقدرتها، بعد موت الرابي، على السيطرة على الطوفان المسيحاني الذي سيعبر بوابة «بمنزلة المسيح» وينتهي هناك. بيد أن هذه القيادة لم تكن تملك التقدير الصحيح للتبدل الديمغرافي الذي حل بحاباد حيث أصبحت الغالبية فيها تتشكل من أولئك الذين دخلوها حديثاً ولم يدخلوها إلا بفضل الوعد المسيحاني. فبالنسبة لهم ليس ثمة حاباد أخرى غير حاباد المسيحانية. كذلك لم تقدر القيادة القديمة على نحو صائب جوقة المعنى المسيحانية التي تحيط بكل الجمهور الديني في إسرائيل بشكل عام وجمهور حاباد بشكل خاص. والصوت الأعلى في هذه الجوقة هو الصوت المسيحاني، ويُحفظ فيها التقدير والاحترام لمن

يعرف أقل ويؤمن أكثر، بينما اليهودي الشكاك والمتنور فليس له فيها أية ميزة أو اعتبار. غير أن الشيء الأساسي الذي لم تفهمه القيادة التقليدية حق فهمه فهو قوة اليقين المسيحاني الذي تغلغل في أفئدة حسيدي حاباد وأنتج حضارة متكاملة لن يتنازل أبناؤها عنها بسهولة.

لقد استغل التيار المسيحاني في حاباد كل ما قيل أعلاه استغلالاً ذكياً في سياق محاولته تجاوز القيادة المتشككة. ولقد استطاع التيار المسيحاني، وبدون مصادمات مؤسساتية تقريباً، بناء مؤسسات له، بيوت مسيح ومجلات للصغار والكبار وكتب، وأظهر قوته من خلال سلسلة من اللقاءات الجماهيرية في السينارما وفي يد الياهو وفي ساحة ملوك إسرائيل وفي حديقة اليركون[1]. إن توزيع القوى الحالي في حاباد هو كالتالي: 35٪ متجذرون كلياً في الحركة المسيحانية، نحو 40٪ يقفون في الوسط، غير أن واقعهم هو واقع مسيحاني فاعل، ونحو 25٪ ممن يعتقدون أن المسيحانية انتهت في حاباد في الثالث من تموز. يحاول الصراع بين القطبين إخفاء نفسه. فالقيادة تأمل أن «تهمد القصة من تلقاء ذاته» كما حصل مع القيادة الربانية بعد أن تخلى شبتاي تسفي عن دينه، فلا داعي إذاً لإثارتها والجدال بشأنها والتمركز حول شخصية الرابي. فيما يفضل التيار المسيحاني تحصين مواقعه ورسالته بدون مواجهة جبهوية وصريحة مع ضعاف الإيمان، أي أولئك الذين «بجريرة قلة دينهم وصلنا إلى الامتحان الحالي.. والذي سرعان ما سينقضي وندخل فوراً في هالة المسيح الحي القائم أمام أعين الخلق».

لن نتمكن هنا من الإحاطة بكل بحر الجدال المثير ما بين المعتقدين بالمسيح الميت ظاهراً وبين المعترضين. فهذا الموضوع يحتاج إلى توسّع في كتاب قائم بذاته. لكننا نورد هنا ملاحظتين صغيرتين:

1- لدى المعتقدين بالمسيح ولدى الواقفين في الوسط هناك إمكانية لوجود مسيح خليفة، وثمة إمكانية لاعتبار المسيحانية (كون الشخص هو

---

[1] هذه كلها أسماء مواقع، أما قاعات عامة أو ميادين وساحات – م –

المسيح – م) مهمة متواصلة، طالما أن الرامبام قال أن المسيح يتولى الملك ثم يموت ويحكم ابنه بعده، ولعله ابنه المجازي.

2– مفهوم أن ثمة نقاشاً مسيحانياً – ضد مسيحاني. ولكننا لأسفنا لا نستطيع أن نورد هنا لضيق المكان إلا حادثة واحدة صغيرة، ولكنها معبرة: أصدر يحزقيال سوفير كتاباً مناهضاً للمسيحانية يحاول فيه إثبات بطلان المسيحانيين. فأصدر الرابي دولفا كتاباً يرد عليه. في هذا الكتاب الذي يحمل العنوان:

«كتاب وكاتب وقصة» يبدع دولفا في تفنيد كل دعاوى سوفير ويثبت أن الرابي حي يرزق بالفعل. وقد اعتمد دولفا في كتابه هذا أسلوب محاججة دعاوى خصمه الضد مسيحانية من الأسهل إلى الأعقد مع تشديد دحضه كلما ارتقى إلى الأصعب. ثم، في قمة غضبه وقبل الخاتمة، يصور سوفير وكأنه يقول إن الرابي سيأتي في المستقبل مع المسيح الذي سيكون «ليتفاك»[1]، ثم يصل إلى ذروة الصيحة الحسيدية ويسأل بالطريقة التي تميز الصدع القديم القائم بين الحسيديين وبين المعارضين (الذين يطلق عليهم ليتفاكيم أو ليتيين):

«المؤلف واثق أن المسيح، والذي هو حقيقة إلهية، ليتفاك؟

أهذه هي الحقيقة الإلهية التي انتظرناها ألفي عام؟؟

أكانت جديرة بكل آلام الشتات..؟؟»

إن قصة مسيحانية حاباد بذاتها، تتمتع بأهمية، وتزداد هذه الأهمية إذا عرفنا أن لهذه المسيحانية أثراً بعيد المدى على المجتمع الإسرائيلي العام (كما أنها تقدم المفتاح لفهم التغيير الثيولوجي الذي حل بيهودية عصرنا وكل تغير ثيولوجي بشكل عام):

1– فمع نموذج حاباد تتضح بشكل جلي قوة التفسير المسيحاني بوجهه الفصامي لحالة يهودية عصرنا في التذبذب بين الكارثة وتجسيد الأحلام في النهضة والانبعاث.

---

[1] ليتفاك: تسمية أو لقب مهين يطلق في الحركات الحسيدية على اليهودي المعارض رغم أنه جيد الاطلاع والمعرفة بالتلمود – م –

2- توفر حاباد الإمكانية لرؤية قوة الزخم اليوفوري الذي تنتجه الحركة المسيحانية التي تستطيع احتواء وتمثل القوة الديونيزية الهائجة في الإنسان، والإنسان الحديث على وجه الخصوص، عن طريق فهمها للسر الكوني وإبداء تعاطفها مع التيارات الثورية والتغييرات سواء في وضع الإنسان بشكل عام أو الخاصة بالمرأة أو التكنولوجيا، مما يجعلها قادرة على استقطاب هذه القوة الليبيدية الليبرالية وزجها وتوجيهها في اتجاهات التطرف والعنف والموت.

3- ولعل حاباد أصبحت تشكل بعد موت الرابي، أو بعد اختفائه عن أعيننا البشرية، نموذجاً وعينة لمجتمع المهاجرين الإسرائيلي بعد موت جيل المؤسسين.

فحاباد تقدم هنا نموذجاً بيانياً لمعنى غياب طبقة وسطى واسعة ومبلورة بمعناها الثقافي ومضاعفاته على الوضع الانقلابي. فكما لاحظنا، لم يكن وجود نواة من أقلية صغيرة تحمل على أكتافها التقليد الحابادي القديم كافياً للحفاظ على هوية حاباد الأصلية والصمود أمام أغلبية الحركة من الوافدين التائبين الذين جاءوا إليها على أجنحة نسور الوعد الإلهي.

يبدو لي أن حاباد تشكل هنا ما رأيناه بصدد الصهيونية في الفصل الخامس، وان كانت كل منهما بنحو يختلف عن الأخرى، من جهة أن كلاً منهما تشكل نموذجاً على المجتمع الإسرائيلي برمته من ناحية غياب هوية راسخة وبديهية لدى أغلبية وإن كانت أغلبية ضئيلة، بحيث تصبح هذه الأغلبية هي الطبقة الوسطى الثقافية التي تؤمّن الاستمرار التربوي التطوري وليس الانقلابي، وهذا الغياب بالذات هو الذي يخلق وضعاً ثورياً بالقوة.

وفي ظل هذا الغياب، فإن استيلاء أقلية على مراكز القوة الاجتماعية لا يكفي لخلق معنى مشترك بين كل أعضاء مجتمع المهاجرين. وهكذا فإن كل حركة لجناح فراشة، سواء مقبولة كانت أو غير مقبولة، يكون في وسعها أن تحدث إعصاراً في المعنى وأن تحدث تفجيراً وموتاً أيضاً.

# الفصل التاسع

## الحريديون في أيام المسيح

الصورة المأخوذة في دولة إسرائيل عن المجتمع الحريدي هي أنه مجتمع منغلق على ذاته يدير ظهره للمجتمع العلماني الحديث الذي نما في أوساط يهود إسرائيل، وأنه يتمسك بلباس قروسطي لا يتناسب مع شمس المتوسط اللافحة، كما يحرص على لغة اليديش اليهودية الأوروبية، وأنه يعترض بشدة على الصهيونية، ويتخذ جانب الاعتدال السياسي كيلا يغضب الغوييم، كما أنه يأنف من عبادة الأرض، وكذلك لا يخدم في الجيش الصهيوني، ويعتبر مكافحاً عنيداً لكل مظهر مسيحاني. وكان هناك افتراض أن هذا المجتمع سيكون الحارس على الأسوار اليهودية ليحميها من سيل المسيحانية الذي غمرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.. إلا أن الحقيقة تخترق أسوار الغيتو المتخيل حتى في الحالة الحريدية، وذلك ليس لأن الجمهور الحريدي بشكل عام لم يستطع الصمود أمام المسيحانية فحسب، بل لأن هذه الأخيرة استطاعت أن تجرف، فعلياً، معظم المجتمع الحريدي في أرض إسرائيل. يشكل المجتمع الحريدي الذي ازدهر في إسرائيل الحالية واقعاً اجتماعياً دينياً جديداً يختلف كل الاختلاف عن الواقع الحريدي الذي كان في أرض إسرائيل في مطلع القرن العشرين ويختلف أيضاً عما كان عليه في بداية الدولة بعد الكارثة. فهذا الواقع الحريدي يشكل، واقعياً، نتاجاً ثيولوجياً ثقافياً جديداً كل الجدة في التاريخ اليهودي. وما الصورة المأخوذة عنه بكونه يشكل الاستمرار للحالة الشتاتية

التقليدية ما قبل العلمانية والكارثة والصهيونية إلا صورة مشوهة تماماً. فمعنى الواقع، حتى داخل الأسوار، إن لم يكن أساساً هناك، قد طرأ عليه التغيير بفعل عوادي الدهر.

لقد ابتدأت الحضارة الحريدية في النماء في أرض إسرائيل مع الهجرة إليها، سواء تلك التي حصلت قبل الكارثة أو بعدها، متخذة من الييشوب[1] الديني القديم في أرض إسرائيل أساساً لانطلاقتها. وقد كان هذا النمو بمنزلة انعطافة ثورية نظراً للوزن النوعي للاشكناز الذي أخذ في التعاظم في أرض إسرائيل علماً أن الأغلبية بقيت سفارديه.

تاريخياً، تركز الاستيطان اليهودي الاشكنازي في أرض إسرائيل في المدن المقدسة الأربع: صفد والخليل وطبريا والقدس أساساً. وقد كان هذا الاستيطان الاشكنازي أقلية سواء من جهة أن اليهود كلهم كانوا أقلية في الأرض، أو من جهة نسبتهم إلى الأغلبية السفاردية في أرض إسرائيل. ولذلك، على سبيل المثال، أطلقوا على الآري اسم الرابي يوريا الاشكنازي، وعلى ناتان الغزي، نبي المسيح شبتاي، اسم ناتان الاشكنازي، وذلك بسبب المنبت الاشكنازي لذويهم، هذا المنبت النادر بعض الشيء في الطائفة السفاردية. وفضلاً عن ذلك، فإن المركز الاستيطاني الاشكنازي في القدس مع بداية الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر، كان مركزاً جديداً لم ينشأ إلا بعد بدء القرن التاسع عشر، ولقد مر مائة عام على القدس دون أن يكون فيها اشكنازي واحد.

في عام 1700، إبان اليقظة المسيحية التي حدثت في أواخر الحركة الشبتية، هاجر أتباع يهودا حسيد من بولونيا إلى إسرائيل. وقد كانت تلك اليقظة المسيانية متمحورة حول شخصية حسيد المسيحانية. إلا أن هذا المسيح بالقوة مات بعد الهجرة بسبع سنوات تاركاً حريديه في حالة من العوز الكامل، فاتكلوا على وعد المسيح وأخذوا، وهم ينتظرون مجيئه،

---

[1] الييشوب: تعني الاستيطان والتجمع اليهودي الذي كان قائماً في فلسطين قبل قيام الدولة الصهيونية – م –.

يعتمدون في معيشتهم على الاقتراض من المسلمين دون أن يتمكنوا من التسديد، مما جعل المسلمين يتخذون القرار بأنه لا يمكن الوثوق إلا بالسفارديم، ومنعوا الاشكناز المجانين من دخول المدينة. - وبقي هذا المنع سارياً نحو مئة عام.

لقد تفرد اليبشوب، بصفته استيطاناً في الأرض المقدسة، عن باقي الجاليات اليهودية بأنه اعتمد في معيشته على الصدقات أساساً. وبما أن الحديث كان يدور حول استيطان صغير يتألف من عدة مئات فقط من العوائل على أكثر تقدير، لذا لم يكن من الصعب على العالم اليهودي التكفل بإعالتهم، وإن كانت هذه الإعالة على حد الكفاف. لقد كان هذا اليبشوف يتمتع باحترام ديني كبير، فبسبب موقعه الجيوثيولوجي وبسبب النخبة الدينية التي انجذبت نحوه، حظي بنفوذ ديني واسع وغدا يشكل للكثيرين علامة متطرفة سواء في تجديداته أو في تشدده. فهكذا، على سبيل المثال، خرج من صهيون كتاب «المائدة الجاهزة»، وفقه الآري أيضاً، كذلك فإن نبوءة ناتان الغزي بشأن مسيحانية شبتاي تسفي استفادت كثيراً من تقبل الناس لها كونها جاءت من الأرض المقدسة، هذا في الوقت الذي كان فيه حاخامات القدس هم الوحيدون في العالم اليهودي الذين أعلنوا النبذ ضد شبتاي تسفي وهو في ذروته وليس بعد ذلك.

كان الجمهور الحريدي في القدس في أواخر القرن التاسع عشر يعيش في ذروة سياق من التحول غير ذي ارتباط مباشر بالانبعاث الصهيوني، ولكنه تغذى من العناصر نفسها التي تغذت منها الصهيونية. فمع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر حدث تعاظم متسارع في الحجم الديمغرافي للشعب اليهودي وللطائفة الاشكنازية على نحو خاص. وقد جاء هذا الازدياد بفضل تطور الطب وبفضل استمرار الولادة بوتيرة عالية، الأمر الذي أدى إلى مضاعفة اليهودية الأوروبية ثلاث مرات خلال مائة عام. ومن جهة أخرى فإن هذا الازدياد العددي جعل اليهودية الأوروبية بمنزلة قوة بشرية دافعة في كل الاتجاهات التغييرية: الحسيدية والصهيونية

والاشتراكية والمسيحانية. ومع الزيادة المتسارعة في حجمه الديمغرافي أخذ اليبشوف اليهودي في أرض إسرائيل ومركزه المقدسي في البحث لنفسه عن وسائل معيشة جديدة وحديثه. وقد استطاع من خلال اختراقه لأسوار الغيتو في المدينة العتيقة أن يقيم ضواحي له وأن ينطلق بمبادرات اقتصادية وحتى أن يقيم مستوطنات دينية زراعية (بيتح تكفا)، وذلك من خلال تضافر طاقة أبناء البلد مع الأثرياء الجدد من يهود أوروبا الذين سهلت عليهم الحقبة الكولونيالية توجيه أموالهم إلى أرض إسرائيل والتي كان التدخل الأجنبي فيها، ومن ضمنه تدخل مونتيفيوري والبارون روتشيلد، يزداد مع ضعف الإمبراطورية العثمانية.

لقد نفذت رياح الحداثة اليهودية حتى إلى أفئدة الطائفة شديدة المحافظة التي كانت موجودة في أرض إسرائيل. ان أسوار نهاية القرن العشرين لم تكن قائمة في نهاية القرن التاسع عشر.

إذاً، فلقد اجتاز اليبشوف اليهودي العتيق تغيراً جعله يقترب من الجاليات اليهودية التي كانت موجودة في الشتات، من جهة أن هذه الجاليات لم تكن تنطوي إلا على أقلية ضئيلة من الذين اعتاشوا على الصدقات واقتصرت حياتهم على التعلم فقط، وفي جميع هذه الجاليات حصل تمازج مثمر بين التقاليديين والمتدينين وغير المتدينين.

مع اقتراب نهاية القرن التاسع عشر هيمنت الهجرة على يهود أوروبا الذين كانوا آخذين في الازدياد ولكن مع ضعف القدرات، ودفعت أغلبهم للهجرة إلى شاطئ الأمان في الولايات المتحدة بينما اتجهت أقلية منهم إلى أرض إسرائيل. وبين هؤلاء المهاجرين الأخيرين والذين كانت أغلبيتهم صهاينة، كان بينهم حريديون وأغلبهم حريديون متطرفون.

بشكل عام، كانت الأرض المقدسة، وعبر الأزمنة، تشكل مركز جذب روحي، ولكنها لم تستطع، بفضل شروطها المعيشية الواقعية، أن تجذب إليها إلا التيارات المسيحانية القبالية المتطرفة في ورعها أو ذات الواقع الديني الشعبي القوي.

وهكذا برز من بين المهاجرين في فترة ما قبل الكارثة حسيديون متطرفون ولاسيما الهنغاريين منهم الذين كانوا يبغضون حركة التنوير. وقد أقام هؤلاء، انطلاقاً من عاطفة قبالية مسيحانية، ولكن بمعارضة شديدة للصهيونية، غيتو جديداً في مئة شعاريم وفي ضواحٍ أخرى. وقد كان هؤلاء المهاجرون الجدد يختلفون عن المتدينين الموجودين أصلاً في أرض إسرائيل والذين اجتازوا جميعاً سيرورة من التغيير. على العموم، يمكن القول أن اليشوف الديني القديم الذي سبق الكارثة وقيام الدولة كان يتألف من ثلاث فئات:

أ- قيادة دينية تقليدية راسخة تحمل معارضة شديدة وبديهية للصهيونية وما تعبر عنه من إثم مسيحاني، ولقد كان مما يسعد هذه القيادة إعلان النبذ، وعن حق من وجهة نظرها، ضد الرابي كوك بصفته النبي الديني الذي يضفي الشرعية على المسيحانية الغربية.

- جمهور حريدي ديني من الييشوب العتيق، ذو نزعة نحو المبادرة ومنفتح على تغيرات العالم وتغيرات اليهود.

- بلاطات حسيدية شديدة التطرف والتي وجدت في الأرض المقدسة المكان الذي تستطيع فيه إقامة النموذج الأكثر انطلاقاً وتطرفاً في العالم اليهودي وقتذاك.

بعد أن قامت الدولة بعد الكارثة وصل إليها قسم من بقايا اليهود الذين أبيدوا في أوروبا. وتغيرت الحضارة الحريدية. فهذا الجمهور الحريدي المضروب توجه لاصلاح عالم التوراة الذي أصابه الخراب، وهي مهمة حظيت بتعاطف صهيوني كبير مصحوب بموازنات وإعفاء من الجيش (وترافق ذلك بتحالفات سياسية). وقد تميز هذا الييشوف بعدة اتجاهات متناقضة في داخله:

1- تيار ليتواني كبير تمركز رجاله، بصفتهم من بقايا الخراب، في بناء مستوطنات استمرار تحمل اسم تلك المستوطنات التي أبيدت في أوروبا. وقد اعتبرت قيادة هذا التيار، وعلى رأسها «هحزون ايش» أن اللوم على

الخراب يقع على عاتق حركات التنوير اليهودية التي دفعت الكثيرين لترك دينهم، فجاءت الكارثة عقاباً على هذا الأمر. وكدرس مستفاد فقد نحا هذا التيار منحى بناء الأسوار أمام العالم اليهودي العلماني الحديث وأمام دولة إسرائيل بصفتها ممثلة له.

لقد أخذ هحزون ايش قولاً قديماً يقول أن اللاسامية تنطوي على نعمة بحفظها اليهود من الذوبان، وحوّره لينطبق على العلمانيين. فقد كان يبهجه أن يجد، وأن يصرح، أن كراهية العلمانيين للحرديديين، تساعد، حسب رأيه، في الحفاظ على أسوار الغيتو اليهودي، وتحفظ أبناءه من السير في الدرب العلماني. ولابد من مبادلة الكراهية بمثلها. لقد كان جلياً له أن الكارثة تستدعي إحداث تغيير في هوية اليهودية، ولابد من الابتعاد عن الحداثة، وعن أولئك الذين يحملونها إلى داخل الشعب اليهودي على وجه الخصوص، ألا وهم الصهيونيون والعلمانيون المتنورون. ومن هنا فقد شرع في التبشير بالانعزال وبكره أولئك الصهيونيين العلمانيين المسؤولين عن كل الآثام، وقرر: «يجب النظر إلى التوتر المستديم على الحدود كنعمة إلهية. فقد قال الرب انه لا سلام للأشرار (الجنود المقاتلين)».

في هذا الغيتو المستجد حدث انقلاب، ولكنه لم يكن انقلاباً تفرضه تقييدات الغوييم، بل كأمر مرغوب به. فالعزلة في هذا الغيتو لم تكن عزلة عن الآخر بل عن الداخل، عن اليهود الآخرين.

ب- بلاطات حسيدية حاولت استثمار نجاح العديد منها في إنقاذ الأدمور من براثن النازية، ولكن دون أتباعه الذين تركوا هناك لمصيرهم الرهيب، في إعادة إنتاج الحسيديات المبادة بكل تفاصيلها. وقد جهدوا خلال إعادة الإنتاج هذه في التدقيق بكل التفاصيل مثل الألوان وتفاصيل اللباس والسلوك والتي كان جزء منها قد استجد هنا، وذلك لكي يصلوا إلى فرادة حسيدية. لقد تأثرت هذه الحسيديات الجديدة في إسرائيل بحسيديات متطرفة كان قسم منها وصل إلى البلد قبل الكارثة مدفوعين برغبتهم في المجيء إلى المكان الأكثر قداسة.

ج- الجمهور الحريدي العتيق المنفتح على التغيير والتجديد، والذي بسبب انفتاحه هذا، يضفي على المجتمع الحريدي في إسرائيل طابع المجتمع المنفتح. ولابد من التذكير أن اضطرار أغلب الجمهور الحريدي للعمل لإعالة نفسه في الأيام الأولى للدولة، سوية مع موجات الهجرة، أدى إلى خلق واقع ديني متعدد الأطياف.

د- جناح حريدي سار وراء الصهيونية: لقد نما داخل الجمهور الحريدي تيار له أهية ثيولوجية عالية، وهو تيار بوعلي اغوادات يسرائيل. لقد حاولت هذه الحركة الحفاظ على طابعها الحريدي مع الإقرار بالأرض المقدسة ومحبتها، سوية مع محاولتها المباشرة في القيام بما تفرضه فرائض الأرض، والعمل بها، وتحت هذه الراية أقامت هذه الحركة مستوطنات زراعية. وعلى غرار حسيدية كوك، لم تطور هذه الحركة لنفسها نظرية مسيحانية قبالية خاصة بها، ولكنها أيضاً لم تعترض على المسيحانية، إذ كان واضحاً لها أن قيام الدولة وانتهاء العبودية للممالك ولم الشمل الذي حصل بعد الكارثة، إنما هو الوعد المسيحاني ذاته. في هذه الحركة، لذلك، رأوا الأمور كما هي. وكما يجب، فقد كان فيها، كما نذكر، من اعتبر أن بن غوريون هو بمنزلة مسيح إن لم يكن المسيح الحقيقي.

ان كثرة التيارات والاتجاهات التي أوردناها أعلاه من جهة، وهيمنة ثقافة الصبار التي أعتبرت المنتصرة والسائدة في الخمسينات والستينات من جهة أخرى، أديا إلى إنتاج تصور لدى الجمهور الإسرائيلي عن الحريديين كأقلية فوضوية تنتمي إلى عالم الأمس، عالم الشتات المرفوض أخلاقياً، ولكن الذي لا بأس من استبقاء بقاياه بعد الإبادة النازية. وبمعنى ما، فإن الثقافة الصهيونية نظرت إلى الحريديين، كما كان يُنظر إلى اليهود من قبل الأغيار، كمنبوذين، كمستحاثات تقع خارج التاريخ، سيختفون مع الوقت بشكل نهائي. كل ذلك بينما كان الاعتدال السياسي للحريديين الناجم عن المعارضة التقليدية لاستفزاز الغوييم، يساعد في إزاحتهم عن الخارطة السياسية المتمحورة حول الأفعال. وقد حدثت هذه الإزاحة من خلال

الاعتقاد الذي تحدثنا عنه سابقاً والذي رأى أن جماهير واسعة من الحريديين ستذوب في الإسرائيلية، وستستوعبها الثورة العبرية الحديثة ومن خلال الجيش بشكل خاص.

في الجيل الأخير، أي جيل واحد بعد الكارثة، اجتازت اليهودية الحريدية في أرض إسرائيل صيرورة بعيدة المدى من التغير وأصبحت جزءا، وأحيانا جزءا قائدا، ولكنه بالتأكيد جزء يمنح الشرعية للواقع القبالي المسيحاني.

لقد تشكلت صيرورة التغير هذه من ثورة بنيوية متعددة الأوجه واكبها تبدل في النظرة الثيولوجية الاجتماعية.

وللثورة البنيوية أوجه عدة:

الوجه الأول هو نمو مجموعة من الدارسين الذين لا يعملون. فلقد كان الرامبام رأى أن زمان المسيح هو الزمان الذي تجلس إسرائيل فيه وتدرس التوراة وقد ألقوا عن كاهلهم نير العمل اليومي. إلا أنه رأى أن هذا الخير لا يحدث إلا بعد أن يكون المخلص قد جاء. أما فيما يخص أيامنا، أيام ما قبل المسيح، فلقد قرر الرامبام بشأنها القاعدة الشرعية الأكثر وضوحاً:

«كل من يقصد الاشتغال بالتوراة دون أن يعمل، ويعيش على الإحسان، فإنه ينتهك التوراة ويحتقرها ويطفئ نور الدين ويجلب الأذى لنفسه لأنه بذلك يبعد نفسه عن العالم الآخر، لأنه محظور الانتفاع الدنيوي من كلام التوراة».

لقد قال الحكماء أن كل من يرتزق من كلام التوراة إنما يقتلع نفسه من العالم. وقالوا أيضاً: «لا تتخذ من التوراة زينة للمراءاة بها ولا تجعلها مصدر رزقك». وقالوا أيضاً: «أحب العمل واكره الكهنوتية، وكل توراة ليس معها عمل خاتمتها رديئة وتجلب ظلماً. وخاتمة إنسان كهذا أن يصبح سارقاً للخلق».

وكم هم كثر اللصوص في أيامنا إذا أخذنا بكلام الرامبام. أما داعي

إرسال أغلب حريديي أيامنا إلى جهنم السفلى فأكثر بساطة: ممنوع جعل التوراة فأساً للاحتطاب بها (مصدر رزق)، ذلك أن ثواب الالتزام بالفرائض ودراسة التوراة إنما يكون في العالم الآخر، بينما في عالمنا الدنيوي فإن التوراة عبء ونير. فعلى الإنسان أن يقوم بعمله وأن يعطي الصدقات، وأن يدرس، فوق ذلك، التوراة في أوقات فراغه. إن هذا الاجتهاد الذي قدمه الرامبام يقف على أرض صلبة إذا أخذنا في الاعتبار أن المشناه والتلمود والاجاداه ترى في عالم العمل وفي الوجود الطبيعي جزءاً مهماً من الوجود الإنساني والتوراتي السليم، وتعترض على جعل التوراة وسيلة للتكسب.

لقد وضع الفقهاء عبر العصور بعض التقييد على اجتهاد الرامبام، وأجازوا لعدد قليل من العظماء أن تقتصر حياتهم على دراسة التوراة، وذلك من أجل الحفاظ على اليهودية. ان عالم المدارس الدينية هو أمر مستحدث بشكل عام ولم يبدأ إلا في مطلع القرن التاسع عشر. لقد قامت هذه المدارس بشكل رئيسي في ليتوانيا على يد الأوساط المعترضة، وقد تخرج الرابي كوك من أولى هذه المدارس، وهي مدرسة فولجين التي أقيمت أساساً كرد على الحسيدية والتنوير. وقد كانت الغاية من وراء إقامة هذه المدارس تعزيز المعرفة اليهودية في مقابل الحسيديات العامة وحركة التنوير العلمانية، من خلال التركيز على الجمارا. ولم يقم ويتأسس شكل التعليم الديني بملامحه التي نعرفها حالياً إلا في منتصف القرن التاسع عشر. ونود أن نؤكد هنا أن الحديث في حينه كان يدور حول عدة آلاف فقط من التلاميذ والتي كان أغلبيتهم الساحقة تدرس في المدارس الدينية في مرحلة شبابهم فقط. وأكثر من هذا، فإن هذا الطراز من المدارس لم يشهده العالم اليهودي الذي كان، مثل حال يهود الشرق، بمنأى عن حركة التنوير.

كانت الأغلبية اليهودية ما قبل الكارثة غير متدينة. وأغلب أولئك الذين اعتبروا أنفسهم متدينين إنما كانوا يشبهون تقليديي عصرنا. أما حريديون بالمقاييس الحالية فلم يكن لهم وجود بالمطلق. وحتى ان وجد ما يشبههم فقد كانوا أقلية ضئيلة. وفي ذروة ازدهار اليهودية في نهاية القرن

التاسع عشر لم يكن ثمة إلا عدة آلاف من تلامذة الحاخامات الذين يكرسون كل حياتهم لدراسة التوراة. وفي المثال، فإن الحافز الذي كان وراء تأليف الرامبام لكتابه: «مشناة توراة» كان قلة الحاخامات، إذ لم يكن هناك سوى حفنة ضئيلة ممن كانوا يستطيعون قراءة التلمود الآرامي، مما أثار خشية الرامبام من ضياع توراة موسى من يد الشعب.

من المفهوم أنه كان هناك كثيرون، أكثر من عدة آلاف، من الذين درسوا في صغرهم في الكُتَّاب، أو في بيت مدراش، بينما لم يدرس إلا جزء صغير منهم في مدرسة دينية، علماً أن هذه الدراسة لم تكن تتجاوز كونها مرحلة مثل مرحلة الجامعة، قبل الانخراط في الحياة العملية. وحتى إلى هذا الأسلوب الذي يقتصر على فترة محددة لم تنضم إلا نسبة ضئيلة وكانوا على الأغلب من اللامعين والأكثر حماسة للتعلم. وهكذا فقد جاء في كتاب المائدة الجاهزة: «يمكن إعالة الرابي حتى لا يضطر للعمل في مهنة مع العامة، وحتى لا يهان أمام جماعته»، إذاً، فإن هذا الترخيص بعدم العمل لا يُعطى إلا لحالات معدودة من المبرزين وأصحاب المناصب وليس لأي كان.

لم تشهد اليهودية أبداً حضارة هائلة لا تشتغل رسمياً إلا بالتوراة إلا في أيامنا هذه. فلم يحدث مثل هذا الأمر لا من حيث مداه، حيث نجد أن في إسرائيل وحدها يبلغ عدد الذين «التوراة مهنتهم» يفوق بعشرات المرات عما كان عليه قبل مائة عام، ولا من حيث انعدام الانتقائية في هذا الأمر، حيث نجد كل الرجال الحريديين، وعلى اختلاف مشاربهم ومستوياتهم، يُرسلون لحياة يفترض أن تتمحور، طوال عمرهم، على دراسة التوراة.

إن الوضع الذي يجب فيه على كل المجتمع دراسة التوراة والانقطاع عن مسؤولية الحياة العملية التي يناط الاهتمام بها لآخرين، ان هذا الوضع مقتصر على ما بعد مجيء المسيح، وليس قبل ذلك ولا بأية حال من الأحوال. بل حتى بعد مجيء المسيح، فإن الآخرين الذين يفترض فيهم العمل وإعالة الآخرين، إنما يجب أن يكونوا، وفق رؤية الرامبام وأغلب أهل التقليد، من الغوييم وليس من اليهود العلمانيين.

إن التداعيات التي تترتب على وجود حالة كهذه من حالات أيام المسيح لهي عديدة. فمن بين أمور أخرى، ينتج عن هذا الواقع، كما سنرى، مفاهيم مسيحانية، لأن الواقع يعكس الوعي كما قال اليهودي الشهير[1].

من المفهوم أن وجود مجتمع كهذا يعتبر ثورة ثيولوجية في المسموح والمحظور، بل حتى أكثر من ذلك، فهو يعتبر ثورة علمية، فبدلاً من أن يكون المجتهدون أفراداً في طائفة يهودية واقعية تعمل وتكافح من أجل قيامها، ويكونون لذلك ملزمين بإيجاد الموازنة بين الشريعة البسيطة وحاجات الواقع، بدلاً من هذا نجد طائفة بكاملها قد أصبحت من الدارسين دون أن تعتني بالمشاغل الواقعية. كل هذا في الوقت الذي فيه يعتبرون الشعب العامل والمقاتل علمانياً صهيونياً منبوذاً لا يجدر إيلاءه الاهتمام أو أخذه بعين الاعتبار في فتاواهم، ولذلك فليس هناك واقع يجب موازنة الشريعة وفقه. بل على النقيض فإن الواقع، بالنسبة للمجتهد، هو التلاميذ الذين يجدون في الكتابات القديمة المزيد والمزيد من التشدد الذي لابد من تطبيقه على أرض الواقع. وبدا وكأن ذلك الديالكتيك الخصب ما بين النص والواقع والذي خلق اليهودية قد تلاشى.

وأكثر من هذا، فإن وجود مجتمع يفترض أن يتكرس كل أعضائه للدراسة دون أية معايير قد خلق لدى المجتمع الحريدي أيضاً طرازاً من مجتمع وافدين. فبدلاً من بنية دينية اعتيادية حيث تكون هناك طبقة واسعة من اليهود المتنورين إلى حد ما، وفي داخلها أفراد من تلامذة الحاخامات، نجد بدلاً من هذا واقعاً يتألف من أغلبية شبابية يفترض فيهم أن يعرفوا أكثر من آبائهم. وهؤلاء الشبيبة الدارسون بدؤوا في إقامة حضارة لهم بمسلمات جديدة، وبارتباط جدي مع معلميهم أو مع حاجة شديدة للبحث عن مضامين إضافية تملأ الوقت المخصص لتعلم التلمود الذي لا يستطيع الصبر عليه إلا القلة فقط، مادام المدعوون كثيرين لكن المنتخبين قلة.

---

[1] يقصد كارل ماركس – م –.

ومثلما أوضحنا في الفصول السابقة، فإن المجتمع الذي يعتمد على الشبيبة ويمنحهم قوة تفوق قوة آبائهم لهو مجتمع في وضع ثوري. فمثل هذا المجتمع يعمل كمجتمع مهاجرين حيث يكون المهاجرون أكثر من المستوعِبين، وبذلك تفقد البديهيات الأولى من يحملها على كتفيه بسهولة.

وزيادة على ذلك، فلقد حدث انقلاب في تصور المجتهدين عما يعتبرونه قوتهم الفعلية. فعلى نقيض ما كان عليه الوضع في المنفى حيث كان مجتمع الجاليات اليهودية مجتمعاً تطوعياً، بما يعنيه ذلك من حيث أن الربابنة ورجال الدين كانوا يعتمدون على مشيئة طائفتهم بل حتى على دعمها المالي، فإن الوضع في الأرض المقدسة انقلب رأساً على عقب، إذ أخذت الطائفة تبدو للرابي وكأنها هي التي تعتمد عليه، طالما أن تمويله، بل حتى تمويل قطيعه لا يأتيه من الرعية الراغبة به بل من الدولة الآثمة، بينما الطائفة هي التي تحتاجه مادام أن تقاريره إلى السلطات هي التي تحدد من هم متعلمو التوراة والذين يجب أن يحصلوا على مخصصات مالية، وتحدد بشكل رئيسي من هم المعفون من الذهاب إلى الجيش. ومن لا ينصاع يُلقى به من المدرسة الدينية إلى الحياة الدنيوية القاسية وإلى تهديد مكتب التجنيد. لقد عزز هذا الوضع الشعور بالقدرة الكلية لدى الربابنة والفقهاء ورؤساء المدارس الدينية، ومرة أخرى دون أن يكون ثمة واقع يلجمهم، حيث أضيفت للقوة المعنوية للرابي قوة فعلية، وهي ليست قوة عسكرية كما كان الحال عند الصهيوني الديني، بل قوة مالية وقوة السيطرة. وكما سنرى، فإن هذا الوضع الذي ساد فيه الإحساس بالقدرة الكلية عند الأوساط الربانية ساعد في إحداث تغييرات قبالية مسيحانية كما ساعد في صعود الادعاءات بقيادة العالم، وهي الادعاءات التي تعاظمت مع تعاظم الطائفة التي بدت للرابي وكأنها خاضعة له والتي بدت وكأنها، بفضل التغيرات السياسية، لا تشمل الشبيبة الحريدية فقط، بل كل الجمهور الإسرائيلي. ومادام الحال كذلك فلابد للرابي من استغلال قدرته على التأثير وكما نذكر، فالأكثر تأثيراً يحتمل أن يكون بمنزلة مسيح.

ومع ذلك، فمثلما حصل في حالة حاباد، كذلك كان عند الحريديين، من جهة أن مسألة سيطرة الربابنة على عقول الجمهور لم تستند إلى القوة المؤسساتية فقط، بل كذلك على الوعي الذي خُلق في قلب الجمهور الواسع، وهو جمهور انعقدت السيطرة فيه لشباب وافد إلى عالم جديد وشجاع، عالم بالكاد تؤخذ فيه أفكار الآباء المتقادمين بعين الاعتبار، عالم لا يتشكل إلا من مفاهيم الربابنة.

إلى عالم البطالة هذه التي تسود الشبيبة بحجة الدراسة، تغلغلت وبكثافة مضامين إسرائيلية لتملأ العقل والقلب. وقد وجد له مكاناً في هذا القلب كل ما كان بإمكانه أن يثير الدماء الشابة المحنطة داخل لباس قرووسطي ثقيل في الحرارة الإسرائيلية اللاهبة بينما كان الشباب الآخرون يتراكضون على التلال سواء في الحروب أو في الملذات، من مال وبورصة وسيارات وقبالاة مع تأكيد على الجيش والمسيحانية، وبالطبع سياسة والكثير من السياسة. فالمسائل المهيجة مثل مسائل المناطق والعرب والإرهاب والحرب والقوة أثارت القلوب في العش التلمودي. وكما شاهدنا وسنشاهد بعد، فاليد اليمنى على الغالب هي التي علت، واليد اليمنى هي التي انعقد اللواء لها. إذ لابد أننا نذكر أن الأصول زاخرة بالمادة التي كتبها ربابنة ملاحقون ضد الغوييم الكريهين، وليس ضدهم فقط. كانت ليلة ثلجية في القدس بدت لي وكأنها تعكس الأجواء، وكانت هناك ثلة حريدية ليتوانية، من أرستقراطية شعاري حيسد، تقف وتمعن النظر في السيارات المعطلة وفي الثلج الكثيف الساحر الذي غطى حديقة «غان – ساكر». وسرعان ما انتقل حديثهم الملتهب من أنواع السيارات وما تمثله من نجاح إلى أسئلة مثل حجم عضو ذكورة عوج ملك باشان وكيف كان بإمكانه أن يلائمه مع أمنا سارة التي اشتهاها، ثم إلى من هن العرائس اللواتي اغتصبهن عيسو، ومن ثم إلى مسألة ضرورة المناطق والاحتلال والانتقام.

لابد لنا أن ندرك أن عالم الدراسة دون عمل، والذي شكل مفرخة لمفاهيم جديدة، نما تالياً، ليس بقرار شرعي مقصود، بل بفعل تطور رغبات

وحاجات بنيوية وفكرية. فقد كانت هناك رغبتان تخفقان في قلوب الربابنة مثل هحزون ايش، الذين أقاموا عالم المدارس الدينية بعد الكارثة: الرغبة الأولى هي بعث اليهودية مما أصابها من خراب وتعليمها لأكبر عدد ممكن من الشباب. والثانية إبعاد أبناء المجتمع الحريدي قدر الإمكان عن الصهيونية العلمانية وعن رجالها ومفاهيمها، إذ بدا للربابنة أنه لابد من الافتراق عن أفكار الغرب بشكل أكثر حدة من أي وقت مضى، ولابد من إقامة يهودية جديدة نقية. صحيح أن التاريخ اليهودي شهد حالات أحرق فيها الكثير من الربابنة كتاب الرامبام «دليل الحائرين» بدعوى أنه يمزج اليهودية بالحكمة اليونانية الغربية، إلا أنه كان هناك على الدوام مكان واسع لتأثير روحي غير يهودي على عالم الإبداع اليهودي. أما درس الكارثة فكان: لن يتكرر هذا أبداً.

فهم ربابنة عصرنا أن التنوير هو المسؤول عن ذنب الشعب وهو الذي جلب الكارثة على رأسه. ومادام ذلك كذلك فقد قرروا: لن يحدث هذا ثانية. فلا يجوز الاختلاط باليهود المتنورين الذين يدفعون الكثيرين نحو الإثم وجالبي الإبادة كعقاب. وبالذات، فإن مجرد تحويل الشباب عن دينهم ودفعهم إلى العلمانية إنما هو أخطر من الإبادة، لأن: «قتل الشخص أهون من دفعه إلى الإثم»، ذلك أن القاتل يحرم القتيل من هذا العالم بينما دافعه إلى الإثم يحرمه من العالم الآخر.

انطلاقاً من هذه المواقف ركز الربابنة على إقامة إطار تربوي ذاتي ومدارس دينية لهم، وعلى ممارسة الضغوط على السلطات لتخصيص ميزانيات لهم ولإعفاء الشباب من الخدمة في الجيش كيلا يختلطوا مع الصبار بعيداً عن رقابة أعين آبائهم وشيوخهم. وبعد الكارثة التي حلت بجريرة التنوير والصهيونية حسب الثيولوجيا الحريدية، قامت الدولة، والتي يجب، من وجهة النظر الحريدية، وضعها في خدمة تطهير اليهودية. أما الإعفاء من الجيش - رمز الصهيونية العملية -، فقد مُنح ليس بحجة منع الاختلاط بل بذريعة أن تلامذة الحاخامين الذين مهنتهم التوراة يحتاجون

للتعلم فقط ولا يحتاجون للعمل ولا يجب تعريضهم لأي إزعاج. إن هذا الإدعاء الذي وجد له صدى في قلب بن غوريون من أجل مائتين من النوابغ، توسع استخدامه لاحقاً ليشمل كل الجمهور الحريدي، هذا الجمهور الذي غدا رهينة بيد الربابنة الذين يملكون حق الإعفاء المرغوب من الجيش، والذي لابد من التعهد، من أجل الحصول عليه، بعدم العمل، وبالتالي تلقي المخصصات من الدولة التي تصل عبر رؤساء المؤسسة. ولذلك أخذ الإعفاء سن الجيش في النمو والتزايد.

وكما أوضحنا فقد حصل هنا التقاء رغبة الربابنة مع تصور بن غوريون السياسي الذي اعتبر أن اليسار هو الخطر الذي يهدده، فرغب لذلك في إقامة تحالف سياسي مع المتدينين والحريديين الذين، حسب رأيه، لا مستقبلَ سياسياً لهم. وأكثر من هذا، فإن آلام الكارثة والخراب تركت لدى بن غوريون ولدى علمانيين آخرين كثر غيره الاستعداد للإبقاء على الروح الحريدية انطلاقاً من اعتقادهم أن عالم الحريديين آخذ بالاحتضار بطبيعة حاله، وبالتالي فإن الجيش، والذي هو بالنسبة إلى بن غوريون بوتقة الصهر التي تصهر كل المهاجرين وتصنع منهم إسرائيليين وصبارين، لا يشكل ضرورة لازمة للحريديين، ولا بأس من إتاحة الفرصة لهم للحفاظ على روحهم ومؤسساتهم بمساعدة جزء من أبنائهم. وقد أسفر هذا الحفاظ على الروح الحريدية عن عالم ديني جديد كل الجدة.

وإضافة إلى هذه التبدلات بعيدة الأثر، حدثت أيضاً عمليتان أخريان كانت لهما أهمية قصوى:

أ- في سياق بناء المؤسسات الممولة حكومياً حدثت عملية تغير أمحت تقريباً كل الفوارق الداخلية بين الحسيديين ومعارضيهم. فالحسيديون، والذين لم يكونوا من مؤيدي عالم اليشيبوت، وجدوا أنفسهم يبنون يشيبوت لأنها غدت الشكل المؤسساتي القائد في الدولة، علاوة على أنه الشكل الذي يحظى بالتمويل الحكومي والمخول منح الإعفاء المرغوب من الجيش لتلامذة المدارس الدينية. وتلا ذلك أن نظام التعليم في المدارس الدينية الحسيدية

آخذ أكثر فأكثر في الاقتراب من المدارس الدينية الليتوانية، لأن النظام الحسيدي الشعبي الذي أريد منه أن يكون لعامة الناس الذين يكافحون لإعالة أنفسهم، لم يلائم شروط الرفاهية النخبوية التي أتاحت للجميع الاقتصار على الدراسة فقط. فهكذا، لم يبق ما يفصل هذه التيارات عن بعضها إلا الحدود البنيوية لا الحدود الداخلية. فمن تلك الفجوة بين الحسيديين والمعترضين والتي طالما مزقت طوائفهم، لم يبق إلا الفرق في اللباس وطول الجراب وشكل الذؤابة وطقوس الزواج. أما الفروق الفكرية فقد تلاشت بالكامل تقريباً. ولم يحافظ الحسيديون إلا علا فرادة واحدة وهي التعلم الشرعي لخفايا التوراة والقبالاة التي ازدهرت في الواقع المسيحاني الآخذ في القيام. ولكن، وكما سنرى، فإن تأثير القبالاة في أوقات امحاء الحدود لم يتوقف عند المدارس الدينية الحسيدية بل تجاوزها إلى شارع المعترضين (كان مقبولاً فيما مضى، على الأقل في التصور، اعتبار الحريديين الاشكناز ينقسمون إلى ثلاثة أقسام واضحة: حسيديين، ومعترضين (أو ليتوانيين) و«الطائفة الحريدية». وكان ينظر إلى الحسيديين بصفتهم استمراراً للتقليد الديني الشعبي الذي أرساه بعل شمطوف، والذي بوحي منه قامت بلاطات الحركة الحسيدية في أوروبا، وانبعثت بقاياه في حسيديات، مثل حاباد، وغور وبعالز فوزنتيس - على اسم بلاطات ومدن حريدية أبيدت في أوروبا في الكارثة - أما المعارضون فقد اعتبروا أنهم هم عالم المدارس الدينية التلمودي العقلاني الذي يعارض الحسيدية. أما «الطائفة الحريدية» فقد أُخذت على أنها الطائفة المنغلقة على نفسها وراء جدرانها ومنعزلة عن الدولة الخاطئة وعن ثقافتها، وتتحصن في القدس، وتنطوي على حسيديات متطرفة. ولقد شهد هذا التقسيم، رغم صحته الجزئية واقعياً، تغييراً بعيد الأثر.

ب- كان نمو الحضارة الحريدية وإرساء مؤسساتها قد حصل في خضم ثورة سياسية.

فبعد الكارثة بجيل واحد، ساهم الحريديون، سوية إلى جانب

مجموعات هامشية أخرى في الواقع الإسرائيلي، في الإطاحة بحَمَلَة راية الصبار، أي الأحزاب العمالية، عن السلطة، لصالح حكم قومي يهودي. ولقد كان من نتائج هذا الائتلاف السلطوي الذي أخذ الحريديون فيه دوراً إلى جانب علمانيين وصهيونيين متدينين مسيحانيين، أن أعطى الحريديين موقعاً غير موقعهم الذي كان يبدو هامشياً، إضافة إلى أنه عزز قوتهم المادية وثقتهم بالذات وقناعاتهم الداخلية.

لقد تحركت هذه التغيُّرات البنيوية في إطار مفاهيم ثيولوجية تاريخية جديدة نشأت عن نموذجين رافقا نمو الحضارة الحريدية الجديدة، وكان مفترضاً فيهما أن يساعدا في بناء أسوارها، وهما:

أولاً: الصراع ضد نور التنوير الساطع وضد الصهيونية العلمانية والتي هي، كما نذكر، أسوأ من النازيين القتلة، لكونها تدفع اليهود نحو الخطيئة. وكان رؤساء الجمهور الليتواني، هحزون ايش والرابي شاخ، هما من قاد هذا الصراع بشكل أساسي. ومع تعاظم الشعور بالقوة لديهم وضعف الصبار الذي حدث عبر السنين، عاد وبرز التمييز القائل أنه ليس كل الصهيونيين أشراراً، فالأشرار فقط هم أولئك الاشتراكيون فقط. ولقد أكد الرابي شاخ أن الصهيونية الاشتراكية هي العدو لكونها تحمل راية هوياتية فتجذب بذلك الشباب الحريدي. ومن هذا المنطلق فاليسار وحده هو الذي يشكل تهديداً، ومجرد وجوده يدفع الناس إلى الخطيئة. وبالمناسبة، فاليسار المقصود هنا ليس ميرتس، بل حركة العمال والتي بفعل مركزيتها تقدم البديل الهوياتي.

أما صهيونيو اليمين الإسرائيلي، بعلمانييهم وتقليدييهم، فلقد اعتبرهم شاخ أطفالاً غرر بهم، أي فتنتهم الأجواء السائدة فتبعوا القومية ونسوا الدين، غير أنهم لا يطرحون بديلاً يهودياً طلائعياً متنوراً، كما يقبلون مبدئياً أولوية الرابي والثقافة اليهودية وإن كانوا لا يستطيعون تطبيقها بحذافيرها. ومن هذا المنطلق فإن الصراع السياسي الذي يقرر مصير الأمة يتمتع بأهمية دينية قصوى، ومن هنا أصبحت ضرورة الإطاحة بالصبار المثيولوجي وحملة رايته (أحزاب اليسار وحزب العمل في الأساس، وليس

ميرتس الكريهة ولكنها الأقل خطراً) من أسس العقيدة عند شاخ ورجاله. صحيح أن الحريديين في سلوكهم هذا يرفعون عصاة آخرين، أي العصاة اليمينيين، بيد أن هؤلاء الأخيرين لا يشكلون تهديداً ايديولوجياً على الدين، وهكذا سار شاخ على خطى كوك، ليس إلى عمق جنة السياسة فحسب، بل أيضاً إلى مقولة الاستعانة بالعصاة من أجل تقديم الخلاص. ولكن على خلاف كوك، فقد كان من رأي شاخ أن العصاة الذين ينفذون مهمة إلهية لصالح اليهود المتقين دون وعي منهم ليس أولئك اليهود الطلائعيين بل معارضوهم السياسيون.

لقد ولج شاخ دائرة الخلاص عبر الخطيئة واثقاً بقوته الظافرة ومؤمناً أن الصبار المتنورين في تراجع، فيستطيع هو، شاخ، وبمساعدة اليهود السفارديم الذين أمل أن يسيطر عليهم، أن ينزع عنهم بكوريتهم. وقد لاح أن زمان كوك المسيحاني قد حل، أي الزمان الذي يصلح فيه الأتقياء المادة الصهيونية. وهؤلاء الأتقياء الذين سينهضون بمهمة الإصلاح هذه إنما هم الحريديون بالذات، أي أولئك الذين كانوا قبل مائة عام قد أعلنوا النبذ ضد حركة كوك بجرم أنه يدعو للخلاص المعتمد على العصاة.

أما المفهوم الثاني الذي واكب نمو الحريدية فقد كان سياسياً. ففي ظل التعاون بين الحريديين والمعسكر الإسرائيلي الكبير الكريه الذي نشأ بعد الكارثة، وفي أجواء الحروب والإرهاب التي ارتبطت بالذهن بالمذابح والملاحقات، أخذت في الصعود بشكل متزايد تلك الجوانب من الموروث والتي تؤكد على كره الأغيار والعرب منهم بوجه خاص، والتي ترى أن مجرد وجودهم أمر شرير، فهم أيضاً، على ضوء نور القبالاة الساطع، أشرار بطريقة صوفية. انهم ممثلو الشيطان، وكما رأينا سابقاً، فلقد أنكر الكثير من الربابنة وجود نفس عند الأغيار ولاسيما الأسوأ فيهم وهم الإسماعيليون (بالمناسبة، فهذا اللقب للإشارة للعرب أخذ يستخدم كثيراً في التسعينات في «هتسوفيه» الصحيفة الناطقة باسم الصهيونيين المتدينين ولم يقتصر استخدامه على دوريات الحريديين).

وكلما كان التدخل السياسي اليميني يزداد كان استخدام ديمونولوجيا العرب يزدهر. ولقد وجد هذا انعكاساً له على الجبهة الروحية بدلاً من أن يعبر عن نفسه في حرب طبيعية ضدهم. ولقد كان ملفتاً حتى في حرب لبنان أن نستشعر مشاعر الشارع الحريدي الذي لا يخدم في الجيش. فعلى الرغم من الموقف الرسمي الرباني، الحمائمي وقتئذ، والذي يرفض استفزاز الغوييم، إلا أن الشارع الحريدي هاج وماج بسعادة الانتقام، هذا علاوة على رغباتهم المتزايدة في القيام بنزهات ورحلات وبأفعال أخرى. فعلى هذه الأرض، أرض الفعل، أرض دولة إسرائيل التي تقدس الغاية، يوجد أيضاً الحريديون.

من المفيد أن نذكر هنا أن الموقف الرباني المعتدل الذي عارض الاحتفاظ بالمناطق وعارض الاستيطان إنما نبع من اعتبارات واقعية، من الخوف من الأمم ولم ينبع من اعتبار الغوييم طيبين وجديرين بالسلام معهم. فبحسب التقليد تكمن قوة عيسو في يديه بينما تكمن قوة الضعيف يعقوب في فمه. وعندما يتعلم الأولاد التوراة تزداد قوة فهم يعقوب الضعيف في حربه المقدسة ضد عيسو، وفي أيامنا فالحرب شاملة بسعة الفم كله.

ولقد أضيف عنصران آخران إلى مرجل الحرب الثقافية الثيولوجية الصوفية والسياسية ومهدا التربة للثورة. الأول، وقد سبق لنا أن وقفنا على أساسياته، فكان محاولة الرابي شاخ قيادة عملية تغيير سياسي وثقافي في إسرائيل. فالرابي شاخ كان قد أخذ يعتقد أنه قادر على تغيير التاريخ اليهودي بعد أن امتلأ بالإحساس بأنه كلي القدرة وقد أقام عالم المدارس الدينية الأكبر من أي وقت مضى، ويتمتع بالسيطرة التامة عليه، إلى جانب شعوره أن الصبار والبديل الصهيوني في حالة تراجع.

ومثلما ابتدع الرابي كوك سيناريو استيلاء الروح الدينية على المشروع العلماني بالاستعانة المؤقتة، وإن كانت خلاصية، بالعصاة، كذلك فعل الرابي شاخ وابتدع سيناريو خاصاً به. وهذا السيناريو، على خلاف سيناريو كوك، كما يقول شاخ، لا ينطوي على روح قبالية مسيحانية ولكنه يستتير بنور

عقلاني ليتواني كما ينبغي. لقد كان الرابي شاخ يؤمن أن الشعب الإسرائيلي في معظمه هو سفاردي تقليدي، ولكنه وقع في أسر اليسار الصهيوني. ويعتقد أن بالإمكان، بواسطة هذا الجمهور، إحداث ثورة ثقافية في إسرائيل، عبر طريقين: الأولى هي إعادة هداية الجمهور السفاردي وتوجيهه إلى حزب سياسي: شاس - الحركة التي يعتقد أنه هو الذي أقامها -. في بداية الثمانينات قدر الرابي شاخ أن شاس، كحركة للسفارديين، قادرة على الوصول إلى مستوى من عشرين إلى ثلاثين نائباً. كما افترض في نفسه السيطرة على هذه القوة باعتبار أنه هو الذي فتح أبواب المدارس الليتوانية النخبوية أمام السفارديم، كما أنه هو، وفق رأيه، الذي خلق شاس. صحيح انه أوجدها بالتعاون مع عوفاديا يوسف، لكن لابد للسفارديم من الاكتفاء بالمرتبة الثانية في القيادة. أوليس بديهياً (لشاخ ولربابنته) أن الاشكناز فقط هم الذين يعرفون كيف يقاتلون التنوير واليسار، لأنهم هم من عانى منهم في أوروبا.

والطريقة الثانية، حسب شاخ، هي في توجيه أولئك الذين لا يذهبون إلى شاس في اتجاه الليكود لمعاقبة اليسار المجرم.

وكان شاخ يفترض أن توحيد هاتين الطريقتين سيؤدي إلى تغيير نوعي في الهوية الإسرائيلية، تغييراً هو في الواقع بروحية الرابي كوك المنبوذ، تغييراً يعطي الهيمنة للروح اليهودية التي ستقهر وتتغلب على المادة الإسرائيلية.

في سيناريو كل من كوك وشاخ هناك استعانة بعصاة إسرائيل لكي يخلصوا الشعب. فعند كوك كان الصهيونيون اليساريون هم الذين يلعبون دور حمار المسيح. ولكونهم يتمتعون بالقوة فلقد اعتبرهم بمنزلة مبعوثين من الرب لإنقاذ الشعب من الشتات ومن خطيئة الذوبان.

أما في نموذج شاخ فلقد كان الافتراض أن من سيلعب دور حمار المسيح إنما هم شرقيو اليمين غير المتدينين والذين بدوا لشاخ كمبعوثي الرب وكرسله هو لتحقيق الخلاص من الصهيونية الآثمة. فها هم تلامذته

موجودون الآن في أيام المسيح الحالية. لقد دار كل هذا في رأس شاخ فيما هو يستبدل الموقف الدفاعي أمام الكوارث: التنوير والكارثة والصهيونية، بالدعوة لتولي زمام القيادة كما يليق بمقامه كمرجعية العصر.

أما الأساس الثاني للثورة، وعلى خلاف ضوء شاخ العقلاني، فقد قام على القبالاة. إذ حتى في المعسكر الليتواني صعد نجم مقولة إننا نعيش بالفعل المرحلة التي تسبق الخلاص طالما أننا على أعتاب نهاية الألفية الثالثة والتي تمثل، كما يمثل اليوم السادس، الزمان الإنقاذي الأخير الذي يأتي سبت المسيح بعده. ومثلما هو الحال في أغلب الأساطير الخلاصية، كذلك لابد، وفق نظرية الأعداد القبالية، من اجتياز ليل من الآلام قبل إشراق شمس المسيح. وكأن كل ما مر على اليهود في القرن العشرين لم يكن كافياً، فتمسك القباليون الليتوانيون بالرؤيا الكوارثية التي أشرنا إليها فيما سبق، والتي تقول بقيام سلطة الدخلاء قبل مجيء المسيح.

إن العداء لليسار الملحد الذي يمثل القاسم المشترك بين كل التيارات الحريدية، مضافاً إليه الوضع شبه المسيحاني الذي تعيشه هذه التيارات بتنوعاتها المختلفة من حسيدية ليتوانية إلى الطائفة الحريدية، جعل مقولة الدخلاء تصدح في كل أنحاء هذا المعسكر بهرمونيا سماوية.

والحديث هنا يدور حول موقف صاحب كتاب «إصلاحات الزوهار» والتي ذابت في متن «الزوهار»[1]، والذي يقول ان الدخلاء سيسيطرون على شعب إسرائيل قبل مجيء المسيح، والمقصود بالدخلاء هنا هم العماليق، ممثلو الشيطان، الذين امتزجوا بشعب إسرائيل قبل خروجه من مصر بواسطة تنكرهم كيهود تحدوهم الرغبة في تخريب إسرائيل من الداخل مصداقاً للقول: «مخريبك وهادميك منك يخرجون». وسيكون لهؤلاء الدخلاء، الذين يشملون العماليق والرفائيين والعمالقة، آثاراً رهيبة وآخرها السيطرة على شعب إسرائيل قبيل حلول مملكة المسيح. وفعلاً، فقد بدا في مطلع سنوات التسعين وكأن اليسار المتمرد، غير اليهودي لكونه من الدخلاء،

[1] الزوهار، واصلاحات الزوهار، هما كتابين في الفقه اليهودي سبقت الإشارة إليهما – م –.

يسيطر على إسرائيل. ولن يتجلى المسيح إلا بعد الإطاحة بهذا اليسار عن السلطة.

لطالما كانت نظرية الدخلاء مثمرة في يد قباليي إسرائيل. إذ كان من الملائم والجيد لهم، وهم المخلصون للاعتقاد أن إسرائيل هي عصبة واحدة، أن يلقوا بلائمة المصائب التي أصابتهم، في سياق بحثهم عن سبب لها، على أولئك الذين تنكروا كيهود. ففي كتاب الزوهار، على سبيل المثال، كما في مصادر عديدة أخرى، نجد إلقاء كل ذنوب إسرائيل على هؤلاء الدخلاء؛ فهم الذين حرضوا على إقامة العجل الذهبي، وهم المسؤولون عن إثم كورح، وهم وراء إثم الجواسيس،... الخ. وفوق ذلك، فلقد شكلت حقيقة سلطة الدخلاء قبل مجيء المسيح رافعة شديدة القوة في يد من قاتل بحماس مسيحاني ضد سلطة الجالية.

وهكذا مثلما كان الكثير من الكتاب وعلى رأسهم صاحب كتاب الزوهار وكتاب هعيمق ملكأ، ساخطين على أثرياء زمنهم بدعوى أنهم يؤخرون مجيء المسيح، وهو الأمر نفسه الذي حصل في وقت شبتاي تسفي من حيث توجيه الاتهام إلى زعماء الطائفة الدخلاء بأنهم هم، من جراء ضعف إيمانهم، كانوا السبب في تأجيل ساعة الحقيقة. وعلى المنوال نفسه فقد وجد المهرال من براغ، والهاجرا وأئمة آخرون أن أسطورة الدخلاء المتنكرين كيهود والمفترض أن يسودوا لفترة وجيزة قبل مجيء المسيح، شديدة الفائدة والأهمية وتشكل أساساً رئيسياً في العقيدة.

والأمر نفسه نجده في وقتنا الراهن. فلقد بحثت هذه الطائفة من التلاميذ الذين لا يعملون، والتي من المفترض الا تقوم إلا بعد مجيء المخلص، والتي تعيش تجسيداً جزئياً للسيناريو المسيحاني الذي يمثله جمع الشتات والاستقلال والذي تحقق على يد مدنسي التوراة عبر الانتصارات العسكرية والإرهاب والخوف، بحثت عن عامل موحد لطائفة وافديها وعن متنفس لطاقة شبانها، فوجدته بسعادة في النظرية الصوفية السياسية التي تعتبر أن أناس اليسار الصهيوني ليسوا يهوداً بل يسعون لدفع الكثيرين نحو الخطيئة.

كل هذا في الوقت الذي اختفى فيه، كما يبدو ذاك التوتر الاعتيادي بين تلميذ الحاخام وبين عامة الناس المستعدين لعضه كالحمار. فالكل يتعلم التوراة، طبعاً باستثناء اليسار الصهيوني المتمرد.

ومن هنا فإن نظرية الدخلاء التي توحّد المتنكرين كيهود مع وضع ما قبل الخلاص المسيحاني، جاءت لتتناسب، وبشكل دقيق، مع الأجواء النصف مسيحانية كثيرة التناقضات التي تعيشها طائفة الوافدين الحريدية.

لقد لعبت نظرية الدخلاء الكوارثية للشبان الحريديين ذلك الدور نفسه الذي لعبته قبالاة كوك المتناقضة لشباب الصهيونية المتدينة من جهة إعطائهم المغزى والمهمة الإلهية. وامتاز الحريديون في هذا الشأن بأنهم امتلكوا هذه النظرية في وقت يتمتعون فيه بالثقة بالذات، وفي وقت ولّد فيه تعاظم قوتهم المؤسساتية الرغبة لديهم في امتلاك نظرية إنقاذية إلهية.

ولقد أنجزت القوة المؤسساتية قلباً في النظرية أيضاً. فلقد راجت في السابق عند جناحي ساطمر وتولدوت اهرون[1] من الطائفة الحريدية مقولة الدخلاء، إلا أنهم، بسبب أن واقعهم كان واقعاً شتاتياً، أناطوا بالرب آمال الانتقام من الدخلاء. أما الحريديون الجدد، وعلى خلاف الطائفة، ومثلهم مثل شبان كوك، فإنهم لا ينتظرون السماء في هذا الشأن، فهم موجودون في أرض المسيح والقوة، وما يخوضوه من صراعات لم يكن من أجل البلورة الذاتية أو من أجل التبرعات التي تأتي من الخارج، بل من أجل إنجاز انقلاب إنقاذي في هذه الدولة التي فقط جزء منها هم الأشرار. وليس غايتهم تدمير ملكوت الشر كما افترضت الطائفة، بل لقلبها رأساً على عقب. لذلك ما إن حلت سنوات التسعينات حتى كان المجتمع الحريدي قد تشبع بالإحساس بالقوة، فيما شبانه عاطلون عن العمل، بحجة التفرغ للتوراة، ويملؤهم الإحساس بالسمو والانتصار والمهمة العلوية. وبهذه الروحية كانوا سعداء للانقضاض على هوية سياسية مسيحانية قبالية يمينية كارهة للعرب واليسار، لكونها تمنحهم بيتاً وإحساساً بالصراع والحياة. وبالفعل لم يلبث الصراع أن جاء.

---

[1] جناحين في الحركة الحريدية – م –.

لقد كانت سنوات حكم رابين الأربع ممتازة لتوحيد الصفوف ولتعميق الحلف بين الربابنة وبين الشبيبة. وقد فعلت كتب وصحف الجمهور الحريدي، وبخاصة لسان حال الرابي شاخ «الوتد المخلص» الأعاجيب في هجومها على أعداء اليهود الأسوأ من العماليق، ألا وهم حزب اليسار الصهيوني. وللمرة الأولى ظهر في الصحف الرسمية ليس التفسير العقلاني فقط، بل أيضاً المخزون القبالي الذي أُستغِل استغلالاً واسعاً لتوضيح مدى نجاسة اليسار الصهيوني المتمرد. وخير مثال على هذه الأجواء كانت صحيفة «الأسبوع»، وهي التي كانت الأكثر لذاعة من بين الصحف التي اشتركت في التحريض الذي سبق اغتيال رابين، وكان محررها، بالطبع، مثل جمهورها، من الحريديين. ولكن، وكما أسلفنا، فالمؤسسة الليتوانية ذاتها هي التي قادت المعركة القبالية المسيحانية. وأفضل عينة على هذا الإبداع الجديد كانت مقالة للرابي فاينتروب في «الوتد المخلص». ففي هذه المقالة تم استغلال الكلب بما يمثله من رمز للعماليق والشيطان. ففي كتابه «فيما مضى»، يعرض ش. ي. عجنون (الكاتب الضليع بالقبالاة) ملامح العمل الطلائعي. وفي سياق القصة يتعرض البطل لعضة من الكلب بلاك، فيأخذ هذا الطليعي في النباح قبل أن يموت بالسعار.

والكلب، كما قيل، يرمز إلى العماليق في الديمونولوجيا القبالية. وبعد عجنون جاء فاينتروب وليتوانيون آخرون واستخدموا هذا الرمز في ادعائهم بأن اليساريين الصهيونيين هم الكلب النابح في عهدنا، أي العماليق الذين يسعون لتدنيس اليهود عن طريق عضهم. فاليسار، الكلب، إنما هو أسوأ من كل أعداء إسرائيل، لذلك نجد فاينتروب يستصرخ: «أنقذني من يد أخي، من يد عيسو» (وعيسو هو أعلى درجات الشر، فالعماليق هم أحفاده الذين جاءوا منه).

وكما نذكر، فإن هحزون ايش اعتبر الحرب نعمة من الرب، فالأفضل للجنود العلمانيين أن يُقتلوا على الحدود. وكذلك يكتب فاينتروب أنه معروف لديه أن اليمين سيقود إلى حرب يموت فيها الكثيرون، فهو يفضل، وبسرور،

الحرب الطبيعية المهلكة على الحرب الروحية التي يدفع فيها اليسار اليهود نحو الخطيئة.

في الحرب الحقيقية لايتجند الحريديون - بفعل ذلك الإعفاء الذي تأسس عالمهم بفضله -، إلا أنهم في الحرب ضد الكلب، ضد اليسار المتمرد، فجاهزون للتجند. ففي يوم الانتخابات خرجوا بقضهم وقضيضهم لمسح العماليق.

كان من المعتاد عند المملكة القبالية في اليمن إرسال الشباب في الهزيع الثاني من الليل في أيلول لضرب الكلاب. فبحسب كتاب الزوهار، تسيطر الحمير، بصفتها تمثل العماليق والشيطان، في الهزيع الأول، بينما في الهزيع الثاني تحل الكلاب محلهم. فكان الشباب اليهود يكمنون، وهم مزودون بالعصي، للكلاب في شوارع اليمن ويضربونها بكل ما أوتوا من قوة. أما في الحملة الانتخابية لعام 96، فلم يقتصر الأمر على الليلة الثانية، ولم يقتصر الأمر كذلك على الشباب، بل خرج الكل للحرب ضد الكلاب، ضد العماليق وممثليهم، فغصت الشوارع بالبلاغات التي تدعو الجمهور لمحو العماليق في الانتخابات، وهذا ما حصل بالفعل.

يجدر أن نذكر أن التعبئة الجماهيرية حصلت رغم وجود معضلة شرعية مزدوجة أقلقت أدموريم عدة. أولاً، فإن مجرد التصويت المباشر لصالح مرشح علماني يعتبر خطيئة شرعية صريحة. صحيح أنه كان هناك من حاولوا تيسير الأمر وإحضار فتوى من الولايات المتحدة، ولكن تبين أنه يجوز وضع أحد الأغيار رئيساً عليهم ولكن لا يجوز تنصيب ابيقوريا على إسرائيل. وأكثر من هذا، فإن المرشح العلماني الذي انجذبت إليه أفئدة الحريديين وأصواتهم كان آثماً بخطيئة سفاح المحارم، لأن الزنا مع امرأة على ذمة رجل آخر، وهو الذي اعترف به نتنياهو في التلفزيون، هو بحكم سفاح المحارم، وحكمه مثل حكم من يضاجع أمه أو ابنته أو ذكراً أو بهيمة. والمسألة هنا لا تقتصر على خطيئة حكمها الموت ومن الصعب غفرانها، بل هي مسألة إحدى الموبقات الثلاث التي لا تسامح معها (الاثنتين الأخريين

هما سفك الدم والوثنية)، والتي تتجاوز في خطرها كل ذنب آخر، وبسببها كان خراب الهيكل الأول، فكيف يمكن ارتكاب الوثنية والتصويت لصالح مرتكب غشيان المحارم والذي سيقود إلى سفك الدماء؟

يتضح أن هذا ممكن. وهو الأمر الذي فعله، تقريباً، كل الحريديين ومعهم جمهورهم ونساؤهم المحصنات. نعم كل الجمهور باستثناء حسيدتين غير يمينيتين، وهما بعلاز وتسانز، فكانتا الوحيدتين اللتين حافظتا، إلى حد ما، على طابع الفهم الحريدي القديم، ولذلك بدتا شاذتين، ووضعتا بطاقة بيضاء في انتخاب رئيس الوزراء، وهو الخيار الشرعي الوحيد المعقول الذي كان متوفراً.

حقاً إنه كان هناك، كما قلنا، العديد من الأدموريم، ومن ضمنهم الحسيدية الكبرى، غور، من الذين حبذوا الامتناع عن التصويت، إلا أنهم، وكما حصل مع ربابنة في عهد شبتاي تسفي، عرفوا أنه لا داعي لأن تقول للجمهور أموراً لا يرغب أن يسمعها..

لقد كان الواقع القبالي المسيحاني اليميني التواق للانتقام من اليسار العلماني ومن العرب قد تجذر في القلوب أكثر من أي وقت مضى، فما كان والحال هذه من شأن سفاح المحارم أن يقف في وجه الجمهور. وهكذا أيضاً فإن الرابي عوفاديا يوسف الذي كان يؤثر، كما سنرى في الفصل الحادي عشر، الامتناع أو التصويت لبيرس، فإنه لم يفعل أكثر من الإيماء بذلك للجمهور، ففي إجابته على سؤال قال يوسف أنه يجب أن نضع على الشعب رئيساً طاهر الذيل. إلا أن هذه الإجابة ضاعت في أجواء الانذهال القبالي المسيحاني وصياح الحرب الذي كان يغشى الناس لدرجة أن أتباعه أيضاً شاركوا في محو عماليق اليسار.

إنها لمثيرة حقاً مقولة الخلاص عبر الخطيئة. فإذا كان خطاب الدخلاء والعماليق قد أدى في الطائفة الحريدية القديمة المتوحدة إلى انعزال منطقي وطبيعي، نظرياً وفكرياً، عن الدولة الخاطئة، وبالتالي إلى عدم الاشتراك في الانتخابات العلمانية، ودفعها للقيام بحملة جماهيرية

ضد تصويت الحريديين لصالح رجل علماني في انتخاب مباشر، فلقد حصل عند الحريديين العكس تماماً. فكما هو الحال لدى أتباع كوك الكافرين بالدولة والجيش، فقد ترافق الانبهار الثيولوجي الساخط بانغماس متزايد في مشروع الدولة العلمانية الخاطئة. فكلما ازداد الكره، ازداد الدخول إلى عالم الخاطئين، لإنقاذه، وإنقاذ الدولة الخاطئة من الداخل. ولم يعد الربابنة الذين دشنوا الإنقاذ عبر الخطيئة هم الوحيدون الذين يقودونه، فلقد قام واقع جماهيري مسيحاني وفرض نفسه.

ولقد شاهد الرابي شاخ، الذي كان يشعر أنه هو الذي يقود الجمهور للتصويت لصالح بنيامين نتنياهو، كيف أن هذا الجمهور تجاهله عندما حاول منعه من الاشتراك في مظاهرات يوم السبت في بار ايلان. انه واقع جديد قام. وغدت قوة الربابنة تتوقف على الدرجة التي يدعمونه بها. وكبير حقاً كان هذا الدعم.

لم يعد عند الجمهور الحريدي الواسع، عملياً، طبقة وسطى ثقافية، فقد حصل معه ما حصل مع حاباد، فالقوة الكبرى هي في يد المغزي المشترك الذي يعتنقه جمهور واسع، أي جوقة المعنى، ونتيجة ذلك أصبح المجتمع الحريدي يساق من قبل «اندفاع التوجه» لآلاف تلامذتها. ويعيش هؤلاء التلاميذ، دارسو التوراة، في وضع هو، وفق المعايير الشرعية، وضع مسيحاني، لكن يمكن وضعه وفق المعايير الاجتماعية كوضع تنقصه البهجة، وضع من التأجيل المستديم الذي لا يقود إلى أي تغيير معروف.

إن هذا الوضع هو بالذات وضع جيل النضج. جيل نضج دائم. وضع، كما سنرى لاحقاً، يتغذى من هوس استحواذي يغذي ذاته بالمرأة والجنس والقذف إلى الخارج.

يعيش الحريديون في شباب دائم، توحدهم روح مسيحانية سياسية كارهة لليسار والعرب، روح تجد موطنها في القبالاة المسيحانية. ولقد غدت هذه الروح تشكل الآن الهوية الأقوى من أية هوية أخرى وبخاصة على ضوء

ما يتبدى كخضوع أمام الروح القدسية الشابة من جانب الواقع الخارجي المليء باليسار والعرب.

على الرغم مما يملكه الربابنة والمعلمون من قوة مؤسساتية هائلة إلا أنهم أصبحوا أعجز من السيطرة على العفاريت التي عمدوا إلى إطلاقها من القمقم. فلم تعد النخبة المؤسساتية هي التي تقرر ما يجب عمله، بل الجمهور الذي يعيش في ظرف ثوري ويبحث عن منظومة معنى تناسب وضعه. وكما في حالات أخرى في التاريخ، فلقد اختارت النخبة الربانية ألا تتخلف عن جمهورها.

يوجد يهود جدد، أنقياء أنقياء. والغد ينتمي للشباب وهم شباب دائم.

# الفصل العاشر

## المرأة وخفايا الجنس

### أ- أصل الأنواع :

في دورات الهداية التي يعقدها «معهد أورا» التابع لكوك، كما في الحلقات الدراسية للنساء، يثور السؤال: لماذا أُعفيت النساء من الفرائض؟ وفي أحيان كثيرة تأتي الإجابة، ذات النغمة القبالية: «لأن المرأة أسمى من الرجل وشديدة القرب من عالم الإصلاح، ومن ثم فإنها معفاة من الفرائض التي غايتها إصلاح النفس والسمو في المدارج الروحية».

إلا أن هذه الإجابة الخلاقة لا سند لها لا في المصادر الأولى ولا في المصادر المتأخرة والحديثة والتي تحتوي العكس تماماً. ويعود سر هذه الإجابة إلى المفهوم اليهودي عن العالم الذي يتصوره هرمياً، مما يجيز استخدام لغة خاصة مع من ليس حاخاماً أو مع الولد، ولا سيما مع العلماني والغريب والمرأة، والمرأة العلمانية بالذات، فلكل مستوى لغة تلائمه، أما لغة الحقيقة فللحاخامات.

في المصادر اليهودية، القبالية والشرعية والوعظية التي تُدرَّس وذات التأثير الهائل ولا سيما في أيامنا، فإن الصورة المعطاة تختلف اختلافاً كلياً عن تلك الإجابات التي تُعطى في الحلقات الدراسية. وهذه الصورة متجانسة في كل المصادر. فالثورة التي تمر بها الثيولوجيا اليهودية في أيامنا تحمل على أجنحتها المزيد من التشدد في الموقف من المرأة والجنس.

تختلف مفاهيم جيلنا عن المفاهيم اليهودية التي كانت سائدة في

القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين. ومسألة المرأة ومكانتها في اليهودية مسألة جوهرية. وتتمتع التغيرات الثيولوجية فيما يخص الموقف من المرأة بأهمية وأثر بعيدين. وكما في مسألة الأغيار ومسائل أخرى، كذلك في مسألة المرأة والجنس فقد وجدت يهودية عصرنا في الموروث مادة وفيرة.

من بالغ الأهمية أن نقف على لغة هذه المسائل كما هي في الأصل، والتي، بفعل ورودها عن أصحاب المعالي عظماء إسرائيل، تجعل تأثيرها على عصرنا أكثر يسراً. لذلك فإننا هنا سنستبق بإيراد الاقتباسات بلغتها الأصلية قبل تفسير التغييرات واستخدامها في الثيولوجيا الحديثة. هذا مع الإشارة إلى أن كل المصادر التي اقتبسنا منها هنا هي مركزية في الأصول كما هي مركزية في فهم الجيل الحالي لهذه الأصول.

الرابي بحيياي، صاحب أهم تفسير للتوراة، وذو التأثير الأكبر على الكتاب اليهودي المركزي للنساء في ألمانيا «اخرجن وانظرن»، والذي يلخص كل سابقيه، يقرر:

«المرأة لا تعتبر من الخليقة، لأنها ليست أكثر من شيء أُخذ من الجوهري وأُلحق به لحاجته الاستعمالية، لتكون مكرسة لاستخدامه كأحد أعضائه المخصص لاستخدامه، لذلك فإن المغفور لهم حاخاماتنا دعوها ذيلاً».

ويقول الرامبان (الرابي موشي بن نحمان):

«أنتِ تحت تصرفه لتفعلي ما يرغب به.. في وجهة نظري، فإنه قد عاقبها بأن جعلها في شوق إلى بعلها وهو يمتلكها كجارية. ليس المألوف أن يكون العبد في سوق لشراء سيد له، بل إنه يهرب منه، وعقابها أن تكون في اشتياق له وهو يفرض عليها كل ما يشاء».

الرابي ليفي بن غرشوم يقول:

«كان خلق المرأة من الرجل لأنه كان علة وجودها. فلقد خلقت لأجله ولعبادته ولكي تطيعه كالعبد ولكي تفعل ما يلزم الرجل».

**أما الرامبام فيشرع:**

«فرضوا على المرأة احترام رجلها أكثر مما ينبغي، وأن يكون له رهبة عندها، وأن تكون كل أفعالها حسبما يأمر، ويكون في عينيها كالوزير أو الملك، وتفعل ما يحلو له».

وفي الكتاب الخاص بالنساء: «اخرجن وانظر» جاء:

ايسود الرجل عليها كما يسود صاحب البيت على عبده، ومع ذلك فإنها تشتاق إلى رجلها وتحبه وتقبل أن يكون هو رب العائلة ويحكمها كما يحكم السيد عبده».

**وفي الجمارا:**

«الابنة لعنة أبيها، فالقلق يقض مضجعه. وهي صغيرة يخشى أن تُغوى، وهي صبية يخشى أن تزني، والشيخة قد تعمل سحراً. قال الحكماء مستحيل بدون ذكور وبدون إناث، فطوبى لمن كانت خلفته ذكوراً. والويل لم كانت خلفته إناثاً».

ويقول «الكتاب الواضح»، وهو أحد كتب القبالاة الأساسية، أن نفس المرأة من الشمال، من اليسار (وهما جانب الشيطان ومنهما منطلق الشر) ولذلك جاءتها الأفعى.

**وجاء في المدراش:**

«خلقت المرأة وخلق الشيطان معها».

وكتاب الزوهار، والذي يتمتع بمقارية معتدلة نسبياً قياساً إلى تيارات قبالية متأخرة أخرى، فإنه يسند القول ذي الجذور المدراشية والجمارا والذي يقرر أن نجاسة الأفعى – ممثلة الشيطان – موجودة في المرأة، منذ ذلك الفعل. ولذلك الفعل، عند الزوهار، دلالة جنسية، فمن خطيئة حواء والأفعى ولد قايين. وبسبب نجاسة النساء هذه منعن من الاقتراب من الجبل الطاهر المقدس، جبل سيناء. لذلك لم تتلق النساء الفرائض التي كانت تعني الرجل فقط. ومنذ ذلك الحين والرجال فقط هم الأطهار من الإثم، فبفضل الجبل والشرائع تستطيع أنفسهم الوصول إلى جنة عدن العليا، أما النساء فيبقين مع لعنتهن.

في التفسير اليهودي، والذي استقى منه كوك نظريته حول الروح الدينية والمادة العلمانية، ينقسم كل شيء إلى روح تفعل ومادة منفعلة أو أداة للفعل. والمادة أدنى منزلة من الروح العقلية. أو ليس هذا ما فعله الرب عندما أفاض من نوره على المادة الدنيا في عملية الخلق. وهذا ما يقوله شيخنا بحيياي:

«الإنسان هو العقل. وهو يحتاج إلى آنية يفعل فعله فيها. وهذه الآنية هي المادة، التي هي المرأة التي تحمل رمزاً للجسد. ومن هنا فإن سليمان ماثل المادة بالمرأة من جهة أن الزوجة تتلقى الفعل».

إن النعت العلوي «ابن آدم» الذي يقصره أغلب الموروث على اليهودي فقط، لا ينطبق إلا على الرجل، والرجل اليهودي بالطبع. وهذا هو رأي الرابي بحيياي ورأي أغلبية أئمة إسرائيل. فقد جاء في فصل التبريكات:

«ونظر الرب إلى الضلع. وقال من الإنسان يكون وجهاً ومنه يكون ذنباً»، ويشرح: «لقد أسماها شيوخنا ذنباً. مثل الرأس والذنب. وهي ذنب حقاً، ومنه نشأت». ويواصل شيخنا بحيياي في تفصيل التمييز العميق بين العقل والنفس والذي يسير بخطوط متوازية مع التمييز بين العقل والمادة، بين الروح والجسد، بين الفاعل والأداة، بين الرأس والذنب. وكلها تمييزات بين ابن آدم (الرجل اليهودي) وبين المرأة. فهكذا ينتصب العقل السامي إزاء الحياة التي هي المرتبة الدنيا في الوجود. فالحياة الغريزية، على خلاف النفس والعقل، موجودة لدى كل الأحياء والبهائم والأجنبي أيضاً.

«إن الحياة أنثى، والعقل مذكر، والحياة ترافق العقل مرافقة الأنثى للرجل». من هنا أيضاً تستقي اللغة الذهبية للرابي إسحاق كوهين كوك تفسير الدعاء: «مبارك الرب لأنه لم يجعلني امرأة».

«كثيرة هي المزايا العليا الطيبة وكثيرة هي السعادة الموجودة في ذلك الجزء الطيب الناجم عن كون «الحياة» هي لرجل فاعل منتج ومجدد وذي أفعال ومنطق وتطلعات وأعمال بحسب استقلاله الذاتي في منظومته القدسية الأسمى من حياة المرأة (المرأة ليست نفساً، بل هي كالمادة بالنسبة

لمن يشكلها، مقابل نفس الرجل التصورية)، فخالق النفس يستحق جزيل الشكر من كل رجل لأنه لم يخلقه امرأة».

وكذلك فإن صفات وسجايا المرأة أدنى من تلك التي للرجل. فالمرأة سخاطة وتتصف بالعقاب بينما يتصف الأب بالرحمة. لأن الإنسان عطوف ورحيم مثل الرب أبيه تقريباً. إن الرجل مريح لأنه خلق من تراب، بينما المرأة التي خلقت من العظم فهي صلبة، لذلك فإن المدراش يقرر:

«ليس من هو أقسى عليك من المرأة».

لذلك، فإن مصادر لا حصر لها في الأصول تنبه الرجل ليعي سخط وصلابة رأي المرأة. ولهذه القساوة في المرأة سر عميق. فالمرأة تنتمي إلى عالم الجزاء، ومادام الأمر كذلك فإن كل قوى التجريم، والتي هي الآخر والشيطان، تأتي إلى العالم وتسكن في المرأة.

**يقول الرابي بحيياي:**

«اعتمدت الأفعى على المرأة لأن الشيطان خلق معها. ومنها جسد الغريزة الرديئة، وهي سهلة الغواية».

و: «خلقت المرأة وخلق الشيطان معها».

كتاب «اخرجن وانظرن»، وهو الكتاب المخصص للنساء، يشرح طبيعة المرأة:

«عندما خلق الرب حواء قال: من أين أخلقها. فإذا خلقتها من الرأس فإن روحها ستكون فظة، وإذا خلقتها من العين فستكون فضولية، وإذا خلقتها من الفم فستكون ثرثارة، وإذا خلقتها من الأذن فستكون مسترقة للسمع، وإذا خلقتها من اليدين فستكون سارقة، وإذا خلقتها من القدمين فستكون زانية. فماذا فعل الرب؟ خلقها من الضلع، وهو مكان مستور، حتى تكون مستورة وجليسة البيت. ولكن رغم أنه لم يخلقها لا من الرأس إلا أن روحها فظة، ولا من العين إلا أنها فضولية، ولا من الفم إلا أنها ثرثارة، ولا من اليد إلا أنها سارقة، ولا من الأذنين إلا أنها مسترقة، ولا من القدمين إلا أنها عاهرة».

ومن بين نواقصها وعيوبها الكثيرة يبرز صوتها وثرثرتها النابعة من خفة رأيها الذي يجب عدم إيلائه بالاً. إليكم ما جاء في المدارش:

«أعطي العالم عشرة مكاييل من الكلام. تسعة منها ذهبت للمرأة وواحد لبقية العالم».

«كل من يعلم ابنته التوراة فإنما بلا طائل».

«أشارت الحكماء على الرجل بعدم تعليم ابنته التوراة، لأن عقل أغلبية النساء ليس مع التعلم، فهن يستغللن كلام التوراة في اللغو بسبب ضعف رشدهن».

والرابي رلباغ، يقرر مستنداً إلى الموروث الذي ينوه بقدرة الإنسان على إطلاق التسميات الدقيقة على كل حي، والتي بسببها - القدرة - سما الإنسان على الملائكة:

«أطلق الإنسان على المرأة اسم حواء لإدراكه أنها لا تملك من رفعة العقل أكثر مما تملك بقية الأحياء، هذا إن كان فيها عقلٌ أصلاً».

**وقال حكماؤنا:**

«لا تكثر الحديث مع المرأة - والقصد هنا زوجة الرجل - فما بالك بزوجة صديق. من هنا قالت الحكماء: كل من يكثر الحديث مع المرأة يؤذي نفسه.. ومصيره جهنم».

ويقول الرامبام بأنه لا يجوز للرجل التحدث مع امرأة. ويشرح سبب ذلك في أن الحديث مع المرأة يدور في غالبية الأحوال حول مواضيع الجماع.

**أما الراباد فيحدد:**

«مسموح للرجل الحديث مع المرأة التي يجب عليه استرضاءها قبل الجماع، فإن كانت له خصومة معها يسمح له الحديث معها. ولكن إن لم يكن عليه مصالحتها فإنه ممنوع عليه الحديث معها باستثناء الأمور الضرورية وقت الجماع».

**ويقول آخر:**

«على المرأة ألا تكثر الحديث بحضرة زوجها، لأن حديثها، بسبب خفة

عقلها، يكون بلا ضابط وغير مفهوم ولا مترابط. وعندما يرى زوجها هذا منها سيكرهها وسيرغب في موتها لعله يحظى بامرأة ذات عقل. ولكنه لا يعرف، لنقص خبرته، أنهن كلهن سواء في هذا الأمر».

يمثل القليل الذي أوردناه آنفاً عينة من بحر كامل من الحكمة. يمكننا أن نفترض أن ما اقتبسناه أعلاه قد يبدو بعيداً أو لربما استثناء للعين العلمانية. إلا أن الرغبات لا تعيد صياغة التاريخ. فما أوردناه أعلاه من مفاهيم وما سنورده منها في هذا الفصل يشكل قوة مركزية وجوهرية في اليهودية. وهذه المفاهيم موجودة بوفرة وتنسب إلى عظماء إسرائيل، والانشغال بها كبير جداً، وجزء منها يلعب دوراً أساسياً في الثورة التي تجتازها اليهودية في أيامنا.

كما سنلاحظ في السياق، فلقد طورت اليهودية في القرنين التاسع عشر والعشرين خطاباً آخر بصدد المرأة. إلا أن الموقف الضد نسائي، وهو الأكثر تجذراً في الموروث الأقدم، يشهد انبعاثاً في أيامنا، أيام الثورة الثيولوجية.

في الماضي، كانت الآراء المعادية للمرأة تتغذى من الثقافة المعادية للمرأة والتي كانت سائدة بشكل عام. إلا أن الأمر لم يتوقف هنا، فلقد كان لليهودية خصوصيتها في هذا الشأن.

لقد تميز العالم اليهودي في شتى بلاد المنفى بديالكتيك ما بين عالم الواقع والنص. فلقد كان النص، ولا سيما في القبالاة، يمر عبر الواقع العاجز عن النبوءة المخفية كلية القدرة. فلقد كان الأمر على ذاك النحو في مسألة الغوييم، والأمر نفسه حصل، إلى حد معين، بصدد المرأة.

لقد كان الواقع بالنسبة للرجل اليهودي – وكل كتبة النصوص كانوا رجالاً– واقعاً قاسياً. وأحد أبعاد هذه القسوة هو عالم الرجل، عالم الفعل والحرب، والذي به أنزل الرجال الأغيار الهزائم والآلام والتذبيح على الرجل اليهودي.

أما في النص فقد كان بإمكان الكَتَبة فعل ما يشاؤون. ولم يضطروا

في مسألة المرأة إلى الترميز خشية الرقابة كما كان الحال في مسألة الغوييم. وعليه فإن الصورة التي حملها النتاج اليهودي عن المرأة، ولا سيما في القرن التاسع عشر، كانت كلية الانسجام تقريباً، مع ما أضافه كل جيل واتجاه من ألوان عليها.

المرأة، حسب الموروث، أدنى من الرجل، ووظيفتها هي خدمته وعبادته. والمرأة خاضعة لسلطان الشيطان وقوى الظلام. فمعظم السحرة يعملون في المرأة. كما أن أغلب السحرة هم من النساء. فأغلبهن يملن نحو السحر.

والدورة الشهرية هي إحدى الأدوات في اضطهاد المرأة. فالموروث الأعرق والقبالاة يعتبران الحيض نجاسة كبيرة. نجاسة وعقاباً، كما يقول المدراش، على ثمرة الخطيئة (أغلب المصادر في القبالاة تقول أن الاترج هو تلك الثمرة المحرمة):

«عصرت عنباً وجلبت له. ولأن مظهره أحمر كالدم، سفك دمهم ودم كل العالم انسفك، ولذلك انسفك دمها الذي يسبب لها الطمث والذي هو مرض في طبيعة المرأة».

ويقولون للنساء ذاتهن في كتاب الكتب في أوروبا المخصص للنساء: «اخرجن وانظرن»:

«محظور شعر المرأة لأنه عورة. لأن حواء دفعت رجلها إلى الإثم وجب عليها تغطية شعرها. ومن هنا كان المألوف أن تسبق النساء الرجال في مرافقة الميت لأنهن هن اللواتي جلبن النجاسة والموت إلى العالم. والمرأة أُمرت أن تشعل شمعة لأنها أطفأت شمعة الرجل الأولى التي أضاءت العالم من أوله إلى آخره. لذلك فُرضت على النساء فرائض الطمث لأنها سفكت دم الرجال».

وبالفعل، فثمة في اليهودية ثلاث فرائض خاصة بالنساء، يتكرر تفسير علتها على الدوام:

- إشعال الشمعة: لأن المرأة أطفأت شمعة العالم (الرجل).

(إذ بسبب خطيئة المرأة، جاء الموت إلى العالم).

- فرائض الطمث: لأنها سفكت دم الرجل.
- فرائض الكعكة: لأنها حطمت كعكة العالم - الرجل -.

وفي الإجمال، فإن كل أعمال الإصلاح إنما هي لإصلاح الخطيئة الأولى التي لولاها لما حدثت كل الكوارث التي حصلت في التاريخ اليهودي. وفي الموروث فإن هذه الخطيئة التي تحمل جوهراً فاحشياً جنسياً إغوائياً، هي خطيئة حواء وحدها. وبالمناسبة فإن جذور التشدد في مسألة تغطية شعر المرأة تعود إلى الزوهار الذي يرى أن الأحكام تأتي إلى العالم عن طريق شعر المرأة.

ينقسم العالم، وفق المفهوم اليهودي الهرمي، إلى درجات من الدناسة والطهارة. على رأس السلم يأتي اليهودي الكاهن الطاهر، أما المرأة فهي معاقبة بنجاسة كبيرة. فمازالت دناسة الأفعى والشيطان قائمةفي جسدها.

لقد سارت هنا نظرية الباطن خطوة إضافية واعتبرت أن المرأة بشكل عام، أية امرأة، تكون واقعة تحت سلطان الشيطان في وقت حيضها. ومن هنا، على سبيل المثال، يفسر الزوهار، في فصل حياة سارة، حقيقة أن الأمر الديني يقول: «سحرها لا تتوسل»، فيتساءل لماذا لم يتم الحديث عن السحر، ويجيب: لأن أغلبية السحرة من النساء وأغلبية النساء ساحرات. أفلا تكون المرأة تحت سلطان الآخر، قوى الشيطان والظلام، في كل مرة تكون في طمثها، فتستطيع في هذا الوقت الإتيان بالسحر دون صعوبة؟ أما الرجل، من الناحية الأخرى، حتى الرجل الغوي، فإنه إن أراد أن يصل إلى تلك الدرجة التي عليها المرأة من النجاسة بشكل طبيعي، فإنه ينبغي عليه أن يواقع حماراً، لأن الحمار بهيمة دنسة تمثل الشيطان. ولا توجد طريقة أخرى يصل بها الرجل إلى امتلاك تلك النجاسة التي تمتلكها المرأة، بشكل طبيعي، شهرياً. ومفهوم طبعاً أنه لهذا السبب كان بلعام يحتفظ بأتانه معه في ذهابه، فقد كان يواقعها ليحتفظ بالنجاسة الكافية لاستمرار سحره.

ويلغة الزوهار المقدس:

«الرابي يوسي سأل الرابي إسحاق: لماذا لا توجد كل أنواع السحر والشعوذة إلا في النساء فقط؟ فأجابه أنه عندما جاءت الأفعى[1] على حواء ألقت نجاستها فيها وليس في رجلها.

سأل الرابي يوسي: لقد تعلمنا أن النجاسة فارقت إسرائيل عندما وقفوا على جبل سيناء، إلا أن النجاسة لم تنقطع عن أمم العالم لأنهم لم يتلقوا التوراة. أجابوه: حسناً قلت. ولكن تمعن. فالتوراة أعطيت للرجال فقط. فمكتوب: هذه هي التوراة التي وضعها موسى أمام أبناء إسرائيل. فالنساء مستثنيات من فرائض التوراة لأنهن يجدن صعوبة أكثر من الرجل في التحرر من النجاسة. ومن هنا فالنساء يعشن في السحر والنجاسة. فالنساء هن من جانب اليسار (جانب الشيطان الآخر) وبهن تلتصق قساوة الحكم. ولأنهن من جانب الإدانة القاسية، فكل حي يلتحق بنوعه»..

تعال وانظر إن كان الأمر كما قلت، فبلعام كان ينجس نفسه بمباشرة الاتان، حتى تبقى عليه روح النجاسة.

وبهذه الطريقة يحاول بلعام أن يصل إلى النجاسة مثل التي لدى المرأة (كما هو مشروح في الزوهار في فصل حياة سارة):

«إن ذلك الشرير بلعام، ولكي يبقي على نفسه النجاسة من أفعى علوية كان ينجس نفسه كل ليلة مع اتانه. فكان يواقعها مواقعة المرأة لكي يتنجس فتبقى روح النجاسة عليه وحينئذ يقوم بأعمال السحر. على هذه الصورة تكون المرأة في أيام طمثها. فعليه أن يتوخى الحذر منها لأنها تكون مصابة بروح الدناسة. وفي ذلك الوقت - وقت الحيض - إذا ما عملت المرأة أعمال سحر، فإنها تنجح فيها أكثر من أي وقت آخر، لأن روح النجاسة تكون حينها سائدة فيها، وكل ما تمسه يصبح نجساً. انهم الأطهار الإسرائيليون (الذكور) الذين أعطاهم الرب التوراة».

---

[1] يجب الانتباه هنا أن الأفعى يشار إليها كما يشار للمذكر في اللغة العبرية.

**وجاء في الزوهار، فصل ما بعد الموت:**

«جاءت كل أنواع الدناسة إلى العالم وهي في حوزة الأفعى العدوانية. والأنواع الكبرى من هذه النجاسة ذهبت للنساء، وتلتصق بهن في وقت حيضهن.

الويل لمن يقترب منها في ذلك الوقت، فبهذه الخطيئة تستيقظ الأفعى العدوانية وتلقي بالقذارة في مكان ما كان يجب أن تكون فيه، وحينئذ تنهض الإدانات في العالم ويصبح الكل دنساً. فالتقي يتدنس من إثم النساء، فما بالك حين تكون في تلك الحالة من قذارة الأفعى. والويل لمن يأخذ منها تلك النجاسة. لأن كل روح النجاسة التي في الأفعى تكون بها وتأتي إلى العالم فلا يكون هناك أحد قادر على الإفلات منه».

إلى أن تذهب روح النجاسة من العالم في آخر الأيام، فإن المرأة، كامرأة، كنوع، تبقى، بفعل جوهرها بالذات، حسب توراة الباطن، تحت تأثير النجاسة، فتشكل بذلك خطراً على العالم الأعلى - عالم الرجل -.

تعترف القبالاة أن للمرأة حياة، ولكنها أدنى من تلك التي عند الرجل، وليس لها مكان في جنة عدن حيث يتعلم الرجل التوراة من فم الرب. وللمرأة وظيفة في حياة الرجل لأنه لا يصل إلى تمامه إلا بعد عثوره على زوجته. والعالم كله مصطبغ ببحث الذكر عن الأنثى المتممة. وهذا البحث هو من أجل الذكر، ولابد فيه لليمين (الرجل) من إخضاع اليسار (الأنثى).

حسب القبالاة، فإن المراتب الروحية الثلاث الأولى هي، من الأدنى إلى الأعلى، وفق الترتيب التالي: قوة الحياة البهيمية، فالروح، فالنفس، والمرتبة الدنيا، وهي القوة البهيمية، موجودة في كل بهيمة، وحتى لدى الأجنبي، وموجودة في المرأة أيضاً. وعندما تتزوج المرأة فإنها تكسب روح زوجها التي تدخل إليها مع الاتصال الجنسي.

ولكن ثمة سؤال صعب يبرز فيما يخص المرأة التي تتزوج زواجاً ثانياً، فأية روح تكون بها؟

يبدو أن السؤال الذي وُجه إلى عيسى بصدد مأزق لمن تكون الزوجة،

التي تتزوج مرتين، في العالم الآخر بعد البعث، قد شغل قباليينا كثيراً. ولكن نظراً لأن اليهودية لا تهرب من هذا العالم، فإن المشكلة بالنسبة لها قائمة.

على حد قول القبالاة، فإن روح الرجل الثاني تنتصر في بعض الأحيان وتطرد الرجل الأول، ولكن يحدث في أحيان أخرى وتكون روح الرجل الثاني هي التي في ورطة. وهكذا نرى الزوهار المقدس يحذر في معرض تفسيره لأسرار التناسخ في فصل القضاء، من يتزوج من أرملة:

«كالداخل إلى سفينة في البحر في وقت عاصف بدون ملاحين، هكذا من يتزوج أرملة، فهو لا يعرف إن كان سينجو أو سيغرق في اللجة».

«فحين يأتي زوجها الثاني ويضع روحه في هذه الزوجة، تضطرب روح زوجها الأول في أحشائها وتتعارك مع الروح الأخرى لفترة طويلة. فإذا ما كان النصر لروح زوجها الثاني، تبتعد روح زوجها الأول. وأحياناً يكون النصر حليف روح زوجها الأول فيخرج الزوج الثاني من العالم. من هنا فإن الأرملة لا تكون زوجة لاثنين، لأن ملاك الموت فيها».

والخطر الأكبر من خطر الأرملة هو خطر التي تتزوج من أجنبي. أن روح إسرائيل قوية وبمستطاعها إبادة الغوييم. كما أنها تستطيع، بشبقها، أن تتزوج من عذارى الغوييم، إلا أنها لا تستطيع فعل ذلك مع من تزوجت أجنبياً، يهودية كانت أم غير يهودية. لنقرأ ما يقوله الزوهار:

«ثمة منزلتان، منزلة اليمين (الإلهية) ومنزلة اليسار (الشيطانية)، وهاتان المنزلتان تمثلان إسرائيل من جهة وبقية الشعوب من جهة أخرى. جنة عدن من جهة وجهنم من جهة أخرى. إسرائيل رحمة وبقية الأمم عقاب. والمرأة التي تذوق طعم الرحمة، تعبر عن انتصار الرحمة، أما تلك التي تذوق طعم العقاب، فتمثل انتصار العقاب. وعليه فالتي تتزوج من أجنبي ترتبط به كالكلب. وقد قيل كالكلاب الشرسة التي لا تعرف الشبع. وكما أن الكلب وقح وعدواني في روحه، فهو كذلك في تلك الحالة. فعندما يجتمع «عقاب» الغوي مع «عقاب» المرأة، فإنها تغدو عدوانية في روحها ووقحة تجاه كل أمر».

وبمقابل هذا:

«تأتي حياة إسرائيل من حياة الرب. لذلك فعندما تتزوج العذراء التي لم يمسها أجنبي ولم تنكح إليه، من إسرائيل، فإن جانب الرحمة ينتصر وتكون هي مستقيمة».

ثمة فرادة مثيرة في عالم التأويل اليهودي بما يخص مسألة جنس الملائكة. فالقبالاة تخلق أولمب من الآلهة مليء بآلاف وملايين الملائكة ذوي المزايا المتنوعة والوظائف المختلفة. وهؤلاء الملائكة العلويون يتقاتلون مع آلاف وملايين الأبالسة وقوى الشر. ومن الملفت أن الحضور النسوي في العالم الذي خلقه اليهود، وعلى خلاف أية منظومة أخرى من الأرباب التي خلقها الإنسان، يقتصر على الجانب الشرير فقط.

فمن بين قوى الشيطان تعربد ليليت، نعمة واغرت بنت محلات وبقية النسوة الشيطانيات. فالنساء هن من يغوين الرجل لقذف زرعه المقدس باطلاً، خالقاً بذلك جيشاً من الشياطين. أما في الملكوت العلوي، عالم الملائكة الأخيار، فليس ثمة حضور نسوي أياً كان.

وفق كتاب القصص، كانت ليليت هي حواء الأولى، وخلقت من التراب مع آدم («ذكراً وأنثى خلقهما» - في قصة الخلق الأولى التي تأتي في سفر التكوين قبل قصة الخلق الثانية التي خلقت فيها المرأة من العظم -). ولذلك فإنها أرادت أن تكون نداً له، فنازعها آدم وقاتلها إلى أن فرت وتحولت إلى ليليت. فقرر الرب حينها أن تكون حواء الثانية، والتي منها المرأة الحالية، أدنى من آدم، فتكون مضطرة للانصياع له، من أجل الانسجام. ولذلك خلقها من عظم الرجل لتعرف أنها مخصصة لخدمته فقط. وحتى قبل أن تغدو القبالاة مسيطرة، كانت قدرات ليليت والنساء الشيطانيات الأخرى واضحة. إذ يقول المدراش والجمارا، وفي أعقابهما آلاف المصادر الصريحة والمرموزة، أن ليليت كانت تأتي آدم ليلاً في السنوات المائة والثلاثين التي هجر فيها حواء بسبب إثمها مع الأفعى. ومن خطيئة تلك الليالي، خطيئة القذف باطلاً، ولدت ملايين الشياطين. وما كانت تفعله ليليت تفعله نعمة واغرت

بنت محلات وشيطانيات أخريات، فيجئن إلى اليهودي في الليل ومن زرعه المقدس يقمن مملكة الشر.

الجنس والمرأة مرتبطان مع بعضهما. ويبدو أن هذا الفصل يسير في الدرب الذي عبده الكثير من الكتاب المذكورين الذين يماهون ما بين المرأة والجنس. ولكن هذا هو شأن الكتابات اليهودية، فليس ثمة وسيلة يمكن بها فصل المرأة عن الجنس. فحيث إن المرأة هي رغبة جنسية، أو الرغبة الجنسية، والتي تكون شيطانية في أحيان كثيرة، فإن توحيد المرأة مع الجنس يشكل نقطة الانطلاق في الموروث وفي الشريعة وفي نظرية السر على حد السواء، والرامبام حالة نموذجية في هذا المقام. فهو، في توزيع كتابه «مشناة توراة» إلى كتب فرعية، نراه يفرد كتاباً أسماه: «كتاب النساء – فرائض النكاح».

ولقد سار فقهاء ووعاظ وقباليو وقتنا في درب الإبداع الذكوري الكلاسيكي، الديني والعلماني، والذي يزاوج بين إغواء وأخطار الجنس مع المرأة والشيطان. إلا أن استغراق اليهود في الانشغال بكتبهم عاد عليهم بفروع مبدعة.

وهذا الإبداع، وكما سنرى تالياً، يعيش في أيامنا وضعاً من الصعود والازدهار، ازدهاراً يواجه، كما يبدو لأصحابه، غوايات من النساء العلمانيات الفاسقات.

تتمحور القبالاة حول سعي الرجل بلوغ السيطرة على عالمه الداخلي، عالمه الديني، كيما يفهم، مع فهمه لعالمه الداخلي، العالم الخارجي، وليتحقق، من ثم، وبمساعدة السيطرة الداخلية، وليس السيطرة على العالم الخارجي التي يفتقرها اليهودي، تغيير جوهري في عالم الواقع عبر عملية خلاصية إصلاحية. وكجزء من هذه السيطرة الداخلية المتوخاة، جرى وضع تأكيد كبير على محاولة السيطرة على الجنس، وعلى قذف الزرع باطلاً. فبحسب الزوهار المقدس فإن خطيئة القذف باطلاً هي الخطيئة الأكثر هلاكاً. فقد قيل عنها: «أيديكم ملآى بالدماء»، فهذه الخطيئة أكثر جرماً

من مجرد القتل، لأنها تمثل قتلاً جماعياً، بل تمثل ما هو أسوأ أيضاً، فهي قتل لأبنائك بالذات. ولم تُنقَذ إسرائيل من مصر إلا بفضل الامتناع عن تلك الخطيئة. كما أن الطوفان الذي أهلك العالم إنما وقع بسبب خطيئة القذف باطلاً، والتي شاركت الحيوانات أيضاً فيها (لأن كل المخلوقات ارتكبت القتل). وحتى الرامبام، عدو القبالاة، فإنه يعتبر القذف الباطل قتلاً حقيقياً.

ثمة عدد لا يحصى من المجلدات التي تحتوي أساليب شتى لبلوغ السيطرة، من صلوات وابتهالات ونذور، وفيها جميعاً تبرز غوايات المرأة، الواقعية والمتخيلة، بوصفها الخطر الأكبر. ومن هنا فإن التمجيد كان من نصيب أئمة إسرائيل الثلاثة الذين صمدوا في الامتحان العسير، وهم يوسف الذي لم يستجب لزوجة فوطيفار بفضل تأمله في وجه والده المقدس، وبوعز الذي أمضى ليلة كاملة مع راعوث على البيدر دون أن يقترب منها، وفالطي بن ليش الذي لم ينم مع ميخال، زوجة داود، التي أعطيت له. والأصعب أكثر بعد هو الصراع مع التخيلات الجنسية على النساء والإخفاقات الليلية في قمعها، والتي تؤدي إلى الاستحلام الليلي. فلهذا السبب تراهم يتأخرون في دفن من مات في القدس، المدينة المقدسة التي يتراكض فيها الأبناء الأشقياء الشياطين، الذين جاءوا من القذف الباطل، خلف نعش أبوهم الميت وهم يتعاركون. وعلى هذه الخلفية تم تكريس أسابيع الزهد (ستة أسابيع في السنة العادية، وثمانية في الكبيسة)، يعترفون خلالها بذنب أبطال الزرع عبر التفكير في امرأة أو ذكر، باليد وباللعاب، فيكفرون خلالها عن ذنبهم ويستغفرون.

كما قلنا، فجذور القول بأن القذف الباطل هو الإثم الأكثر خطورة وبسببه حدث الطوفان، قائمة في المدراش ولدى الرامبام وعند الرابي بحيياي وفي مصادر عديدة أخرى. إلا أن القبالاة بزت الجميع في هذا المضمار بقولها أن القذف الباطل هو الخطيئة التي لا غفران لها. يقول الزوهار:

«تشمل خطيئة التوبة كل الخطايا، ما عدا إثم القاتل وقاذف زرعه باطلاً على الأرض، فقد قيل عنه أن عقابه قد أُقر».

«لا توجد خطيئة من خطاياك لا تقبل الغفران إلا هذه الخطيئة. ففي العالم الآخر سيكون عقاب من يستمني باليد أشد من أي عقاب آخر. فلماذا يعتبر هذا أشد شراً ممن يقتلون نفساً؟ لأن الأخيرين أناس آخرون بينما المستمني فأبناءه الحقيقيين يقتل، والكثير من الدماء يسفك. إن أكبر خطيئة يغرق بها الإنسان في هذا العالم وفي العالم الآخر إنما هي خطيئة ذلك الذي يقذف زرعه باطلاً ويخرج زرعه بيده أو برجله ويتدنس به».

وليس الاستمناء فقط، بل كذلك يعتبر وضع الزرع في امرأة غير مؤهلة بمنزلة قذف الزرع باطلاً، أياً كانت هذه المرأة حتى لو كانت زوجته الحامل:

«يمكنك القول أن الرجل ارتكب محظوراً إذا وضع زرعه في زوجته الحبلى أو التي لا تستطيع الحمل. لذلك يطلب الرجل من الرب أن يمنحه أداة صالحة (زوجة) حتى لا يبطل زرعه».

لقد كان موضوع البحث عن أداة مناسبة مشكلة في قصة الخلق. إذ تقول الجمارا أن آدم، قبل أن تعطى له حواء، جاء على كل الأحياء دون أن تهدأ نفسه، وحينذاك أعطيت له الأداة المناسبة والتي لا يصح استخدام غيرها.

**يقول الرامبام:**

«محظور قذف الزرع باطلاً. لذلك تُحظر على الرجل المجامعة الناقصة. أما أولئك الذين يستمنون باليد ويخرجون الزرع منهم، فهم لم يرتكبوا محرماً كبيراً فحسب بل قيل عنهم: «أيديهم ملطخة بالدماء، كأنما قتلوا نفساً»».

وكما قلنا، فإن الشياطين جاءت من الزرع المقذوف باطلاً، إذ إن كل نقطة منه تخلق ملايين الشياطين. وهذا هو التفسير الذي يقدمه كتاب القبالاة التعليمي الأساس الذي وضعه الآري، وفيه أيضاً طريقة هزيمة هذه الشياطين:

«في التوراة الكثير من الذنوب التي تخلق مفسدين، وفيها كلها نجد قذف الزرع باطلاً. فتلك النقاط تأخذها امرأة زانية وتعمل منها أجساداً. وهذه النقاط تتخذ بالسر شكل امرأة زانية، وهي شر كامل لا خير فيه».

ومن هنا، فالشياطين تُخلق أيضاً من العلاقة الجنسية التي لا تتم كما يجب حتى نهايتها. ولكن الشياطين التي تخرج من هذا الأمر تكون أقل شراً. وهذا ما يحصل مع من لا يمكث داخل زوجته المناسبة وقتاً كافياً كيلا تخرج نقاطاً من جوفها إلى الخارج. وبلغة الآري:

«وثمة إثم مشابه، فمن واقع زوجته ولا يمكث فيها لاستنفاد كل قذفه، بل ينفصل عنها بعد انقضاء شهوته، يكون قد ارتكب مخالفة مشابهة، ولكن هذه المخالفة ليست في تلك الدرجة من الخطورة، لأن تلك النقطة التي سقطت ليست كافية لتنتج نسلاً، ولكن منها يُخلق المفسد».

ثمة وسيلة نقتل بها جزءاً من الشياطين، وهي «نداءات اسمع»[1] على أن تكون مصحوبة بنية قبالية سليمة. فبهذه الطريقة قتل ميتو شالح مئات الألوف من الشياطين. ولكن من ليس بضليع في القبالاة، فتحت تصرفه الإصلاحات الجماهيرية، حيث يعترف الجمهور بشتى خطايا القذف ويستغفر ويطلب قتل الشياطين التي خرجت من زرعه. وكما قلنا سابقاً فإن هذه اللقاءات الجماعية أخذت في السنوات الأخيرة تشمل الآلاف المؤلفة.

ولكن ليس مطلوباً من الرجل أن يسيطر على خياله الجنسي فحسب، وليس على سلوك وملبس المرأة خفيفة العقل فحسب، بل على فكرها أيضاً. فملامح وجه الولد يحددها فكر المرأة أثناء المواقعة. فإن كانت تفكر، لا سمح الله، برجل آخر، فإن الولد يأتي شبيهاً له وليس لأبيه البيولوجي. ومن هنا فإنه محظور، بحسب القبالاة، إقامة علاقة جنسية في وقت مبكر من الليل، وذلك خشية أن يمر أحد في الزقاق إلى جانب النافذة، فتميل المرأة خفيفة العقل إلى التفكير فيه، فيأتي الابن كأنه ابنه. وقد استغل أحد حكماؤنا هذه الحكمة لينقذ ملكة أجنبية عن طريق شرحه للملك الذي يعمل

---

[1] هي ثلاث اصحاحات في التوراة تبدأ كل واحدة منها بعبارة: اسمع يا إسرائيل. – م –

في بلاطه أن الولد الأسود الذي ولدته زوجته لم يكن ثمرة زنى مع عبد أفريقي، بل ثمرة تفكير ليس إلا.

مثل هذا الولد يدعى في الموروث «ابن بديل» وقد كان الملك داود بن يس كهذا الولد. وعلى المنوال نفسه تسامى حاخاماتنا وأنقذوا إسحاق من أن يكون ابناً لابيمالك. فمعروف أن لدينا معضلة هنا. فقبل ولادة إسحاق بفترة وجيزة، أعطيت سارة لابيمالك. ولعلنا كلنا أبناء له. إلا أن النص يقطع في هذا الموضوع بأن الأمر ليس كذلك، في قوله الجميل: فمعروف أن إسحاق يشبه ابراهام، إلا أن هذه الواقعة لا تضمن أبوة ابراهام لإسحاق، لأنه من المحتمل أن تكون سارة نامت مع ابيمالك وفكرت في ابراهام. إلا أن النص يحسم بأن الأمر ليس على هذا النحو، فابراهام هو بنفسه أعطى سارة لأبيمالك ولذلك لم تكن سارة مضطرة على أن تخشى ابراهام. فالواضح لكاتب النص هنا أنه لم تكن لدى سارة أية أسباب للتفكير في ابراهام في وقت المواقعة مع أبيمالك إلا الخشية.

ومن أجل أن تكون كل النساء على دراية بهذا الأمر، فإن كل ما قيل أعلاه يأتي في كتاب «اخرجن وانظرن». ومن الجدير أن ندرك هنا أن هذا الكتاب المخصص للنساء، يأتي، من وجهة نظري، ضمن النصوص اليهودية العشرة الأكثر تأثيراً.

لقد استقى الموروث النظرية القائلة أن صورة الابن تتقرر وفق أفكار المرأة أو وفق ما تراه من أبينا يعقوب الذي وصل إلى ثروته، كما نذكر، بواسطة وضع العصي المرقطة أمام القطيع؛ فكان الجدي يأتي على شكل العصاة التي رأتها الأنثى. ويفسر الرابي بحيياي:

«إذا كانت البهائم عديمة العقل تملك قدرة إنجاب النسل حسب الصورة التي ترتسم في صدرها، فبالأحرى أن ينطبق هذا على البشر الذين يتمتعون بنفس عاقلة كبيرة، فيرسمون في أفكارهم وفي قلبهم ما هو سامي وما هو سفلي، فلابد من طهارة أفكارهم في ذلك الموضوع».

لقد غدت الغريزة عند القبالاة إبان المنفى أمراً رئيساً، إن لم يكن

الأمر الرئيسي، في اهتماماتها. ففي أيام التناخ والتلمود والمشناه تم عزو الشر البشري إلى شتى صنوف النقائص، منها العجرفة والجور والإجحاف في القضاء وشهوة المال والقوة. وكانت الرغبة الجنسية واحدة من بين هذه النقائص. والمكان الوحيد الذي برزت فيه الغريزة الجنسية بشكل فعلي فكان في الوصف الذي أطلق على خيانة الشعب لربه والذي يستغرق عدة فصول، حيث جرى وصف عبادة الآلهة الأخرى كبغاء وكانجذاب إلى الفوييم، الذين هم، بحسب يحزقيل، لحمهم لحم حمير ونطفتهم نطفة حصان.

كانت سيطرة اليهود على حياتهم تتقلص كلما كانت مشاق المنفى تزداد. ولما كان القضاء والجيش والمناصب الرسمية مغلقة أمامهم، كما كانت كذلك رغباتهم، ولما لم يكن ممكناً المس بالمال أو بالرغبة به باعتباره، عندما يتوفر، يكون الحامي الوحيد لليهود، ولما كان من غير الجائز المس بشهوة الأكل، وهو القليل أصلاً عند ناس مُنعوا عن الأرض، فلم يبق، والحال هذه، إلا شهوة الجنس لاعتبارها الشر الذي تجب محاربته.

لقد كافحت كل التقاليد الدينية من أجل السيطرة على الجنس. إلا أن يهودية المنفى، والقبالاة على نحو خاص، فاقت الجميع في هذا الأمر. فهنا تم عزو كل الشر الذي حل باليهود خلال الألف الأخيرة، إلى ذنوبهم، والأساسي من بينها حسب القبالاة، هو ذنب الجنس والقذف باطلاً. فهذا الأمر الأخير بالذات هو الذي خلق جيش الشياطين وملائكة الخراب. فكل عالم القشور، المفصل بأدق دقائقه، والواسع بشياطينه ومفسديه، إنما يستمد قوته من الزرع المقدس الذي قذف باطلاً. والشيء نفسه بالنسبة إلى الزرع الذي لا يبقى في المرأة جراء جماع لم يتم كما ينبغي. ونفس الشيء بالنسبة إلى الاستحلام الليلي. وبالتأكيد فإن الأمر نفسه يقال عن الأمر حينما يتم قصداً فتصبح الأيدي ملطخة بالدماء. وما حرب الإصلاح الكبرى إلا لاستعادة الأبناء الأشقياء، انفس إسرائيل الصالحة التي أُسرت زرعاً لدى القشور وتنتج كل قوى الشيطان، وكذلك للحيلولة دون خلق المزيد من قوى الشيطان تلك. وإن كنا نرتكب خطيئة القذف باطلاً، فإن كل

الفرائض الأخرى لن يكون من شأنها إلا إضافة القوة إلى الجانب الآخر. وعليه، فإن هذا هو الموضوع الرئيسي الذي يدور كل الصراع حوله. والأمر نفسه حول موضوع المشاهدة (حتى لا تسيروا وراء أعينكم). فالمشاهدة، كما هي في النصرانية أيضاً، تعتبر أخطر من الفعل. فالمشاهدة خطيئة لا تجدي التوبة معها، باعتبار أنها هي التي تعكس الأفكار وتؤدي بالتالي إلى سفك الزرع.

على هذا الأساس كان الآري المقدس يبصق كلما وقع بصره على امرأة رخيصة. والبصاق كلما رأينا امرأة غير عفيفة يتمتع بمزية كبرى، لأن كلمة «بصق» تعني غريزة، حسب حساب حروف الهجاء بعد أن نحذف الياء المقدس منها[1]؟

من المفهوم عند الموروث أن توخي الحذر ليس مطلوباً من الرجل فقط. فعلى المرأة أيضاً أن تحذر لئلا تُغوى. وعليه فقد أفتى الرامبام بعدم خروج المرأة من بيتها إلا مرة أو اثنتين على أكثر تقدير وأن تكون مغطاة كما ينبغي طبعاً. ولا يجوز لها ولا بأية حال ارتداء ملابس ملونة، ولابد من التزام الدقة في هذا المجال، إذ بسبب مزق صغير منخفض في منطقة الساق يقضي آلاف الرجال الذين يشاهدون فيُفتنون لارتكاب الخطيئة. لذلك ينبغي على المرأة البقاء في بيتها، وليس في بيتها فحسب، بل في أعماق بيتها. وبهذه الطريقة فقط يكون لها أبناء، وأبناء بررة، لأن:

«المرأة أيضاً من الجنس الآدمي
ولها غاية، وهي البقاء في البيت».

ثمة تقييدات عديدة مفروضة على المرأة من جهة سلوكها ولباسها وفكرها وما تراه أيضاً. إذ قد يتفق للمرأة الخارجة من حمام طهرها بعد نجاستها أن ترى بهيمة دنسة أو أجنبياً شريراً، مما يستوجب عليها إعادة

---

[1] هنا استخدام وتلاعب بحقيقة أن لكل حرف من أحرف الهجاء العبرية رقماً. فمجموع كلمة «يَراك» والتي تعني بصق، بعد أن نسقط منها الحرف الأول «الياء» هو 300، وهو مجموع أحرف كلمة «يِتِسر» التي تعني غريزة. – م –.

تطهير نفسها، لأن ما شاهدته يلتصق بها، والنساء التقيات يتطهرن 17 مرة في اليوم عندما يصادفن في الزقاق حماراً آثماً.

إلا أن التفسير التأويلي منح المرأة امتيازاً واحداً مهماً، وهو الوارد في الآية في سفر اللاويين التي تقول: «وصول المرأة للنشوة أولاً يعني بنيناً»، وقد فُهمت هذه الآية من قبل المفسرين والقباليين ومدرسة تفسيرية واسعة بأنها تعني أن النتيجة ستكون ولد ذكراً إن تريث الرجل وانتهت المرأة قبله. ومن هنا نرى كتاب «سيفر هحسيديم» يطرح مسألة ذاك السائل الذي يجد راحته وقت الجماع بالوضعية التي يكون هو فيها في الأسفل، حيث من المعروف (للسائل والمجيب) أن المرأة لا تستطيع الانتهاء أولاً إلا عندما تكون هي في الأسفل، فكيف، والحال هذه، سيأتيه أولاد ذكور؟ أما إجابة الحاخام فهي إلزام السائل بجنس وظيفي (لمتعة المرأة) لمرة واحدة في الشهر حين طهورها من طمثها. حيث إنها تكون في هذا الوقت مهيئة للحمل بذكر حسب المأمول. وما عدا ذلك، فمسموح له، في الجنس من أجل المتعة، أن يهتم بمتعته فقط وأن يغير الوضع.

وحتى في هذه المتعة الأساسية في حياة الإنسان يقع العبء على عاتق المرأة لأنها ملزمة أن تعد نفسها لبعلها وأن تفكر بصورته دوماً وعلى نحو جيد، وأن تتفكر كم هو جميل وكم هو ذكي وذلك لكي تستمتع وتصل إلى نشوتها بسرعة وقت الجماع. وإلا فمن أين سيحصلون على ذكر؟

بشكل عام، سواء كان الجنس بقصد المتعة أو بسبب آخر، فقد قيده وعاظ القبالاة بمرتين في الشهر وفي ليلة السبت فقط. لأنه فقط في ليلة السبت وبعد منتصف الليل ومع صلاة إصلاحية قبالية مناسبة، يأتي أولاد خيرون صالحون. وما عدا ذلك، أي إن وقعت المجامعة في يوم عادي، فستكون النتيجة أبناء عقوقين عصاة أشرار تسيطر عليهم الشهوة الحيوانية وليس شهوة الروح اليهودية. ويبدو، استناداً إلى ما تراه العين وما يقوله العقل، أنه ليس هناك الكثير من الإسرائيليين ممن يلتزمون بهذا القانون الذي سنه الآري وتابعوه مواصلين التقليد الذي أرساه الرامبام وآخرون غيره

في مسألة تلميذ الحاخام وما يليق به من جماع يقتصر على مرتين في الشهر وبعد منتصف الليل من يوم الجمعة.

ومع ذلك، فالمرأة، حسب الشريعة، متاحة لزوجها في أيما وقت لا تكون فيه نجسة. سواء كان ذلك، كما هو وارد عند الرامبام، بشكل طبيعي أو غير ذلك. إذ للمرأة مضجعين كما تقول الجمارا. فالقاعدة هي أن الرجل يستطيع فعل ما يشاء في زوجته طالما أنها ليست في طمث. وحسب تعبير التلمود: «إن أراد أن يأكل طبيخاً فطبيخاً يأكل، وإن أراد اللحم المشوي فاللحم المشوي يأكل»، علماً أن المواقعة المنافية للطبيعة لا تؤدي للحمل من الرجل، لأن المرأة لا تتمتع به، حسب النص. وعليه فالأفضل لمن يغتصب شابة غير متزوجة أن يفعل هذا بشكل مناف للطبيعة لأن غرامته في هذه الحال تكون أقل لأنه لم يؤذ عذريتها.

إن المرأة، كقاعدة، وبناء على الرامبام، قابلة للنكاح من سن الثالثة. مع أنها غير قادرة على الحمل إلا بعد الثانية عشرة. ومن هنا، كما يقول الرابي بحيياي، ضبط يعقوب نفسه ولم يرغب في الزواج من راحيل إلا بعد سبع سنوات، لأن هذه الحسناء كانت ابنة خمس سنوات فلم يرغب في تبديد زرعه المقدس الذي وُعد أن شعباً سيكون منه. وبفضل فقه السن هذا، فإن الأب يستطيع تزويج ابنته أو بيعها قبل أن تبلغ سن الرشد. ويقول الرابلاج عن سبب بيع الابنة:

«أجازت التوراة للإنسان بيع ابنته ولم تسمح له بذلك فيما يخص ابنه. لأن المرأة إنما خلقت لخدمة الرجل. فالرجل إذاً مخول ببيع ابنته وليس ابنه لأنها خلقت لكي تخدم».

إذاً، لم يبق التمييز الهرمي بين الرجال والنساء، مع أنه مثمر وخلاق جداً في القبالاة، في إطار الجانب المخبوء، بل إن الجانب العلني ممتلئ به إلى حد بعيد. والأمر نفسه بالنسبة إلى الفكر والتفسير، وليس فيهما فقط.

إن عالم الشريعة الحسي، كما قلنا، يزخر بالتمييز ضد المرأة. فعلاوة على مسألة الدناسة والانصياع لزوجها، فجوهر الأمر يكمن في أن اليهودية

تتركز في الوصايا وفي دراسة التوراة، وهما الأمران اللذان ليس للمرأة نصيب فيهما. فالرامبام يقرر أن «من يعلم المرأة التوراة كأنما يعلمها التفاهة» لأن عقلهن لا يناسب التوراة، فيخلطن الأمور ويخرجنها من سياقها فيلحقن الضرر بروح الحقيقة. وهذا التقليد في الشريعة فيما يخص عقلهن الصغير وشعرهن الطويل متجذر وقوي لدرجة أصبح معها من البديهي أن يبقى التعليم المقدس للتوراة، وهو أعلى مرتبة روحانية، حكراً على الرجل فقط. صحيح أنها تتميز عن الغوي الذي يحق الموت عليه إنْ درس التوراة باستثناء الفرائض السبعة الخاصة به، بينما هي تستطيع البقاء على قيد الحياة إن درست التوراة. ولكن ليس من المحبذ تدريسها التوراة وبالطبع ليس تلك الوصايا الإضافية. إذ أنها، رغم أنها تتمتع بطاقة حيوية أعلى من طاقة الغوي الحيوية التي لا تتناسب إلا مع الوصايا السبع فقط، إلا أنها - المرأة - تبقى بعيدة جداً عن امتياز الوصايا الستمائة والثلاث عشرة الخاصة بالرجل اليهودي. تتوفر عند يهودية عصرنا إجابة استعمالية تقدمها لاستهلاك العالم الحديث الذي تثور فيه باستمرار مسألة المرأة وهذه الإجابة هي: «هناك مساواة غير عامة، فثمة تقسيم للعمل. وعمل المرأة في البيت». ولكن، وكما هو جلي، فتقسيم العمل هنا هرمي، فللحمار وظيفة في عالم الخليقة ولكنها لا تصل بسموها إلى مرتبة التلميذ الحاخام، والأمر نفسه يقال فيما يخص دور المرأة.

يمكننا القول جازمين أن الرؤيا اليهودية تحدد أن النباتات موجودة من أجل الحيوانات والحيوانات موجودة من أجل الإنسان، والغوييم موجودون من أجل إسرائيل، والمرأة الإسرائيلية موجودة من أجل الرجل الإسرائيلي، والرجال الشغيلة من أجل دارسي التوراة، وهؤلاء الأخيرون، وهم تاج الخليقة، موجودون من أجل القدوس صاحب الجلالة. وحسب نص التلمود والرابي بحيياي:

«لا يجدر بالمرأة أن تكون ضليعة إلا في الحياكة والبراعة في احتياجات منزلها واحترامها زوجها. وعليه فقد منع السلف الصالح عن

المرأة تعلم التوراة، لأنه قيل: (تُعلِّم أبناءك وليس بناتك). وقالوا كل من يعلم ابنته التوراة فإنما التفاهات علمها. وهكذا علمونا أن المرأة العاقلة هي التي تغزل بيديها. فلا علم للمرأة إلا في الغزل».

والأمر ذاته فيما يتعلق بمراتب اليهود. فيعقوب هو المادة الدنيا - قبل التجلي الإلهي له - وبعد التجلي أصبح إسرائيل. وإسرائيل هو الروح، السمو.

**يقول الرابي بحيياي، حسب ما جاء في التلمود:**

«إسرائيل هو الجوهر، ويعقوب هو العرض. لذلك فإن النص قال: «هكذا تقول لبيت يعقوب، وتقول لبني إسرائيل» وهكذا فإنه نسب المرأة، التي هي في خدمة الرجل، إلى يعقوب، بينما نسب الذكور، وهم الجوهر، إلى إسرائيل».

وبالفعل فإنهم يطلقون على المدارس الحريدية للبنات اسم «بنات يعقوب» أي المرتبة الدنيا.

وهكذا فإن الآية التي تأتي لصالح المرأة: «كرمة مثمرة في أعماق البيت» فلها تفسير مختلف بعض الشيء، فالمرأة هي كرمة مثمرة في أعماق البيت، في الركن القصي فيه، وعلى الرجل أن يبتعد عنها كما يبتعد عن النار. وأبناؤها فقط، كفسائل الزيتون، يخرجون للخارج. بينما محظور عليها هي الخروج إلا مرة أو اثنتين في الشهر حسب ما جاء عند الرامبام:

«مذموم خروج المرأة للخارج».

وعلى الزوج أن يمنع زوجته وألا يسمح لها بالخروج باستثناء مرة في الشهر أو مرتين وحسب الحاجة. فلا يجمل بالمرأة إلا الجلوس في ركن بيتها».

ثمة قصة في التلمود تُروى عن تلك التي فازت بأبناء جيدين تقول أنه حتى جدران بيتها لم تر شعرها.

وحينما يشرحون في أيامنا أن هناك أجراً للمرأة التي تفسح في المجال لزوجها لكي يتعلم «التوراة»، فإنهم، ولكي يسعدوا المرأة، يشرحون

ذلك المقطع من أغنية البحر[1]، والتي غنتها النساء بالذات: «لقد قذف بالحصان وراكبه». والمقصود أن الحصان الذي امتطوه يُعاقب فارسه المصري. والشيء ذاته يحدث في حالة الفرس. فالمرأة تفوز أيضاً وليس الزوج الراكب فقط.

## ب- الثورة الجنسية - الرقص الجديد :

ثمة سببان وراء إيرادنا مسألة المرأة والجنس في هذا الكتاب. السبب الأول والبديهي هو محاولتنا مقاربة، وإن بالإيجاز المطلوب، أسس العقيدة والحياة اليهودية الواقعية كما هي فعلياً في الحياة اليهودية وكما تنبض بها قلوب الملتزمين بها. فبدون الفهم والإصغاء إلى الديانة الفعلية، سنكون كالعميان أمام متغيرات التاريخ، إذ يحتمل أن نختار الا نرى إلا فقط ما نريد رؤيته وإبرازه من الماضي. فبهذا الأسلوب، كما هو مفهوم، يكبر خطر نهوض نفس تلك الشياطين من الأرض. والسبب الآخر وراء إيراد هذه المسألة في هذا الكتاب هي أن وضع المرأة والجنس، علاوة على كونهما مسألة مركزية، وأحياناً المسألة المركزية، فهما نموذج ومثال على، بل حتى عنصر، في الثورة في الفكر وفي الواقع التي شهدتها اليهودية خلال المائتي عام الأخيرة.

كما هو مفهوم، فإن الحركة التنويرية في القرن التاسع عشر، ليس فقط لم تقفز فوق مسألة المرأة، بل إنها أيضاً، مدفوعة في إخفاء أسرار القبالاة وموقفها من النساء بشكل عام وبخاصة حول جانبهن الشيطاني الساحراتي، اختارت الفلسفة اليهودية دون القبالاة باعتبارها الجزء الذي يجدر الاستبقاء عليه من اليهودية وتطويره. أضف إلى ذلك فإن حقيقة أن اليهودية بمعظمها، بدءاً من القرن التاسع عشر وحتى الكارثة، كانت تشهد عملية تغيُّر حقيقي، سواء كان هذا التغيُّر، كما عند البعض، من أجل أن تغدو اليهودية مقبولة في المحيط العام، أو، كما عند آخرين، عن طريق

---

[1] أغنية البحر: هي الأنشودة التي رفعها اليهود تمجيداً للرب على إغراقه مركبات المصريين وهم يطاردونهم، حسب ما يقول التقليد اليهودي -م-.

الهجرة بحثاً عن وطن جديد، أو عن طريق خلق يهودية حديثة فصهيونية فاشتراكية، كل هذا جعل الأضواء تتسلط نحو الواقع. وفي الواقع انجذب أدباء ومفكرو اليهودية الحديثة إلى البحث عن مساواة وإن كانت نسبية. وفي واقع الحياة اليهودية، فقد كان وضع المرأة وقوتها، من وجهة نظر الرجل، وقياساً إلى الثقافات غير اليهودية التي عاشوا في وسطها، قوياً، على خلاف ما هو عليه وضعها في النصوص الدينية.

لقد تميّز العالم اليهودي، من وجهة النظر الذكورية الباحثة عن عالم جديد وقوي، بضعف في الرجولة. إذ إن الرجل اليهودي كان في العالم الواقعي، في مملكة الرجل التقليدية التي انتزعها بالقوة، في الشارع وفي مراكز القوى والاقتصاد والجيش مهيض الجناح بعد أن حرمه الرجل الغوي من الحق في الأرض والسيف، وهما السمتان المميزتان لمفهوم الرجولة في كل الثقافات.

علاوة على ذلك، فقد كان من شأن تمركز الحياة اليهودية على البيت أن عزز من دور المرأة لدى اليهود، بما أنها المسؤولة التقليدية عن البيت وعن الأولاد، هؤلاء الذين كانوا بمنزلة وعد المستقبل بالنسبة لليهود في المنافي والمهاجر، «كلما اضطهدوه تعاظم وانفجر». وهكذا، ولا سيما في القرن التاسع عشر الذي تضاعف فيه حجم اليهود ثلاث مرات، أخذت المرأة دورها ليس فقط في تربية الأولاد وإدارة البيت بل أيضاً في المساهمة في إعالة البيت مقابل زوجها الفاشل في العالم العملي. كل هذه العوامل مجتمعة سوية مع الرغبة في رؤية عالم آخر جديد، خلقت لدى اليهود أسطورة المرأة متعددة الأنشطة. وقد كان لهذا أثره في خلق ذلك المفهوم عن المنزلة المحترمة للمرأة. وقد تعدى هذا الأثر الواقع العلماني إلى الواقع الديني. غير أن هذا المفهوم لم يجر تأصيله بنصوص واضحة وملزمة، فانهار لاحقاً أمام التغييرات الأخرى.

وكما شاهدنا في مكان آخر، فقد كانت الصهيونية الدينية تتميز في بداياتها بانفتاح نسبي فيما يتعلق بمركز المرأة ولم يكن فيها إلا القليل من

القمع للجنس. كما كانت، ولا سيما في الخمسينيات والستينيات وفي السبعينيات إلى درجة معينة، تشجع الاختلاط بين الأبناء والبنات كما وفرت لهم تربية متشابهة ومشتركة، كما كانت تجيز الرقص المختلط والسباحة المختلطة. ولم تكن تتشدد على العفة إلا من حيث المبدأ فقط. كما لم تفرض على نسائها لا اللمة ولا المنديل. كما أنها تعتقد بالتربية الجنسية. وأهم من كل شيء فقد أعطت النساء الحق في لعب دور والحق في تسلم وظائف والحصول على دراسة عليا وعلى مهنة. صحيح أن هذا لم يكن بالمستوى نفسه المتاح للرجل، ولكنه كان على مستوى قريب إلى حد معين مما هو مقبول من اللامساواة في المجتمع العلماني المحيط. ولكن، وكما أوضحنا، لم يكن هذا الحيز قد تَرسَّم بمقولات دينية ملزمة قادرة على الصراع المكشوف ضد تلك الأجزاء في التقليد التي تعارض التطور، بل كان مجرد أمر تلقائي ربيعي جيد وعابر سرعان ما انهار أمام الجوقة المسيحيانية القبالية التي نهضت في البلاد والتي على ضوئها بدت كل المفاهيم العقلانية التي كانت سائدة عند اليهودية الأوروبية غريبة وزنديقة. وخلال وقت قصير تحوّل المجتمع الصهيوني الديني في البلاد، تحت الراية القبالية المسيحانية، إلى مجتمع يفصل بين الجنسين بتشدد ويقمع النشاط الجنسي ويعيد المرأة إلى أصولها الليليتية.

إن الانقلاب القبالي المسيحاني الذي وقع لدى الاتجاهات الدينية الثلاث في البلاد: الحريدي الاشكناري والصهيوني الديني والسفاردي، استطاع أن يحقن هذه الاتجاهات بحماسة جنسية لقمع الغريزة وإعلان الحرب ضد المرأة المثيرة لها، بأساليب ثلاثة:

أولاً: بأسلوب اعتبار «الآخر» هو اليهودي العلماني الذي يكمن إثمه الأكبر والأصرح من كل الآثام في وضع المرأة وتحللها الجنسي.

ثانياً: بقمع الجنس وقمع مساواة المرأة في كل اتجاه.

ثالثاً: قدرة هذا الانقلاب المسيحاني على امتصاص قوة الحياة وما تشمله من جنس وأحلام جنسية نسائية وتوجيهها نحو الاستيطان المسيحاني

في الواقع. ولكل أسلوب من هذه الأساليب هناك وفرة من المادة التي تدعمه في الأصول، وفي القبالاة خصوصاً.

لقد كان من الضروري لبناء الحضارة المسيحانية القبالية التي جرفت كل التيارات اليهودية في أرض إسرائيل أن يكون هناك «آخر» للصراع ضده. وقد كان هذا الآخر هو اليهودي العلماني اليساري المثقف الليبرالي الغربي، الذي تجسد بشخص رجل يضع نظارات أو ربما بما هو أفضل من ذلك بامرأة والتي كانت شولاميت الوني هي الشخصية المجسدة لها.

وقد كان من سمات رفض الحداثة لدى التيارات اليهودية التي حولت معتقداتها أنها وسمت «الآخر» بسمة التحلل الجنسي. فأخذت صورة العلماني تظهر بازدياد، عند الحريديين خصوصاً، وإن لم يكن عندهم فقط، بصورة الزانية الفاسقة التي تقع على خطاياها كل الأوزار. وما له دلالة في هذا الشأن أن ربابنة حريديين مركزيين اعتبروا أن صواريخ حرب الخليج إنما نجمت عن الميني (اللباس القصير) في الشارع.

لقد نهض لدينا الكثيرون من مواصلي درب الموروث القديم الذي ضم الكثير من الأنبياء وعلى رأسهم يحزقال. وحزقيال هذا شعر أنه مبغوض في تل أبيب التوراتية الجاثمة على نهر خابور المروع من وجهة نظره. فاختار هذا النبي شتم إسرائيل الخاطئة بوابل من الألفاظ الجنسية حول العاهرات اللواتي يفتحن سيقانهن للغوييم الذين زرعهم زرع حصان ولحمهم (أي عضوهم حسب الموروث) لحم حمير. ومن هذه الشاكلة نفسها كانت المواعظ التي كان الربابنة يلقونها في المدارس، ومن هذه الشاكلة نفسها كانت كل الأشرطة التي وزعت على العامة في الشوارع، فقد كانت تحفل بالألفاظ بقصد استثارة الغريزة وتوجيهها ضد اليسار العلماني وزانياته، أي كل النساء غير المحتشمات.

وقد وصل طرف من هذا إلى كل أجهزة التلفاز في انتخابات عام 1996 حينما بثت الأحزاب الدينية المواد التحريضية ضد الشباب العلماني الزاني وعاهراته. وقد صاغ الرابي عزران هذا الموقف بلغة مؤدبة: «كل شيء

بسبب الدائرة المستديرة الحديثة التي تعطي النساء المساواة. وهذا على عكس البيت اليهودي التقليدي الرائع الذي يمنح الرجل الجلوس على رأس المائدة فتسود الهرمونيا الروحية تحت قيادته».

من خلال كراهية «الآخر» الداعر، وأيضاً كسبب لهذا الكره، أخذت الميول الداخلية لقمع الجنس والعزل بين الجنسين والحفاظ على العفة وإعادة المرأة إلى مملكة بيتها في التعاظم. وقد تزامن هذا مع منح النصوص القديمة، ما جاء منها في هذا الفصل وما لم يجئ، قوة وفعالية جديدتين. وازداد التشدد في مسألة العفة لدرجة أنه حُظر على حسيدي غور الذهاب كثيراً للحمام حتى لا يشاهدون عضوهم فتمتلئ رؤوسهم «بالأفكار». وقد سارت هذه العملية باضطراد، فكلما كانت ثقة الربابنة بأنفسهم تزداد، كان التشدد يزداد ويزداد معه ما يعتبر فسوقاً.

أما عند الحريديين فقد انتهى ذلك الجدل الذي كان قائماً ما بين ضعف الرجل اليهودي في الواقع وبين قوته في النص. فالرجل الحريدي الآن، في دولة إسرائيل، أصبح يمتلك قوة ولم يعد له ما يخشاه من الغوييم في الشارع، كما أن الجهاز المالي العلماني المتمثل في الدولة هو الذي يمد الطائفة بالمال عبر الربابنة، مما جعلهم المعيلين لجمهورهم وبالتالي قيادييهم. والأمر نفسه حدث للرجل الحريدي في البيت، فقد أصبح هذا الرجل العاطل عن العمل، بفضل المخصصات التي تصله من الدولة، المعيل الأوحد للعائلة. وهكذا وبضربة واحدة توحدت قوة الزاهد مع قوة التاجر.

# الفصل الحادي عشر

## حركة شاس : الملاك الذي تمرد

كانت الصيرورات التاريخية التي اجتازها الجمهور اليهودي الشرقي الذي جاء إلى إسرائيل تختلف عن تلك التي مرت على الجمهور الاشكنازي في القرنين التاسع عشر والعشرين في أوروبا. وكذلك كانت وقائع مسيرته في الأرض المقدسة، منذ بداياتها وحتى تشكيل حركة الانبعاث الديني، شاس، التي قامت من أجله في نهاية القرن، تختلف عن تلك الخاصة باليهودية الاشكنازية. وعلى رغم فوارق عديدة سيشار لها هنا، وعلى رغم تمرد شاس وربابنتها على المرجعية الاشكنازية، وعلى رغم بناء حضارة معتدلة نسبياً بالمعنى السياسي، على رغم كل ذلك انجرفت يهودية الشرق المتدينة في الموجة المسيحانية القبالية.

نشير بداية إلى أن مصطلح «يهود الشرق» مريك. فأغلب اليهودية الاشكنازية لم تكن في ألمانيا، إنما في شرق أوروبا، أي في المنطقة التي تعتبر أكثر شرقية من المغرب. وإذا أخذنا المصطلح البديل «يهود إسبانيا» فإننا نجده أقل دقة هو الآخر، لأن جزءاً كبيراً من يهود الشرق ليس من سلالة أولئك الذين هاجروا من اسبانيا. إلا أن الانقسام بين الاشكناز وبين السفارديم، للأسف، باد جداً للعيان في أرض الانقسامات، أرض إسرائيل، ونجده –الانقسام– ماثلاً حتى في صيغة الصلاة كما في الجهاز الرباني المؤسساتي، وماثلاً، على نحو خاص، في الهوية، وفي الانتماء الطبقي والثقافي والسياسي.

فالمقصود بـ«يهود الشرق» عموماً، هم أولئك الذين قطنوا بلدان الشرق الأوسط. وقد عاشت أغلبيتهم في بيئة إسلامية وشغلت المراكز اليهودية العتيقة في مصر وبابل وفي أرض إسرائيل طبعاً.

على الرغم من وجود فوارق ملحوظة ما بين الشرقيين، سواء في التقليد أو في بنية الطائفة، إلا أنه بالإمكان تمييز خطوطاً متشابهة في التطور عند كل يهود الشرق، سواء من كان منهم في الشتات أو في البلاد. ومع ذلك، يمكننا الإشارة إلى ثلاثة مراكز مختلفة ليهود الشرق، وهي: يهود اليمن، والذين أشد ما يميزهم عن باقي الطوائف الشرقية طريقة صلاتهم ونفوذ القبالاة عندهم والتي غطت خلال مئات السنين على العالم التلمودي.

ويهود العراق الذين حافظوا في موقعهم البابلي على الشعور بالقوة التاريخية. ثم أغلبية اليهود الذين استوطنوا شمال إفريقيا وكان المغرب مركزهم. والسمة الأساسية التي ميزت يهود الشرق عموماً عن يهود أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، إنهم ظلوا بعيدين عن تأثير الحركتين التاريخيتين التكوينيتين، أي هما الحداثة والتنوير، والكارثة بعدهما، فبقي تأثير هاتين الحركتين هامشياً على يهود الشرق بخلاف ما كان عليه الوضع لدى يهود أوروبا. فحركة التنوير الأوروبية لم تؤثر إلا على تلك الشريحة الضيقة نسبياً من يهود الشرق، والتي كانت على تماس مع الحكم الكولونيالي. ففي اليمن على سبيل المثال، لم يكن لهذا الحكم من وجود.

ونتيجة لهذا الواقع لم تنمو لدى السفارديم حركة تنوير جماهيرية عريضة تسعى لإضفاء الطابع الحداثي على اليهودية، ولم تظهر بالتالي، حركة انعزالية كرد فعل على الحداثة. وهكذا لم تقم لدى يهود الشرق حركات حسيدية ولا مدارس دينية كما هو الشأن في ليتوانيا، وكذلك لم يشهدوا حركات اشتراكية واسعة ولا حركات صهيونية جماهيرية، كما لم تحدث عندهم انفجارات سكانية حديثة وما ينجم عنها من هجرة. وقد غاب عن يهود الشرق، وإن وجد فبشكل ضئيل، كل ذاك الزمن التاريخي الضاغط

والدافع للتغيير والمندفع إلى الأمام، إلى المستقبل «الصحيح»، من اشتراكي، وتعليمي، وحسيدي، وصهيوني، وأميركاني أو بوندي، والذي ميّز يهودية أوروبا التي اندلقت إلى الخارج عندما تبينت أن الثورة الحديثة أدت إلى رفع الغطاء عن زجاجة الغيتو. فالوقت، كما تقول الأسطورة الشرقية، وجد له مركبات خاصة يتهادى فيها على رسله.

وحتى رد الفعل الأوروبي على الحداثة، الفاشية والنازية، وهما الحركتان اللتان اعتبرتا اليهودي، واليهودي العلماني على نحو خاص، المسؤول عن التبدلات التي لوثت طهر التقاليد، حتى رد الفعل هذا لم يفلح في افتراس يهود الشرق. فالاحتلال النازي لم يدم إلا وقتاً يسيراً وعلى جزء فقط من بلاد الشرق، مما أبقى يهودية الشرق على حالها رغم حدوث بدايات لإقامة المعسكرات والاعتداء على اليهود. ومن هنا كانت يهودية الشرق ما تزال، بعد الكارثة وعشية قيام الدولة، تحافظ على مبناها التقليدي. وكانت ثمة نخبتان تقفان على رأسها، الأولى هي النخبة الربانية المثقفة، والتي تمحورت، على خلاف الاشكناز، على التعلم والتعليم العملي، أي الشريعة التي تتناسب مع واقع الجمهور، مع انشغال واسع في توراة الباطن، لأن يهودية الشرق كانت تضم الكثير من القباليين العمليين والصديقين أصحاب الكرامات، بينما لم تبد، من الجهة الأخرى، إلا الاهتمام القليل نسبياً بالجدال التلمودي المدارشي.

والنخبة الأخرى كانت نخبة اقتصادية مثقفة لها علاقات متشعبة مع النظام الكولونيالي وشاطرته أيضاً في ثقافته، ولا سيما الفرنسية في حالة الأغلبية الشمال افريقية. وأسفل هاتين تقع الشريحة الواسعة من معظم يهود الشرق، وهي الشريحة التي أطلق عليها في هذا الكتاب اسم «طبقة وسطى ثقافية»، أي تلك الشريحة الواسعة من السكان ذات الهوية والثقافة المتبلورين. وقد كانت هذه الثقافة، في حالتنا، ثقافة بطريركية بأثر إسلامي والقليل من الروح الغربية الفرنسية. وقد أرست هذه اليهودية، في معظمها، حياة تقليدية تخلو من التقوى المتطرفة ولكنها في ذات الوقت لا تخلو من

الشرائع، مع بنية عائلية واسعة بسيطرة ذكورية. وقد كانت هذه يهودية تمزج الشريعة مع الكثير من العقائد العملية النابعة من نظرية الباطن من حجب وعبادة أولياء ومحاولات عديدة لتحسين الحظ، كل ذلك في ظل غياب كبير اهتمام بالمناظرات اللاهوتية، والتركيز بدلاً من ذلك على تعليم الكتب المقدسة وقراءة عارفيها في حلقات تقتصر على الرجال في الكنيس بعد العمل اليومي وفي أيام السبت.

ثم تأتي الطبقات الشعبية -والتي بقيت أقلية رغم اتساعها- والتي كانت تعيش في العوز باعتبارها من سكان الضواحي الريفية، وتهيمن عليها العقائد الشعبية التي بقيت في أغلبيتها في إطار الوصايا وفي إطار الحظ والأسلوب القبالي للسيطرة عليه.

الأغلبية الساحقة من القبالاة ولدت في بلدان الشرق. ولكن ليس القبالاة فقط. فقد كان الشرق، على امتداد التاريخ اليهودي حتى العصر الحديث، هو مركز الإبداع الديني اليهودي، إذا استثنينا القرنين العاشر والحادي عشر. ويصح هذا أكثر ما يصح على الفترة من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر، فقد أخرجت اليهودية الشرقية في هذه الفترة الرامبام والرامبان ويهودا هليفي وتقريباً كل مبدعي القبالاة وكل كبار اليهودية. وعندما يتحدثون في شاس عن إعادة الأمور إلى نصابها فإنما هذا الأمر بالذات يقصدون، ولو أنه من السهل اتهام الصهيونية فقط، من وجهة نظرهم، بما حل بمركزهم من تراجع. والواقع أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا تراجعاً في الوزن الديني ليهودية الشرق في مقابل الارتفاع الديمغرافي السريع لليهود الاشكناز، وقد كان ذاك التراجع متوازياً مع ضعف العالم الإسلامي إزاء الغرب، ومع بناء المدارس الدينية والتلمودية عند الاشكناز، وهو الأمر الذي كان غائباً في الشرق. فقبل الكارثة تراجع وزن يهود الشرق إلى أقل بقليل من 10٪ من يهود العالم. وتراجع متناسب حدث لوزن كبار رجالاتها الدينيين، باستثناء عالم القبالاة، حيث بقيت قوة الشرق في هذا الحقل كبيرة جداً.

لقد أحدثت الكارثة، وثم قيام الدولة بعدها، ثورة في عالم يهود الشرق.

فأولاً، بدا للكثيرين من اليهودية التقاليدية، غير المعنية فيما إذا كانت الصهيونية العملية قد تمردت على مشيئة الرب أم لا، إن شمس المسيح قد أشرقت في الشرق، وبدا لهم، وهم البعيدون عن مركز الأحداث، أن الخلاص جاء بضربة واحدة بعد آلام مخاض المسيح في الكارثة. وثانياً، أخذت مواجهات عديدة تحدث في بلدان غربية بين اليهود وبين الجمهور والسلطات على خلفية الحرب العربية الإسرائيلية التي رافقت قيام الدولة في الأرض المقدسة. وثالثاً، أخذ رسل المخلّص الصهيوني في الظهور في البلدان العربية يحثون اليهود على الهجرة الجماعية، وعلى عجل. وخلال عدة سنوات هاجر أغلب يهود الشرق إلى أرض الوعد باستثناء النخبة المثقفة في شمال افريقيا حيث كان عدد الذين فضلوا الوعد الفرنسي على الوعد القديم في أرض إسرائيل كبيراً.

إن هجرة يهود الشرق إلى دولة إسرائيل وضعتهم مرة واحدة أمام كل ما مرت به اليهودية الأوروبية في الفترة التي سبقت قيام الدولة. وخلال وقت قصير نسبياً وجدت اليهودية الشرقية نفسها في مواجهة النتائج التي أسفر عنها الانعتاق والتنوير وعالم المدارس الدينية والاشتراكية والثقافة الصهيونية والعلمانية الغربية الليبرالية والحسيديات المتطرفة ومختلف صنوف المؤسسات اليهودية. في هذا اللقاء وجد اليهود الشرقيون المهاجرون إلى دولة إسرائيل أنفسهم في لقاء مع أخوتهم، ولكن ليس أي أخوة، بل الأخوة المنتصرون، مقيمو الدولة المنقذة، الذين بدوا لهم كأخوة متغطرسين. ومن جهة أخرى كان اليهود أبناء البلد يشعرون، كل لأسبابه الخاصة، أنهم هم الأكبر، فالعلمانيون منهم شعروا ذلك بصفتهم مقيمي الدولة والمتدنيين بصفتهم مقيمي المدارس الدينية. فالكل شعر أنه هو الأخ الأكبر مقابل الأخ الصغير والساذج والذي يحتاج إليهم لتثقيفهم باليديشية أو بالصهيونية الغربية.

وقد كان من نتاج هذا اللقاء تفكك يهود الشرق هوياتياً وهم الذين جلبوا معهم طبقة وسطى ثقافية تقليدية ذات هوية راسخة. إذ سعت فعاليات ثقافية متناقضة لامتصاص اليهودية الشرقية إلى داخلها مما ترك لدى الأخيرة شعوراً متناقضاً، في أحسن الأحوال، إزاء تلك الفعاليات، وهو الأمر الذي ترك مرارته في قلب الجيل الأول من الهجرة، أما المؤثرات التي تعرض لها يهود الشرق في التالية:

**أولاً**: تأثير الصبار: لقد تركت الثقافة التي بدت منتصرة في البلاد القديمة الجديدة في قلب المهاجرين الشرقيين الرغبة في التماهي والانتماء والمحاكاة. إلا أن الصبار كان علمانياً، بعيداً. وكان اللقاء معه زاخراً بالإذلال والتعالي الاشكنازي ما ولد لدى الشرقيين شعوراً بالغربة عنهم وموقفاً يحمل في آن واحد الإعجاب والبغض لهذه الثقافة المستوعبة. هذا الشعور الذي لم يتم التعبير الاحتجاجي عنه في الجيل الأول من ندوب الهجرة.

ثانياً: تأثير المؤسسات الربانية الاشكنازية التي واجهت النخبة الدينية الشرقية باستعلاء غير خاف. ولقد كان إحساس الحريديين، والليتوانيين بخاصة، بالتفوق، ناجماً عن أسباب عدة، منها ما كانوا يحملونه من آراء مسبقة حادة جداً ضد «الدهماء» و«الغوغاء» الذين بدوا لهم كغوييم في لباس يهودي، وبسبب إحساسهم أن الأيدي الاشكنازية هي التي تمتلك الفكر التلمودي الصحيح في مقابل ما نسبوه إلى الشرقيين من ضحالة هلاخية وشعبية قبالية غارقة في عقائد خرافية. وكذلك بسبب إحساسهم بالدور التاريخي لمن اجتاز التنوير والكارثة ويعرف بالتالي كيف يكافح إغراءات ومخاطر الحداثة مقابل ما أطلقوا عليه اسم «السذاجة الشرقية». صحيح أن الحريديين الليتوانيين فتحوا مؤسساتهم للشرقيين، إلا أنهم فعلوا ذلك بحساب وبكمية محددة من المهاجرين الشرقيين الذين من المفترض فيهم، بسبب كونهم أقلية، عدم تخريب الصف بل تحمّل الببيديشي الذي عبّد لهم الطريق. ولذا فقد كان من الطبيعي أن يكون دخول النخبة الربانية التعليمية الشرقية إلى عالم كهذا حافلاً بأحاسيس الذل والمشاعر المتناقضة.

ثالثاً: تأثير المفدال الذي نجح في إدخال جزء لا بأس به من أطفال المهاجرين في مؤسساته التربوية مستعيناً بذلك بالحلف السياسي الذي أقامه مع بن غوريون وبحقيقة أن أغلب المهاجرين ملتزمون بالتقاليد الدينية. وقد شكّل أولاد المهاجرين، من زاوية المفدال، أمل المستقبل السياسي. إلا أنه حتى في هذه المؤسسات عانى الشرقيون من التعالي لا بل من تقوقع أولاد الاشكنازيين الذين انتقلوا في معظمهم إلى المدارس الدينية الثانوية النخبوية.

رابعاً: تأثير ثقافة «طوائف الأبناء» التي نمت في الشارع، فكما أوضحنا سابقاً، فإن من سمات أية هجرة بشكل عام، والهجرة الجماعية بشكل خاص، تنامي قوة الشباب الذين يجيدون اللغة الجديدة، ليس بوصفها لغة حديث فقط، بل كلغة واقع أيضاً، ما يولّد لديهم الإحساس أنهم الأقدر من آبائهم على التعامل مع الأرض الجديدة بثقافتها وتحدياتها وإهاناتها.

أما فيما يخص هجرة يهود الشرق تحديداً، فقد لاح أن الجميع معني بأبنائهم، فقد جرت محاولات حريدية ومفدالية وصبارية لكسبهم لصالح الثقافة الصائبة. آملين في الوقت ذاته أن ينقرض جيل آبائهم، جيل الصحراء، وأن تنقرض معهم ثقافتهم الشتاتية.

كما أن الآباء الشرقيين، من جهتهم، كانوا يشعرون بعدما عانوا ما عانوه من عنت الهجرة، أن الأبناء هم الذين سيوطدون أقدامهم في الأرض المقدسة الجديدة. غير أن الانتقال المفاجئ من بنية بطريركية ذكورية يتمتع فيها الأب بالسلطات إلى بنية جديدة حيث للأبناء قوة، ترك المجتمع والعائلة الشرقيين في حالة من الانقسام والاضطراب.

أما الشباب ذاتهم، المتروكون لشأنهم في وسط خضم من المؤثرات، فقد أنتجوا ثقافة شابة تمور بالتناقضات، فتراها أحياناً ليبرالية اللباس والسلوك، بينما تبدو في أحايين أخرى كثقافة تحمل طاقات اقتصادية استهلاكية، فيما كانت تنجرف في أوقات أخرى وراء تطرف المظاهر الهامشية الغربية من مخدرات وجريمة. وعموماً، بقي الشرقيون في

السنوات الأولى من الهجرة، حتى السبعينيات، دون هوية ثقافية واحدة مبلورة.

كانت الصين، في بداية العصر الكولونيالي، وبسبب طاقتها الديمغرافية، تشكّل الوعد الأكبر بالنسبة للقوى الغربية العظمى. فقد ساد عند الأخيرة الاعتقاد أن الذي يستطيع إقناع الصينيين بأن يشتري كل واحد منهم كيس شاي من إنتاجه يكون قد ربح الحرب الاقتصادية العالمية. والذي حصل عند الشرقيين أنهم انتقلوا، ديمغرافياً، من مركز هامشي بنحو 10٪ من يهود العالم قبل الكارثة، إلى موقع صيني بنحو 50٪ من سكان إسرائيل. وقد حدث هذا بفعل عدة أمور، منها الكارثة التي أصابت يهود أوروبا والهجرة الجماعية إلى إسرائيل وتضافر نسبة الولادة التقليدية عندهم مع العلاج الغربي. ولقد شجعت هذه الزيادة الديمغرافية المؤسسة الصهيونية وعلى رأسها بن غوريون الذي رأى فيها الرد الديمغرافي اليهودي، فكان يقدّم الجوائز التشجيعية للأم العبرية الولودة. فحتى إبان الكارثة، وقبل نهايتها، كتب بن غوريون أننا وقد خسرنا يهود أوروبا فلا بد لنا من الاعتماد على يهود الشرق كبديل.

بيد أن المؤسسات الاشكنازية التي أخذت على عاتقها استيعاب الشرقيين لم تعِ الفخ الكامن في حلمها الصيني ومعضلاته الأخلاقية.

لعله من الممكن أن تستطيع هوية الأغلبية امتصاص الأقلية حتى وإن كانت هذه الأقلية كبيرة. ولكن بتحول الوافدين، من جهة القوة الديمغرافية، من نسبة الربع أو الثلث ليصبحوا نحو نصف يهود إسرائيل، في هذه الحالة لا يعود واضحاً من يستوعب من.

لقد لاح للعديد من المؤسسات، علمانية ودينية على حد سواء، أن السيطرة على يهود الشرق هي سيطرة مفتاحية. إلا أن المعاناة الصعبة التي عاناها الشرقيون في مجاهدتهم مع كل المؤسسات التي جئنا على ذكرها، في محاولاتها لاستيعابهم، خلقت لديهم العديد من الاستجابات الرافضة ومعها الرغبة القوية في أن تكون لهم هوية مستقلة. وكما هو طبيعي، فقد

أخذ التعبير عن هذه الهوية في النضوج بعد الهجرة الكبرى بجيل واحد، أي عندما باشر الأبناء في تفعيل القوة الصامتة لجيل آبائهم المهاجرين.

وقد عبرت هذه الهوية الشرقية المستقبلية والآخذة في وعي قوتها العددية وفي قدرتها على النضال في سبيل مدلول تلك القوة، عبرت عن نفسها بأمور ثلاثة:

أولاً: نمو هوية اقتصادية - اجتماعية - ثقافية غير مدركة لذاتها، وغير مبلورة في العديد من الحالات، إلا أنها بمنزلة الطبقة الوسطى الجديدة لأبناء الهجرة. وهي الطبقة التي تفرز معايير الاستهلاك - الموسيقى (الشرقية) والطعام والعادات والعديد من الميول بروحية متوسطية وتأثير أمريكي ومنظومة من القيم الذكورية التي تشدد على النجاح والعملية في مقولاتها. لقد شكلت هذه الفئة، عملياً، البيبي بوم الإسرائيلي. ويعود السبب في هذا إلى الزيادة العددية التي شهدتها اليهودية الشرقية في الخمسينيات والستينيات والتي نجمت عن نسبة التوالد اليهودية التقليدية مشفوعة بالطب الحديث (وهذا شبيه بما حدث ديمغرافياً ليهود أوروبا في القرن التاسع عشر). ومنذ منتصف السبعينيات بدأ البيبي بوم الإسرائيلي الشرقي في ترك بصماته المتزايدة على المجتمع الإسرائيلي.

ثانياً: لقد أدى سخط الشرقيين على المؤسسات الاشكنازية الاستلابية إلى التوجه نحو هوية سياسية بديلة توفر لهم الإحساس بالبيت، وقد وجدوا هذا في حزب اليمين، الليكود، الذي وفر لهم، بسبب هويته الشعبية اليمينية التي تذكرنا بالبيرونية الجنوب أميريكية، المصرف الناجع لمشاعر السخط والمرارة لديهم، لا سيما وأن جزءاً من هذه الهوية السياسية كان يوجه النقمة نحو الغوييم العرب. إلا أن الاندفاع نحو الليكود لم يكن أساساً بدوافع سياسية تتعلق بأرض إسرائيل الكاملة، بل كان محكوماً بدافع الإحساس الهوياتي ببيت، إحساس إعادة الاحترام المفقود ليهود الشرق، وبدافع الرغبة في الانتقام من الاشكناز المتعالين المتماهين مع الأحزاب العمالية.

إن اللون السياسي اليميني لم يكن تعبيراً عن موقف بقدر ما كان تعبيراً عن إمكانية لهوية ذكورية محتملة تستطيع إنزال الأذى بأولئك الاشكناز الذين لاح أنهم آخذين في خسارة صورتهم الطلائعية المحاربة لصالح رؤى ساذجة تقوم على السلام مع العرب الذين لا يفهمونهم.

والينبوع الثالث كان بناء الهوية الدينية الشرقية انطلاقاً من الإحباط من الاستيعاب المؤسساتي الديني في البلد. وقد قامت هذه الهوية على جناحين: جناح الشعبوية، سوية مع نمو الهوية الشرقية العامة، وبضمنها صعود قوة العادات التي اعتبرت قديمة مثل القديسين والحظ، والجناح المثقف – نمو شريحة ضيقة، ولكنها ليست هزيلة، من تلامذة الحخامات – والذين تلقوا تعليمهم في الغالب في مؤسسات أشكنازية حريدية ومفدالية، ولكنهم أرادوا بيتاً دينياً خاصاً بهم.

يجدر التنويه أن محاولات عدة لإيجاد إطار سياسي تحت يافطة شرقية فقط باءت بالفشل. فالشرقيون في الأرض المقدسة ليسوا أقلية بحاجة إلى غيتو، فبفضل قوتهم وقدرتهم فإن أي احتجاج يطرح التحدي على النظام الاجتماعي كله يكون أكثر جذباً سواء كان هذا لحساب حزب كالليكود الذي يستطيع أخذ السلطة من أيدي الصبار الاشكنازي الأسطوري، أو بحركة مثل شاس، التي تعلي شأن القيم الدينية الشرقية، كبديل عن المنظومة الحديثة الصهيونية، أي الاشكنازية.

كانت حركة شاس – الحركة الدينية التي كانت المحرك وراء إقامة الحضارة الدينية الشرقية الجديدة – من إبداع اثنين: الأول الرابي عوباديا يوسف، ممثلاً لرغبة الشرقيين في أن يكون لهم مفتٍ شرقيٌّ محترمٌ يصل إلى هذه المرتبة بقدراته الذاتية، وغير خاضع للحريديين وللصهيونيين الدينيين الاشكنازيين، والثاني هو الرابي مناحيم البعيزر شاخ رئيس التيار الليتواني اليشيباتي[1]. فالرابي شاخ كان هو الآخر قد اكتشف في الشرقيين صينه. ففي بداية الثمانينيات، وبعد أعوام من استيعاب خبرتهم في

[1] نسبة إلى يشيباه، أي المدرسة الدينية –م–.

مؤسساته، شعر أن الحضارة الحريدية قوية بما يكفي للخروج واحتلال المجتمع كله، وأنه من الجمهور الشرقي، بفضل حجمه وتقليديته وعدواته للمؤسسة الاشكنازية المبامبة، وبفضل قدرته على الانصياع للبديل الديني الرباني الشرقي، سيكون منه وكلاؤه وطلائعه في هذا الاحتلال، وبهذا وسوية مع حكم يميني علماني يُحمل إلى الحكم على أكتاف علمانية شرقية وصهيونية متدينة، سيُضرب الصبار الكافر والمتمرد الضربة النهائية وبعدها يتولى البديل الثقافي الديني الحكم.

من أجل هذه العملية الكبيرة أُقيمت شاس (شرقيون ملتزمون بالتوراة) قبل انتخابات عام 1984، وجيء بربابنة شرقيين ليقفوا على قمتها السياسية. واعتقد شاخ أنه هو سيكون فوقهم وسيكون عوباديا يوسف تحت ظله. لقد كان المأمول في شاس، حسب شاخ، أن تصل في المستقبل إلى قوة من 20 – 30 عضو كنيست، أي نصف القوة الشرقية التي تصل إلى 50 عضواً. وبدأت عام 1948 بأربعة نواب، اثنين منهما بأصوات ليتوانيي شاخ الذين منحوها بركة الطريق، واثنين من الأصوات الشرقية. في عام 1996 وصلت شاس إلى 10 أعضاء كنيست – أي ما يوازي تقريباً 10٪ من كامل القوة السياسية اليهودية، ونحو 20٪ من القدرة السفاردية بزيادة خمسة أضعاف من نسبة السفارديم الذين صوتوا لها في بداية مشوارها قبل اثني عشر عاماً. قبل إقامة شاس بخمسين عاماً، وقبل صعود النازي بقليل، تنبأ في ألمانيا، إسحاق بروير، مؤلف كتاب «الخزري الجديد»، باستيلاء الحريديين على سلطة الصهيونيين العصاة، ولقد أجاد غرشون شلوم في تحديد هذه النبوءة.

«سياسة صوفية تحشد لمساعدتها رموزاً عميقة جداً لكي تتولى السلطة التي قاتل وضحى أناس آخرون بحياتهم من أجل إقامتها واستقرارها، وترغب في استعباد الحياة التي رافق حملة هذه السياسة بناءها باللعنات والبغض العميق لا غير».

من هذه الناحية، تبدت شاس للرابي شاخ كملاك مقدس في عملية

خلق الهوية اليهودية الدينية من أنقاض الصبار الآخذ في الغرق. وقد لاح انتصار هذا الملاك كأمر مؤكد في رؤية مؤلف كتاب الخزري الجديد الذي وجد من يواصل دربه في الأرض المقدسة.

في عرض ممتاز قدمته فرقة «لول» المسرحية، ظهر أريك انيشتاين وأورلي زوهر (قبل أن يصبح حريدياً) على شاطئ بحر تل أبيب، وهما يتبادلان الأقنعة. في هذه المسرحية ينظر القدامى إلى الجدد: العرب يرون الطلائعيين الروس فيشتمون القادمين المجانين، ثم يظهر الروس على الشاطئ وهم يظهرون الإزدراء لليمنيين القادمين، واليمنيون بدورهم يسخرون من البولونيين المهاجرين، والبولونيين ممن يجيء بعدهم وهؤلاء من المغاربة والمغاربة من الروس الجدد. وكل هجرة بدورها تقبّل أرض الموعد التي وصلت إليها، والمهاجرون الذين لم يصلوا إلى البلاد إلا من فترة قصيرة يهزأون، كقدامى، من القادمين الغربيين».

تعكس هذه التمثيلية التقليدية وبشكل أمين البنية الاجتماعية، الثقافية والسياسية الآخذة في التبلور على شاطئ المتوسط وهي تستوعب مهاجريها ولاجئيها. وهذه البنية تشبه مبنى من طبقات حيث يكون لكل طبقة مصلحة في التمرد ضد الأعلى منها للمطالبة بهويتها المسحوقة بأعقاب الأعلى منها، وللمطالبة أيضاً بحصتها من غنيمة الوظائف والقوة السياسية والاقتصادية، حيث أن أغلب القوة الاقتصادية في إسرائيل تتغذى من السلطة المركزية. ولقد جاء أول تحدي لسلطة الصبار الاشكنازي الاشتراكي من الطبقات العليا من المغبونين، أي الاشكناز اليمنيين، ومن الشرقيين العلمانيين ومن الصهيونيين المتدينين، ثم انضم إليهم الاشكناز الحريديون بعد ذلك. في هذه التركيبة كان الظالمون المباشرون للطبقة الدنيا، الطبقة الدينية الشرقية، هي الطبقة الثانية، أي المغبونين الأكابر، أي الصهيونية الدينية والحريد الاشكناز بمختلف مؤسساتهم. لذلك كانت المصلحة السياسية للشرقيين الدينيين تقتضي توجيه رأس الحربة ضد مضطهديهم المباشرين أولئك. ولذلك فقد أرادت شاس تحقيق مصالحها،

أي الحلول مكان المفدال كمؤسسة دينية للشرقيين وتحرير الأخيرين الأسرى سياسياً لدى الليكود، والتمرد على السلطة الحريدية الاشكنازية.

لقد أدركت شاس أنه لا بد لها لكي تبني عالمها من النضال ضد مضطهديها المباشرين، سارقي أبناءها وأصواتها. ولذلك فإن الأهداف التي وضعتها نصب أعينها قادتها إلى تحالف، قائم على هذه الأهداف حصراً، مع الطبقة العليا، طبقة الصبار وأحزابها اليسارية. فبفعل تلك الأهداف برز عدو مشترك لكلا الطرفين، ألا وهو تحالف عام 77 - المكون من الليكود والمفدال وأغوادات يسرائيل وجميعها بقيادة أشكنازية - والذي استثمر لصالحه إرادة الشرقيين في التمرد.

ولقد سارت شاس، تحدوها مصالحها، في هذا النهج الخارج على نبوءة شاخ، وتعاونت مع اليسار البغيض عليه. لقد رفض عوباديا يوسف مواصلة الانصياع للإملاءات الاشكنازية. لقد تمرد الملاك المقدس.

ثمة أسطورة قديمة في اليهودية والنصرانية تقول أن ملاكاً رفيع المنزلة قرر التمرد على الرب: في اليهودية يطلق على هذا الملاك اسم صمائيل فيما يطلق عليه في النصرانية اسم لوتسيفر. وبعد صراع مع الملائكة الأخيار أُرسل هذا الملاك المتمرد وشيعته إلى جهنم السفلى، حيث أعد ليصبح الإبليس.

وهذا بالضبط ما رأته اليهودية الحريدية الليتوانية في شاس، فحركة شاس بالنسبة إليهم هي ذاك الملاك المتمرد، وشرعوا في الحديث عنها بذاك المعنى. تجدر الإشارة إلى أن لوتسفير، مثله مثل حواء الأولى، لم يرد الإطاحة بالرب، بل طالب بالمساواة فقط، إلا أن هذه الرغبة في المساواة اعتبرت من جانب الفئة المتسلطة تمرداً شنيعاً، لا سيما وأن الملاك الشاسي كان قد أُعد ليقوم بدور في الخطة الإلهية بنسختها الليتوانية.

إن هذا البحث عن هوية مستقلة، من جانب الملاك الشرقي، كان هو العصيان الأخطر للترتيب الإلهي الذي يعبر عن نفسه في فكر حجج العصر الاشكناز.

إن شاس المتمردة على السلطة الدينية الاشكنازية اعتبرت نفسها قبل أي شيء آخر كبديل مؤسساتي عن الصهيونية الدينية القديمة، ولذلك باشرت، وبنجاح وبقوة، في بناء المؤسسات التربوية، في البدء للأولاد ثم للكبار، والتي أخذت تستوعب المزيد من الشرقيين على وعد استعادة الكرامة والهوية المفقودتين. ولم يتوقف جهد شاس على إقامة المؤسسات التربوية، بل تجاوز ذلك إلى تقديم المساعدات للضعفاء مستعينة في ذلك، وأساساً، بالقوة السياسية والمواقف. وبفضل هذه الرعاية لجمهورها كانت شاس تحصل على المزيد من الدعم وبالتالي المزيد من القوة السياسية وهكذا دواليك..

بعد انتخابات عام 1992 ابتسم الحظ لشاس ولتمردها إذ لم يستطع الصهيونيون الدينيون والحريديون بسبب تطرفهم المشاركة في حكومة اليسار الذي خرج من تلك الانتخابات فائزاً، فبقيت شاس بمفردها لتفوز بغنيمة وزارة الداخلية والأديان والتعليم الديني، إلى جانب غنيمة وفيرة من الميزانيات والمناصب علاوة على الهيمنة على الجهاز الرباني الرسمي بمناصبه العديدة. إنه عالم جديد قد ولد. فكل مراكز القوة هذه التي كانت من حظ شاس أثمرت عن إقبال المزيد والمزيد من الناس على هذا العالم الصاعد ومنحه المزيد والمزيد من بطاقات شاس في صناديق الاقتراع. وقوة صناديق الاقتراع بدورها أعطتهم المزيد من السيطرة على عالم الوظائف الرباني الواسع، فالمزيد من المناصب، وهكذا دواليك.

والحقيقة، فإن الحضارة التي تقدم الروضة مجاناً مع يوم دراسي طويل مع وجبات مجانية، مع إضافة القليل من اليهودية والكثير من الفخر الشرقي، لتستطيع بسهولة التغلب على المنافسة على الرياض العلمانية باهظة التكاليف والمفتقرة إلى الأيديولوجيا. والرب يحب أطفال الروضة.

لم يكن التحالف مع اليسار العلماني يرتكز فقط على التقاء المصالح ضد العدو المشترك، وهو المؤسسة الصهيونية الدينية الآخذة في الإيغال يميناً، بل ارتكز أيضاً على الرؤية السياسية المعتدلة للرابي يوسف شخصياً

والذي يؤمن بضرورة التسوية ويمقت إضفاء المسيحيانية على المناطق، ويؤمن بقوة نهج السلام والحياة والذي في ظله تزدهر نظريته في السلامة والرفاه.

وعلى رغم عدم صهيونية عوباديا يوسف على المستوى المبدئي، إلا أنه أصبح عملياً بذاك الموقف بالذات الصهيوني الديني الأخير، وإن كان ذلك من الزاوية السياسية العملية فقط. لقد أصبح عدو «المزراحي»[1] هذا، آخر رجل «مزراحي» كلاسيكي. إذ كانت الصهيونية الدينية التأسيسية، ومذ مستهل القرن حتى سنوات الستين، تفتي في مسائل العموم والفرد بروحية براغماتية، من خلال رؤيتها في نهج الواقع والحياة رسالة دينية روحية. وعوباديا يوسف ودون أن يطمح أبداً إلى ربط الحداثة بالدين مثلما طمح مؤسسو حركة مزراحي، بل بدافع إحساسه بأن جوهر الهالاخاه يقوم على أنها تحيا ضمن جمهور حي، اختار الحياة هو أيضاً. ومن هنا فإن فتاويه السائرة على نهج التيسير في مسائل الفرد تساوقت أيضاً مع قوة الواقع في المسائل العامة. ففي وجهة نظره لا يجوز الانجراف وراء المشاعر المسيحانية في قضايا ارض إسرائيل، كما لا يجوز من وجهة نظره أيضاً، الاعتناء بحقوق العرب لأنها لا تعني اليهودي. وبحسبه، لابد من السير على النهج الذهبي القائم على مصالح حياة الكل اليهودي. فإذا اقتضت هذه المصالح احتلال المزيد من المناطق، فلا بأس، وإذا اقتضت إعادة مناطق من أجل السلام والأمن، فخير على خير. أما اسلوب القوة الذي سلكه مسيحانيو المناطق الكوكيين فبدا له مدحوضاً. وعلى هذا النحو وجد الرابي عوباديا يوسف حلفاً حقيقياً مع اسحاق رابين.

وهذا التحالف السياسي ما بين الواقعية السياسية العلمانية ممثلة بالصبار المقاتل الذي أخذ، وبحذر، في صب سيوفه معاول، - رابين -، وبين عالم الحياة الرباني الشرقي الآخذ في القيام على أكتاف الشرقيين

---

[1] القصد هنا هو حركة مزراحي الدينية الأوروبية التي أيدت هرتسل في توجهاته الصهيونية ومنها انبثقت الحركة الصهيونية الدينية المعروفة باسم حزب المفدال حالياً – م -

التقليديين الباحثين عن هوية بقيادة عوباديا يوسف، هذا التحالف انتصر عام 92 وتولى دفة القيادة ما بين 92-96، كما أحدث انقلاباً في الهستدروت أيضاً. وكان المأمول أن يفوز هذا التحالف في عام 1996م أيضاً، ولاح أنه هو - التحالف - من سيقود الهوية الإسرائيلية الجديدة من خلال خلقه طبقة وسطى ثقافية تقليدية براغماتية. إلا أن رصاصات ثلاثاً في ساحة المدينة جاءت ببيرس الغريب والمكروه مكان رابين الصبار الشعبي، كما تركت شاس بنوابها العشرة في قلب يمين مسيحاني منتصر. فها هو تمرد الملاك المتمرد لوتسيفر يُقمع بعض الشيء. وفي سياق الحملة الانتخابية لانتخابات عام 96، كانت الصحيفة الناطقة باسم شاخ تستمتع في الهجوم على شاس المتمردة وعلى سلوكها الجاحد، فهاجمتها بوصفها آثمة ومتساوقة مع اليسار، مادام الرابي شاخ كان قد حذر سلفاً بأن الشرقيين لا يستطيعون القيادة لأنهم لم يختبروا الصراع مع حركة التنوير في أوروبا، وهاجمتها كذلك لأنها منغمسة في آثام القبالاة العملية مثل الأحراز التي تشتمل على صورة واضحة للرابي كدوري، فتكون بذلك قد ارتكبت خطيئة التجسيد والوثنية، دون الحديث عن الخطيئة في الطقس الشاسي الليلي مع الشموع وقراءة الأوامر الإلهية بطريقة غير سليمة.

إلا أن الأمور عادت إلى نصابها بعد الانتخابات حيث وقعت المعجزة الرائعة، فانتصرت يمين الربوبية وأبعدت لوتسيفر الشاسي عن شهواته باليسار المتمرد، وأعادت السلطان لأولئك الذين يستحقونه.

مع أن انتخابات 96 بدت وكأنها جاءت بانتصار كبير لشاس، إلا أنه في الحقيقة لم يكن إلا انتصاراً بضمان محدود، للحركة ولعوباديا يوسف شخصياً. وقد كان من الممكن أن تكون نتائج تلك الانتخابات انتصاراً هائلاً لشاس لو فاز مرشح حزب العمل[1]، مما كان سيعني بقاء شاس وحدها في الائتلاف الحكومي وهو الأمر الذي كان سيمنحها الفرصة لبناء عالمها

---

[1] في هذه الانتخابات فاز بنيامين نتنياهو برئاسة الحكومة متغلباً على منافسه شمعون بيرس المرشح عن حزب العمل - م -.

واستكمال نصرها المؤسساتي وزيادة قوتها السياسية استعداداً لعام 2000. ولقد دفع عوباديا يوسف حتى في خضم الحملة الانتخابية الثملة، من خلال الزج بقوة قبالاة الرابي كدوري الذي أوضح ماهو عالم المغزى المنتصر، إذ إنه، ومعه جمهور شاس، اختاروا، على نقيض رأي يوسف، اليمين وليس اليسار البراغماتي. ولاح بعد الانتخابات أنه تم وضع حد نهائي للملاك الشاسي المتمرد، والذي كان عليه أن يختار ما بين جهنم اليسار وبين الجنة المسيحانية. ولقد اختار بالفعل. ولم تكن جهنم هي اختياره.

لطالما كانت براغماتية شاس، سياسياً وشريعياً، هشة. فمع أنها ارتكزت على مصلحتها الانتخابية وعلى فتاوى عوباديا يوسف، إلا أنها لم تكن بديهية إلا عند شريحه قيادية ضيقة والتي لم تكن قوتها المؤسساتية كافية في أوقات التغيير، بمقابل هوية أغلب الجمهور.

ومثلما كان عليه الحال في حاباد، هكذا كان مع شاس، إذ بصفتها مخلوقاً جديداً يتشكل من مهاجرين وبجمهور عريض ينضم إليها وتقوده قيادة ضيقة، لم يتسنَّ لها الوقت لبناء طبقة وسطى ثقافية مستقرة في هويتها وقيمها. فهذا الجمهور الذي تدفق إلى مؤسسات شاس، كان هو أيضاً، مثله مثل بقية تيارات يهودية الوقت الحالي، يقف على أرضية جوقة المعنى القبالي المسيحاني، مما أسفر عن إضفاء لون معين على هوية شاس بعيد عن الرؤية السياسية لعوباديا يوسف، وإن كان قريباً منها في مسائل أخرى.

لقد كان بناء هذه الهوية لمهاجري شاس نتاج اتحاد عدة عناصر:

أولاً، سياسياً: لقد جاء أغلب المنضمين إلى شاس من خلفية هوياتية ليكودية يمينية مناهضة للعرب ولليسار العلماني، فيما لم يفعل ازدياد التدين عندهم إلا إضافة مصادر لتلك المواقف والآراء.

ثانياً، ثقافياً: بسبب من وعي الحركة لرعيتها، فإن أغلب الحشد لها تم من خلال الدعاية الضد حداثية والضد انحلالية، كما جئنا على وصف ذلك سابقاً وكما سنوضح ذلك لاحقاً. إن هذا البغض لليسار ولنسائه

الفاسقات، بدءاً بتلك المرأة إياها، الوني، وانتهاء بأولئك الكاشفات سيقانهن المهيجات في الشارع، ان هذا البغض روفق بكلام لرجال تربويين وبكتب وأشرطة وصحف وسياسيين، انتهاء بعوباديا يوسف ذاته الذي اختار لغة شعبوية وعدوانية. وهذا البغض حقق المزيد من الوقود ضد الحداثة وضد اليسار، وهو ما تناغم بشكل جيد مع الدعاية الدينية المسيحانية اليمينية في البلاد.

ثالثاً، دينياً: لقد كان من نتائج جذب انتباه جمهور عريض نحو هويته الدينية القديمة أن أخرج المزيد والمزيد من قوة القبالاة، والتي هي قوية لدى الجمهور الشرقي أساساً. ففي هذه الأرض المقدسة، ومع تأثير التيارات المسيحانية من لوبابتشية وكوكية وغيرها، ومع الواقع المسيحاني القائم فعلياً حتى من زاوية فتوى الرامبام من جهة الدلالة المسيحانية القائمة في جمع الشتات وتحقيق الاستقلال، مضافاً إليها وجود تعلم التوراة دون القيام بعمل، وهو الأمر المحفوظ لأيام المسيح، وهو ما شرحناه في فصول سابقة، كل هذا أدى إلى ازدهار وتعاظم القبالاة في أوساط المنضوين تحت لواء شاس. يجوز لنا القول عن اليهودية الشرقية في الوقت الحالي أنها كلها يمينية، باعتبار انها تمثل تقليد بحر القبالاة. وهكذا بدأ الكثير من شيوخ القبالاة في التغريد والتأثير.

وكما سنرى لاحقاً (في فصل 16) فإن الكثير من هؤلاء الشيوخ يعتبرون أنفسهم مسحاء[1]، منهم، على سبيل المثال، عوزي مشولام ومردخاي الياهو. كما أصبح الكثير من شيوخ القبالاة من نجوم الكاسيتات مثل أمنون يتسحاق أو من مجترحي المعجزات أو خبراء احراز وقبالاة عملية، من كدوري حتى البابا باروخ.

لقد نشأ طيف واسع من الذين يطرحون أنفسهم كشيوخ قبالاة، بدءاً من المعتدلين وانتهاء بالمتطرفين، ونشأ معهم قبالي جديد طازج ومسيحاني، وهو ما سنتوقف عند دوره لاحقاً.

---

[1] مسحاء: جمع مسيح.

رابعاً، مؤسساتياً: لقد تُرجم العداء للمؤسسة الاشكنازية المستوعبة (بكسر العين) إلى عدم ثقة بالمؤسسات العلمانية بشكل عام، والمؤسسات العلمانية الحديثة خاصة، مثل القضاء. إلا أن الأمر لم يتوقف هنا، فالطاقة الانقلابية والضد مؤسساتية والباحثة عن هوية ودين، أصبحت بمنزلة صندوق إرجاع صدى لكل قضية قبالية مسيحانية فعلية، في الوقت الذي كان فيه البديل البراغماتي يواجه صعوبات.

خامساً، هوياتياً: إزاء انحلال الهوية القديمة وإغراء العالم المادي منظوراً إليه كشيطان مثير جنسياً، فقد أُعتبر كل تصلب صريح وغير مهادن بمنزلة بيت لهم. وقد تعزز هذا الميل عندما وصل التغيير المسيحاني القبالي إلى المجموعات الشرقية الدينية فيما وراء البحار، وفي فرنسا على وجه الخصوص، مما عزز الإحساس بأن الهوية الجديدة تنطوي على بيت يرص الصفوف. وهكذا في عالم الهوية الجديدة فاقت قوة شيوخ القبالاة مثل مردخاي الياهو واسحاق كدوري كمنتجي قيم، قوة المفتي عوباديا يوسف بكثير.

سادساً، شريعياً: مثل الصهيونية الدينية التي جاء عوباديا يوسف ليحل محلها، كذلك هنا لم يتم ترسيم الاجتهاد المعتدل في منظومة هلاخية إيجابية متكاملة. فإقامة السلام مع الإسماعيليين الأشرار، مثلاً، واجبة فقط بسبب مخاطر الواقع[1]... ومن هنا فإن سريان الاجتهاد المعتدل، في ظل غياب منظومة شرعية وفهم متكامل، يبقى أمراً ظرفياً. فحينما كان الصبار رابين يتولى صولجان السلطة، امتد ذاك الظرف وفي ظروف أخرى نرى ذاك الاجتهاد يذهب مع الريح مدحوراً أمام الروح القبالية التي باتت تسيطر على كل الأزمنة.

لقد جاء في أسطورة مسيحانية قديمة، كما نذكر، عن يوسف دي لارانيه الذي حاول بمكر قبالي عملي جلب الخلاص عن طريق القاء القبض على الشيطان وقتله. ولقد كاد أن ينجح في مسعاه لولا أنه أخطأ في تقديم

---

[1] يقصد المؤلف القول أن الموافقة على السلام من جانب شاس كانت لسبب عملي وليس موقفاً مبدئياً – م –.

القليل من البخور إلى أنف الشيطان، فكان في هذا إخفاق ذاك المسعى، إذ طار الشيطان وتأجل الخلاص إلى أمد بعيد جداً. وكذلك يوسف عصرنا، عوباديا يوسف، فإنه لم يحاذر وهو يشيد حضارة شرقية معتدلة من التبخير بلغة ومحتوى عنيف وضد حداثي إلى قلب جمهوره، إلى أن بسطت الموجة المسيحانية القبالية جناحيها وابتلعت عالم يوسف.

يوسف دالارنيه ارتد بعد أن أخفق وتزوج امرأة أجنبية. والأمر نفسه فعله فيما بعد كاتب أشهر رواية عن هذه الحادثة، الرابي شلومو ناؤور (وبالمناسبة، فلقد أضاع اليشع اشكنازي، والد ناتان الغزي، بعد ذاك الارتداد، أصول يهود أرض إسرائيل فيما كان هووناؤور في مهمة لجباية التبرعات قبل الحركة الشبتية بفترة وجيزة). أما ليوسفنا، عوباديا، فقد بقيت له ميزة مغرية واحدة. فهذا الملاك المتمرد كان يستطيع اختيار قيادة الموجة المسيحانية. وهذا ما فعله بالفعل.

شخصياً، كان عوباديا يوسف يرغب في انتصار حزب العمل في انتخابات عام 96. إلا أنه احتفظ برأيه لنفسه وأعطى هو والمقربون منه أصواتهم لصالح شمعون بيريس، أما جمهور شاس، فلقد اختار 98٪ منهم أن يضعوا إلى جانب بطاقة شاس في الانتخابات، بطاقة بنيامين نتنياهو. وبعد الانتخابات اختار عوباديا يوسف، كبراغماتي، أن يسير وفق ما يريد جمهوره ووفق الموجة المسيحانية بما يضمن سيطرته على حركته. وكما سنرى لاحقاً، وكما هو منطقي وكما سنشرح ذلك لاحقاً بإسهاب، فإن الحمى المسيحانية لم تغادر عوباديا يوسف. لقد بقي الرابي عوباديا، مثل سابقيه المرشحين لمنصب بمنزلة مسيح، دون امرأة.

ففي حاباد وقعت ذروة الهياج المسيحاني عندما بقي الرابي عديم الأولاد وحده دون زوجة. وكذلك فإن سنوات الوحدة الطويلة التي عاشها الرابي كوك الابن الذي بدون امرأة مع حسيدية من 1944 حتى 1981، ساهمت في الحمى المسيحانية. فالمفضل هو مسيح بلا زوجة، ولابد من إدارة الظهر لعالم الواقع الاعتيادي.

وحسيدو يوسف لم يديروا الظهر له، بل توجوه ملكاً.

من بالغ الأهمية في عالم الخلاص المسيحاني وتفسيراته اعتبار النصر كإشارة إلهية، ومن هنا فقد كان التفسير في شاس لانتخابات 96 بأنها انتصار كبير، واحتفظ عوباديا يوسف بتحفظاته لنفسه.

والموجة المسيحانية أخذت بالارتفاع. وأخذت اليقينية المسيحانية تتعمق في المحطات الإذاعية المحسوبة على شاس والتي تكاثرت بعد انتخابات 96. وقد كان بن تسيون موتسفي، وهو رئيس مدرسة دينية ومن كبار رجالات شاس، يمثل المزاج السائد في الحركة وهو يوضح للمصغين إليه في أنحاء البلاد أن أمر قرب الخلاص الوشيك جداً قد حسم. والهدف الوحيد من التوبة والعودة إلى الدين هو تجاوز آلام مخاض المسيح والكوارث التي تسبق مجيئه. وأخذت كل المحطات الإذاعية، محطة «صدى الحقيقة» وهو الراديو الرسمي لشاس، ومحطة راديو 10، راديو رأوبين الباز المتخصص في الهداية والإعادة إلى الدين والناشط في شاس مع بعض المعارضة للرابي يوسف، ومحطة عودة إسرائيل، الراديو المسيحاني اليميني، كل هذه المحطات أخذت تبث مواعظ عوباديا يوسف عدة مرات في الأسبوع، مع ما كان المذيعون يضيفونه إلى هذه المواعظ من إشارات تتعلق بالتجلي المسيحاني الذي لم يبق إلا فتح العينين ورؤيته فعلاً، على حد تعبير حاباد. فهذا العالم الذي أخذ ينهض أمام العينين اليقظتين لهو عالم مخيف، عالم تراه الكلاب والحمير بما تملك من أشعة تحت حمراء، لذلك فهي ترى جيش الأبالسة فيه، في هذا العالم الذي لا تراه أعيننا، ولهذا ترى الحمير تنهق في الهزيع الأول من الليل، وهو هزيعها، بينما تنبح الكلاب في هزيعها أي الهزيع الثاني من الليل. وهذه الحيوانات، بصفتها حيوانات دنسة، تتحدث مع جيش الشيطان، الآخر، كما أنها ترى العالم الآخر، هذا العالم الذي لو رآه البشر لأصابهم الجنون.

إلا أن العلمانيين يبدون أقل جنوناً، إذ بحسب التفسير السائد، على حد تعريف الرابي بن بورات في المحطات القدسية، لأنهم بلاحقيقة،

ويمكنهم معرفة كل شيء، ولذلك فإنهم سيسقطون أمام قوة الحقيقة. وزمن الخلاص والمسيح هو زمن الحقيقة. إن السبب في شدة جبروت عالم الشياطين والآخر قائم، من بين أشياء أخرى، في اجتهاد عوباديا يوسف. لقد كان الرابي كوك يؤمن أن قدسية البلاد تضعف قوة الآخر، فيما رأى عوباديا يوسف رأياً مغايراً، فالأرض المقدسة، حسب وجهة نظره، هي المكان الذي به بالذات تكون قوى الشيطان موجودة وقوية على نحو خاص، وفيه يخوضون هم، قوة الشر، حرب ضد الذات القدسية. وقوى الشيطان هذه قوية بشكل خاص، في عصرنا، في الزمن الذي يسبق التجلي المسيحاني في الأرض المقدسة. وضد الآخر في الزمان المسيحاني لابد من القتال بكل قوة.

وتستمد قوة ربانية يوسف أسس عالمها من مصادر ثلاثة أخرى، وهي: أولاً عالم اليشيبوت الليتوانية والتي تثقف الكثير منهم فيها، وهو نفسه، كما شاهدنا، عالم غارق في حمى التغيير المسيحاني. وثانياً العالم الكوكي، وريث الصهيونية الدينية. ان أغلب جمهور شاس، على خلاف ربابنتها، تثقف في هذه المؤسسة التي كانت غارقة في مسيحيانية كوك. وعلى هذا النحو فإن المسيحيانية القبالية وحّدت بين الجمهور وبين ربابنته على مختلف مشاربهم. وثالثاً، يستمد الربابنة، كما قلنا، القوة من عالم القبالاة الذي يرى الشرقيون في التركيز فيه تفردهم وسر قوتهم المهملة، فمقابل المناظرات الاشكنازية السائدة، تشكل مملكة الباطن للشرقيين المكان الذي لم تنقطع عنه السيادة الشرقية أبداً.

وليس ثمة حاجة إلى عالم الباطن (السر) لكي يستعيد الشرقيون مجدهم، فهو موجود طوال الوقت. وتكاد تستطيع القول أن الشرقي، من وجهة نظر شاس، هو السر. فالقاعدة بالنسبة لهم هي ما تمثله حالة يوسف كارو، حيث كتابه «المائدة الجاهزة»، الذي يعالج المحسوسات والظواهر، إنما بروح الباطن والتأويل كتبه. ان السر سام رغم، بل بسبب أنه خفي. فما بالك بالسر المسيحاني.

وفي خضم الحماسة المسيحانية خرج المزيد والمزيد من الوعظ في

مسائل دراسة وتعلم التوراة. ولأنه من المحظور أن يتم الخلط ما بين الدراسات القدسية والدراسات العلمانية والنسائية، كما يفعل التعليم الديني الرسمي الآثم، فلابد من التشدد في مسألة التثقيف النقي، علاوة على أن الأهل لن يفوزوا بأولاد مطيعين لهم إلا من خلال التربية الشاسيه التي تبعدهم عن إطاعة الشباب العلماني الفظيع والمجرم ولا سيما في المسألة الرهيبة، مسألة البنات الفاجرات.

ولقد روى الرابي بن تسيون على آذان المستمعين «لصوت الحقيقة» كل الحقيقة عن النساء، عندما قال محذراً: «هناك كل الأسباب التي تدعونا للابتعاد والحذر، أو لم تقتل امرأة، من خلال شق في ثوبها، مئة رجل عندما رأوها، فنزلوا إلى جهنم بسبب ما ثار فيهم من رغبة».

وقد قال ايش حاي أنه لا يجب أن يظهر من المرأة إلا العينين وكفي اليدين. وقد أكد هذا الرابي أنه يمكن توضيح كل هذه الأمور للمرأة بصوت لطيف وباختصار شديد، لأن من يريد المحافظة على نفسه لابد له من الابتعاد عنهن، فحتى مع زوجتك لا يجب أن تطيل بالحديث.

وكما هومفهوم، فلم يتم إدخال نساء إلى هذه القنوات المقدسة جالبة النور. غير أن قضيتهن كانت حاضرة ومسموعة، ولكن من فم الرجل المذيع الذي أوضح لهن مراراً وتكراراً أن وظيفتهن تنحصر في مساعدة الرجل على دراسة التوراة، فيفزن بثواب على ذلك، مثل الفرس الذي يثاب على أعمال فارسه. ولقد أكد عوباديا يوسف على التنبيه بأن قوة الفسوق شديدة في المرأة، لذلك يحظر على الرجل أن يسمع صوت المرأة أو يرى شعرها أو أجزاء من يديها أو رجليها عندما يكون منهمكاً في دراسة التوراة. وعلى الأميرة، حتى عندما تكون في بيتها، أن تكون شديدة الحيطة كيلا تؤذي قداسة الزوج، قداسة عينيه وقداسة أذنيه. وأضاف الرابي حبة مسك للمستمعين لإذاعة صوت الحقيقة وللمذيع المنفعل قصة عن جدته، بأنها كانت تذهب تحت الطاولة وهي مغطاة بالكامل من رأسها حتى أخمص قدميها وتمشط شعرها هناك.

من تحت الطاولة ومن فوقها، في هذا الجيل الداعر، فلقد بلغت الرسالة: إن العلامة المسيحانية تقوم في التوبة. وما على من يشعر بالإحباط من خطر إعادة مناطق، وهو ما يضر الزمان المسيحاني، إلا أن يضع قوة الرجاء المسيحاني في التوبة والعودة إلى الدين. وبالفعل فقد ساد الإحساس في كل المعسكر، وليس في شاس وحدها، بل لدى المفدال أيضاً. ان مملكة السماء تستحق ما هو أكثر من المناطق، وهو عودة قلوب إسرائيل إلى السماء، وحينها يحل علينا الخلاص.

وكذلك ثمة حل لأولئك الذين تأكلهم الغيرة للانتقام من الغوييم: إنه بنيامين نتنياهو الذي اعتبره الرابي كدوري وقباليون آخرون الرجل المناسب لخوض الحرب ضد الغوييم إلى أن يأتي المسيح، ولذلك فهو جدير بالمباركة.

ثمة قصة تُليت على جمهور شاس. تقول هذه القصة أن جماعة أصابها القحط فجاءت إلى بعل شمطوف الذي أرسلها بدوره إلى ولي باسم يحزقيل ليباركهم ويدفع الجفاف عنهم. فذهبت هذه الجماعة إلى القرية البعيدة بحثاً عن هذا الولي، إلا أن أحداً في القرية لم يعرف ولياً باسم يحزقيل، وقالوا ان ثمة رجلاً سكيراً ومدمناً وشريراً بهذا الاسم. فذهبوا إليه فوجدوه متعتعاً من السكر. وأخبرتهم زوجته عن لحظة يصحو فيها. فلما حلت تلك اللحظة استطاعوا بالحيلة وبالوعد بالمزيد من النبيذ المسكر أن ينتزعوا البركة من هذا السكير الفظ الذي يتهددهم بالضرب. وفي تلك اللحظة بالذات بدأ المطر الغزير بالهطول. طبعاً عادت هذه الجماعة إلى بعل شمطوف تطلب تفسيراً، فأخبرها أن هذا الرجل السكير كان قد أوقف بجسمه عربة متدهورة وعلى متنها عشرة إسرائيليين، فأنقذهم من الموت. إلا أنه أصيب إصابة بالغة. فكافأه الرب على صنيعه بالاستجابة لكل أمنياته. ولكن لأن الرب عاد فخشي أن يبالغ هذا الرجل في الأمنيات كأن يطلب مجيء المسيح قبل أوانه، جعله مدمناً على النبيذ طوال الوقت. وبهذا ولأنه دائم الثمالة فإن هذا الولي ما عاد يعرف ماذا يطلب، وبالتالي ما عاد الرب ملزماً في تنفيذ رغبات غير معني بتنفيذها.

ويبدو أن شعب إسرائيل هم كذلك الولي في أعين الجيل الحالي. فشعب إسرائيل وقع اختيار الرب عليه لآلامه وفضائله، إلا أن الرب جعلهم، وهم مختاروه اليهود، سكارى ثملين كيلا يبالغوا في طلباتهم. إلا أن هذا السكير يصحو أخيراً من غيبوبته ويكون طلبه من الواقع رهيباً.

ولقد كانت كثيرة الطلبات من الرب ومن الواقع ومن الجمهور في عصرنا، هذا العصر الذي بدأت فيه السموات والأرض في الاستجابة للسكير المصطفى المستيقظ من غيبوبة نبيذه.

نيسيم سوبا، المسؤول عن تسجيل الأولاد للتثقيف التوراتي الرسمي، والذي يعمل كمستشار تربوي إقليمي وصاحب مكتب «اخوتنا»، كرر أكثر من مرة للمستمعين أن الإنسان يختلف عن الغوي وعن البهيمة، واليهود فقط هو الإنسان، وكل الغويين ما خلقوا إلا لكي يحفظ اليهود التوراة. وبعد حلول المخلص، وهو الأمر الوشيك، فإن كل الغوييم سيبادون لأنهم ليسوا بني آدم.

ولكن الإبادة لم تقتصر على الغوييم وحدهم، فنحن ملزمون، من أجل سمو الإنسان اليهودي، ألا نكون دنسين، وهذا لا يحصل إلا عبر الفصل بين البنين والبنات. إن اليهود الآخرين يقذفون ببناتهم البائسات إلى عرين الأسود، وهؤلاء الخطاة الذين يفعلون هذا لا مجال لتوبتهم، وستكون جهنم وبئس المصير معاد هؤلاء الأهل الخطاة حتى وإن كانوا أتقياء. أما من حالفه الحظ ولم يفسد بعد أبناءه وبناته فسيسير في طريق حجة العصر، الرابي يوسف، في تربية الأبناء وحشمة البنات، وسيفوز فوزاً عظيماً، لأنه من الواضح جداً أن حلول المسيح وشيك جداً. أما الأهل غير الأتقياء، فلن يكونوا على قيد الحياة حين يجيء، فهم لا يستحقونه، فالأتقياء فقط هم الجديرون بذلك.

أما حقيقة سيطرة الدخلاء قبل مجيء المسيح فاتضحت لجمهور آخذ بالاتساع. ففي ذاك اليوم بالذات الذي ألقى فيه نيسيم سوبا موعظته، شرح الرابي اسحاق نويغرشطال نظرية الدخلاء أمام رعيته، فهؤلاء الدخلاء العلمانيون اليساريون المتنكّرون كيهود سيحاكمون وسيبادون حقيقة قبيل

مجيء المسيح (وأيضاً أوري زوهر في التلفزيون، شرح لمن لم يفهم كلامه أن اليسار العلماني هو الدخلاء. والأمر نفسه قاله يسرائيل هارئيل المعتدل في هارتس، حيث قال انه لابد من الانفصال عن اليهود غير الحقيقيين خطاة العجل، والذين هم الدخلاء).

وقد قيل للجمهور أن كل غاية التوبة والعودة للدين إنما هي تلطيف حرب يأجوج ومأجوج. وهذه أيضاً كانت غاية كل اصلاحات بابا سالي المقدس. ومن لا يلحق نفسه بالصلاح في الزمن الوجيز المتبقي فإنه مقضياً عليه في الكارثة. والآن فإن الاصلاح قد أنجز لدرجة أنه ليس متأكداً إنْ كان ثمة وقت لانتظار البقرة الحمراء لتبلغ السن الملائم، وهو سنتان أو ثلاث. فالمسيح سيأتي قبل ذلك.

في دروس عوباديا يوسف والتي تُبث بواسطة القمر الصناعي في التلفزيون وفي محطات الإذاعة الثلاث، كان الجمهور يغني مرة بعد أخرى: «ليحيا سيدنا ومعلمنا وشيخنا ولي عصرنا» على إيقاع النغم الحابادي: «ليحيا سيدنا ومعلمنا وشيخنا الملك المسيح لأبد الأبدين»، وهي المعزوفة التي كانت تغنى للرابي اللوبابيتشي.

إذاً فإن حسيديي يوسف لم يتوجوه بالمكشوف كمسيح فعلي، بل بمنزلة مسيح، أي الرجل الجدير بأن يكون المسيح متى حانت اللحظة. إذ إن تعريف المسيح، حسب الرامبام، كما نذكر هو الرجل الأتقى في عصره والذي يفرض التوراة على إسرائيل. وبالفعل فإن عوباديا يوسف يستطيع بسهولة المطالبة بلقب صالح العصر والمؤثر على الكثيرين عبر حركة شاس. وإذا كان الخلاص، حسب إحساس ربابنته، قدجاء، فعوباديا يوسف هو المسيح.

وفي كثير من الأغاني تم الغناء مراراً وتكراراً على الرجل الصالح الشافع لكثيرين، هذا الصالح الذي جاء بن ايش حاي بذاته ليبشره بسمو منزلته.

ان ولي عصرنا، رئيس عصرنا، هو الرجل الذي يجسد توراة موسى، والرجل الذي تتجسد فيه رؤيا عوباديا .. إنما هويوسف المسوح مسيحاً.

# الفصل الثاني عشر

## اليمين واليسار
## سر النظام السماوي

يعيش عالم المعنى اليهودي كما يفهمه الموروث الديني في أجواء التقسيم الهرمي بين الطهارة والنجاسة، بين الإله والآخر، بين الملائكة والشياطين، بين الجنة والجحيم، بين اليهود والأغيار، أما التقسيم الأساسي الذي يرمز إلى كل التقسيمات فهو التقسيم بين اليمين واليسار. ومن المتعذر فهم يهودية عصرنا دون التعرف على عالم المعنى اليهودي الذي يحتل اليمين فيه منزلة إلهية، بينما يكون اليسار شيطانياً سفلياً. وقد جاء في الزوهر في فصل الإسباط:

«ثمة يمين وثمة يسار. اليمين هو إسرائيل واليسار هو باقي الشعوب الوثنية، اليمين جنة واليسار جحيم».

والتقسيم بين اليمين واليسار قائم منذ القدم في اليهودية وله تأثير قوي في التفاسير والشروح والشريعة. والقبالاة من ناحيتها وسعت عمق ومعنى هذا التقسيم إلى حالته القصوى، وصنفت العالم بكل جزئياته من نبات وحيوان وإنسان وملائكة ما بين يمين ويسار. فبالنسبة لليهودية القبالية، ينتمي كل ما هو جيد في عالمنا إلى الجانب الأيمن المقدس، وهذا هو حال اليهودي والرجل والبهائم الطاهرة والروح. وفي الاتجاه الآخر، في جانب اليسار، تحتشد قوى الشر والأجنبي والمرأة والبهائم النجسة والجسد السفلي بغرائزه. وجوهر الدراما الإلهية في

هذا العالم هو سعي اليمين ليسود على اليسار، ولابد لليسار أن يخضع، وأحياناً كثيرة أن يُذبح، أمام اليمين الذي لابد له من الهيمنة في هذا العالم.

ان تمرد اليسار وخروجه عن دوره ومحاولته السيطرة هو العلامة على تهشم الأواني وعلى الوضع الناقص الشتاتي للإنسان في هذا العالم. ولا يمكن للمسيح أن يتجلى إلا بعد أن ينتهي اليمين من إخضاع اليسار

إن التقسيم بين اليمين واليسار، باعتباره الأساس الذي يقوم عليه العالم، مثله مثل الحرب الصوفية بين اليمين واليسار، كان دائماً جوهرياً في اليهودية. وفي وقتنا الحالي كانت دلالات التقسيم بين اليمين واليسار تزداد مع ازدياد قوى القبالاة، كماكان للقوة الصوفية في الصراع بينهما - اليمين واليسار - تأثير لا بأس به في تحديد موقف الدين من الصراع السياسي في البلاد حيث إن أطراف هذا العصر ينقسمون إلى يمين ويسار. ولقد كان للوصف يميناً أو يساراً تأثير هائل في جعل الأغلبية المطلقة من الإسرائيليين كاملي الإيمان تنتخب اليد اليمنى بحماسة زائدة. وقد كتبت صحيفة «يتد نئمان» في ذروة اشتعال المعركة الانتخابية، عام 96، لصالح اليمين:

«سنطيع ربابنتنا حتى إن قالوا إن اليمين يسار واليسار يمين. إلا أن الربابنة يقولون إن اليمين يمين واليسار يسار. ولذلك فإننا سنخرج كلنا لحسم هذه المعركة».

للانحياز إلى الجانب الأيمن معان خفيفة بعيدة المدى. إلا أن هذا الاختيار له أثر ملحوظ في عالم الشريعة الذي يعمل بالمحسوسات وعالم الظاهر. ومن الأمثلة على هذا أنه لا يجوز حمل التوراة إلا باليد اليمنى، والأمر نفسه في وضع التفيلين. وفي غسل اليدين وفي سائر الشعائر القدسية لا مناص دوماً من إفراد اليمين للقداسة. والقدس أيضاً متماهية مع اليمين، فهذا أمر يجب ألا ننساه. وأيضاً في بركة الآباء في المقرا، كان هناك على الدوام دور لليد اليمنى بصفتها المانحة للطف الإلهي. وهكذا،

على سبيل المثال، صالب يعقوب يديه لكي يبارك، على النحو الذي أراده، منشيه وافرايم، أحدهما يميناً والآخر يساراً.

يرد في سفر اللاويين وصف غامض للقرعة التي يجرونها بين أضحيتين، حيث تُقدم إحداهما للرب وأخرى لعزازيل[1]. والكبش الذي تقع عليه القرعة ليقدم لعزازيل (ممثل الشيطان) كيلا يثور على إسرائيل، يرسلونه حياً إلى البرية. وقد وقع الرابي عكيفا، وهو الذي مسح باراكوخيا مسيحاً، في مأزق مبدئي في هذه القصة. فما هو الحكم عندما تأتي القرعة على الكبش الأيمن ليكون من نصيب عزازيل الشيطاني ويقع نصيب الرب على الكبش الأيسر؟ وحسم الأمر بأنه لا ينبغي تغيير نتيجة القرعة، فيجوز، هذه المرة، إعطاء اليمين لعزازيل. وقد كان اجتهاده أنه مع انتماء اليمين للرب، فلابد من الالتزام بما تقره القرعة لأنهم إنْ بدلوا النتيجة فسيدّعي الكفرة أن اليهود يؤمنون بوجود سلطتين مستقلتين، إلهية وشيطانية، بينما الرب واحد وهو الذي يحسم نتيجة القرعة، وهو الذي يحكم الشيطان أيضاً، وهو الذي يقرر إرسال، في تلك الحالة بالذات، المعزى اليمنى إلى عزازيل، مع أن الوضع الاعتيادي للأمور كما هو مفهوم، يقرر أن الجانب الأيمن هو الجانب المقدس، بينما اليسار ينتمي إلى عزازيل.

توسع القبالاة عالم اليمين واليسار لدرجة أن ترتيب الحركات في الصلاة، بقدر ما تكون هذه الأخيرة ملتزمة بتوجيهات أري، محكومة بالتقسيم بين اليمين واليسار. إلا أن الأمر لا يتوقف عند الصلاة. فكتاب التوراة وطريقة وضع التفيلين وكل تفاصيل الحياة تقع في التقسيم الهرمي بين اليمين واليسار. فمثلاً في المعضلة الكبرى في كيفية ترتيب ربط الحذاء، ثمة تشريع في كتاب القبالاة الأساس، يقول:

[1] عزازيل: اسم يطلق على صخرة او تل او جبل يؤخذ إليه قربان الضحية ومن هناك يطرح به إلى الأسفل لتتحطم اطرافه وأضلاعه. ويتم هذا الطقس في يوم الغفران، في حين يقدم القربان الآخر للرب. ويقرن في الأدبيات اليهوديات عادة بين عزازيل والشيطان. فعزازيل يمثل نقيض الرب – م –.

«عندما يرتدي المرء ثيابه، لابد له من الانتباه في كل مرة يفعل فيها هذا، فيضع جانبي ثنيتي ردائه في الجانب الأيمن ويمسكها بيمينه ثم يرتديها. كان آري ينتعل الحذاء الأيمن أولاً ولا يربطه، ثم ينتعل الحذاء الأيسر ولا يربطه، وبعد ذلك يربط الأيمن وبعده يربط الأيسر..».

وكما قلنا، فإن التقسيم إلى يمين ويسار يستغرق العالم الظاهري والباطني. ليس كل ما هو موجود في خانة اليسار هو «آخر» وشيطاني، ولكن كل ما هو شيطاني موجود في اليسار، وكل ما هو موجود في اليسار يكون أدنى في منزلته مما يقابله في الجهة اليمنى، ولذلك فإنه ملزم بالخضوع والتذلل أمام اليمين.

وكذلك فإن المراتب الوجودية بالقدر الذي تحمله من مزايا إلهية تقع في دائرة هذا التقسيم. فالمراتب التي في اليسار ليست نجسة ولكنها ملزمة بالخضوع وتقبل نفوذ ما يقابلها من اليمين لأن منزلة هذه الأخيرة أعلى.

على هذا الأساس لابد، على سبيل المثال، للمخلوقات الخيرة التي في اليمين من السيطرة على ما يقع في اليسار وإخضاعها والتأثير عليها. فالأب يأتي في اليمين والأم في اليسار.. الخ. ومما يجدر ذكره هنا أنه لولا السيطرة الصحيحة لليمين على الموجودات التي في اليسار لكانت الأخيرة عرضة للنفوذ الشيطاني. فهكذا فإن الأحكام القاسية التي تقع في اليسار تأتي في خانة مراتب الأحكام التي تنتمي إليها قوة المرأة. وعليه فلابد من الإبقاء السليم على نظام التأثير والسيطرة.

إن البنية الموضحة أدناه تمثل مراتب وخانات الخلق حسب القبالاة، والأسهم تمثل التأثير والسيطرة الملائمتين، والأسماء التي بين قوسين هي أسماء مختلفة لنفس المرتبة[1]:

---

[1] حسب القبالاة، هناك «سفيروت» عشرة للوجود. وقد ترجمنا في هذا الفصل كلمة «سفيروت» والتي تعني العدد، كما يترجمها كثيرون، بكلمة مراتب، وهي ترجمت اعتمدت المعنى لا الحرف. علماً أنه بالإمكان إبقاء اللفظة الأصلية كما هي دون ترجمة «سفيروت». كما أن المراتب نفسها يمكن إيرادها وإبقاءها بأحرفها الأصلية، إلا أننا ارتأينا ترجمتها – م –.

التاج

الحكمة (الأب) من اليمين　　　　الفهم (الأم) يسار

البِر (أبراهام) يمين　　　　دينونه (إسحاق) يسار

الجمال (يعقوب)

بهاء　　　　حسن

أساس (القديس) (الختان)

ملخوت (الحضيض) الأنثى

واتجاه التأثير في الرسم أعلاه بيِّن.

وعلى صعيد اليمين واليسار تُطرح أسطورة الشمس والقمر اللذين خلقا متساويين، إلا أن القمر تمرد وطالب أن يكون أكبر من الشمس، ولذلك تم تقليصه ليصبح أقل منها، وهو ما يظهر في الليل. علاوة على ذلك فإن نور الشمس هو الذي يضيء القمر الذي تنحصر وظيفته في تلقي تأثير الأعلى منه. والمنوال نفسه بالنسبة إلى كل المخلوقات اليسارية التي يتوقف دورها على تلقي تأثير المخلوقات اليمينية الأسمى. ففي الخلق، حسب آري، فإن النور الإلهي يصلح المادة الدنيا التي يستخدمها الخالق كأداة، وقد أخذ كوك، كما أوضحنا آنفاً، نموذج الخلق كما عرضه آري وطبقه على خلق الصهيونية، فهذا يستخدم النور الإلهي ويؤثر على المادة العلمانية السفلى

التي مصدرها في اليسار. وآري أيضاً كان قد استعار مفاهيمه من الموروث الذي سبقه الذي يزخر بالأصول التي نرى فيها المخلوقات العليا تستخدم الأدنى والغرض من خلقها بالذات هو خدمة الأعلى، والذي هو غايتها أيضاً. وهذا الأمر يسري، كما قلنا، على الأجنبي واليهودي، المرأة والرجل، وغير ذلك من الحالات العديدة. وفي هذه الدراما هناك دور محدد لممثلي اليمين وهو التأثير على ممثلي اليسار، بينما وظيفة الأخيرين هي الامتثال وتلقي ذاك التأثير، إلا أنهم يتمردون في بعض الأحيان على دورهم، مثلما فعلت حواء وهي تحت تأثير الشيطان، إذ بدلاً من أن تمتثل لسيدها الرجل، قامت بإغواء آدم.

إذاً فإن سر وظيفة التأثير الذي للرجل على المرأة ولليهودي على الأجنبي، والأعلى على الأدنى عموماً، يكمن في كون الأولين يمثلون اليمين بينما الأخيران يمثلون اليسار. ولن تسود الهرمونيا العالم إلا من خلال انصياع اليسار لليمين. وحتى اليسار يستطيع إصلاح نفسه النجسة.

إذاً، فإن العالم الحسي برمته يسير وفق دراما سيطرة اليمين على اليسار، وهذا التقسيم والسيطرة لا ينحصران في الرجل على المرأة، وفي اليهودي على الأجنبي، بل إن البهائم الطاهرة تنتمي إلى اليمين بينما تنتمي البهائم النجسة غير الطاهرة لليسار. ويأتي الحمار على رأس البهائم النجسة. فالحمار ومعه الكلب يمثلان رأسي ممثلي اليسار على وجه البسيطة. ولهذا السبب فإن من بالغ الأهمية، كما هو مفهوم، التدقيق في طهارة البهيمة التي تقدم للقربان والبهائم المعدة للطعام. واليمين لا يقيم إلا في بهائم طاهرة، ومن يأكل من بهائم اليسار فإنه يُدخل الدناسة إلى جوفه وجسده. وهذا الانقسام بين اليمين واليسار يتجاوز الأرض إلى الملائكة التي تنقسم بدورها إلى يمين ويسار، إذ ينتمي إلى اليمين كل جيش الملائكة الأخيار، الملائكة العلويين، في حين يطلق على كل ملائكة التخريب جانب اليسار، وهؤلاء الأخيرون هم الملائكة الذين تمردوا على نفوذ اليمين المبارك وأرادوا الاستقلالية فأقاموا عالم

القشور والمحسوس، عالم «الآخر»، والذي هو الجانب الآخر، أي اليسار. ان عالم الطرف الآخر، طرف اليسار، لهو مملكة الشرور، مملكة المؤذين، مملكة ملائكة التخريب والأرواح والشياطين. إن عالم الحمار والكلب والأفعى واسماعيل وعملاق على الأرض، وعالم ليليت وعزازيل وايدون واغرت بنت محلات ونعمة واشمداي وكل جيشهم، وكل ممالك الشر سواء التي في العالم الأرضي أو في عالم الروح، وكل عالم الشر الذي في عالم القشور، كل ذلك ينتمي إلى جانب اليسار، أي الطرف الآخر، أي ملكوت الشر والشيطان، أي الملاك المتمرد صمائيل. هذا الملاك الذي لم يكن جزافاً أن تأتي حروفه من كلمة «يسار»[1].

لقد استفاضت القبالاة بشكل واسع في تفصيل جزئيات مملكة الشر والقشور، أي مملكة اليسار. ويبرز هذا بشكل خاص لدى القبالاة ذات الأصول البولونية واليمنية، ولعل مرد هذا إلى أن الصعوبات التي كانت هاتان الجاليتان اليهوديتان تواجهانها جعلت شيوخ القبالاة فيهما يخصصون كل وقتهم لتقديم وصف دقيق لعالم الشر بمسمياته المختلفة. وكما نرى، فإن الانشغال القبالي هذا في الجانب المظلم، جانب اليسار، تزايد لدى القبالاة المسيحانية في الأرض المقدسة وهي تواجه الإغراءات الحديثة للغريزة.

ومع ذلك، فإن التقسيم ما بين يمين ويسار كان على الدوام، بل منذ البدء، جوهرياً في القبالاة إلى درجة دفعت منتقديها من الأوساط المعارضة إلى القول أنها تطرح السلطة الإلهية والشيطانية وكأنهما سلطتان تتقاسمان السيطرة على العالم، وعلى حد تعبير لغة الزوهر المقدس: «الذي يوجد في الأعلى يوجد نظير له في الأسفل. ففي الأعلى ثمة يمين ويسار، وفي الأسفل هناك إسرائيل والأمم. إسرائيل تحتل موقع اليمين في قداسة الملك المقدس، بينما تقع الشعوب الوثنية (كل الأغيار) في اليسار، أي إلى جانب روح النجاسة. وكل مراتب اليسار هي أدنى من كل المراتب الأخرى».

---

[1] في العبرية تتطابق احرف كلمة صماليل ويسار — م -.

**وفي الزواهر أيضاً:**

«مكتوب أن التوراة تعطى للإنسان بيمينه. وهذه هي التوراة التي هي يمين. ومن يخلط بين اليمين واليسار إنما يخرب العالم».

والأمر نفسه فيما يتعلق بالحمار النجس. فبحسب الزوهار، فإن الجانب اليساري يحتوي، علاوة على ما فيه من حمير، عشر مراتب من الشر تتوزع في مستوياته المختلفة. فحتى في اليسار، في ما بين الأنجاس، هناك تقسيم ليمين ويسار:

«الحمير الضارون موجودون في بداية الليل. كان بلعام يفكر طيلة الليل ولم يجد تحت تصرفه إلا أتانه (من خلال الجنس مع أتانه في نهاية الليل يستجلب قوى اليسار إلى نفسه). فحتى في دوائر الذين في الأسفل (مملكة الشر) هناك يمين ويسار. فالحمير تأتي في اليمين بينما تأتي الاتن في اليسار. والملك المسيح سيسيطر على الحمار».

كل سر النظام العالمي يكمن في سيادة اليمين على اليسار. وكما أنه لابد للمسيح من السيطرة على الحمار اليساري، فهكذا أيضاً سر ترتيب غسل اليدين، وفق الزوهر:

«عندما ينام كل أبناء العالم يبسط الليل جناحيه فتنطلق روح النجاسة وتدنس العالم، فيتنجس الجسد من جانب الأفعى الشريرة التي تسوده وتسود على يدي الإنسان النجس. لذا ينبغي على كل رجل أن يبدي الحذر كيلا تسيطر الأفعى عليه... ولأجل هذا ينبغي على الإنسان أن يغسل يده اليمنى أولاً بيده اليسرى وذلك لتسليط اليمين على اليسار ولكيلا تفسح المجال أبداً أمام غريزة السوء لتسود».

ومن هذا المنطلق فإن الحرب ضد غريزة الشر هي حرب مقدسة ضد اليسار. ولكن حيث إن غريزة الشر هي العملاق الداخلي، لذلك رأينا لافتات الشوارع عشية انتخابات 1996 تدعو إلى محو عملاق بواسطة الانتصار على اليسار في الانتخابات، فيتحقق بذلك طرد روح النجاسة من البلد.

وإضافة إلى هذه الحرب ضد اليسار، فإن الحرب ضد الغريزة تتمركز في الحرب ضد مهيِّجة عالم اليسار، أي المرأة.

تؤمن اليهودية أن للأنثى، للمرأة بما هي كذلك، دوراً متميزاً في قوى الآخر التي يتشكل عالم اليسار منها، فهي (المرأة) التجسيد للأحكام القاسية التي تقع في خانة اليسار. وحتى ما قبل هيمنة القبالاة، كانت الجمارا والمدراش وتفاسير التوراة ترى أن المرأة جسد لغريزة الشر وسهلة الإغواء، وأن الشيطان خُلق مع خلقها. ولهذا فإن الحنش جاء إلى حواء لأن بينهما حلف المتماثلين. وما يسود العالم الآن هو كصنيع الحنش مع حواء. فقوى الدناسة، قوى الأفعى، والأحكام القاسية والقشور، كل هؤلاء يجدون سيطرتهم اليسارية في المرأة. ولأن المرأة مسكونة بالسوء فإن آري المقدس طلب الانتباه في أسلوب انتعال الحذاء، وضرورة تقديم اليمين على اليسار. فاليهودية لم تنتظر فرويد لتقرر أن وضع الحذاء عملية جنسية كالولوج في الأنثى. وحتى موسى توقف عن اتيان زوجته حتى قيل له «اخلع نعليك»، ولحسن حظه كرسول للرب، فلقد امتنع عن اتيان الأجنبية لأن صفورة كانت كوشيه. لقد صبغت اليهودية كل عالم اليسار والنساء المتسلطات عليه بألوان جنسية. فالمرأة، كمفهوم، تتمتع، كما قلنا، بالقوة الشيطانية لإغواء غريزة السوء، اغواءً يقود إلى انتصار ملائكة التخريب. وكما نذكر فإن آدم الأول اعتزل حواء الأولى لأنها جعلته يخطئ ودنسته حين استجابت لإغواء صمائيل في صورة الأفعى، وكانت تلك الاستجابة على نحو جنسي مما أدخل قذارة الأفعى في كل النساء إلى الأبد. وفي تلك السنوات المائة والثلاثين التي ابتعد خلالها آدم عن حواء كانت ليليت تأتيه ليلاً وتغويه، ومن هذا الزرع الذي كان آدم يقذفه في الليل جاء إلى العالم مئات الألوف من ملائكة التخريب، وهم جيش كامل من اليسار المؤذين الذين يترصدون للإنسان على أبواب بيته.

وعلى هذا النحو جاء من آدم وليليت آلاف الشياطين الذي كان بكرهم المدعو اغريماس، وهذا الأخير تزوج من امريت ليليت وهي ولدت له

902 ألف من الحيوات الشيطانية الليلية، وبكر اغريماس هو ابلماس الذي تزوج من غوفريت ليليت وولدت له عشرات الآلاف من الشياطين وبكر ابلماس اخريماس وتزوج افينتا ابنة فوزناي.. الخ، وبهذه الطريقة يُبنى عالم القشور، عالم اليسار، وتتزايد قوى اليسار بفضل نسائه المهيجات، وبفضل نقطة الزرع التي سقطت من الرجل المقدس.

هذه الدراما بين آدم وليليت التي نشأ عنها جيش اليسار، تتكرر عبر الأزمنة وتحدث بين كل رجل يهودي وبين اغواءات الغريزة التي تحرضها المرأة، الأنثى، ولا سيما نساء اليسار الفاسقات. وكما نذكر، فإن قذف الزرع اليهودي باطلاً يعتبر الخطيئة الأكبر، لا بل إنها أسوأ من القتل.

ومن هذا القتل الذي يقوم به اليهودي لأبنائه يتولد المزيد من الشياطين والمؤذين وملائكة التخريب الذين يحيون قوى القشور معززين بذلك سلطة الطرف الآخر في العالم وجالبين المزيد والمزيد من الكوارث على إسرائيل مما يؤدي إلى إبعاد الخلاص عن العالم.

إذاً فللأنثى دور هائل في مملكة اليسار وفي بناء عالم التخريب والقشور. والحق إن هذا العالم مدين للمرأة بوجوده، فكل القشور خلقت مع عملية الخلق. فعندما تحطمت الأواني خُلقت قشور الشر وفي داخلها الفتات من النور الإلهي. وقد كانت عملية التهشيم على وشك الاصلاح مع آدم الأول لولا خطيئة المرأة المغوية والتي جلبت مرة أخرى تهشيم الأواني وقيام مملكة الشر، مملكة اليسار، مجدداً.

وكما نذكر فإن ثمة أدبيات متنوعةوهائلة مخصصة لصراع اليهودي ضد غريزة الشر التي يسرح الشيطان فيها ويمرح، وفي هذه الأدبيات شتى الحلول الخلاقة، بدءاً من السير على أطراف أصابع الأقدام مروراً بالتعاويذ بأسماء القديسين وانتهاءً بأسلوب الملك داود الذي غير جلده أمام ملك جرار بإسالة لعابه على لحيته. فهكذا في وقت اشتداد الغريزة لابد من إسالة اللعاب على اللحية، وإذا لم ينجح هذا الأسلوب فلابد من الوصول إلى غاية الرضا العقلي والقلبي عن طريق التفكير بالقذارة والدناسة والبراز. فمثل

هذه الأفكار هي التي جعلت أولياء صالحين يتقيأون أمام فاسق أو فاسقة مرتدية، عن قصد، رداء فاضحاً، لإثارة غريزة الأولياء وجعلهم يخطئون. مفهوم طبعاً أن هناك أساليب أقل سلبية في الحرب ضد اليسار ولكننا نتحدث هنا عن يسار كبير وخطير جداً.

في هذا العالم الدنيوي، يضم جانب اليسار كل عالم القشور وكل الشرور الأرضية، كما ينتمي إليه الغوييم لأنهم من عالم القشور بالطبع، هذا العالم الذي، متى حل الخلاص، سيتم انتزاع الأنفس الإسرائيلية منه فيتحول إلى عالم عديم القوة، أو يختفي من عالمنا كلية.

ولكن إلى أن تحين نهايتها، تبقى قوى اليسار قوية، يقف على رأس مملكتها أشرار الغوييم وهم الأحمر[1] (ادوم) وعملاق واسماعيل واليسار المتنكر كيهود، أي الدخلاء. وعلى قدم المساواة مع هؤلاء تأتي الحيوانات اليسارية النجسة، أي كل الحيوانات المحرم على اليهود أكلها كيلا تلوث نفسه السامية بقذارتها، على رأس هذه الحيوانات يأتي ممثلوا صمائيل المباشرين، الكلب والأفعى والحمار. أما جانب اليمين، جانب الرب والخير، فهو وإن ضم القلة إلا أنها القلة المنتخبة المكونة من اليهود الصالحين والبهائم الطاهرة مثل المعزى والبقرة والحمل، فهذه بهائم تعلو بسموها الروحي، بفعل انتمائها لليمين، مرتبة الغوييم.

كما أشرنا وكما يتضح، فإن التقسيم ما بين يمين ويسار، بين جانب الخير مقابل جانب الشر، بين الصديقين والآخر اليساري الذي يكافحون ضده، كان هذا التقسيم ميداناً مفهومياً مريحاً ومهماً في الفهم الديني للصراع السياسي القيمي بين اليسار واليمين في أرض وفي دولة إسرائيل. وقبل هذا كله هناك الدراما البقائية التي تقتضي وجوب انتصار اليمين على اليسار.

منذ مبدأ الصهيونية أدرك الرابي كوك الأب، إبراهام اسحاق هكوهين كوك، أن قوى اليسار الدنس نشطة وفاعلة في داخل الصهيونية

---

[1] المقصود نسل عيسو الأخ التوام ليعقوب – م –.

العلمانية، كما أدرك أن بداية صلاح هذه القوى اليسارية إنما يكون في عالم الفعل الصهيوني، إلى أن يأتي الصديقون من اليمين ويفيضون من أنوارهم على المنتوج المادي اليساري فيصلحونه ويسيطرون عليه.

وهذا بالضبط ما نشاهده في الأدبيات الحريدية الحديثة وفي الإذاعة وفي الصحافة التي يسعدها الربط ما بين اليسار السياسي الحديث وبين اليسار الصوفي (الغيبي). فجوهر كينونة اليسار السياسي في إسرائيل يقوم، تماماً مثلما هو حال ملائكة اليسار، في التمرد على أولئك الذين كانت الغاية من وجودهم هي السيادة والذين يجسدهم على الأرض في إسرائيل اليمين الديني. فاليسار السياسي، كما ملائكة اليسار، يحاول مدفوعاً بشره، أن يقدم بديلاً مغرياً عن اليمين الرباني. وهكذا فإن اليسار في إسرائيل، على حد تعبير الرابي شاخ، يحاول دفع الربابنة إلى الاثم، فهو - اليسار - من ثم أسوأ من اليسار العماليقي النازي الذي لم يحاول إغواء ودفع النفس اليهودية نحو الخطيئة، مما يحرم اليهود المساكين من العالم الآخر. وعلى هذا الأساس أصدر الرابي شاخ الفتوى بأن حكم اليسار اليهودي الحديث هو عملياً حكم اهدار الدم، علماً أن هذا الحكم لا يصدر إلا على من يحاول الاعتداء على نفس اليهودي. والميزة الكبرى في إهدار الدم الصادر بحق اليسار هي في أنه الحكم الوحيد الذي يجيز قتل يهود دونما محاكمة ودون مجلس قضائي. فما عليك سوى أن تقوم وتضرب ببساطة، والأمر الوحيد الضروري حدوثه هو تنفيذ الحكم في الواقع. وكما قلنا، فبحسب شاخ، فإن إهدار الدم نافذ على اليسار بشكل عام ودائم ودونما ارتباط بفعل معين يقوم به اليسار.

وإهدار الدم ناجع في القبالاة أيضاً، إذ إنه يحول دون مأزق التناسخ. أو لم يكن السبب الذي جعل شاؤول يخطئ ويعطف على أجاج ملك العماليق أنه رأى بروحه القدسية النبوية أن أجاج العماليقي، سيخرج عن طريق هامان الإجاجي الشرير، متناسخاً بصديق كبير هو الرابي شموئيل شيليت من بني براك. إذاً فإن شاؤول لم يخطئ، ولم ينزع الملك عنه إلا لأنه كان نقياً أكثر مما ينبغي.

والشيء ذاته مع موسى، فقبل أن يقتل المصري حاول أن يطمئن( ونظر هناك ليتأكد ألا أحد يراه) بأن لا يخرج صديق من تناسخ الرجل المصري (الذي كان هو ذاته تناسخاً من قايين)، وعندما اطمأن ألا أحد هناك، قتله. ففي إهدار الدم ينبغي إسقاط التناسخ من الاهتمام، والاهتمام فقط بالتنفيذ. وهذا ما ينطبق على اليسار في إسرائيل.

ليس عصرنا هو أول عصر يصدر فيه حكم إهدار ضد اليسار. فبحسب الموروث التفسيري المأخوذ به فإن خطأ قورح لم يكن سوى محاولته فرض سيطرة اليسار على اليمين. يطرح الزوهر مسألة قورح على الشكل التالي:

«أراد قورح استبدال اليمين باليسار فعوقب على هذا». ووفق الزوهر ووفق خيرة المفسرين فلقد أراد قورح أن تسير الهالاخاة على نهج اليسار وليس على نهج اليمين. ولأن قورح اعتقد أن الهالاخاه تتبع النهج اليساري فتحت الأرض فاها وابتلعته حياً. وهو من أولئك الأشرار الذين لن يفوزوا بالبعث، لأن من يتبع شريعة اليسار يكون الموت حكمه ولا غفران له.

وليس في عهدنا فقط تفتح الأرض فاها لتبتلع اليسار العلماني، وليس فقط ضد شرير مثل كورح يحدث هذا، بل ان صديقين مثل ربابنة بيت شماي واجهوا هذا الخطر. تقول اليهودية ان أقوال بيت هيلل وبيت شماي هي أقوال إلهية، وإن الهالاخاه هي بيت هيلل ولكنها تضيف إلى هذا أن من يتبع هالاخاه بيت شماي فإن حكمه الموت. وسر هذا الحكم بالموت على صديقي بيت شماي، وهم الذين قيل أن أقوالهم إلهية، ، يكمن في دراما اليمين واليسار. والتفسير لهذا هو أن هيلل يفتي على نهج الرأفة واللطف، وهذا هو نهج اليمين، بينما يسير بيت شماي على نهج حد الشريعة ونصها، فهو لذلك من اليسار علماً أنه لا يجوز ولا بأية حال من الأحوال السير في عالمنا هذا على نهج اليسار حتى وإن كان هذا اليسار يساراً إلهياً. فمن يتبع مذهب اليسار موتاً يموت. وعليه فإن من يحاول فرض الهيمنة اليسارية على عالمنا فإن حكمه صريح: الموت.

إن سر فعل التقريب[1] يكمن هو الآخر في الصراع بين اليمين واليسار. فأبراهام يمثل مذهب الرأفة واللطف، أي اليمين، فيما يمثل اسحاق[2] نص الشريعة، أي اليسار. وعليه يكون من المفهوم أن اليسار ملزم فرضاً أن يقبل التضحية بذاته على مذبح اليمين وأن يكون مستعداً لأن يُذبح. فأساس الغاية من التقريب، بحسب القبالاة، هو التضحية باليسار على قدمي اليمين، فهذه هي التضحية التي تصلح العالم. وقد فهم اسحاق، كما يقول التقليد، هذه الحكمة، فأسعده أن يُذبح حتى يعيد الأمور إلى نصابها، أي سلطة اليمين على اليسار. ولقد طلب اسحاق أيضاً من أبيه أن يحسن شد وثاقه كيلا يتزحزح فيفسد القربان، وكيلا يفسد شرعية الذبح. كيف لا واصلاح عظيم يوجد هنا؟؟

ومادام الأمر كذلك، فإنه يبدو للأعين اليهودية أن التضحية باسحاق وقتنا، اسحاق رابين، بطل الحرب، بأيد يهودية، إنما جرى بأيدي رجل رأفة. والرأفة كما نذكر، تنتمي لليمين. وبالفعل فإن تقريب اسحاق رابين فسحت المجال أمام سيطرة اليمين على اليسار الخاطئ.

لذلك ليس ثمة ما يدعو اليسار في إسرائيل إلى الحزن أكثر مما ينبغي، فما عليه سوى أن يؤدي دوره وأن يخضع لليمين بسرور، فدور الخاضع ليس أبدياً.

ثمة مستقبل مشرق ينتظر اليسار في إسرائيل. فبعد أن يُخضع اليمين بيده الشديدة اليسار الأرضي، يصبح قدوم المسيح وارداً. صحيح أن الرامبام يقول أن فرائض التوراة تبقى على ما هي عليه وكما جاء بها موسى إلى الأبد، حتى بعد مجيء المسيح، إلا أن أغلب تيارات القبالاة تقول أن تغيّراً ما سيطرأ على التوراة بعد الحلول. فبعض غلاة القبالاة يعتقدون أن خلقاً جديداً سيبدأ مع قدوم المسيح. فوفق أفضل التقليد فقد كان الرب تبارك يخلق عوالم ويخربها إلى ان خلق عالمنا هذا. والكثير من الشرح

---

[1] من تقديم القربان – م – .

[2] يجب ان نلاحظ هنا أن اليهودية تعتقد ان اسحاق، وليس اسماعيل، هو من كان سيقدم قرباناً –م–.

والتفسير والدرس قيل عن ذاك الاصحاح من سفر التكوين الذي يسرد الملوك الذين ملكوا قبل ان تملك إسرائيل. فهذا الاصحاح يتحدث عن حكام العالم الذين سبقوا عالمنا. ويقول بعض شيوخ القبالاة أن هذه العملية - عملية خلق العوالم - لم تنته، وان عالمنا هذا سيختفي وسيشاد عالم جديد منه. وفي تشابه مع نظرية الانفجار الكبير الذي قال بها اينشتاين وأتباعه، التي ترى أن العالم يتمدد إلى أن يبدأ في الانكماش ثم الاختفاء ليعود من جديد، على هذا الغرار خلق أولئك القباليون عالمهم. فمن وجهة نظرهم، فإن كل عالم إنما هو عبارة عن حالة خلق معينة.

ونحن الآن في العالم السادس، عالم الرأفة والخير الذي يعقبه عالم نص الشريعة وحدودها. والانتقال إلى العالم الجديد يحصل مع الخلاص الذي يجترحه المسيح.. وفي عالم ما بعد الخلاص تأتي توراة جديدة، توراة من أحرف التوراة الحالية نفسها إلا أن تفسيرها يكون حسب قراءة معكوسة. فما هو مسموح اليوم سيكون محظوراً في العالم القادم والعكس بالعكس. فالمحظور الآن سيصبح فريضة بالذات. ففي العالم القادم سينام اليهود مع المحارم المحظورين عليهم الآن. وان ما يستنكره التلمود على أمون، ملك إسرائيل، باضطجاعه مع أمه (المندهشة منه! فأية لذة يجدها في المكان الذي خرج منه) هو بالذات ما سيفعله القديسون. فتوراةٌ مقلوبة ستكون توراة ذاك الوقت. إلا أن أغلبية القبالاة تعتقد ان التغيير الذي يحدث بعد المسيح سيكون أكثر اعتدالاً، فكل ما هنالك أنه سيتم ذبح غريزة الشر وحينذاك يختفي اليسار. أو أن الهالاخاه تتغير من اليمين إلى اليسار، من الرأفة واللطف إلى حرفية الحدود الشرعية. ففي وقت مجيء المسيح يتضح مغزى القول: «هؤلاء وأولئك من كلام الله الحي هم» الذي قيل على بيتي شماي وهيلل. لأن اليسار يذبح وقت مجيء المسيح فلا تعود بعد ذلك اغواءات. ووقتذاك سيكون ممكناً مقاضاة اليهود وفق النص الحرفي لحدود الشريعة، والذي هو مذهب بيت شماي المتشدد، لأنه بعد مجيء المخلص لن يكون ثمة سبب مخفف للإثم طالما أن الغريزة المغوية قد ذبحت وان ليليت

تكون قد اختفت. فإثم اليهودي يكون إذاً بفعله هو. وهكذا بعد مجيء المخلص وذبح اليسار على الأرض سيسود على العالم مذهب اليسار، مذهب بيت شماي، مذهب الالتزام الحرفي بنص الشريعة وحدودها.

إنه لمستقبل مشرق ذاك الذي ينتظر اليسار بعد مجيء المسيح. ولكن إلى أن يحين ذاك الحين لابد من مواصلة التضحية باليسار في البلاد على مذبح اليمين المظفر، تماماً كما حصل مع اسحاق[1] بصفته ممثلاً لليسار. فكل ما يحدث وسيحدث إنما كالموعود وحسب الترتيب السماوي الصحيح يحدث.

---

[1] المقصود اسحاق رابين.

# الفصل الثالث عشر

## العلماني

يناقش هذا الفصل العلماني كما تراه الثيولوجيا وكما يرى نفسه، وكما ينظر هو إلى العالم الثيولوجي عموماً وإلى المتدينين خصوصاً. ولهاتين المسألتين المترابطتين تأثير هائل على الهوية الإسرائيلية.

في الأصول المرجعية للفكر التقليدي الديني ثمة موقفٌ سلبيٌ حادٌ تجاه «الآخر»، وبالأخص الآخر الداخلي، أي العلماني، والأسوأ من الجميع، العلماني عن وعي – أي الأبيقوري[1].

لقد أفتى الرامبام بعدم جواز الاستطباب عند طبيب أبيقوري، حتى وإن كان ثمن ذلك حياة المريض، خشية أن ينجح الطبيب وينقذ حياة اليهودي، الأمر الذي من شأنه إغراء آخرين في السير في طريق الأبيقوري الناجح، وهذا يعني دفع أنفسهم إلى الخطأ، «وجرم الدافع إلى الخطيئة أكبر من جرم القاتل».

لقد رأى الرامبام أن الأبيقوريين هم جزء من الهراطقة – الكفرة – الذين ينطبق عليهم الحكم ضد عبدة الأوثان من الإسرائيليين، وعلى هذا الأساس أفتى عليهم بقاعدة «ننزل ولا نرفع»، ومعناها أن على من رأى أبيقورياً يغرق الامتناع عن إنقاذه، وإذا كان يستطيع دفعه للماء ليغرق، فليفعل: «مأمور قتل الأبيقوريين الذين يكفرون بالتوراة والنبوءة. وإذا كان

---

[1] الأبيقوري في الفكر الديني هو اليهودي الملحد وكل متحلل من الشعائر الدينية، والزنادقة أو الهراطقة بالمعنى الديني. — م –

المرء يستطيع قتلهم بالسيف وعلى الملأ فليفعل، وإن كان غير قادر على ذلك فينبغي عليه التلفيق ضدهم إلى أن يوصلهم للقتل».

وإلى أولئك المفترض فيهم أن يقتلوا الأبيقوريين، يقدم الرامبام نصيحة عملية: «إذا رأى أحدكم واحداً منهم وقد سقط في بئر وهناك سلم في البئر، فعليه أن يبعد السلم ويقول: اني مضطر (لأخذه) لأخذ ابني عن السطح ثم أعيده لك (بالطبع لا يعيد السلم إلى الأبيقوري في البئر)، وما إلى ذلك».

وإذا ما مات ابن أبيقوري، فإن الرامبام يوجب على والديه وعلى عائلته الاحتفال بذلك وارتداء ثياب بيضاء وإعداد وليمة عيد.

وبينما كل الأخطاء والآثام الأخرى لا تحول دون اليهودي والعالم الآخر (وحتى وإن ذهب إلى جهنم قبل ذلك) لأن «شعبك كله صديقون ويرثون الأرض» - والأرض هي العالم القادم -، إلا أن الأبيقوريين وأصدقاءهم، بعد أن يبعد السلم عنهم ويموتون في هذا العالم - لا يصلون إلى العالم الآخر حسب اجتهاد الرامبام:

«هؤلاء لا مكان لهم في العالم القادم، بل يُقطَّعون ويهلكون ويدانون على حجم اثمهم إلى أبد الآبدين وهم: الهراطقة والأبيقوريون وجاحدو التوراة ومنكرو بعث الموتى ومجيء المخلص، ومن يجعل الكثيرين يخطئون».

الجمارا كذلك تقرر عدم جواز الحديث مع الأبيقوري. أما الرامبام فيندفع أكثر:

«لا ترد على الزنديق الإسرائيلي في حماقته، لأن زندقته تزداد مع النقاش معه».

ويضيف الرامبام انه حتى فكر الأبيقوري وثنيه. لذلك فإننا نخفي أي كتاب توراة كتبه أجنبي بينما الكتاب الذي كتبه الأبيقوري فلابد من إحراقه. وعلاوة على ذلك، فإن الأبيقوري لا توبة له:

«زنادقة إسرائيل ليسوا منها ولا بأي شكل، وتوبتهم لا تقبل أبداً. الزنادقة هم الذين يسيرون وراء أهوائهم حتى يصل بهم الأمر أن يدوسوا

على التوراة بقصد إثارة السخط وبعنجهية ويقولون أن لا جرم في هذا. هؤلاء ممنوع التحادث معهم وممنوع الرد عليهم. فلقد قيل (لا تقترب من باب بيتها)، وفكر الأبيقوري وثنية».

أما الجانحون من اليهود فلقد منّ عليهم الرامبام بحكم مخفف، لأنهم يقبلون من حيث المبدأ سيادة السماء ولكنهم يأثمون بحثاً عن المتعة. فهؤلاء لهم أمل التوبة، ويجوز قبول توبتهم، ولا يقتلون، ولكن يجب النأي بالنفس عن تأثيرهم، فهم ليسوا كالإسرائيليين الصالحين ولا كالأبيقوري أيضاً. ولكنهم لا يصلحون لتولي مناصب عامة. لقد سار أغلب قضاة إسرائيل على الدرب الذي عبّده الرامبام، فهم كثيرو التشدد إزاء الأبيقوري ومعتدلون إزاء مرتكبي الزلل بحثاً عن المتعة ولكنهم مؤمنون من حيث المبدأ وإن كانوا لا يمارسون إيمانهم عملياً.

ولما كان القول «على الرغم من خطأه، إلا أنه يبقى يهودياً» معنياً في الأساس بهؤلاء المؤمنين الخطاة، بقى الأبيقوريون، إذاً، في نظر الهالاخاه والمدراش كهراطقة، وكتابعين «للرجل إياه» من الناصرة، وأساساً «كمتهلينين»[1]، مع العلم ان حرب المكابيين ضد اليونانيين، لم تكن، بمعناها الأعمق، حرباً ضد اليونان بقدر ما كانت حرباً أهلية مقدسة ضد من تبع اليونان وترك إسرائيل، وبهذا بالذات تم توفير حلقة إضافية في مسلسل صراع الأنبياء والصالحين ضد الوثنيين.

من الملفت حقيقة أن الاسم زنادقة – مينيم – مشتق على ما يبدو من كلمة مؤمنين – مأمينيم، وهذه الكلمة الأخيرة هي اللقب الذي أطلقته العديد من المجموعات اليهودية، وبالأخص المسيحانية منها، على نفسها، بدءاً من أتباع يسوع مروراً بشبتاي تسفي وصولاً إلى غوش أمونيم.

بشكل عام، كانت الفتاوى ضد اليهود الذين يعطون دينهم محتوى آخر متطرفاً على نحو خاص. فخلال أيام النفي والشتات لم يبق لدى اليهود ما يتصارعون عليه سوى الصراع على السيطرة الداخلية: سيطرة الفرد على

---

[1] من الهيلينية – اي اصبح هيلينياً أو يونانياً. – م –

نفسه، سيطرة القيادة الدينية للطائفة على أبنائها. ومادام الأمر على هذا النحو، وتأسيساً على هذا لم يُنظر إلى أولئك اليهود الذين لا يتقيدون بيهوديتهم ولكنهم يعترفون في الوقت ذاته بتفوق الربابنة كتهديد، فكانت الفتوى إزاءهم متسامحة، بينما، من الجهة الأخرى كانت الفتوى شديدة القسوة ضد أولئك الذين يشكلون الخطر الأكبر، أي الذين تمردوا على سلطة الربابنة وطرحوا بديلاً روحياً.

وكل فهم للدين يختلف عن فهم التيار السائد اعتبر بديلاً، فعلى هذا النحو نظر الفريسيون إلى الصدوقيين، ونظر المعترضون إلى الحسيديم، والأرثوذكس إلى الاصلاحيين والمحافظين، إضافة إلى من كان الفهم العلماني هو بديلهم، مثل قادة الهسكالاه (التنوير) والصهيونية. هؤلاء وأولئك اعتبروا زنادقة وأبيقوريين، علماً أن التعريف الديني لهذا المصطلح يحدّده بمن لا يؤمن بأساسيات الدين ويكفر بالنبوءة وبمفسريها.

في وقتنا، نُظر أولاً إلى الصهيونية بشكل عام، ثم بعد ذلك إلى اليساريين الصهيونيين فقط، كأصحاب نموذج بديل عن الحاخام يتجسد في شخص المتنور والكيبوتسي والمقاتل الصهيوني. وبناء عليه، أي لأنهم يطرحون بديلاً عن الحاخام، اعتبروا أبيقوريين بكل ما تعنيه هذه الكلمة شرعياً وفكرياً. أما الصهيونيون اليمينيون فليسوا إلا ضالين يتقبلون من حيث المبدأ أفضلية الربابنة.

من الملفت واقعة أن التطرق إلى الأبيقورية قليل نسبياً لدى النظرية الباطنية. صحيح أن التطرق للدخلاء واسع لديها، إلا أن هؤلاء المتنكرين كيهود يمكن لهم أن يبدوا يهوداً كاملين وقادة للطائفة، ولكن ليس كأبيقوريين تحديداً.

وكما هو مفهوم، فثمة عالم بالغ الثراء من الاهتمام بالجوهر الداخلي لكل زله وزلة - كل تشذيب للحية - باعتبارها تؤذي قنوات الفيض الإلهي النازل من لحية اليهودي. إلا أن رأس حربة القبالاة الموجه إلى عالم المؤمنين فقد خص به أهل حرفية النص الذين لا يتعمقون بمفاهيم التفسير التأويلي،

أما أولئك الخارجون على العموم، فقد تم علاج أمرهم بحرفية النص تحديداً.

هذا ما كانت الصورة عليه وصولاً إلى الزمن الحديث وما حمله معه من تغييرات.

لقد أحدثت حركة الهسكلاه – التنوير – ثورة في عالم اليهودية بشكل عام وفي مفهوم العلمانية بشكل خاص. لقد هبت رياح الحداثة على العالم اليهودي وزعزعته وأنتجت شريحة واسعة من الذين رغم أنهم هجروا أغلبية الشعائر العملية وغادر الإيمان برب السموات صدرهم مستبدلينه بمعتقدات ليبرالية، إنسانية، إشتراكية، أو صهيونية، إلا أنهم بقوا يعتبرون أنفسهم يهوداً ينتمون إلى الكل، ينتمون إلى الثقافة اليهودية. وهذا الانتماء – الذي كان بديهياً بالنسبة لهم – ذو أهمية ومعنى.

اليهودية هوية جماعية، فليس محبذاً فيها أن يصلي رجل وحده، ولابد له من البحث عن نصاب الصلاة. وهو 10 أشخاص، لكي يصلوا معه. وكذلك فإن الشيخ القبالي المعزول والباحث عن الخلاص، فإنه لا يسعى وراء خلاصه الذاتي فقط، بل بالأساس وراء الخلاص الشامل لكل إسرائيل.

لم يقع سبينوزا، وهو من أوائل الذين عبروا عن العلمانية الغربية، تحت طائلة النبذ فقط، بل لم يكن له تأثير على الوسط اليهودي، وذلك لأن رؤيته كانت كونية فقط ولم تشتمل على إصلاح خاص باليهود، على خلاف أغلبية النتاج اليهودي في القرن التاسع عشر، حيث كان أغلب الذين انطلقوا من الغيتو يسعون وراء كلا الخلاصين: خلق حداثة جديدة لصالح الإنسان، وإنقاذ هويتهم هم كيهود أيضاً.

ان اليهودية اللادينية التي نمت في القرن التاسع عشر في أوروبا ضمن العوائل اليهودية في داخل البلدات اليهودية، طرحت تحدياً أمام اليهودية التي حافظت على تدينها. وكما رأينا، فلقد سار قسم كبير من اليهودية التقاليدية نفسها من وإلى الحداثة في محاولة لخلق يهودية حداثية ذات أهداف إنسانية شاملة. وكان اليهود المتحللون من الإيمان بالنسبة إلى

هذا القسم بمنزلة أخوة ضالين، لكنهم يبقون أخوة بكل معنى الكلمة، ويبقون ينتمون إلى إسرائيل. وفقط أقلية دينية تطرفت ضد الأبيقوريين وأعلنت الحداد على تاركي الدين، مع عدم سهولة إعلان الحداد على ابنك الذي يعتبر نفسه يهودياً، خاصة وان هذه الحركة كانت واسعة ولم يكن الحديث يدور على واحد في المدينة أو اثنين في العائلة.

وهنا أيضاً، بل ربما أساساً هنا، في مسألة منزلة العلماني، كانت نظرية كوك استثنائية. لقد حاول مذهب كوك أن يقدم إجابة خلاقة لمسألة العصر، مسألة العلماني، فكان – المذهب – يقرِّب من ناحية ويُبعد من ناحية أخرى. فكما نذكر فقد كان كوك يعتبر العلمانيين ينتمون إلى الجانب الآخر، جانب اليسار، ويمثلون القوى السفلى، ولكنه في الوقت ذاته اعتبر أن استيقاظ قوى الجسد المادي الدنيا في داخل الهوية اليهودية يمثل وظيفة إلهية مسيحانية، فالعلمانية تصلح روحها بالصهيونية، والصهيونية العلمانية، من وجهة نظره، هي فقط تلك التي تمهد الأساس الفيزيائي للخلاص الديني.

لقد سبق وناقشنا، وسنناقش مرة أخرى، دلالات الحل العجيب الذي قدمه كوك الذي يفتي فيه بما يخالف صهيونية القرن التاسع عشر الدينية وبدايات الحركة الصهيونية. فالصهيونية الدينية، رأت بإيجابية إلى القيم الغربية، واعتبرت أن أفضل هذه القيم، الديمقراطية والإنسانية والاشتراكية، لها جذور يهودية. أما كوك فقد نزع عن العلمانيين المضمون الداخلي الإيجابي، وبهذا النفي التقى كوك مع الحريديم، ولكنه على خلافهم، أعطى هؤلاء الأبيقوريين مرتكبي المعصية متعمدين، دوراً وفريضة ورسالة دينية: رسالة مسيحانية هم أنفسهم غير واعين لها، وبهذا أبقاهم داخل شعبهم بصفتهم يؤدون وظيفة إلهية. غير أن هذا البقاء داخل الشعب مشروط بمدى تنفيذهم للمهمة الصهيونية، أي أن يقاتلوا ويبنوا ويخلِّصوا الأرض ويحتلوا البلاد، لكي يهيئوا المسكن دنيوياً لحكم الروحيين الدينيين القادم. وعلى هذا النحو تم حشو العلاقة مع العلماني بمادة متفجرة، فهو من حيث المبدأ، منحط، ولكنه جيد طالما يقوم بالدور المناط به.

حينما بدا، في السنوات الأولى من عمر الدولة، أن روح الصبار العلماني المتمرد هي السائدة وتقدم الأجوبة على قضايا المرحلة، تم قبول العلماني، وإن كان متأخراً، في صورة العالم الديني، ولم يسر على درب كوك إلا تلك الأقلية التي رأت أن ثمة دوراً للحمار العلماني، بينما كانت هناك أقلية أخرى استمرت في اعتبار العلمانيين.. أبيقوريين كفره، وان لم يكن من خيار سوى التعايش معهم، مؤقتاً أما الأغلبية المتدينة فقط سارت مع الصهيونية الدينية في إعطاء العلمانيين مضموناً داخلياً إيجابياً، فهم يهود في النهاية.

إذاً، لقد كانت كل الحلول للمأزق العلماني حلولاً تالية للحدث تبحث عن إجابة لواقع تتمتع فيه الصهيونية بقوة كبيرة - وبما أن الاعتدال تجاه العلمانيين حصل تالياً للحدث وليس كمبدأ، أي نظراً لظروف الواقع وليس مبدئياً، لذلك ما أن يتغير الظرف الواقعي حتى تتغير المفاهيم.

وكما رأينا، فما إن لاح أن شمس قوة الدين المشحون بطاقة قبالية مسيحانية بدأت بالارتفاع، حتى بدأت الحرب ضد الصبار الذي أصابه الوهن. وبعد أن كان يعتبر صاحب جوهر إيجابي، أو على الأقل ذا مهمة، أصبح ينظر إليه كمجرد أبيقوري متمرد تابع لجانب اليسار. ولأن المصادر الأصولية الشرعية والقبالية مترعة، أصبح العلماني من الهراطقة، وأخذت الدعوة إلى صلبه بأيدٍ يهودية طاهرة وممتلئة بمضمون عرية التقليد في التصاعد.

وفي روحية الحرب السياسية المسيحانية تم تشخيص اليسار الإسرائيلي بأنه العلماني السيء - الزنديق والأبيقوري -، وعلى رأسه كيلت كل خطايا العهود الأخيرة بدءاً من الهسكلاه - التنوير - مروراً بالصهيونية وصولاً إلى التحلل الغربي.

إن مماهاة اليسار السياسي باليسار الغيبي الموجود في مرجعيات التأويل الباطني، سكبت وقوداً على الحريق الذي في القلوب وفي الشوارع. ولقد ازدادت هذه النار اضطراماً عندما بدا أن الواقع، بصفته قوة ملجمة

للشريعة، آخذٌ في التراجع أمام قوى الرب التي حطمت بصوتها زجاج الحصن البغيض بسهولة.

ولقد أخذ حتى الصهيونيون المتدينون سابقاً، والكوكيون حالياً، في النظر من علياء مقامهم الاستيطاني في الجبال، إلى العلمانيين سكان السهل، كأغبياء فاسقين وليس كصهيونيين مقاتلين كما نظروا إليهم سابقاً. فها هي الروح الدينية تشعر أن في مقدروها بعثرة عصافة القشور العلمانية.

إن التعريف الشرعي المعتمد الآن لدى جزء من المرجعيات الدينية بما يخص قسم من العلمانية هو تعريف «طفل أسير». يبدو هذا التحديد كمتساهل ومتسامح. إلا أن هذا التسامح مشروط. إذ من هم الآسرون؟

رغم أن التقليد اليهودي يفرض على الطفل الذي يأسره الغوييم واجب البحث عن يهوديته ومن لا يفعل هذا يكون آثماً، إلا أن الذنب الأكبر هو ذنب الآسرين، فهم الأشرار الحقيقيون.

وهنا ينقسم العالم مرة أخرى، في الفكر اليهودي الديني الحديث، إلى اشكناز وسفارديم. فعند الاشكناز يتعلق الأمر بآبائهم وأجدادهم الذين ولدوا لبيت متدين -. فها هم الآباء والأجداد يقترفون الأكثر هلاكاً بتحولهم إلى أبيقوريين ويدفعون الجماهير إلى الخطيئة. فهم منتجو الصهيونية والهسكلاه - التنوير - في نظر المتدينين، ولذلك فإن حكمهم هو حكم الأغيار الذين يعتقلون يهوداً مؤمنين بقصد دفعهم إلى الإثم. من هذا المنطلق يُطلب من النائب الاشكنازي اعتبار آبائه وأجداده الأخطر من بين سكان جهنم. إلا أن الأمر أقل وطأة بالنسبة للسفارديم. فالغوييم الآسرون ليسوا من الأقارب، بل اشكناز قساة القلوب مؤسسي الصهيونية ومستوعبي الهجرة.

وقد أضيف إلى سخط المهاجرين على مستوعبيهم، من قبل الفكر الديني، وسط خضم هائل مقدس من الكتب والصحف، القول ان الاشكناز المستوعبين المذكورين أعلاه قد اقترفوا الإثم الرهيب ألا وهو الردة عن

الديـن بقصـد شـرير. فهؤلاء الاشـكناز الصهاينـة اليسـاريون قصـوا جدائـل الشرقيين. وهذا إثم يفوق من حيث الخطورة أفعال قتلة اليهود على مدار تاريخهم لأن «خطيئة الدافع إلى الإثم أخطر من القاتل»).

في دروس التوراة التي تقيمها شاس الآخذة في الازدهار والنمو، كما أيضاً في دروس التوراة الحريدية، وبشكل أقل جموحاً في التعليم الذي كان رسمياً وأصبح الأن كوكياً مسيحانياً، كان واضحاً كل الوضوح من هم أولئك الغوييم الآسـرون. انـهم اليـهود اليسـاريون الصـهيونيون والعلمـانيون الذيـن يشكل الاشكناز غالبيتهم.

ان خطيئـة هـؤلاء اليهود، قيل للحريديين، أشـد مـن خطيئـة محـاكم التفتيش ومن النظام الروسي خاطف الأولاد مـن العماليق النـازيين. فاليهود اليسـاريون هـم الغوييم الأكـثر فظاعـة. فـي فيلم انغريـد بيرغمـان: «فـاني والكسـندر» يضـع الأب القـاتل البغيـض ابنـه الصغـير الكسـندر فـي القبـو. فيأخذ الكسـندر يصلـي لكـي يموت أبوه. فلما مـات الأب امتـلأ قلـب الولـد بالشعور بالذنب وكذلك بالوعي بقواه الخارقة. وخلال الأعوام الطويلة التـي ارتعد خلالها اليهود وهم قي قبو التاريخ، امتلئت قلوبهم بـالصلوات من أجـل الانتقام من الآخرين الأشرار، الآخرين الذين في الخارج والآخرين الذين من الداخـل، أي اليهود الكفـرة الأبيقوريـين الذيـن تتحمـل آثامـهم مسـؤولية كـل الكوارث. وفجـأة بـدا أن الزمـن قـد أخـذ يبتسـم لأحـلام القبـو. فللحـالمين المعذبين أيضاً نـار تسـتجيب لـهم. لقـد تحـول سـخط أجيـال عديـدة علـى الأبيقوريـين، هـذا السـخط الـذي بقـي أسـير النصـوص، تحـول مـع بلـورة قـوة مؤسساتية له في إسرائيل، إلى صيحة حرب. فكما في حالتي الغوي والمرأة، فما إن لاح لهم أنهم قد راكموا من القوة ما يتيـح لـهم إعـلان حـرب مكشـوفة وليس مجرد صلاة سرية، حتى بدأ التصعيد، ولـم يكـن مصادفـة أن مصـدر التحريض فـي الخـارج ضـد الإصلاحيين والمحـافظين كـان فـي الطائفـة ذات القوة المؤسساتية في إسرائيل.

غير أن العدو لم يكن ذاك الما وراء البحـار، بل هـؤلاء العلمـانيون فـي

إسرائيل، المتنورون والصهيونيون المتمردون على سلطة الربابنة، الصهيونيين الذين يطرحون بديلاً للمؤسسة الكهنوتية. والآن فقد وقع تشخيص العدو بأنه اليسار الإسرائيلي. وكما قلت، فليس ميرتس الصغيرة والتي لا تشكل تهديداً هي المعنية، بل حزب العمل أساساً، ممثل الصبار والصهيونية، هو من اعتبر نظامه نظاماً متحدياً للدين. وليس كما قد يفهم السذّج، فالأمر هنا لا يدور حول فعل بعينه، بل ان اليسار من حيث الجوهر أُعتبر الأخطر من بين الأعداء. وكما أن للغوي، حسب الفهم الديني، مخرجاً واحداً هو تغيير دينه، فكذلك الحال مع رجل اليسار فأمامه مخرج تحويل نفسه والانضمام إلى أحزاب اليمين. أما الأحزاب بذاتها فلا انبعاث لها. وقد يكون أمامها سبيل واحد وهو أن تكون قوية بما يكفي، وحينئذ تعتبر حقيقة قائمة، حقيقة غير مرغوب بها، ولكن حكمها يكون شأن حكم سائر أنظمة الغوييم، حكم بالواقع، واقع الجدار الحديدي.

إذاً، يمكن للواقع العلماني أن يحظى بالقبول في الأعين المتدنية التقليدية بحكم أنه لابد من التعايش معه على المستوى العملي من خلال واحدة من ثلاث طرق:

الطريق الأولى: هي طريقة الصهيونية الدينية الكلاسيكية، طريق التوراة وواقع الحال، التوراة والعمل، طريق أغلبية الأرثوذكسية اليهودية الأوروبية. وقد كان هذا المذهب، قبل الكارثة، يؤمن أن أفعال اليهود الحداثيين تنطوي على قيمة إيجابية. فهذه المقاربة تقيّم بإيجابية، التوليفة بين اليهودي والعالم، وكذلك تعتبر أن أفعال العلمانيين المتنورين منتجي الأكاديميا والمستوطنات والثقافة تتمتع بقيمة ذاتية. ووفق هذه المقاربة فإن الخطاة الأكثر خطورة إنما هم أولئك العصاة بدافع اللذة والذين يعيشون بوحي ثقافة مادية رأسمالية دون روح علمانية متنورة. غير أن هذه الاجتهاد التفسيري، سوية مع الحلم اليهودي الأوروبي، قد زال من العالم تقريباً. فبالكاد نجد الآن يهوداً متدينين في إسرائيل ويحملون هذه الرؤية.

الطريقة الثانية لتقبل الواقع العلماني هي طريقة الرابي كوك،

طريقـة اعتبـار العلمـانيين مجرمـين أثمـة ولكنـهم يقومـون بمهمـة إرسـالية لصالح سـلطة الـرب علـى الأرض. وعلـى هـذا الأسـاس أمـر كـوك بالمحبـة المجانيـة. فـالبيت الثـاني خـرب بسـبب البغض المجـاني، والبيت الثـالث يقـوم علـى المحبـة. وهكـذا، فليس ثمـة مضمـون إيجـابي، حسـب كـوك، لمحبـة العلمـانيين المجرمـين، سـوى فتـواه هـو بالمحبـة دون مـبرر. فليـس للعلمـانيين بذاتهم أيـة قيمـة إيجابية بتاتـاً، بل علـى العكس، فـهم خطـاه ينفـذون مهمـة يجهلونها. ومشكلة هذه المقاربة هي أن هـؤلاء العلمـانيين يفقـدون حقـهم فـي الوجود مـا إن ينجـزوا مهمتهم الكوكيـة فـي احتـلال وتوسـيع حـدود البـلاد. لذلـك فحتـى ذاك الجـزء الإيجـابي فـي مقاربـة كـوك لـم يعـد يسـري علـى علمـانيي وقتنـا، وبالتـأكيد ليـس علـى أولئـك الذيـن لا يدعمـون المشـروع الاستيطاني. المقاربة الثالثة الدينية التي تستطيع تقبل الوجود العلماني، هـي الطريقة اليهودية المثلى وهي قبول الواقـع السـيء كقـدر إلـهي. وهـذه المقاربة لا تسـود إلاّ عندمـا يبدو الواقـع شـديد القـوة، مثـل حـال سـلطة الغوييـم فـي بلادهـم حيث لابد مـن الامتثـال لشـرهم وأحكامـهم امتثـالاً لقـانون الواقـع. بـذات المسـتوى تم التعـامل مـع نظـام الصبـار طالمـا كـانت الدولـة العلمانيـة وحزبها القـائد - مباي - أقوياء، فقد كانت حقيقة قائمـة لا يسـتطيع المتدينـون تغييرها. في مثل هـذه الحالـة يُنظـر إلـى الحكم كحكـم طاغوت الـذي ينبغـي عدم التصادم معه بسبب مـا ينطوي عليه مثـل هـذا الصـدام مـن خطـر علـى الطائفة، لا بل مسموح عقد تحالفات محددة معه إلى أن تنجلـي الغمـة. ومـن هـذا المنطلق، فحتـى عوباديـا يوسـف، علـى سـبيل المثـال، والـذي يفضـل، كمـا نذكر، وبسبب مصالح حركته، حزب العمل، فإنه لا يستطيع ولا بأية حال مـن الأحـوال أن يمـد يـد العـون لإقامـة هـذا الحكـم - حكـم حـزب العمـل - إلا إذا فـاز حـزب العمـل بقـواه الذاتيـة، وبعدهـا يسـتطيع يوسـف أن يتعـامل معـه، بسعادة خفية، كتعامل الهالاخاه مع الواقع.

وثمة إمكانية أخرى وإن كانت غير مستقرة، والمقصـود هـو العلمـانيون المستعدون لتقبل النمـوذج الدينـي بصفتـه الصحيـح مبدئيـاً، وإن كـانوا هـم

أنفسهم غير قادرين على الالتزام به. في هذه المقاربة والتي لا تطرح، على الأقل علناً، بديلاً ثقافياً وروحياً للرابي، يمكن للجانحين النجاة على المستوى الشخصي ولكن ليس كحالة اجتماعية. وهذا هو الموقف إزاء اليمين العلماني وممثليه الليكود.

بيد أن هذا القبول وإن كان على المستوى الشخصي ليس مستقراً، لأن الربابنة وأحزابهم ملزمون، في وضع كهذا، ممارسة التأثير المتواصل على اليهود الذين يتقبلون سلطتهم مبدئياً، إذ إنه واجب مقدس على الأيدي المؤمنة أن تهود الواقع المتزايد الخضوع بقدر ما في متناولها من قوة. وتحالف المتدينين في أيامنا هذه مع اليمين إنما ينطلق من رؤيتهم بأن الوضع القائم يتيح لهم التأثير والهيمنة.

يتضح إذاً أن العلماني لا يستطيع في المجتمع الإسرائيلي الحالي التمتع بعد لا بالمقاربة التي ترى فيه قيمة إيجابية، ولا بمقاربة أولئك الذين يرونه إثم ولكنه، بهذه الصفة، يؤدي دوراً مقدساً، ولا بالمقاربة التي تتقبله بفضل قوته. فلقد تراجعت قوته الذاتية وتم تقليم أظفاره. والحال، فلقد خسر العلماني موقعه وحقوقه، ما كان منها «سبقياً مبدئياً» أو «ظرفواقعياً» على حد سواء.

ان المقولات المفتاحية في الحقل العملي، في عالم الفعل، هي مقولتي «ظرفياً ومبدئياً». وهما المصطلحان اليهوديان المقابلان للمصطلحين الانجليزيين «apriori»[1] و«aposteriori». فمبدئياً فإن اتفاقات أوسلو كارثة، قال زبولون هامر، ولكنها ظرفواقعياً حقيقة يجب علينا قبولها كحقيقة واقعة (حقيقة يتراجع سريانها بالطبع حينما نتمكن نحن في السلطة من تغييرها) ومبدئياً فإن الحد المفروض على الزنا مع امرأة رجل آخر هو حد الموت، ولكن ظرفياً، وفق واقعنا الحالي، فإن مثل هذا التصرف ليس متاحاً.

---

[1] لقد ارتأينا ترجمة المقابلين العبريين لهذين المصطلحين بـ «سبقي مبدئي» و«ظرفواقعي» وهي اقرب ترجمة ممكنة وفق السياق. ومع ذلك يمكن ترجمتها بـ «مبتدءاً» و«ظرفاً» على التوالي وقد نستعيض عنها اختصاراً بكلمتين «مبدئياً» و«ظرفياً» - م -.

ان الواقع اليهودي الذي ألقى على اليهود عبر مئات السنين فيضاً من المصائب والمضايقات بما يخالف إرادة الرب، هذا الواقع ألزم الشريعة كديانة يومية إيجاد سبيلها بين ما هو مرغوب وما هو موجود، مما جعلها في الكثير من الحالات تفتي بما يناقض النص الحرفي للشريعة، توخياً للسلامة. أي من الأجدر أخذ الواقع بعين الاعتبار وعدم المجازفة بالكثيرين بتصرفات لا واقعية يكون لها في الواقع ثمن باهظ. وقد كان قاسياً ذاك الواقع الذي عايشه اليهود، وبفضل هذه القساوة تحقق التوازن وتحقق حصر التشدد – الذي أبقاه الواقع المهدَّد متوازناً وخبيثاً- في الإطار النظري دون العملي.

وبالطبع كلما كان تهديد الواقع يرى النور كان التشدد الخفي المبعد عن عالم الفعل يزداد. وفي مثل هذا الواقع لابد من الخضوع واختيار التسوية معه «ظرفياً». يمكن في هذا الظرف إيداع ثنايا الكتب المزيد والمزيد من العالم المتطرف «مبدئياً» لا فعلياً وعملياً. ولا ينتقل هذا التشدد من الإطار النظري إلى عالم الفعل إلاَّ عشية مجيء المسيح، حين يكون ذلك ممكناً، حين يتراجع الواقع أمام الشريعة والتأويل. وفي الأرض المقدسة أيضاً ثمة وسيلة لإبداء التساهل مع «أتباعنا» في ظروف الواقع الصعب. ومسألة الكهرباء يوم السبت مثال على ذلك. فالكهرباء تأتي من محطات طاقة يعمل بها يهود، ويعتبر الحظر على الاستفادة من أي انتهاك للسبت يرتكبه يهودي أو حتى أبيقوري أشد من حظر الانتهاك ذاته، بسبب أن اليهودي في حالة الاستفادة يدفع نفسه ومعه المنتهك إلى الإثم. ولكن في جميع الأحوال فإن كل المرجعيات تفتي بما يخالف النص الحرفي للشريعة لصالح الواقع ولفائدة الجمهور بأن استخدام الكهرباء جائز. وكذلك في المسائل العامة، مثل مسألة السبت والوضع الراهن، أُجبر الجمهور المتدين على قبول الحال، لكيلا يتحطم الرأس ويتبدد الوقت بحروب شرعية ضد جدار الواقع، إلا أن هذا الجدار شرع في الانزياح.

من السهل التأكد من سوية الفرد الذي يعي الواقع ولا يقفز إلى

شارع مزدحم بالسيارات، ولكن الأمور تتعقد قليلاً عندما يكون هذا الواقع هشاً. فالجدار يتحرك ما إن يميل المرء عليه. إذاً تستطيع الشريعة أن تزن باطمئنان المرغوب والموجود، حين يكون الموجود الواقعي واضحاً. ولكن عندما يبدأ الواقع في التبخر أمام التغييرات المسيحانية في اتجاه ما هو مرغوب، حينها لن تكون هناك أية قوة قادرة على لجم قوة إرادة كاخ ولا أحد غيرها.

طوال أعوام والحجارة تُقذف في شارع بار ايلان في القدس. وقذف الحجارة هذا مخالفة عقوبتها أعوام في السجن لأنها تعرض الفرد في طريق عام للخطر. إلا أن أحداً لم يعتقل، وبدلاً من ذلك كان الطريق يُغلق. وقبل أن يقوم القاتل[1] بفعلته في الساحة، كان قد تسلل عدة مرات مع غيره إلى داخل مناطق عسكرية مغلقة. وهذه جريمة عقابها شديد، ولكنه كان يبعد بأدب ليكرر فعلته مرة أخرى وليختبر بذلك هشاشة وقابلية جدران الواقع على الانزياح، أي ضعف القانون العلماني الذي يبدو ظاهرياً وكأنه هو المسيطر.

ليس ثمة شك أن الأمر لم يتوقف عند المعضلة العملية في المعالجة اللطيفة هذه، أو لعلها عدم المعالجة فغياب المعالجة ينتج المزيد من الطاقة الدينية المتطرفة، إذ لولا القناعة المستمدة من تجربة الماضي بأنهم لا يدفعون ثمن تجاوزهم للقانون،لما وصل الأمر بربابنة مركزيين حد الإفتاء للتمرد في الجيش. فالدولة ستواصل توظيفهم في صفوفها وفي الخدمة العسكرية أيضاً، والقانون الذي بدا صلباً سيلين أمامهم مرة أخرى، وستنشق مياه القانون الإسرائيلي أمام العابرين الذين سيكون أمراً إلهياً تحت تصرفهم. وعندما تنشق المياه يصبح العبور فريضة.

في عهد حكم جانب الآخر، حكومة رابين، عديدة كانت المرات التي استخدم بها درس المعجزة الإلهية التي تجلت وقت الخروج من مصر. ولم تحدث المعجزة إلا حين دخل كل الإسرائيليين إلى المياه ووصلت إلى رقابهم.

---

[1] المقصود قاتل رابين. – م –

فهذا هو دور المؤمن، الدخول إلى المياه حتى الرقبة مع عدم المجازفة بالرأس. ولكن في الواقع الإسرائيلي كلما دخل الجمهور إلى الماء كلما انحسر الأخير عن الرقبة.

لقد كانت العقوبة التي فرضتها الآلهة في الميتولجيا اليونانية على ثانتالوس (الذي ضحى بابنه للآلهة) بجرم الكبرياء ومنافسة الآلهة أن وضعوه في بحيرة بحيث كان الماء يتراجع كلما انحنى ليشرب ليروي ظمأه الرهيب. وكذلك تراجعت المياه أمام يهودية عصرنا، وبالأخص أمام اليهودية الكوكية التي تنافس الرب في خلق العالم، إلا أن الذي تراجع هنا ليس مياه الشرب بل مياه الواقع. وكلما تراجعت المياه كلما تعاظم الظمأ للمزيد من اجتيازها.

والسؤال هنا عريض وعميق، فكما نعرف فإن الفجوة الأساسية التي نجمت عنها طبقات التفاسير هي الفجوة بين المرغوب والموجود، الفجوة بين الظرفواقعي وبين المبدأ، بين حكم الشريعة وبين الممكن، بين العقيدة والواقع.

لقد دعا الرابي هلفرين، أحد القادة المسيحانيين في حاباد، بعد الموت الواقعي للرابي، إلى اختيار العقيدة. ولقد كانت قوة اليهودية كامنة دائماً في اختيارها. ولقد كانت إجابة يسوع على الصدوقين إجابة يهودية: «أعطوا ما لقيصر لقيصر ومالله لله».

لقد اختارت اليهودية العقيدة والواقع على حد سواء. فكرست للعقيدة أغلب قوتها وفكرها وإنتاجها القبالي الباطني وفتاواها النظرية، وتعاملت مع الواقع باحترام ولاءمت نفسها، على الأعم بالمعنى العملي فقط وليس ثيولوجيا، مع متطلباته. غير أن الوضع يأخذ في التعقيد حين يلوح أن الواقع بدأ يرضخ للعقيدة. ففي هذا الوضع، الوضع المسيحاني، ينتهي الدياكلتيك (بين الواقع والعقيدة)، وينتهي التنوير الذي أنتج الإرث الاجتهادي التفسيري، ويحل مكانه صوت اليد الواحدة، ويتواشج عالم التفسير مع عالم الواقع في دوي انفجار إيماني هائل الشدة. ينبغي علينا الآن التوجه إلى مقولة زئيف حابوتفسكي - قائد المنقحين بشأن الجدار الحديدي. ويبدو أنه

في أية مواجهة ثقافية في غياب جدار كهذا تتعاظم الطاقة في الجهة المقابلة، وهذه الطاقة تخلق الإحساس بأن القانون العلماني يتبدد أمام نظيره الثيولوجي (كلمة دين تحمل معنى القانون أيضاً). وهكذا أصبح سقوط ما بدا أنه حصن إسرائيلي ممكناً أمام أبواق العنف لحفنةٍ من اليهود المسيحانيين.

يجب التريث هنا، عند تصحيحي آخر، تصحيحي قضائي، والذي تعتبر ثوروتيه مثالاً على الهوية العلمانية عموماً. لقد أصدر القاضي أهارون براك حكماً بأنه لابد للقضاء أن يبقى في حركة كما النسر في السماء، فإن توقف عن الحركة توقف عن الوجود.

والحركة كثيرة بفعل العنف والتهديدات. فرغم الحكم بأن العنف السياسي والتعدي على القانون هما الخطر، فلقد حظي المشاغبون في طريق بار ايلان – جادة رئيسية في القدس – ببركات براك. فمن المناسب، من وجهة نظره المتحركة، الموازنة بين قيمة السبت وبين الحرية في التنقل. وإغلاق الطريق أيام السبت في أوقات الصلاة، وهذا يعني الإغلاق الكامل – هو توازن مناسب.

لقد أغفلت العين العلمانية المغمضة الجوهر. وهكذا فإن فتوى براك وفضاءها الروحي يهددان ليس الديمقراطية فحسب بل اليهودية اللامسيحانية أيضاً.

يقوم الاعتراض على السفر أيام السبت، من وجهة نظر المتدين، على حجة أن الآخر العلماني هو المعتدي من حيث أن سلوكه ذاك يعبر عن عدم قبوله القيم الدينية، فالحركة بذاتها لا تزعج. فلو كان المسافر غير يهودي لما كانت هناك مشكلة. فالمزعج هو انتهاك السبت من قبل اليهودي الآخر. وبحسب الشريعة، فإن ما ينطبق على السبت ينطبق بالضبط على القيمة المقدسة للاحتشام، فكل امرأة علمانية بسروال إنما هي جرح لمشاعر المتدينين. والسبب الوحيد الذي يمنع المطالبة العلنية بحظر ارتداء النساء للسروال هو التقدير بأن ليس وارداً بعد إمكان الاستجابة لهذا الطلب. والوضع نفسه الذي

للسبت وللحشمة قائم بالنسبة للموقف الشرعي المعارض لوجود غوييم لا يتقبلون الفرائض السبع المفروضة على أبناء نوح في الأرض المقدسة، وعليه فإن مجرد وجود الغويين المسلمين الآثمين بالوثنية في أرض إسرائيل وفي القدس تحديداً، هو إيذاء حاد للمشاعر الدينية اليهودية.

وهذا الجوهر الهالاخي المقدس قائم في التشريع الذي يحظر تعيين امرأة في منصب عام. ولذلك فإنه من باب إيذاء المشاعر الدينية أن تجلس امرأة قاضية في المحكمة العليا. وكذلك فإن كل أغنية تغنيها امرأة هي جرح لمشاعر المتدينين، فصوت المرأة عورة. وكذلك فإن الوقت الذي يفكر فيه القاضي براك ينطوي على جرح عميق للمشاعر الدينية لأن أفكار الأبيقوري عبارة عن وثنية. والوثنية إثم أشد خطراً من السبت وانتهاكه. إن قبول مبدأ باراك القائل بأن ثمة مكانة قضائية لمشاعر الإنسان الذي يثور ضد من لا يسير وفق قيمه، يهدد الديمقراطية وقد يكون النهاية لما كانته يهودية الأمس. وبهذا المنطق نفسه كان يفترض فيه قبول أن وجود اليهودي على الأرض الألمانية يؤذي مشاعر الألماني القلق بشأن نقاء العرق، ولذلك يجب الموازنة بين المطالبة بقتل اليهودي وبين رغبة الأخير في الحياة، ولعل الطرد هو الذي يحقق هذه الموازنة وعلى ذات الخط يجب الموازنة بين مشاعر الزوج الذي يثور حسداً من زوجته التي تجرح مشاعره باستقلالها ويرغب لذلك في إنزال رأسها، وبين إرادة الزوجة في الحياة. ولعل ذلك يتحقق من خلال إنزال يديها الاثنتين..

لقد بات واضحاً الكيفية التي تتحطم بها الديمقراطية الإسرائيلية بسبب مفاهيم كهذه التي تقدس حق مشاعر الفرد في سلب الآخر حريته، ولربما حياته أيضاً، لأنهما بمجرد وجودهما يزعجان الفرد صاحب الثيولوجيا الجديدة.

وعلاوة على ذلك، فحركة النسر في السماء تهدد باستكمال تهديم يهودية الأمس، اليهودية اللامسيحانية، فهي تهدمها لأن الهالاخاه، وليس براك فقط، توازن بين اعتبارات متعارضة، وفي مقدمتها الموازنة بين

المرغـوب والموجـود. فمـا يضبـط تشـدد الشـريعة، وخاصـة فـي الزمـن المسيحاني، هو صاحب الجلالة الواقع الـذي ليس محبذاً لليهودي آن يكسر رأسه على أسواره. ولكن حينما تغدو هذه الأسوار متحركة، فليس ثمة وسيلة ربانيـة أو شـرعية تحـول دون الجمـهور ودون الثـأر بـالعنف لمشـاعره التـي يجرحها مجرد وجود الآخر.

بعد القضاء والواقع والجمهور، والتي كانت كلها علامات على النجاح الإلهي للدعوى المسيحانية، هناك آخرون على إبرة التسديد. فهكذا جـرح رابين، مـن خـلال إعـادة منـاطق، مشـاعر المتدينـين، فعوقـب بحكمٍ صـادق الجمهور عليه عبر صناديق الاقتراع. وهكذا أيضاً يصادق براك على معاقبة الآخرين الذين يسافرون ببراءة، وكل مصادقـة ونجـاح كـهذا، مضافـاً إليـه تحرك الواقع، يخلق المزيد والمزيد من المشاعر المهانة عاطفياً والتي يستدعي الإجحـاف بحقـها الصـراع. ومشـاعر مـن هـذا الطـراز، كمـا قلنـا، موجـودة وبوفرة. وسيراً مع هـذا، فإن كل عمل، كمـا مجـرد وجود الغوي والأبيقوري والمرأة غير المتدينـة فـي أرض إسـرائيل، يسـبب معانـاة عاطفيـة لا توصـف للقلب الديني المسيحاني الرهيف. ولهذه المعاناة مكانة محترمة فـي صنـاديق الاقتراع وفي المحكمة كذلك.

لقد تغذت اليقظة المسيحانية العنيفة من عجـز الديمقراطيـة والهويـة الإسـرائيلية اللامسيحانية عن الدفـاع عـن نفسيهما. فحتـى الربابنـة الذيـن انخلع فؤادهم مما يجري لم يأنسوا في نفسهم القوة للنضال ضده. فإذا كان الجمـهور العـام يتقبـل التشـدد فكيـف يسـتطيع الرابـي ان يكبـح جمـهوره. فالأفضل له التزام الصمت. ان البركان الذي أثار الكثير من الربابنـة وجـرف أغلبيتهم في زمن الحركة الشبتية، هـو ذات البركـان الـذي انفجـر فـي أيامنـا واجداً التشجيع والتعزيز في هشاشة الواقع الهوياتي العلماني الديمقراطي.

لقد تم استعراض هشاشـة القـانون العلمـاني هنـا لكونـها تشـير إلـى ضبابيـة الهويـة اليهوديـة العلمانيـة التـي تسـود الجمـهور العلمـاني. وقـد كـان لهذه الضبابية الدور الكبير في التغييرات الثيولوجية.

إن استغلال اسم الربابنة والدين خنق أية إمكانية عند الديمقراطية الإسرائيلية مغلقة العينين للدفاع عن نفسها. إذ كمبدأ، فإن من حارب كهانا بسبب عنصريته السافرة، ما كان ليستطيع تجاهل حقيقة أن الأحزاب الحريدية المزدهرة تحارب وبشكل معلن، ضد وجود الديمقراطية بالذات. ولا تسمح هذه الأحزاب للنساء بالترشح للانتخابات نيابة عنها، كما تعلن عن رغبتها في سقوط النظام الديمقراطي. وإذا ما بدا أن حرمان هذه الأحزاب من حق المشاركة في الانتخابات خطوة راديكالية، فإنه لراديكالي أيضاً الوضع الذي تزدهر به منظومة تربوية حياتية تبشر ببغض الغوي والعلماني والمرأة غير المتدينة وتفصل بين الأبناء والبنات وتعتقد أن العلاقة بينهم علاقة هرمية، منظومة تمنع عن أولادها المعرفة الشاملة رغم قانون التعليم الإلزامي، وكل ذلك بتمويل رسمي هائل من الدولة يصل إلى حجم ميزانية الأمن. لعل المجتمع الديمقراطي يستطيع اليوم التسامح مع منظومة كهذه، منظومة تبشر بالعنصرية والعداء والكره للديمقراطية، إن كانت بتمويل خاص. ولكنه يجازف بوجوده بالذات ذاك المجتمع الديمقراطي الذي يمول بنفسه منظومة كهذه من مئات الألوف، من الحضانة حتى الموت، ويعتبر أن نظامها التعليمي الممول رسمياً يستجيب مع قانون التعليم الإلزامي. ان هذا المجتمع، بإغماض عينيه، وبتغذية باغضية، إنما يهدم أسس اليهودية كديانة حياتية واقعية، ويلعب دوراً أساسياً في تحويل اليهودية إلى زمرة دينية مسيحانية عنيفة. إذاً، إن مسألة سقوط ما يبدو أنه قلعة هوياتية للديمقراطية الإسرائيلية أمام العنف الديني المسيحاني، تنطوي على ما هو أكثر من مجرد التصرف الواهن والخانع أمام هذا العنف خلال السنوات العشرين الماضية.

المعضلة الافتتاحية هي معضلة الهوية الإسرائيلية ذاتها. صحيح أنه لم تتم الاستجابة لصلاة كوك: «حتام يبقى الصهيونيون لا يفهمون ذاتهم» بمعنى أن يفهموا مهمتهم الإلهية كجالبي الخلاص الديني. إلا أن العكس بقي أمنيةً أيضاً. فالسوية الإسرائيلية لم تبلور هوية تعي ذاتها وواضحة لأبنائها.

لقد كانت الهوية الذاتية بالغة الوضوح عند القيادة الصهيونية التي واكبت بدايات الدولة. فبعين المهاجرين من أوروبا، وللعين اليهودية الاشتراكية، كانت الهوية مناظرة للضائقة - فالمضمون القومي الاشتراكي الذي أدخلوه إليها كان بالنسبة لهم هو المضمون الصحيح والذي يناسب العصر، والذي يعكس أيضاً، وبشكل صحيح، رؤيا أنبياء إسرائيل، وبدا لهم أن اللباس العبري الطلائعي الذي سيدخلون الهوية فيه هو اللباس المنتصر. وأكثر من ذلك، فقد كان عندهم الإحساس أن الثورة التي أحدثوها في ثوابت اليهودية - العودة إلى التناخ وإلى أعياد الأرض - هي ثورة بروتستانتية فائزة. وفضلاً عما ظهر وكأن الواقع الإسرائيلي، باحتياجاته التي ترتبت على العودة - فلاحة الأرض والقتال على الحدود - ستفتح الروح في رؤيا المؤمنين بأن الطلائعي المحارب هو الذي سيصلح النفس اليهودية (لقد كتب الكثير عن هذه اللغة الحسيدية لدواعي الثورة الصهيونية)، بل بدا كذلك وكان العودة البروتستانتية إلى اللغة العبرية كلغة تخاطب سيكون لديها ما يكفي من القوة ما يؤهلها لأن تتجاوز، إلى حد بعيد، كل طبقات التفاسير الشتاتية التي كتبت بلغات أخرى. إلا أن الواقع ليس مادياً فقط، وليس فقط الواقع يخلق الوعي، بل الوعي أيضاً يخلق الواقع.

لم يتم في واقع مجتمع المهاجرين الذي تشكل في إسرائيل خلق طبقة وسطى ثقافية عريضة حيث توفر هويتها البديهية الاستمرارية الثقافية. لقد انصهرت في المجتمع الإسرائيلي تيارات كبيرة متنوعة من المهاجرين في سياق عملية ميزت أغلبيتها، وهي عملية نمو ثقافة «طوائف الأبناء»، هؤلاء الأبناء الذين من المفترض فيهم أن يفهموا لغة البلد وأن يجيدوا التحرك في طرقه. إلا أنه بالنسبة للأغلبية منهم، وبالأخص بالنسبة لأولئك ممن لم يكونوا من أبناء المؤسسين لم يتم أبداً ترجمة واقع الجيش والعبرية والعمل إلى هوية ثقافية يهودية اشتراكية صباريه بروحية أوروبية. بل كان العكس هو الصحيح، إذ خلق الاصطدام بأرض الواقع الشائك دون أن يكون ثمة هوية يهودية جديدة ذات معنى لهم، ترسبات من الغضب إزاء مستوعبيهم،

ومن ثم محاولات عديدة من جانبهم لخلق ثقافة بديلة من خلال الماضي اليهودي الساحر الذي اختفى أو لعله الماضي الذي اغتصب.

وهكذا فإن شخصية الصبار الإسرائيلي اليهودي التي تراءت وكأنها النموذج الوحيد للإسرائيلي، لم تحمل عبئها إلا أكتاف الأقلية. صحيح أنها أقلية كبيرة وتشغل مراكز قوة، لكنها تبقى أقلية. وحتى عند هذه الأقلية من أبناء الاشكناز المؤسسين فقد كانت هذه الهوية بروحية «أبناء الطوائف» ولم تكن مستقرة، بل كانت بصفتها هوية «دي فاكتو» كأمر واقع عرضة لما يعصف بها.

وقد كان من المفترض أيضاً أن تنمو هوية أبناء المؤسسين من أرضية الواقع الإسرائيلي القاسي والمتطلب وليس انطلاقاً من هوية آبائهم اليهودية الأوروبية الاشتراكية، وفي هذا الواقع، بمتطلباته العملية، حدثت فجوة هائلة بينهم وبين «مثل آبائهم الاشتراكية اليهودية الأوروبية التي اعتبروها رطانة يهودية شتاتية».

لقد بدت اليهودية المتدينة للذين اختاروا ديانة الصبار كبقايا من عالم آيل إلى الزوال – وهو أمر جيد – فيما بقيت المصادر اليهودية الشتاتية المنبع، خفيه عليهم ولا تثير انتباههم. ان هذا الصبار الجميل المنتمي للمستقبل، مع ما أثاره من عداء في قلب الجد الغريب، لم ير في الظلمة الدامسة التي اكتنفت انبعاث العنقاء الدينية، التي تراوح موقفه منها بين الاشمئزاز وبين التقدير المستريب، (فلعلهم – المتدينون – يعرفون السر) سوى واقع غريب، ولكنه بالتأكيد لا يشكل خطراً ولا يستحق سوى الإزاحة المريحة، أو لسنا كلنا يهوداً!!

إذاً، لقد نمت في إسرائيل هوية صباريه دي فاكتو، تتحدث العبرية، مقاتلة، وكارهة للمنفى ولثقافته، ولكنها كذلك غريبة حتى على أولئك السذج اليهود الأوربيين الحديثين الذين خلقوا حلم هذه الثقافة وهذه الهوية بالذات. وليس هذا فحسب، بل حتى هذه الهوية غير المبلورة وغير الواعية لخيارها اليهودي بقيت من نصيب قلة فقط من بين الإسرائيليين. وهكذا لم

يحصل انهيار لطبقة وسطى ثقافية يهودية حديثة إسرائيلية أمام أمواج مسيحانية لأقلية عنيفة، فمثل تلك الطبقة لم تقم بالأصل. لقد كانت روحها قائمة بروحية حركة شبابية، كصافرة حركة، كيقينية بمستقبل موعود مضمون - كمحبة وتقدير للآباء والأجداد المؤسسين، كرغبة أفراد لأن يصبحوا طبيعيين، ولكن ليس كهوية صلبة واعية لذاتها ولاستمراريتها التاريخية ولماضيها الثقافي اليهودي وللأعداء المتربصين بها من الداخل ومن الخارج.

وبدون كل هذا فإن قدرة الحصن الصباري الديمقراطي الإسرائيلي اليهودي الحداثي الليبرالي على الصراع تكون هزيلة. فالأشواق لا تبني جداراً، مع أنها قد تستطيع أن ترسم قصوراً على الرمال فقط.

ويتضح أنه ليس القصور الأوروبية فقط يمكن أن تنهار على اليهود العلمانيين، بل كذلك تلك القصور التي أشيدت قبالة أمواج البحر وتحت بريق الشمس سافعة القدمين.

# الفصل الرابع عشر

## حكمة إسرائيل

لقد كانت حكمة إسرائيل خلال أعوام النفي الطويلة هي حكمة الإزاحة. فعلى مدار الأعوام كانت خيبات الأمل وأضرار التوقعات وانكسارها وما تحمله بعض التيارات من دلالات تزاح المرة تلو الأخرى. فبعد شبتاي تسفي، الذي استطاعت حركته إبان ذروتها أن تجرف أكثر من 90 في المائة من كل يهود المنافي، بما في ذلك أغلبية الربابنة، من الطرف الأقصى للأرض إلى طرفها الآخر، من كوتشين في الهند إلى الطرف القصي في إنجلترا، بعد تلك الحركة استطاعت اليهودية أن تتغلب وبسرعة على الأزمة من خلال التظاهر وكأن شيئاً لم يحدث. فالصفحات المعنية انتزعت من سجل الجاليات، واختفت سنوات من سجلات التاريخ وكأنها لم تكن، والأخوة الضالون، الأغلبية المطلقة من اليهود، عادوا إلى خط الجالية الملتزمة. بل أكثر من هذا، فلأن الشعب كان يحب من يضلله، فقد كانت قوة تلك القلة التي حذرته من خطر المسيحانية الدجالة تُحبط مع اتضاح صدقها. وحسب تعبير غرشوم شالوم: «لقد أحب الشعب أكثر من أي شيء آخر أولئك الذين ضللوه، أما الذين حذروه مسبقاً فقد كانوا مبغوضين عنده حتى بعد الحدث».

على هذا النحو جرى محو الانقسامات وإغفال الخطر الوجودي الذي أحدق باليهود كافة. وفي كل هذه المحنة كان هناك مذنب وحيد، ألا وهو المسيح نفسه الذي أسلم، أي شبتاي تسفي. فحتى نبيّه ومحدث نار

الحركة، ناتان الاشكنازي، الغزي، لم يتم وضعه في صفحات العار التاريخي كما شبتاي. هذا دون أن نتحدث عن أغلبية حجج إسرائيل وشيوخ القبالاة والربابنة الذين تبعوا الحركة وآمنوا بوعودها.

ويجدر أن نذكر هنا أن هذا الإيمان لم يكن مجرد أمل مسيحاني اعتيادي، ان كانت ثمة اعتيادية ممكنة في آمال تقلب الكون، بل كان سيراً بطريق مسيحانية متناقضة جعلت اليوم التاسع من آب يوم خير وآمنت بمسيح آثم علناً بالموبقات التي حدها الموت. ورغم كل شيء، وبسبب كل شيء، صار إلى محو وإزاحة الأمر.

الحركة المسيحانية الكبيرة التي سبقت شبتاي تسفي، حركة الرابي عكيفا، ومسيحه باركوخبا، لاقت مصيراً مشابهاً. فهذه الحركة التي جرفت قسماً لا بأس به من يهود عصرها في أرض إسرائيل، من خلال تغلبها بالعنف على معارضيها، وقادت ثورة ضد روما، كانت حركة مسيحانية يرأسها أحد حجج العصر، الرابي عكيفا الذي مسح باركوخبا، ليصبح الملك من نسل داود الذي أرسله الرب ليكون مسيحه. وكانت نهاية الحركة بمقتل المسيح، مما أثبت أنها حركة ذات أساس باطل[1] وبكارثة أكبر تشتيت حلت باليهودية. لقد حاولت الذاكرة اليهودية التاريخية، وبكل ما لديها من طاقة، أن تمحو الأحداث وخاصة العلاقة ما بين الشتات والتمرد، حتى لا نتكلم عن الجذر المسيحاني لكل حدث جرت إزاحته. ومرة أخرى كان هناك مذنب واحد كان التقليد يدعوه «باركوزيبا» - الكاذب - (وقد يكون هذا اسمه الحقيقي) وذلك قبل أن يقرر الرابي عكيفا أن «طريق كوخب في يعقوب»[2]. أما الرابي عكيفا، المحدث للتمرد المسؤول عن الكارثة، فأُبعد تماماً عن الكارثة. وعندما تُذكر العلاقة بينه وبين باركوخبا فإنها تذكر بالوضوح الكامل بأن الرابي عكيفا لم يخطئ. فكيف بعظيم مثله من عظماء إسرائيل أن يخطئ، وفي الحق فلقد كانت في راكوخبا علائم المسيح. إلا أنها شرور

---

[1] لأن المسيح لا يموت قتلاً حسب الفقه المسيحاني - م -.

[2] المقصود ان باركوخبا يسير في طريق يعقوب - م -.

الجيل، بالإضافة إلى أخطاء باركوخبا نفسه التي ارتكبها بعد أن اختاره الرابي عكيفا، هي التي جعلت الأمور تنقلب رأساً على عقب فيحل الشتات محل الخلاص[1]. وهكذا بقي اسم الرابي عكيفا نقياً نظيفاً كما كان، وبقيت منزلة التائب[2] المسيحاني وزمرته من الشباب الانتحاريين تحتل صفحة أساسية في حكمة إسرائيل.

والصهيونية فعلت وتفوقت. فمع إعادتها اللغة العبرية من المنفى إلى البلاد، أعادت أيضاً اسم بن كوزيبا وحولته إلى باركوخبا مع انكارها المطلق للمضمون الديني المسيحاني لحركته، جاعلةً منه بطلاً قومياً وليس دينياً، ورجلاً شجاعاً لا يتحمل أبداً المسؤولية عن الخراب، وبالتأكيد لا تتحملها المسيحانية كذلك. وقد سارت الصهيونية الدينية إلى ما هو أبعد بإطلاقها اسم «بني عكيفا» على حركتها الشبابية، وقد كان هذا قبل أن تشطأ براعمها المسيحانية الصغيرة. فإطلاق الاسم كان بمنزلة فعل يؤذن بالقادم.

عموماً، فإن هذا النهج في إزاحة الأحداث وإنكار مضمونها الديني المسيحاني وإلقاء التبعية على إنسان واحد وحيد - المسيح ذاته على الأغلب - كان النهج الذهبي الذي سارت عليه اليهودية وذاكرتها التاريخية. وقد اتبع النهج نفسه في جميع عشرات الحركات المسيحانية الأكثر محلية والتي حصلت في المنافي اليهودية المختلفة. فهكذا مثلاً، فاز الرامبام بموقعه المتميز لدى الطائفة اليمنية - حيث يأتي بالمركز الثاني بعد الزوهار - وعالم القبالاة - لكونه كان المواسي لها بعد أن تبعت مسيحاً جاهلاً أمياً كاد أن يعرض حياتها للخطر. فبعد أن ظهرت للطائفة نذر الخراب، أوصاها الرامبام بالنهج المجرب بالإزاحة واتهام المسيح وحده وتناسي السياق المسيحاني الكهنوتي الواسع. هذا النهج الذهبي اليهودي في الإزاحة هو الأسلوب الذي اختارته أغلبية المجتمع الإسرائيلي بعد مقتل رابين، بإلقائها المسؤولية على قاتل واحد وإنكار السبب في

---

[1] هنا تلاعب جناسي من المؤلف بلفظتي «الشتات» و«الخلاص» المتقاربين لفظاً في العبرية - م -.

[2] المقصود الرابي عكيفا بصفته اهتدى متأخراً إلى الإيمان بعد ان كان عاصياً - م -.

الحادث ومعانيه المسيحانية والسياق المسيحاني الذي حدث في ظله والموجة الربانية التي أحدثته.

إذاً، لقد أزاحت اليهودية وأنكرت الثمن الباهظ الذي دفعه الشعب من أجل الفكرة المسيحانية، وحاولت، ما أمكنها ذلك، التقليل من شأن السياق والأحداث ذاتها وإلقاء اللوم على شخص منحرف وحيد.

لم يقتصر سلوك هذا النهج على السياق المسيحاني وحده، فقد كانت هناك العديد من المسائل والانقسامات الأخرى التي جرى محوها وتغييرها في سياق التاريخ. فإلى جانب القدرة المؤثرة على إدارة صراعات إيديولوجية، كلامية في الأساس، حول قضايا مثل أركان الإيمان والشريعة والتفسير، كصراعات بيت هليل وبيت شماي، الصدوقيين والفريسيين، والحسيديه ومعارضيها، وحول شخصيات كبرى مثل الرامبام والبعشاط[1]، إلى جانب هذه القدرة قامت حكمة الإخفاء، فلقد طورت اليهودية، وبمقدرة فائقة، أسلوب الإخفاء في ما بدا لهم أنه قانون البقاء إزاء المخاطر الداخلية وإزاء المخاطر الخارجية النابعة من السلطات وتحقيقاتها، وما محاكم التفتيش إلا مكاتب تحقيق. ولقد عبرت هذه القدرة على إزاحة وشطب الصعب والمؤلم في التاريخ الذاتي، عن نفسها، بثلاثة مسالك:

أولاً: الابعاد إلى خارج السياج: فلقد جرى في التاريخ الشريعي اليهودي وصم رجال مثل شبتاي وعيسى وباركوخبا بالشذوذ من خلال تبهيت عمق انتشار حركتهم.

ثانياً: محاولة عائلية للتقليل من شأن إبعاد الانقسامات الروحية ونفي كونها جزءاً من صراعات القوة في الصراع على من يحدد الشريعة والمعنى، وذلك من خلال التأكيد على أن كل من هو داخل السياج فهو يهودي، وان الانقسامات هي لوجه الله وان ثمة مقصداً واحداً لكل كبار إسرائيل، كل هذا مصحوباً بمحاولة دؤوبة لتثبيت شخصية لاهوتية واحدة لليهودية كإيمان واحد واضح الأركان للجميع. وحينما يوضع كبار إسرائيل من مثيري

---

[1] البعشاط: الأحرف الأولى من: باعل شم طوف، وهم اسم مؤسس الحركة الحسيدية – م –.

الانقسام في الدائرة المقدسة إجلالاً لهم، فإنما يوضعون هناك كموميااءات، أما كتبهم المثيرة للجدل فتبعد عن متناول العموم باعتبارها صعبة جداً على الفهم – كما حدث مع كتاب «مرشد الحائرين» الذي أُحرق بدعوى أن به أبيقورية –.

ويشكل مصير كتابات الرامبام، ها هنا، نموذجاً على أسلوب الموروث في «اشفاء» اليهودية من التاريخ. فكتب شيخنا بن ميمون تدل على الكيفية التي تعامل بها الموروث مع عظمائه، وهي إزاحة ما يريد إزاحته. فمصير «مرشد الحائرين» المحروق والمشوه والمبعد، يختلف كلياً عن المنزلة الواضحة لكتاباته الأكثر إجماعية مثل «يد قوية» و«مشناه توراه». وفقط هذه الكتابات المقبولة هي التي تملأ الاقتباسات منها أغلب كتب حكماء الموروث والتقليد في عصرنا، مثلما هو حال كتابنا هذا أيضاً.

والآلية الثالثة في حكمة الإزاحة هي في انتقاء نموذج واضح عن كل تيار في اليهودية، نموذجاً، تكون أركان الإيمان واضحة لديه – ومفهوم ان أركان التيار هي وحدها اليهودية الصحيحة. والأداة الأساسية في انتقاء هذا النموذج هي كتب الدراسة والتربية والممارسة الدينية الصحيحة، حيث يسعى كل تيار جاهداً لضبط الكتب التي ينشغل بها الشباب والكبار. وهكذا، فاللتوانيون، ببساطة، لا يعرفون كتب الحسيدية التي ليست من جهتهم، ضمن اليهودية. وفي حاباد بالكاد يعرفون أكثر من كتب حاباد، وكتب الرابي بالأخص. وهي – كتب الرابي – هي «اليهودية» من وجهة نظرهم.

مفهوم أن التقييدات ليست فاعلة دوماً في الواقع. وهكذا كانت قبالاة الآري في القرن السابع عشر قوية لدرجة أنها تغلغلت إلى بيوت المدارس – المدارس الدينية –. ونفس الأمر بالنسبة إلى كتب الهسكلاه – التنوير – التي تغلغلت في كل مدرسة دينية وكنيس في القرن 19، وهذا هو شأن قوة القبالاة، وبالأخص القبالاة المسيحانية في أيامنا، بحيث تغلغلت إلى كل زوايا اليهودية.

ولكن مازال الضبط والتوجيه، بما يخص معظم الأزمنة والمسائل،

يملك من القوة من حيث انه هو الذي يحدد اليهودية التي يعرفها أبناء التيار. فهكذا، مثلاً، فإن الأغلبية الساحقة من «المعترضين»، ورغم حربهم العلنية على الحسيدية، لا يعرفون أبداً الكتب موضوع الحديث، والجدل تجريدي تقريباً.

حيث أن قوة اليهود في كتبهم، فلقد حاول كل تيار أن يقص جدائل شمشون[1] منافسه عن طريق تجاهل كتبه. لقد زعم الشاعر هاينه أن الكتاب هو وطن اليهود، فهو الجغرافيا وهو الوديان وهو الجبال، وهو السلاح أيضاً. ولذلك فهم يحاولون محاصرة انتشار سلاح العدو. وهكذا حاول كل تيار يهودي أن يضخم ما يحبه وما يعتبره صائباً في التقليد الموروث وإزاحة وإمحاء وإخفاء بالقدر المستطاع، «الفهم الآخر». وهذه ليست حرباً علنية ضد الآخر، بل محاولة لاجتثاثه من وعي أبناء الطائفة، وهكذا، تصرف كل تيار وكأنه عالم مصغر عن اليهودية بكليتها في سلوكها تجاه التاريخ «وما بعده».

«حكمة إسرائيل» هو اسم اتجاه في اليهودية شرع منذ بداية القرن التاسع عشر في دراسة حوليات شعبه وتطور ديانته وتاريخه. مدفوعين برياح الهسكلاه، بدأت طلائع دارسي اليهودية في البحث عن الفهم الصحيح للتاريخ اليهودي في محاولة لتنقيته عبر أدوات بحثية حديثة كما كان سائداً في مركز الحركة، أي في ألمانيا، والتي شكلت، مع صعود أكاديميتها، البوصلة بالنسبة إلى أغلب اليهودية الأوروبية.

لقد اختارت يهودية شرق أوروبا، والتي كانت مركز اليهودية العالمية في القرن الثامن عشر، أن تتوجه ببصرها وفكرها إلى شمس الحضارة التي أشرقت في بروسيا، في ألمانيا وفي الإمبراطورية النمساوية الهنغارية. ولقد أثمرت وأسهمت الطاقة الحداثية التي جلبها هؤلاء اليهود معهم في النهضة الألمانية، كما أنتجت كذلك نتاجاً وأبحاثاً خاصة باليهودية، علاوة على مساهمتها الهائلة للروح العالمية عبر اللغة الألمانية، لغة المدنيّة حسب وجهة نظرهم.

---

[1] المقصود مركز قوة الخصم – م –.

إن عمق واتساع أبحاث رجال حكمة إسرائيل لمؤثرة حقاً، وهذه الأبحاث هي التي أرست، وبقوة هائلة، أسس اليهودية بأعين يهودية.

غير أن رجال حكمة إسرائيل انتهجوا في دراساتهم، بشكل عام، نهج بقية التيارات اليهودية، فما أحبوه ألقوا الأضواء عليه، وما أبغضوه في الموروث أزاحوه. وفقط الأسخياء من الدارسين حاولوا على الأقل توفير دفن لائق للمبغوضين. فها هو الباحث في القبالاة، الرابي والبروفسور فيليب بلوخ في ألمانيا، لم يفهم لماذا يتعين عليه أن يقرأ هذه التفاهات كي يرسل اليهودية عموماً ونظرية السر التأويلية خصوصاً إلى دفن حديث لائق.

إن الدواعي نفسها والأسباب البنيوية التي أثرت على سلوك اليهود وعلى الاتجاهات اليهودية القديمة، أثرت كذلك على ثوريي وباحثي حكمة إسرائيل:

أولاً: كانت تعتمل فيهم الرغبة في التأثير على العالم. فمن خلال شعورهم بالمسؤولية إزاء جاليتهم، كانت أنفسهم تتوق لتوجيه إسرائيل بالروح «الصائبة»، بروح الفهم الحديث لليهودية ولمهمتها الرسولية في العالم ككل وفي عالم اليهودية الداخلي.

ثانياً: كما سابقيهم، فلقد كان العالم الواسع غير اليهودي ينتصب أمامهم، وهو العالم الذي اعتقدوا أنه، وان بدا مرحباً، إلا أن الرياح اللاسامية والعداوة النصرانية لم تبارحه. ويالها من عدم مبارحة كما اتضح بعد ذلك بجيلين أو ثلاثة عندما تحققت نبوءة أخرى من نبوءات هاينة وفتحت الأرض الألمانية فاها. ولذلك فقد وضع رجال حكمة إسرائيل من تلقاء أنفسهم رقابة ذاتية على أقوالهم وأبحاثهم كيلا يصار إلى استغلالها من العيون المعادية والمؤهلة لاستخدام الأبحاث حول المسائل الحساسة كذريعة للاسامية التي تعتمل في صدورهم.

ثالثاً: إن الإيمان الراسخ بقوة الكلمة، وبالتأكيد بقوة الكتاب كخالق ومغيّر للعالم، هذا الإيمان الذي كان يعمر صدورهم كما صدور سابقيهم التقليديين، بل حتى زاد عليه بفعل إيمانهم بالمثال المجرد للتنوير والعقلانية،

اقتضى منهم إبداء الحذر بما يكتبون. وقد كان هذا سبباً إضافياً، يتجاوز رغبة القلب الساذج، لجعلهم يعتنون بالمرغوب والمثير في الموروث.

وكما قلنا، فإن الدواعي الثلاثة التي جئنا على ذكرها أعلاه تركت تأثيرها في اتجاه واحد وهو التركيز على ما يرغبون به ويستجيب مع المُثُل الحديثة العقلانية والإنسانية التي كانت تنبض في قلوبهم. وهذا ما فعلوه عندما اختاروا إلقاء الضوء على العقلاني والمناسب في الموروث اليهودي باعتباره يعكس، من وجهة نظرهم، روح إسرائيل الحقيقية التي ينتظمها خيط واحد بدءاً من روح الأنبياء، مروراً بالرامبام وأصدقائه الفلاسفة، وانتهاء بذاتهم، رجال حكمة إسرائيل. بل حتى عنايتهم اللاحقة بالحسيدية وبنظرية السر فإنما اتخذت دروباً شخصية تبحث عن حكمة عميقة في داخل الرمانة الحسيدية مع إطراح ما بدا لهم أنه قشور دينية متطرفة باعتبارها غير ذات قيمة وتعبر عن قضايا وشياطين أكل الدهر عليها وشرب.

وعلى هذا النحو تم إسقاط وإسكات وإخفاء وتقزيم عوالم الأرواح والشياطين والملائكة والتناسخ التي تزخر بها اليهودية حتى الثمالة، باعتبارها تنتمي إلى عالم الماضي وتتناقض مع مبادئ اليهودية الصحيحة، هذا حتى لا نتكلم عن المسائل المشحونة، مسائل منزلة الأجنبي والمرأة والعلماني، والتي لم تُحظ بمعالجة بحثية لائقة، بل حُسمت وفق أماني القلب اللطيف الباحث عن المستقبل. اقتفى عالم البحث والوعي اليهودي في إسرائيل في القرن العشرين خطى حكمة إسرائيل بشكل رئيسي.

صحيح أنه بزغت في هذا العالم شمس كبير بحاثة اليهودية، غرشوم شلوم، الذي كانت روحه متحررة من كل جزمية جامدة ومن كل قيد في بحثها عن الحقيقة، بيد أن غيوم السر تتمتع كما يبدو بقوة ذاتية خاصة بها، فبرزت وجوه معينة في مرآة دوريان جراي الأرض المقدسة[1].

فعالم الصهيونية، في خلقه تاريخاً يهودياً يتناسب واحتياجاته، تمحور، كما نذكر، على ديانة الأرض وعلى لغتها العبرية. ومع أن مسالكه

---

[1] إشارة إلى رواية «صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد ـــ م ـــ.

تباينت عن مسالك حكمة إسرائيل، إلا أن الطريقة كانت واحدة، بل بمزيد من التطرف حتى، كما يليق بأرض الحقيقة، الأرض التي تتفرز فيها المتناقضات، أرض إسرائيل. ومثلها مثل باقي التيارات اليهودية، انتخبت الصهيونية ما اعتقدته يهوديةً صحيحة، ورغبت في حجب وإخفاء كل ما عدا ذلك، وتجاهلت كتبه. حاولت الصهيونية العودة إلى التناخ، الكتاب العبري، وأن تركز المدارس على تدريسه. وانطلاقاً من أن أغلب النتاج اليهودي من المنفى جاء منه ومكتوب بلغته، فالمفروض فيه أن يبقى، بصفته نتاجاً شتاتياً، بعيداً عن أعين الإسرائيليين، وغير معروف إلاّ للمؤسسين الصهيونيين الذين جاءوا منه، وأحياناً كثيرة هربوا منه وتمردوا عليه.

لم يُنظر في المدارس العلمانية الصهيونية إلى التناخ ككتاب ديني أساساً، بل ككتاب قومي. ومثله مثل سابقيه لم يسلك الانتقاء الصهيوني ولم يُقدَّم بصفته تلك، بل عُرضت فيه أيضاً التيارات الأخرى وأفكارها أملاً في خلق وعي إسرائيلي مشترك.

في البدء، احتوى الوعي الذي تولد في الأرض المقدسة بأيد غير دينية، على الكثير من التناخ بلغته التي تدير الرأس، مع ابتعاد عن كل الباقي. ولكن مع مرور الأيام والحروب والحياة اليومية وأساساً بعد الكارثة التي أمحت عالم الأمس وما ولدته بعدها من رغبة في العودة إلى السوية، تراجعت قوة التناخ، وذاك الابتعاد عن كل الباقي أخلى مكانه للبغضاء التي تعمقت كلما عاظم الآخر الديني، والحريدي بشكل خاص، إحساسه بقدرته على الصراع من أجل السيادة على البلد. وهذه البغضاء تركت المخزون الإبداعي اليهودي - اللوفر الثيولوجي - خلواً من بحاثة علمانيين، فهذا الحقل هو حقلهم «هم». كان عالم البحث الذي نتج من داخل ومع البيئة والوعي الإسرائيليين انعكاساً لهما، كما كان بمعانٍ عدة، استمراراً لحكمة إسرائيل. ففي ظل غياب باحثين علمانيين عديدين وفي ظل غياب صدى ثقافي شامل بقي عالم البحث والدراسة في أيد أخرى، بدءاً من أيد مسيحانية حقيقية تظاهرت بأنها تبحث في المسيحانية، مروراً بتيارات أكثر

اعتدالاً في الصهيونية الدينية – التي يعنيها أن تثبت صحة اختيارها والتي كانت استمراراً للفلاسفة ولحكمة إسرائيل، ومروراً ببحث ما بعد حداثي يؤكد الواقع الغيبي الشخصي للقبالي ويعزله عن سياقه الاجتماعي الأوسع، وصولاً إلى باحثين علمانيين لا يزعمون لأنفسهم معرفة هالاخية وقبالية، فتركز بحثهم على الجوانب الاجتماعية والسياسية فقط. وبهذا يكون العالم الأكاديمي قد قدم مساهمته في نقص معرفة الأرض الدينية.

يبدو أن الفضاء قد تقلص، وبقي العالم الذي تعيش فيه اليهودية الفعلية، العالم الذي يوحد المجتمع والثيولوجيا، بدون النور البحثي الملائم. وهذه الحقيقة ساهمت بقسطها في الظلام الهوياتي، هذا الظلام الذي من أعماقه شطأت وازدهرت أزهار السر العتيقة بمسوح حديثة.

# الفصل الخامس عشر

## غريزة الشر تعود

## إلى أرض القباليين الجدد

بدأت العوالم الإبداعية للقباليين الجدد في النمو والازدهار في داخل الق شمس أرض الميعاد. لقد كان لدى رجالاة القبالاة، ولدى أوساط الآري بشكل خاص، اعتقاداً يحرم إخراج كتب السر القباليه من أرض إسرائيل، لأنها تصاب بالعفن في هواء المنفى. وبالفعل، فرغم أن حياة الناس تعفنت في البلاد من جراء مشاق الحياة إلا أن الكتب القبالية تخرج فيها أكثر نضارة من أي وقت مضى، فها هي تزهو بألوانها الحمراء على خلفيتها الزرقاء وعشرات آلاف الفراشات الصالحة تتقافز عليها وتمتص بظمأ من الرحيق القبالي المسيحاني.

ولقد صاغ الرابي كوك سعادة الإبداع في أرض إسرائيل بشكل جيد:

«إن فضاء أرض إسرائيل نقي وصافٍ وطاهر وواضح ومؤهل لظهور الحقيقة الإلهية. أما فضاء أرض الأمم (بقية العالم) فهو قذر وتختلط به الظلمات وظلال النجاسة والفساد.. لذلك لا يستطيع العقل أن يشع بنوره كما يفعل في أرض إسرائيل»..

وانه لغامر هذا النور. كان إبراهام اسحاق هكوهين كوك من أوائل منتجي قبالاة الأرض الجديدة. وقد مزج في مذهبه بين الإحساس بالقدرة الكلية عند من يعرف سر الكون القبالي مع يقينية نبوية ببدء الخلاص الأرضي، مضافاً إليهما احتفاءً كبيراً بقوى الجسد الأرضية التي تتبعث في الأرض المقدسة.

لقد تضافرت عند كوك رومانسية القرن التاسع عشر الأوروبية مع تفسيره لمفهوم الاختيار في إشعال روحه عندما التقى فيزيائياً بأرض الفضاء النقي، وكانت النتيجة - عن هذا الالتقاء - خيالاً أرضياً: «إن حاجتنا الجسدية كبيرة.. فلدينا لحم لا يقل قداسة عن روحنا المقدسة».

لقد شعر كوك بالسعادة وهو يرى حمار الجسد يستيقظ. فمع الحمار، ينهض الدور المناط بالقوى الروحانية السامية، والتي تتجسد في القيادة الدينية لفرض سلطتها على الغرائز الدنيا ذات القدرات.

وإذا واصلنا استخدام اللغة السيكولوجية، فإننا نحصل هنا على لذة قبالية، إزاء القوى الغريزية اللاشعورية المستيقظة. فبحسب كوك، ينبغي على قوى الغريزة الخاطئة أن تستيقظ في داخل أيغو الشعب العلماني الذي يخلق جيشاً ودولة وقوة حقيقية.

وعلى هذا النحو، وأميناً مع الرومانسية الألمانية المستوردة للشرق، كان الشعب، بالنسبة إلى كوك بمنزلة جسد بيولوجي واحد. وهذا الجسد، كما في ألمانيا وروسيا، تنطوي غرائزه المتيقظة والطازجة على الكثير من القوة. ولكن لابد بالطبع لكل قوى الحياة أن تخضع في النهاية لسيطرة القوة الكلية الدينية السامية.

وبهذا تكون قداسة اللحم قد تحققت.

إذاً، فإن الالتقاء بالأرض أيقظ في الفكر الكوكي ابتهاجاً لقوى الجسد والغريزة التي قمعت في المنفى وحان الآن وقت استيقاظها.

وكما نذكر، فلقد استثارت هذه البهجة توقاً لنشاط جسدي، توقاً للرياضة، وللحرب أيضاً.

إن قوى الجسد والغريزة تقرب مجيء المسيح.

تكمن قوة قبالاة كوك المتناقضة في أنها أعطت دوراً لكل الغرائز، رغم أنها - الغرائز - وبسبب أنها، تقود اليهود نحو الإثم. فالخطايا جزء ضروري وأساسي في عملية الخلاص.

ولقد تقدمت قوة أفكار ومذهب كوك درجة إضافية حينما أضيفت

إلى القوة الصوفية المتخيلة قوة حقيقية إثر التعزيز الذي فازت به التيارات الدينية بعد قيام الدولة وبفعل قيام المجال الاستيطاني الديني المسيحاني في مناطق يهودا والسامرة، وبفعل اشتداد الإحساس بالقوة المسيحانية النابضة بانتصارات عسكرية.

ها هي وسائل الفعل لدور الغريزة حسب التفسير القبالي قد توفرت. وللأحلام الصوفية أضيفت قوة عسكرية.

ان أساس قوة القبالاة الجديدة في أرض إسرائيل، علاوة على أنها تقدم الإجابة النهائية لأسئلة الجيل حول الكارثة واليقظة، يكمن في قدرتها على قلب حاشية المعطف.

لقد تخمر الشرح القبالي لسنوات طويلة في توجهه الداخلي، في توجهه إلى داخل الجسد اليهودي، على الأعمال الطقوسية اليومية، على وضع جلد التيفلين على اليد، إلى المحافظة على الفيض الإلهي الموجود في الذقن، إلى عقد الحذاء بالأسلوب الصحيح، على اليمين واليسار، وإلى أزرار المعطف، إلى أسلوب الجماع بحيث يتم بالترتيب السليم وفي الساعة الصحيحة، وبالنية والصلاة الصحيحة، وإلى الاستعداد للسبت، وتقليم الأظفار، وإلى الأعمال الكبرى التي الغرض منها الحيلولة دون تسلل إبليس تحت جنح الليل وسرقة زرعٍ يهودي مقدسٍ ليصنع منه جيشاً من الأبالسة والقشور.

لقد تراجع عالم المعنى القبالي الذي خلق خلال سنوات المنفى إلى داخل الجسد، إذ لم يكن لدى القبالي في المنفى شيء آخر يسيطر عليه. وفي الجسد تجسدت أعداد[1] التجلي الإلهي العشرة.

فالعدد العلوي هو الجمجمة

الحكمة - المخ الأيمن، والفهم - المخ الأيسر

اليد اليمنى هي عدد اللطف. واليد اليسار هي نص الشريعة

الجسد هو عدد الـ «تفئيرت - الجمال والفتنة»

---

[1] الأعداد العشرة، والمراتب العشرة، وهي نظرية قبالية بشأن الخلق أشرنا إليها آنفاً - م -.

القدم اليمنى هي الأزل - القدم اليسرى هي الجلالة والفخامة والأساس في هذا كله، «العدد الذي سمي «صادوق» - الرجل الصالح - وهو الذي أساس العالم، إنما هو في الختان، في العضو التناسلي للرجل اليهودي.

بينا الملكوت، المرتبة الدنيا والسفلى فهي قلفة عضو الذكورة.

لقد انهمكت العديد من الكتب في مسألة الأحكام القاسية الملتصقة بشعرات الرأس، وما يقابلها من الفيض الإلهي المتدفق من شعرات الذقن. ومفهوم أن خلاص العالم يتم من خلال التعامل الصحيح بالعضو الذكري وببقية التعاليم الجسدية.

يبدو أن العالم بأجمعه كان محشواً داخل جسد اليهودي. وداخل بطانة معطفه تحدث كل الدراما الكونية. ويستطيع القبالي، بواسطة النية السليمة وبسيادة السر على مملكته الصغيرة القابعة داخل معطفه، أن يغير العالم وما فيه.

ولقد تغير العالم كله بالنسبة إلى القبالي اليهودي عندما أضيفت على القوة الخفية، هذه القوة الخبيثة في جسده المقدس، المعذب والمشحو بين ثنايا معطفه، قوة واقعية، قوة عسكرية مسيحانية تحتل أراضي مقدس. وفجأة، لم يعد يوجد بين الجيوب الداخلية لمعطفه ذيل سمكة مملحة وخبز قديم فقط، بل يوجد أيضاً مسدس حديث جديد. ومع تبدل المعطف انقلبت البطانة أيضاً، ولم يعد الاهتمام موجهاً إلى الداخل بل إلى الخارج وبقوة هائلة. ونهض الكثير من الناطقين باسم هذا الواقع الجديد على تراب أرض إسرائيل، إنهم القباليون الجدد.

المثير والخلاق من بين هؤلاء القباليين الجدد رابي مستعمرة «عود يوسف حي» قرب نابلس، الرابي اسحاق غيزنبورغ. صحيح أنه لا يمكن الإدعاء أن لديه الجمهور الأكبر بين القباليين، ولكن جمهور رعيته هذا الذي يعد عدة مئات، له تأثير على آلاف عدة. فأشرطته وكتبه وحلقاته الدراسية تصل إلى جمهور واسع في أعماق المناطق، في الخليل، في نابلس، في بيت

ايل، وحتى في قرية حاباد له نفوذ كبير. وفوق هذا، وعلاوة على هذا، فإن فكر غيزنبورغ يعكس وبشكل دقيق روح القبالاة الجديدة وانقلابها نحو الخارج والقوة التي أثارتها، من حيث أن لغته تعطي هذه القوة تعبيراً حداثياً.

اسحاق غيزنبورغ من مواليد الولايات المتحدة، تائب، ابتدأ رحلته من جامعة باركلي حيث درس الرياضيات وعزف الموسيقى في سنوات الستينات الهائجة، ووصل إلى أرض إسرائيل عن طريق حاباد بعد الأيام الستة مباشرة. ينتمي غيزنبورغ من حيث المبدأ إلى المعسكر المسيحاني في حاباد، إلا أنه والكثير من مريديه يرون أن غيزنبورغ ذاته يحمل رسالة مسيحانية، فهو يعتبر، من قبلهم، الاستمرار الجسدي للرابي اللوبابيتشي. وعلاوة على مريديه الكثر من حاباد، له أيضاً مريدين من رجال كوك الباحثين عن أجوبة مسيحانية أكثر وضوحاً، وعدداً لا بأس به من الحسيديات الأخرى، ومن المعترضين، وبالطبع الكثير من التائبين المهتدين.

تتلخص في غيزنبورغ، من حيث سيرته ومن حيث تنوع جمهوره، قصة القبالاة المسيحانية الجديدة التي تصهر تيارات عدة في واقع مسيحاني واحد. ومع أن حقيقة كونه تائباً تضر بالطبع بهيئته المؤسساتية، مع أن مريديه يطلقون عليه لقب الرابي لكن دون أن يملك إجازة بذلك، إلا أن هذه الحقيقة ميزت دوماً الطاقة المسيحانية التي، منذ الرابي عكيفا ومروراً بحركات مسيحانية عديدة، مالت دوماً إلى أخذ قبس من القشور العلمانية.

وأكثر من هذا، فليس ثمة ما يحمل قوة جذب لثقافة «طوائف الأبناء» التي نجمت عن المهاجرين إلى أرض الملاذ أكثر من علماني رياضي موسيقي صوفي في لباس ديني حديث، أي الحمار المسيحاني الكامل. سنتوسع هنا في نظرية غيزنبورغ لكونها ترمز إلى وتمثل الخطوات الأساسية في قبالاة الأرض المقدسة الجديدة.

بلغة تختلف بعض الشيء، وبأمور مشابهة، يتنبأ أغلب القباليين الشرقيين الجدد. يجب أن نتذكر أنه حتى الرابي كوك لم يكن في بداياته يتمتع بمركز شرعي، ولكن لكونه كان يجيب على أسئلة الساعة ويطرح أمام

الكثير من الشباب المتلهفين لمهمة تحدياً تنفيذياً، لذلك ارتفع شأنه وعلا. وهكذا الوضع في أيامنا بالنسبة إلى الرابي ليئور في الهالاخاه وبالنسبة إلى غيزنبورغ في مجال السر، ومعهما أيضاً مردخاي الياهو وكثير غيرهم ممن يتحقق فيهم التوحيد ما بين الجماهير المصغية والأقلية المصطفاة - مجموعات مسلحة ومستعدة لأي عمل.

ويتمتع هؤلاء القباليون الجدد الذين نبتوا في واقع العسكرية اليهودية بقدرة كبيرة في نزمجه[1] اليهودية. ويبدو لي أنهم بهذا إنما يعبرون خير تعبير عن الاتجاه المركزي في قبالاة عصرنا، والذي يشكل فهمه المفتاح لإدراك الانقلاب في اليهودية. والحديث هنا يدور عن سياق ثيولوجي تفسيري تقترب أهميته في فهم توراة العصر من أهمية مذهب كوك في الخلاص عبر الخطيئة.

ان العملية التفسيرية الشائقة، والتي تدعى هنا «نزمجه» هي ركيزة جوهرية في القبالاة وفي الفكر اليهودي الحديث. ونحن نتحدث هنا عن تحول يدير الرأس من الاستعارة البلاغية إلى أصلها في أرض إسرائيل. فلقد كان من شأن السنوات الطويلة في المنفى أن جعلت الإبداع اليهودي هناك يضع بنيوات تمثيلية، بل استعارية، في مقابل وبدلاً من حرفية النص والفعل أيضاً. ففي المنفى أوجدت اليهودية أدوات مجردة وتفسيرية لفهم النص. فكل عالم المعنى اليهودي يثري ويتوسع مع مرور الزمن.

فإلى جانب قلب بطانة المعطف - التي اتحدت فيها القوة الداخلية والمتخيلة مع قوة واقعية عسكرية، شرع انقلاب تفسيري يعيد المجاز من منفاه إلى داخل نص جديد على تراب أرض إسرائيل، منفذاً بذلك إصلاحاً خلاصياً.

يظهر أنه بعد الأعوام الطويلة من التوسع المضطرد في العالم

---

[1] يستخدم المؤلف هنا المصطلح الإنجليزي de-metaphorization الذي يعني نزع الاستعارة البلاغية او المجاز او التعامل معه تعاملاً حرفياً ولقد اهتديت إلى نحت كلمة «نزمجه» من كلمتي «نزع المجاز»، لتقابل المصطلح الإنجليزي، ولا أعرف مدى التوفيق في هذا - م..

اليهودي المتطلع للروحانيات والناعم، حينما كانت الصلاة الداخلية تحل محل تقديم القرابين الفعلية الدموية بسبب غياب الهيكل المادي، بعد هذا بدأ انكماش متسارع إلى نقطة الصفر، الصفر المادي.

ونعثر على مثال نموذجي على مسألة بناء العالم المجازي في المنفى وعلى النزمجه الحاصلة في البلاد في قضية العماليق. فهناك فريضة «امح عملاق» وهي أمر لإبادة العماليق، الشعب الشرير، عن وجه البسيطة بأطفاله ونسائه وشيوخه وبهائمه. ولقد عوقب شاؤول مرة لأنه نفذ هذا الأمر تنفيذاً جزئياً باستبقائه غنم العماليق وملكهم أجاج، بنزع الملك عنه ونقل المعطف الداخلي وما يتضمنه من مهام إلى داود محارب الرب. إن سنوات المنفى الطويلة – حيث ليس فحسب لم يكن واضحاً من هو العملاق، بل إن أية محاولة فعلية لإبادة غوى كانت غير ممكنة وستسفر عن كارثة على اليهود أيضاً – أفضت إلى بناء عالم مجازي – روحاني – لتلك الفريضة.

في عالم التفسير اليهودي الكلاسيكي، كان عملاق الفعلي الوارد في ظاهر النص يتماهى، عن طريق نظيره في القيمة الحسابية لحروف الهجاء، أي الشك[1] الذي له قوة كبيرة في محاولة إفساد اليهود الصالحين، مع غريزة الشر. فعملاق = الشك = غريزة الشر. وهكذا وبحركة قلب أداها إبهام[2] تفسيري انقلب الشر التناخي المادي الذي نسب إلى شعب حقيقي قائم خارج إسرائيل ليصبح شراً داخلياً موجوداً في كل يهودي صالح، أي غريزة الشر. وبهذا تحولت الحرب ضد عملاق من حرب عسكرية إلى حرب داخلية يخوضها كل يهودي مهما كان، واليهودي التقى على وجه التأكيد.

وهذا يعني أن عالم التفسير اليهودي قام، قبل أن يخترع اليهود علم

---

[1] كل من كلمتي «عملاق» و«شك» في العبرية تساوي 240 حسب القيمة المعطاة لكل حرف من حروف الهجاء العبرية. – م –.

[2] المراد هنا الإصبع الإبهام وليس الغموض.

التحليل النفسي[1] لسنوات طويلة، بعملية النزمجه والاستيطان والتي تجعل من الصراع ضد الشر صراعاً قائماً في أغوار النفس.

مفهوم أنه ليس الرغبات وحدها – الرغبة في الدراسة والروحانية – هي التي كانت في جذر الانقلاب في الفكر اليهودي، بل كانت هناك أيضاً، وكما أسلفنا، حقيقة أنه لم يكن تحت تصرف الملك اليهودي المنفي في مملكة الواقع لا جيش ولا قوى اقتصادية ولا سجون ولا شرطة، بل فقط ما يخبيء بين ثنايا مئزرة؛ جسده هو، والمخزون الكبير الموجود في الجيوب الداخلية لمعطفه. وعلى هذا النحو كان بإمكان كل فعل حقيقي أن يغدو فعلاً موجهاً إلى الداخل لا غير، إلى خفايا الجسد وشؤونه، إلى مملكة النفس. لقد عرف عالم التفسير والمجاز كيف يقحم عالم الواقع كله – مصائبه وأزمنته – في داخل جسد الطائفة وداخل جسد اليهودي الفرد الذي تدور في ثنايا معطفه، وتخرج من مئزره الداخلي، كل الأمور التي تسقط الممالك، والتي تجلب كذلك الكوارث على شعبه من جراء عدم المحافظة على السبت أو قذف الزرع باطلاً، كما ينطوي في مئزره الداخلي أيضاً ذلك الزهيد من السعادة والبركات.

واضح أن الدراما التي تدور في بطانة اليهودي تكون أعظم كلما كان المعطف عائداً إلى يهودي تقي أكثر وخبير أكثر في النص والسر، كون المملكة التي تحت سيطرة أفعال التقي أكبر وكذلك مسؤوليته، وهكذا دواليك حتى الوصول إلى مرتبة أولياء إسرائيل الستة والثلاثين والذين بفضلهم يقوم العالم، وصولاً إلى مرتبة مسيح العصر. وكذلك الأمر في النموذج الذي أمامنا، مسألة غزيرة الشر كرمز العملاق، فواضح أنه كلما كان الإنسان تقياً أكثر وعاقلاً أكثر، كلما كانت غريزة الشر عنده أكبر.

فالرب المقدس، حسب المكتوب، يحمل كل إنسان وفق قدراته، فاثنان يصابان بالدهشة عندما يقفان أمام كرسي الجلالة: الشرير لعدم قدرته

---

[1] الإشارة الساخرة هنا إلى سيجموند فرويد، العالم اليهودي الأصل الذي اسس علم التحليل النفسي – م –.

التغلب على غريزته الرفيعة كالخيط، والولي لانتصاره على غريزته التي هي بحجم جبل هائل. فكلما ارتقى اليهودي في مراتب التقوى، كلما ازدادت مسؤوليته بتنفيذ فريضة محو العماليق، أوَ ليس هو في حرب داخلية ضد غريزة شر كبرى، غريزته الداخلية هو!

وكما قلنا، فإن هذا المنحى في استبدال العالم الحقيقي غير المسيطر عليه بعوالم الداخل والروح والتي هي تحت سيطرة الإنسان، كان أسلوب اليهودية الذهبي خلال القرون الأخيرة. وهكذا، ومع خراب البيت الفعلي، جرى استبدال تقديم القرابين الفعلية الدموية والتي تُصعِد من الكنيس الفعلي دخاناً نتناً، ببناء روحي للصلاة التي تحل بكلماتها ونغماتها، وكإله روحي، محل الحيوان القربان.

وهذه الطريقة في استبدال الموجود فعلياً، القديم والوثني، بفعل إنساني داخلي، سحرت يهود القرن التاسع عشر الذين حملوا معهم حيثما ذهبوا صرعة هذا التفسير الذي ينقل المادي الفعلي إلى مناطق النفس والروح وعبرها إلى حلم فعلي جديد. وكان من بينهم يهودٌ - مازلنا حتى الآن في نطاق اليهودية التقليدية - ممن كانوا يقيمون في عالم اليشيبوت (المدارس الدينية) وينظرون إلى فعل التعليم المجرد كمتوازن ويمثل الفرائض الفعلية، كما كان من بينهم مثل أولئك اليهود الذين انجذبوا وراء بشارة الحسيدية التي رأت، على ضوء فهمها، في عالم القبالاة - وخاصة في عالم الإصلاح كما قدمه أرى، بصفته يجري أساساً في أغوار النفس - رسالتها الوجودية لتخلق من داخل النفس ومن داخل صراع اليهودي المعوز، شرارة السعادة الوجودية والشعلة التي تضيء عالماً بأكمله. كما كان من بينهم من كانوا في نطاق الأرثوذكسية وأرادوا ورغبوا بيهودية جديدة بروحية حكمة إسرائيل، وذات بشارة روحية عالمية - على نور الأنبياء كما فهموه - من أجل الإنسانية والاشتراكية وروح الإنسان، كما كان من بينهم من اليهود الذين خلقوا عوالم إصلاحية يهودية، ومن الذين أخذوا البشارة التي تعتقد أن كل العالم يتوقف على أفعال الفرد - داخل عباءة يهودية -

إلى حركات اشتراكية ثورية تؤمن بقدرة الإنسان على تحسين عالمه. وكان من بينهم كأولئك الذين أخذوا سر العالم القائم في أغوار الفرد لكي يخلقوا الحلم اليهودي في أمريكا، والحلم الصهيوني الاشتراكي في أرض إسرائيل. وبالتأكيد كان منهم كهؤلاء الذين ابتدعوا علم النفس الذي بيَّن أن جوانح الفرد تنطوي على عوالم كاملة، وأنه - الفرد - من خلال تخليص ذاته الداخلية، مملكته الصغيرة، يغير موقفه الفعلي في العالم. وقد كان أحد هؤلاء المحلل النفسي الدكتور وليم رايخ في الولايات المتحدة الذي قال «إن لذة الإنسان تنزل المطر»، كهذا كان الشاعر ألان غيزنبورغ والرابي مناحيم كرماج - أب جدي، الذي مع نقص السكر الفعلي إبان الحرب العالمية الأولى، احتفظ بقطعة سكر بين أصابعه فيما تقبض يده الأخرى بالشاي.

وبعد أن انتهى السكر، بقي الفراغ بين أصابعه كمحلي بكامل القدرات للشاي الفعلي. وهذا الفراغ الذي بين الأصابع والذي عبره تدخل النفس إلى العالم، أخذه معه مناحيم كرمعاش، مرتدياً زياً حريدياً، إلى الأرض التي أشاد ابنه عليها كيبوتس، مواصلاً الاحتفاظ بين أصابعه بالفراغ المحيي والمحلي حتى وهو في وسط طلائعيين علمانيين كان ابنه أحدهم وغير اسمه، بروح الثورة الصهيونية، إلى كنعاني، وحافظ مع ذلك على الفراغ ووسعة، هذا الفراغ خالق العوالم ومحلِّيها.

لقد عادت غريزة الشر، حسب مذهب القباليين الجدد، إلى التطواف في البلاد. ففي هذه القبالاة الجديدة، قبالاة ما بعد الكارثة، عاد كل ذاك العالم الذي تمدد من داخل المعنى الواقعي إلى بنيوات خلق مجازية وتقلص إلى داخل الحقيقي، إلى أرض إسرائيل، تقليصاً كان الانهيار فيه نحو الداخل متسارعاً بفعل استخدام وسائل التمدد.

يتألف مجرى حياة أي شمس في الكون من تمدد هذه الشمس وهي تشتغل بعناصرها الداخلية، إلى أن يحصل انفجار نيزكي هائل، فتأخذ في التهاوي إلى داخل نفسها خالقة نجماً قزماً أبيضَ نيوترونياً ينضغط كل

شيء فيه، بفعل جاذبيته الذاتية، إلى الداخل. ولا يبقى أيما فراغ - لا بين الأصابع ولا بين جزئيات الذرة، إن شمساً تنمو من حجم بحجم شمسنا إلى أن تصل إلى كوكب المشتري تقريباً، تنهار إلى كوكب صغير بحجم 3000 كم فقط. ولو كان الأمر يخص شمساً أكبر، لكان من المحتمل أن ينتهي الانهيار إلى ثقب أسود، إلى كتلة تجذب كل شيء ولا يصدر أي نور عنها. ويبدو أن اليهودية قبل الكارثة كانت شمساً كبيرة بدرجة كافية.

يستخدم القباليون الجدد كل الفضاء المجازي الذي بني في الماضي لكي يعيدوا غريزة الشر إلى أرض البلاد. فهم يرون أن الوقت المسيحاني هو وقت العودة من المجازي إلى الفعلي. وعلى هذا النحو يمكن الانطلاق بمقارنة مقلوبة، من اليسار إلى اليمين فنحصل على أن غريزة الشر = عملاق، وحينئذ يتمكنون من استخدام كل ما قيل عن الشر الداخلي، وتوجيهه، بقلب الإبهام التفسيري نحو الأسفل، إلى العالم الخارجي. فكل قبالي مسيحاني هو قيصر على المسرح العالمي.

وهكذا يمكن نقل الحرب من داخل الغريزة الداخلية وتوجيهها إلى الخارج وجعلها حرباً فعلية في عالمنا الواقعي الخارجي وضد أناس فعليين يتوقف مصيرهم على إدارة إصبع الإبهام.

فقد قيل، على سبيل المثال، «وتُبيد الشر من وسطك»، وقد كان الداخل هو المقصود بهذا القول، أي لتطهير المعسكر الداخلي، الشخصي. ولكنهم يفسرونه الآن كالتالي: الشر = غريزة الشر، وغريزة الشر = عملاق. ومن هنا فإن معنى إبادة الشر في أيامنا، بالنسبة للقباليين الجدد، هو محق غريزة الشر، أي محق عملاق، وهذا يعني ضرورة إبادة كل العماليق الذين في وسطنا أي العرب. فلابد من قتل كل العرب الذين في إسرائيل. وحدود إسرائيل هي حدود الوعد. ولذلك ينبغي أن تتوسع كثيراً حدود السيطرة العسكرية الإسرائيلية وينبغي كذلك تطهير الغوييم من النيل إلى الفرات، بما في ذلك كل العرب بالتأكيد.

وهكذا، وبحركة واحدة من اليد، جرى توجيه كل مخزون الإبداع

اليهودي الهائل الذي كان موجهاً باتجاه الحرب الداخلية ضد الشر الذي في داخل اليهودي، إلى الخارج، وليس الخارج الذاتي، بل نحو «الآخر». وهذه المرة لا توجد ضد هذا «الآخر» - اللايهودي الموجود على التراب المقدس - القوى الروحية فقط بل قوة السلاح أيضاً. كل هذا فيما نشوة الحرب الداخلية الحسيدية ضد الوثن والشر الداخلي، هذه النشوة التي تسعى لأن تجد السعادة رغم مشاق الحياة، تنتقل إلى السعادة السماوية الكامنة في حرب الإبادة العسكرية الحقيقية.

كل عالم إبداع السعادة الحسيدية، العالم الذي اعتبر أن تغلب النفس على آلام الوجود اليهودي والبشري بشكل عام، هو تجلي الرأفة السماوية، وهو كذلك بمنزلة إصلاح النفس والعالم (بتفسير خلاق للإصلاح الذي قدمه آري) - كل هذه السعادة تخلي مكانها أمام سعادة المعركة. والمعركة، بالطبع، لم تعد داخلية، بل خارجية، ولم تعد النفس ميداناً، إنما أضحت تقتل الأنفس. ومن باب الاحترام، وُضع مسدس شرعي بدلاً من قطعة السكر في ذلك الفراغ بين الأصابع.

وهكذا، بلغة القبالي اسحاق غيزنبورغ حول غريزة الشر وعملاق: (الأساس هو بواسطة كمال تنفيذ «سرٌ من الشر» إذ بحسبه فإن «محوت الشر من وسطك» يشمل «الغوي الذي في وسطك»).

ينبغي علينا أن نطهر أرضنا المقدسة من كل دنس وشائبة، على قاعدة «تطرد الغوييم وتخطئ» وينبغي علينا توسيع حدودنا حتى حدود الوعد بل أكثر. وحينها فقط نفوز بالوجود الكامل والعمل الخير ببناء الهيكل على الجبل المقدس).

وبحسب غيزنبورغ، من المهم قبل عملية الطرد التطهيري:

(حل مسألة من هو اليهودي جذرياً، أي، انطلاقاً من التعريف الشرعي لمن هو يهودي، ينبغي على الشعب، وعلى العالم غير اليهودي إلى حد ما، أن يحس بالفرق النوعي بين اليهودي والغوي).

إذاً، حينذاك، وبعد تطهير الشعب، يأتي دور تطهير المدى من الغوييم

بحرب لا مثيل لها: (ليس ثمة متعة كمتعة الحرب، ففي وقت الحرب متعة لا نظير لها).

أيضاً: (عمل الحرب كفعل الرب، فاللذة الكبرى للنفس هي إبادة كل لذة شريرة)، فالحرب إذاً، وعن حق، وفق هذا المفهوم، هي بالفعل ذروة اللذة.

من بين العدد الهائل من الانفعالات التي أثارتها الحسيدية، يقع اختيار غيزنبورغ ومعه العديد من القباليين الجدد على سعادة الانتقام بالذات. فالانتقام، من وجهة نظره، أعلى درجات سمو النفس ورمز المرتبة العليا في الإصلاح. وبروحية معلمه الرابي اللوبابيتشي، يولي اسحاق غيزنبورغ عناية واسعة لشمعون وليفي. وبحسب غيزنبورغ وحسيديه، فإن روح الرابي المسيحانية انتقلت فعلاً لتحل في جسد الصديق من شكيم[1] (نابلس) الذي يواصل فقه اللوبابيتشار، والذي قرر، وعلى خلاف مناحيم شيناورسون الذي قال عن اسم المسيح، حسب التلمود، سيكون مناحيم، ان اسحاق هو اسم السليل الجديد من نسل داود المقطوع والذي صعد بعد اختفاء الرابي عن العين المجردة.

حسب النص الظاهري للرواية التوراتية، انتقم شمعون وليفي من شكيم. وهذا الأخير كان ابن حمور رئيس المنطقة واشتهى دينا ابنة يعقوب فضاجعها. وكتعويض على فعلته، وكما هودارج وكما تقتضي شريعة الرامبام، طلب الزواج منها، فوافق أبناء يعقوب شريطة أن يتم ختن شكيم وحمور وبقية مدينة شكيم. وفيما هؤلاء الأخيرون ما زالوا في دمائهم بفعل الختان، أغار أبناء يعقوب، شمعون وليفي كرجل واحد على المدينة، واستطاعوا بواسطة خديعتهم المقدسة، ذبح كل من في المدينة. تقول الرواية التوراتية أن يعقوب أحس بالمرارة على أبنائه الذين أساؤوا إلى سمعته بقسوتهم. كان الرامبان ومعه العديد من كبار إسرائيل من رأي يعقوب. أما الرامبام بالذات

---

[1] نظراً لضرورات السياق هنا، فإننا سنبقى على استخدام الاسم العبري «شكيم» أوشيخم دون ترجمته إلى نابلس – م –.

فقد دافع عن شمعون وليفي، إلا أنه لم يبلغ مبلغ اللوبابيتشار وتابعيه. فغيزنبورغ يثني على شمعون وليفي بالذات - المذنبين حسب نص التوراة الظاهري - ويضعهما في المرتبة الروحية اليهودية العليا، مقتفياً في ذلك خطى اللوبابيتشار الذي اعتبرهما وليين وهما اللذان أعطيانا طقس بارمتيسفاه[1]. فهذان البطلان كانا في سن الثالثة عشرة.

يسير غيزنبورغ، ورابيه من لوبابيتش، على النهج المسيحاني الذي يزعم أن هناك ما يعلو على الشريعة الاعتيادية، وهو الالتزام والتقيد السماوي في الانتقام.

فالانتقام ينسخ المقاييس الاعتيادية للتوراة، وهو بالذات ما يدخل البهجة إلى قلوب المتسامين. يتساءل غيزنبورغ واللوبتيشار: «لماذا علموا ابن الثالثة عشرة أنه رجل انطلاقاً من سلوك يبدو في الظاهر وكأنه غير مرغوب».

ويجيبان: «ثارت فيهم حمية كبيرة ومقدسة بلغت ذات النفس. وفي ذات النفس ليس ثمة مكان للحسابات. فهنا لا يجوز أخذ أية حسابات أو مقاييس بالاعتبار، حتى وإنّ كانت مقاييس التوراة».

ان نهج الخلاص عبر الخطيئة يحتفل بنصره. ويواصل غيزنبورغ:

«من خلال تكريس نفسك الطاهرة (لإبادة الغوييم) تبث وتثير شعور وحدة إسرائيل المقدسة، حتى لا يبقى غوياً واحداً في البلد».

يعثر غيزنبورغ على طرق عديدة للاحتفال بسمو الروح الذي في الانتقام. وكالكثير من زملائه، فهو يركز على شرائع الأرض في مساهمته في الجدال الواسع الذي تنخرط فيه أجزاء واسعة من يهودية عصرنا بشأن الترتيب السليم لفتوى الرامبام بخصوص الأرض: انتخاب ملك، إبادة عملاق، وبناء الهيكل. فبحسب مذهب يهودا عتصيون مثلاً، فإن الأولوية هي لبناء الهيكل. ذلك أن البدء بعمل فعلي قوي، بتدمير الدناسة - المساجد التي

---

[1] ميتسفاه: الولد اليهودي الذي يبلغ الثالثة عشرة يجريان له طقس بارمتيسفاه، وهو سن البلوغ الشرعي حيث يصبح ملزماً بكل الفرائض الدينية. - م -

على جبل الهيكل – سيؤدي إلى انبعاث الروحية المناسبة كمثل روح المظليين الباكين. ويستعين تابعو مذهبه بأن بناء البيت الثاني أعاد الناس إلى الدين. وفي بيوت عديدة، وحتى في بيوت من غير مريدي عتصيون، تظهر الصورة المُمنتجة لجبل الهيكل وقد تطهّر من المساجد التي عليه لصالح المخلصين. يؤمن غيزنبورغ، ويشاركه في ذلك الكثير من القباليين، ان الأساس هو بناء الهيكل – المقام الدنيوي للرب في عالمنا الأرضي – وهو ذروة ملكوت السماء على الأرض. ولكي يكون المقام جديراً بملك الملوك وبمسيحه، لابد له ان يكون نقياً، ونقياً من الغوييم في المقام الأول، هؤلاء الغوييم الذين من دمهم الذي سيراق بالانتقام سيتم صلاح عالم الرحمة. وبلغة غيزنبورغ:

«من غير الممكن بناء ملكوت القداسة طالما لا نعرف كيف نكون أشراراً مع الآخر الذي يستحق ذلك».

فعلى نقيض يهودية المنفى التي أودعت سوط الانتقام بيد الرب، ووجّهت زخمها، كما أسلفنا، نحو الداخل، نحو المناطق الداخلية، وعلى نقيض المفكرين المسيحانيين السابقين الذين ألقوا عبء الانتقام على كاهل «يهود (آخرين)»، يرى غيزنبورغ ويرى قباليون جدد غيره أن ثمة وظيفة – في هذا المجال – لحسيدييهم.

في الماضي، في زمن شبتاي تسفي، كان الأغاداة التي سادت في كل المنافي الإسرائيلية، ترى أن الذي سيتولى الانتقام للدم الإسرائيلي المسفوح هم الإسرائيليون في الجانب الآخر من السامباتيون[1]. ان الإسباط العشرة، غير الملتزمين فعلاً بالدين هم الذين ينتقمون نقمة اليهود حسب الإجاداه المقبولة، وليس اليهود المنفيين عن الأرض الذين هم غير مؤهلين للحرب حتى وإن كانوا في زمن مسيحاني. وكوك الأب أيضاً رأى أن الانتقام يتم على يد يهودية أخرى، على يد العلمانيين من اليهود، الذين من خلال تجندهم بالجيش من أجل الأمة يصلحون من خطيئة جوهرهم اليساري.

[1] سامباتيون: نهر أسطوري موجود في مكان ما على الجانب الآخر من «جبال العتمة» هذا النهر يقذف طوال ايام الأسبوع حجارة إلى الأعلى، ما عدا في يوم السبت فهو يهدأ، فيجتازه من يريد.

فبحسب كوك يتم الإصلاح من قبل الحمـار العلمـاني، «اليـهودي الآخـر». وبهذه الروحية يعبر العديد من الكبار عن قلقهم مما قد يحصل إن هجر العلماني، اليهودي الآخر، مهمته الحربية وعقد سلاماً، يقول كوك:

«إنه لما يضيِّق الروح ذاك الترهل المادي الذي قد يصيب ذاك الجزء من الأمة الذي يتوهم أنه وصل إلى غايته، وستأتي أيام تقول فيها أن لا رغبة فيهم» - (وهذه الأيام تجلب آلام مخاض المسيح التي ستعطر العالم بآلامها) -.

عند كوك، فإن التخلي عن الحرب من جانب الخطاة مبعوثي الرب سيؤدي إلى حرب يأجوج ومأجوج التي هي من علائم آلام المخاض. ومن المنطلق نفسه، وإن كان من زاوية ثيولوجية أخرى، أعرب أيضاً هحزون ايش، كما نذكر، عن قلقه من السلام، وعن آماله في الحرب التي يخوضها العلمانيون - اليهود الآخرون -. فبرأيه ينبغي اعتبار التوتر الدائم على الحدود نعمة إلهية، فممنوع أن يكون سلام للعلمانيين الأشرار.

إن مؤسس العالم الليتواني بارك الحرب المعفى منها أبناء طائفته. القباليون الجدد، ومن ضمهم غيزنبورغ، أكثر أخلاقية. فهم لا يطلبون الإعفاء. بل بالعكس، فغيزنبورغ يرى أن قطيع رعيته يصلحون للحرب بشكل مطلق.

في مناطق ما بعد 67 التي وصل إليها عندما هاجر إلى البلاد، في حدود الاستيطان، - المجال الحيوي الشرقي - بزغت قوة دينية كافية. وبحسب رأيه ورأي رعيته، فإن الفرائض الاعتيادية التي قال بها الرامبام بما يخص إبادة الغوييم من البلاد ملزمة للفرد حتى وإن كانت من وظيفة الدولة. فهي فريضة عين ملزمة للفرد. وعلى كل من يتمتع بما يكفي من علو في روح بهجة الحرب، وحتى الحرب الشخصية، أن يتسامى بأفعاله ويروي الأرض المقدسة بدم الغوييم.

أوليست مسرة الحرب تفوق كل المسرات!

وما يبهج غيزنبورغ وزملاءه، مع إعادتهم المجاز من المنفى إلى أرض

إسرائيل، الانهماك الكامل في «ولاغوي واحد في الأرض». ولكي تكون الأرض طاهرة، فإنه واضح لهم بالمطلق أن نفس الغوي ليست نفس إنسان، كما أنه واضح لهم كذلك أن أحداً لا يملك الحق في حرمان اليهودي من حقه في الحرب المقدسة. وواضح كذلك أنه إذا ما أبدت الدولة تراخياً - علماً أن اجتهاد الرامبام الخاص بالغوييم «ننزل ولا نرفع» يسري على أرض إسرائيل - فإن واجب الفرد أن يدفع الغوي، أي غوي، إلى بئر، كلما برزت له سانحة. وهذا الأمر بسيط وجلي. ويقول غيزنبورغ في كتابه (ملكوت إسرائيل):

«لا يجوز، في الواقع الآخذ في التحقّق في أيامنا، اتباع أساليب السلامة. بل يجب إبعاد كل غوي عن حدودنا بالقوة، كما قر معلمنا الرامبام. بل أكثر من هذا، فعلينا في ساعة الحرب ضد أعدائنا أن نكون سيئين أكثر. وهذا ينطبق على مسألة الانتقام».

وليس ضد الغوييم فحسب ينبغي علينا أن نكون سيئين:

«ينبغي على الملك أن يفرض على كل إسرائيل أن يتبعوا التوراة. فهذا هو إصلاح شجرة معرفة الخير والشر. أن تعرف كيف أن تكون جيداً في البدء، ولكن أيضاً كيف تكون رديئاً في النهاية».

وأيضاً:

«بداية الإصلاح تكون في القضاء. قضاء العمل لدراسة التوراة، ومعه إعادة القضاء العبري التوراتي، وأيضاً إجراء الحساب مع الغوييم والانتقام منهم».

وقضية الانتقام المقدس وإبعاد الغوييم عن حدودنا أمر أساسي. ومحاسبة الغوييم مرتبطة بسيادة القضاء العبري وسلطة تدريس التوراة.

بسيط وجلي في أعين القبالاة الجديدة أن وظيفة الهالاخاه هي إصلاح الواقع وليس الرضوخ له. فالغاية من الهالاخاه هي السيطرة على الحمار، أي العالم المادي. وتوراة السر هي التي تروض الواقع المتمرد أمام الهالاخاه القادمة لتولي السلطة. وهكذا فإن كل عالم الهالاخاه غير العملية

- أي الهالاخاه التي لا يُفتى وفقها في الأمور العملية، ينزل إلى العالم الحقيقي ويصبح نافذاً، كل هذا يتم بفضل عودة المجاز إلى أرض إسرائيل.

إن حق عودة الاستعارات البلاغية المجردة إلى الأرض هو فرض ملزم أيضاً. فمن خلال هذه العودة يستطيع المجاز تهيئة الواقع المتمرد وترويض الحمار. وهكذا، على سبيل المثال، فإن مجرى تشريعات قتل الغوي تسير كالتالي:

أولاً: كما أسلفنا، تعاد غريزة الشر إلى الأرض. ويعود الواجب الديني لإبادة الشر من ملكوت منفاه المجازي حيث فهم منه أنه يأمر بحرب داخلية ضد الشر الذي في داخل الإنسان، يعود إلى الأرض ويغدو أمراً لإبادة الغوييم من أرض إسرائيل.

ثانياً: إلى عودة المجاز إلى الأرض، ينضم التأويل لكونه هو من يفسح في المجال أمام التطبيق الفعلي للأوامر الشرعية المتشددة. ولكي تستطيع شرائع الرامبام، والتي كان يبدو أننا لا نتصرف وفقها، أن تعود إلى الواقع، ولكي يصبح قتل الغوييم الذين لا يتهودون أمراً ملزماً، سواء على يد الأفراد أو من قبل السلطات، فإن التأويل - هذا التأويل الذي خلق من عذابات المنفى - هو الذي يتولى توفير الحكم الشرعي.

فالتأويل يُجمِّل المسدس المنقذ التواق للفعل وفق شريعة الرامبام لصالح القباليين الجدد، عبر التوضيح له، للمسدس، أن ضحاياه ليسوا بشراً أبداً. والقبالاة، ومعها أيضاً تراث عريض من النص الظاهري، تكشف، كما نذكر، أن الغوي ليس إنساناً، فنفسه بمنزلة قشور تنتمي إلى مملكة الشيطان والآخر، مملكة اليسار. وبشكل عام، فليس ثمة مجال للرأفة إلى أن يعرف الفرد كيف يسمو ويكون سيئاً بالفعل تجاه الغوييم الذين يستحقون ذلك، تجاه ممثلي الشيطان على الأرض والذين هم ليسوا آدميين على الإطلاق، فالواجب الديني يقتضي محو الشر عن الأرض الفعلية. وحينذاك يكون بمقدور شريعة الحق التي توجب قتل كل الغوييم في أرض القدوس أن تحكم في الواقع الحسي.

وبهذا يكتمل الانقلاب التفسيري. فمبساعدة التأويل وبالأخص بنزع المجاز عما لم يعد مجازاً داخلياً، تستطيع شريعة الرامبام أن تسود البلاد بالفعل، وأن تأمر بكل قوة بقتل كل الغوييم الذين فيها.

وكما رأينا وسنرى بعد، فإن موضوع «النزمجه» ونقل ما هو داخلي إلى الخارج بمساعدة التأويل الباطني، له علاقة بغريزة الحرب وغريزة الجنس كذلك. فحتى في الجنس انتقل الصراع من الداخل إلى الخارج، من صراع داخلي ضد الغريزة إلى صراع ضد النساء غير المحتشمات المغويات اللواتي يدفعن بإغوائهن نحو خطيئة القذف الباطل وإلى جيش الشيطان الذي يُخلق منه.

في عالم القبالاة الجديدة، هذا العالم الذي خُلِق في أرض اللحم المقدس، يخرج التفسير ومعه التأويل الباطني والشريعة، وبقوة عظيمة، من داخل الجسد ليعود إلى الخارج.

ليس من باب المصادفة أن غيزنبورغ وحسيديه اختاروا مقر محفلهم في نابلس، مدينة الانتقام، وفي قبر يوسف تحديداً. فيوسف، حسب الموروث، هو يوسف الصديق الذي تكمن عظمته في أنه لم يخضع لزوجة فوطيفار، وبفضل هذه العظمة بالذات أصبح يوسف المثال الأعظم في الصراع ضد الغريزة. ولأجيال عديدة وإصلاحات الزرع الباطل تستخدم وتحلف وتتوسل باسم يوسف الصديق.

وكما نذكر، فإن مرتبة الصديق (الولي) هي المرتبة التاسعة، أي المرتبة التي يجسدها في الجسد اليهودي ختان العضو الذكري. لذلك يطلق على خطيئة الزرع الباطل الرهيبة اسم خطيئة النكث بالعهد، مادام أن العهد هو في الاستخدام القويم للعضو، أي مع نساء حليلات فقط. ومن هنا فإن يوسف يرمز للختان والصدق والصمود أمام الغريزة، وفي قبر يوسف الذي في نابلس تقام إصلاحات عديدة لإعادة الأبناء الضالين، أي الزرع الذي قذف باطلاً وتحول إلى شياطين. وكما يقول كتاب «يوسف الصديق» فإن إصلاحات الزرع الباطل تجترح المعجزات: «على الأقل في حالتين معروفتين

تم إلقاء القبض وقتل عرب في نابلس بعد إجراء إصلاح المضاجعة غير الشرعية».

وفي عهدنا الحالي، فإن نابلس ويوسف اتحدا معاً، لإصلاح النكث بالعهد وقذف الزرع باطلاً وكمدينة للانتقام أيضاً. ففي هذه المدينة، عندما كان الغوييم مدمين من ختانهم، قام ابنا يوسف الصديقين بقتل كل السكان من الرضيع حتى الشاة والحمار.

إن عملية نزمجة اليهودية (نزع المجاز عنها) أتاحت تجريدها من قوتها الشاملة وأتاحت إرجاع نتاجها الغزير إلى عالم الفعل. وهنا في العالم الواقعي ارتفع النداء لاستخدام المسدس من قبل العديد من الأيدي.

وعملية النزمجة هذه شديدة الشيوع في القبالاة الجديدة وتشكل نموذجاً على أسلوب استخدام الرموز الصوفية. واسحاق غيزنبورغ هو أحد أفضل المعبرين عن هذا الأسلوب، ولكنه بالمطلق ليس الوحيد. والأكثر دقة أن نصفه بأنه يمثل لغة وروح القبالاة الجديدة. روح أرض إسرائيل.

وكما سنرى في الفصول التالية، فإن هناك الكثير من الشركاء لهؤلاء ذوي الخيال النقي المفعم بروح الأرض.

# الفصل السادس عشر

## الختم السابع

شهدت التسعينات تزايداً حاداً في الغليان المسيحاني في أرض إسرائيل، ولاح أن التطورات التي مر بها كل تيار من تيارات الثيولوجيا اليهودية منفرداً قد وصلت نقطة نضجها المسيحاني، فاستولى الفهم الكوكي، وهو الفهم الذي يرى في العلمانيين مجرمين يقومون بدور مادي ويقاتلون إلى أن تؤول السلطة للدينين الروحيين، استيلاء تاماً على ما كان صهيونية دينية. والجمهور الحريدي الذي كان سابقاً معزولاً تماماً عن السياسة الدنيوية ويأنف من المسيحانية، طغى عليه الانغماس في سياسة مسيحانية وفي قبالاة تنذر بالأهوال لليسار العلماني. وحاباد من جهتها بلغت في تلك الفترة أوج حماسها المسيحاني. ووقع جانب واسع من الجمهور الشرقي الآخذ في الاستيقاظ تحت رياح قبالية اندفاعية، يدفعه الإحساس بأن الماضي المجيد هو صاحب القول.

لقد حدثت كل هذه التطورات الثيولوجية فيما كان كل تيار يحتفل بتعزيز قوته الواقعية: الزيادة في تدفق ميزانياته من الدولة العلمانية، والرقم الهائل الذي وصل إليه تلاميذه بما يتجاوز ما عرفه في أية فترة في الماضي اليهودي. هذا إضافة إلى اتساع ما تتمتع به هذه التيارات من حكم ذاتي مؤسساتي على الصعيد التربوي، وإضافة إلى الإحساس بأن المستوطنات قد تعززت. وأكثر من هذا، فقد كان هناك تأسيسٌ لإحساس الشباب الكوكي المسيحاني بأنهم هم المهيمنون في الوحدات القتالية وفي

وسط الضباط الشباب بشكل عام في الجيش – وهذا بالتأكيد من خلال المدارس الدينية العسكرية ومن خلال غيرها أيضاً –.

وهذا الشعور بأننا نحن الجيش، وإننا الدولة، وان الرب معنا، نبض في كل أرجاء المعسكر (الديني) من أقصاه إلى أقصاه..

ومن خلال الخطوات الموصوفة أعلاه، ترسخت في صدور جماهير عريضة جداً اليقينية المسيحانية لدرجة أنه بدا أن الاحتمال قائم في أن ينزل هيكل من النار من السماء، أو ما هو أكثر احتمالية، أن يشاد هذا الهيكل من قبل يهود حقيقيين مؤمنين – ولكن السيف قد سبق العذل. فالمسيح موجود، ومن له عينان يفتحهما فسيراه.

في خضم هذا النور الكبير هبط الظلام فجأة. فلقد اختفى لحسيدي حاباد عام 1994 الرابي من لوبابيتش عن العين المجردة، أو على الأقل اختفى بروحه وجسده عن الأرض. أما المسيحانية الكوكية المتيقنة بأنها تمثل مشيئة الرب والتاريخ، فلقد سُرقت السلطة منها على حين غرة. فعلى مرأى عينيها المذهولتين أقيمت في عام 92 حكومة شر يسارية بمساعدة عرب غوييم. بل الأنكى أن اغتصاب السلطة من اليمين الجديد بها إنما جرى بواسطة خداع الناخبين. فرابين، الذي بدا كحمار محمود وخانع، هذا الحما الذي احتل يهودا والسامرة في 67، بدّل جلده بعد أن سرق الانتخابات.

وهكذا أصبح رابين دفعة واحدة حماراً متمرداً يحاول إعادة مناطق، خارجاً بذلك على دوره في البرنامج الكوكي الإلهي، فتحول إلى حمار دنس. وفي خضم الظلمة تورطت شاس بصعوبات قضائية. وكذلك قُذفت من السلطة بقية الحركات الدينية التي كانت تحس بقوتها الصاعدة، وروح غربية أخذت، بدلاً منها، تنبض لدى الجمهور العريض، وهذه الروح تحمل اسم «ميرتس» = شيرتس[1].

---

[1] ميرتس اسم الحركة السياسية المعروفة، وشيرتس تعني حشرة، او كل ما يدب على الأرض من الزواحف – م –.

ومروعة كانت هذه الروح الغريبة لدرجة أنه ليس الحريديم فقط، بل حتى المستوطنون، شعروا أنه لابد من الانفصال عن المتنكرين كأخوة، العلمانيين اليساريين المتهلينين.

ولاح بالفعل أن الدخلاء يسيطرون على الشعب. فياله من ظلام دامس.

بيد أن اشتداد حلكة الظلام تبشر بقدوم الضوء النهائي. في رؤيا يوحنا[1]، الذي يحمل الكثير من أثر كتب اليهود الخارجيين - ينفتح الختم السابع[2] للزلزلة الكبرى[3] apocalypse عشية عودة المسيح وحوارييه، وبحسب رؤيا يوحنا، فإن كل الكوارث التي سبقت الزلزلة الكبرى ستكون كأنها لا شيء قياساً إليها. فالختم السابع يُنزع عن برميل الأهوال الذي يغلي لتندفع محتوياته إلى الأرض. وبعد أن تنتهي الزلزلة الكبرى التي يقضي الكثيرون خلالها، يأتي النور المسيحاني. وهذا لا يقتصر على رؤيا يوحنا الذي تسرب إلى المسيحية، فكل كتابات إسرائيل مترعة بآلام مخاض المسيح. ففي وقت المخاض تكون الآلام والاضطرابات الكبرى التي تسبق التجلي النهائي، لأنه وقت احتجاب الوجه. فالرب يحجب، في هذا الوقت، وجهه عن المؤمنين به.

وكما نذكر، فالكثير من السيناريوهات تنطوي على دور كبير للأخوة اليهود الخونة الذين سيحكمون الشعب حكماً شريراً عشية حلول المخلص.

---

[1] المقصود «رؤيا يوحنا اللاهوتي» أخر اسفار العهد الجديد - م -.

[2] جاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي: «ولما فتح الختم السابع.. حدثت أصوات ورعود وبروق وزلزله.. ثم بوق الملاك السابع فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الأبدين.. وانفتح هيكل الله في السماء وظهر تابوت عهده في هيكله وحدثت بروق وأصوات ورعود وزلزلة وبرد عظيم». - م -

[3] اخترنا عبارة «الزلزلة الكبرى» هنا ترجمة لكلمة apocalypse التي يستخدمها المؤلف هنا كما هي في الأصل الانجليزي، لأنها انسب تعبير يتماشى مع السياق. مع اننا في امكنة أخرى إما أبقيناها كما هي في الأصل الإنجليزي أو ترجمناها بعبارات أخرى. والترجمة التي يقترحها الأستاذ كمال ابو اديب في مقدمة ترجمته لكتاب إدوارد سعيد «الثقافة الإمبريالية»، وهي «الرؤيا الحشرية» لا تنسجم مع السياق هنا. - م -.

فنحن نجد في «تنقيحات الزوهار»[1] - الذي أُبتلع في الزوهار وصفاً لسلطة الدخلاء، وهو نفسه ما نجده في الزوهار ذاته الذي يتحدث عن اليهود الذين سيحاربون حرب يأجوج ومأجوج، حرب الزلزلة الكبرى، إلى جانب الشيطان: «يظهر الملك المسيح في العالم، فينهض كل ملوك العالم للاتحاد لمحاربته. وينقلب الكثير من القساة اليهود ويسيرون معهم ويأتون معهم لشن الحرب ضد الملك المسيح. عند ذاك يظلم العالم 25 يوماً، ويفنى الكثير من شعب إسرائيل في أيام الظلمة تلك».

إن اليهود القساة الذين يحاربون المسيح هم اليهود المرقة. وهذا ما تدعيه وتؤكده الاجاداه أيضاً بقوله أن اليهود الدخلاء سوف يحكمون ويضطهدون اليهود عشية مجيء المسيح. والأمر نفسه وارد في العديد من المصادر المرجعية. ويختم الرابي كوك الأب كتابه «أنوار البعث».

«ندرك نحن أن تمرداً روحياً سيكون في ارض إسرائيل حينما تستيقظ الأمة.. والداعي لهذا التمرد هو النزوع المادي، وعندما تولد هذه النزعة فإنها تسير بسخط محدثةً الأعاصير.

وآلام مخاض المسيح هي بالذات التي ستعبق بعطرها بالعالم كله عبر العذابات». والعطر وفير بالفعل.

ولأن الصدور عامرة بيقين قرب حلول النور الأكبر، فإن الظلام لا يفعل سوى تعزيز الفهم المسيحاني. فمع اليقينية المسيحانية ثار الصراع ضد حكم القشور، حكم الجانب الآخر، حكومة الدخلاء، حكومة الخباثة، حكومة رابين، بصفتها تمثل اليسار الغيبي المتمرد تمرده الأخير قبل الخلاص.

لقد حدث كل الاضطراب الزلزالي ضمن جدول زمني واضح. كان الزوهار المقدس قد حدد عام 1940 بصفته عام الخلاص، مع الوصف الزلزالي الذي يواكبه بالطبع. وفي عام 1940، ومع وقوع الكارثة، بدا أنه يحدث هذه المرة أيضاً ما حدث للنبوءات السابقة: القيامة تقوم ولكن

[1] تنقيحات الزوهار: اسم كتاب قديم يقال ان الذي كتبه هو الرابي شمعون باريوحاي، ويحتوي سبعين موعظة او درساً دينياً وكلها شروح لكلمة «سفر التكوين» - م -.

خلاصاً لا يأتي. فهذا ما حصل مع تمرد باركوخبا الذي انتهى بالخراب وبألفي عام من النفي، وعلى الغرار نفسه انتهى الرجاء الذي عُلّق على عام 1490، العام الذي وقع فيه طرد اليهود السفارديين، وهذا ما حصل أيضاً مع الأمل بأن يكون عام 1648 هو نهاية النفي، فوقعت فيه أحداث خملنيتسكي ومعها مذابح مروعة. كوارث وآلام ولا مسيح. وفي كل مرة كان الموروث يشرح أن الخطايا هي السبب وراء إحلال أيام اليسار، المدعوة أيضاً أيام الشيطان، محل نهاية العالم الطيبة. غير أنه في هذه المرة، فيما يخص عام 1940، ظهر للكثير من اليهود، وللكوكيين في المركز منهم، أن المصائب ليست إلا جزءاً من السيناريو القيامي الذي يحل الخلاص في خاتمته. وبالفعل، وكما هو موعود، ها هي الدولة المادية تقوم.

وفي أيامنا بدأت أوساط عديدة تعلق الأمل على عام 1998، عام يوبيل إسرائيل. ففي اليوبيل يتغير التقويم وتتقلب معاني الأمور ويبدأ تقويم جديد.

وأخذ المزيد من شتى صفوف المعسكر الديني، - بما فيهم حسيدو كوك ولوبابيتش، وقباليون شرقيون والعديد غيرهم - في الاعتقاد أن عام 98 هو عام الخلاص الموعود، أو انه على أقل تقدير عام تغيير خلاصي، تغييراً يبدأ، على ما يبدو، بحرب مروعة وعذبه.

مهما يكن، فاليهودية كلها تعتقد أن الزمان يقترب من نهاية الألف السادسة[1]. وحيث إن الألف السابعة لابد وأن تكون ألفاً سبتية[2]، فالزمان إذاً قد تجاوز المسيح كثيراً، وإنه زمان نهاية الأيام. وعليه فإننا نقترب الآن فعلاً من النهاية الأخيرة الأكيدة التي لا تتوقف بعد على الأخطاء. ولقد شُرح مراراً وتكراراً أن كل ألف يعادل يوماً، وهذا هو يوم الجمعة الأخير، وكل يوم ينقسم إلى أربعة أرباع، والربع الأخير - أي مائتان وخمسون عاماً قبل نهاية الألف - الذي يبدأ مع عام 1990، هو بداية زمن الخلاص النهائي،

---

[1] حسب التقويم العبري.

[2] نسبة إلى يوم السبت، اي سنة عطلة وراحة مثلما هو يوم السبت، اليوم السابع، يوم عطلة - م -.

زمان المسيح. كما يبدو أيضاً أنه بعد حرب الأيام الستة، يأتي اليوم السابع، وهو سبت الخلاص. وهكذا، فإن بوق السبت، السبت الذي يستبق مجيء المسيح، يملأ الفضاء ويطرق مسامع المتدينين، وليس ثمة إلاّ عشرين دقيقة لإجراء ترتيبات السبت.

وكثيرون أولئك الذين أخذوا استعدادات عشية السبت، سبت المسيح، وبرز من بينهم نشاط ربابنة وقباليين ممن يدّعون أنهم مسحاء، وغيرهم ممن يتدخلون في مجريات الأمور ويعجّلون بقيام الزلزلة، أي الذين يحررون المكبوح في الختم السابع ويطلقونه على رأس المعنيين.

وهذا هو شأن يهودا عتصيون الذي رأى نوراً كبيراً في الظلام. ففي رأي عتصيون، كما نذكر، لابد من التعجيل في الزلزلة. فعتصيون، بصفته من كبار المؤمنين بأن المملكة الصهيونية شر كلها، يعتقد أن ما سيقلب الأرض عليها إنما هو عمل شجاع يدمر الدناسة على جبل الهيكل، أي يدمر قدس أقداس المسلمين، المسجد الأقصى، ويكشف عن قدس أقداس اليهود، أي الأرض التي سيقام الهيكل عليها، وبعد ذلك الفعل تقوم حرب يأجوج ومأجوج بين العالم الإسلامي الغاضب وبين الكيان الصهيوني الذي سيتعين عليه أن يتعبأ لحرب البقاء التي سيتحد الجميع فيها ناسين من أضرمها. ولعله بعد الذرة سيصل نور الرب لمن يبقى. فالخلاص الثالث لا عودة عنه. وبعد الزلزلة يأتي المسيح.

والأمر ذاته بالنسبة إلى باروخ غولدشتاين، فبصفته من حسيدي حاباد – وهم من القلائل الذين يؤمنون أن اليهود كلهم شعب صالح ذوي قبس إلهي – فقد سكب ختمه على العرب وحدهم، إذ المفروض فيهم، وهم الإسماعيليون، ألا يكونوا هنا، لأنه إلى «شعبك كله صديقون» أضيف «ولا غوي واحد في البلاد». وقد استخدم باروخ مردخاي اليهودي عيد البوريم[1] بما يحمله من إيحاءات مسيحانية. فالبوريم الديني ليس هو ذاك العيد

---

[1] عيد البوريم، أو عيد الساخر أو التنكر كما يترجم أحياناً. وهو عيد يحتفل به اليهود بذكرى انتصارهم على أعدائهم أيام فارس بفضل استير.

العلماني بأقنعته المزركشة، بل هو عيد يهودي يحمل دلالة الانتقام والخلاص. فشعار البوريم هو «على العكس»، فهذا السفر يختتم بفصل إضافي بعد نهايته في المدارس العلمانية، فلا يتم القضاء علىهامان وعائلته فقط. ففي هذا السفر يتلقى اليهود تفويضاً للانتقام من مبغضيهم الغوييم، وبالفعل قضوا على الآلاف المؤلفة منهم، نساءً وأولاداً وشيوخاً، إلى أن سقط رعب اليهود على الغوييم فبدأ الكثيرون في التهود. وهكذا فلقد آمن مردخاي الحديث أيضاً أنه من خلال فعل «العكس» سيغيِّر التاريخ وسيقود إلى ردود عربية – وهذا ما حدث بالفعل – ويوقف عملية السلام التي تعيق الخلاص.

وهكذا، فلقد شاهد اليهود معجزة البوريم في الخليل مرتين: في الأولى احتفلوا بمعجزة باروخ الصدّيق، وفي الأخرى لاحظوا معجزة العمليات ضد اليهود في ديزنكوف في تل أبيب في بوريم 96، مما أرجأ إخلاء الخليل..

ومن بين نازعي الختم السابع ينهض بالطبع القاتل يغئال عمير. فمن خلال ضربه للحمار المتمرد، الذي يتنكر كيهودي، رابين، أمل، وأنجز فعلاً، أن يُنزل عقاباً زلزلياً على الآثم. وما هو أكثر من هذا، فالقاتل، كرسول غضب الرب، أزاح القوة ذات الشعبية التي كان بمقدروها، عن طريق إعادة مناطق، أن تلحق الضرر باستمرار الخلاص والزلزلة التي تسبقه.

لقد تم تمهيد التربة الثيولوجية بشكل جيد للصراع الحقيقي الواقعي ضد الأخوة الأشرار. فسر العودة اليهودية للتاريخ الفعلي يكمن ليس في التنوير والصهيونية فحسب، بل في نظرية السر التي سبقتهما أيضاً. فالإدراك بأن هناك تفسيراً ميتافيزيئياً لعالم التاريخ، وأن لأحداثه، بما في ذلك نفي إسرائيل، معنى عميقاً، بل إن إصلاح الجاري يمكن إحداثه بواسطة أفعال قبالية واقعية، هذا الإدراك غيَّر موقف اليهود إزاء التاريخ.

لقد أظهرنا في الفصول السابقة ماهية «الثورة البروتستانتية» في الصهيونية بشكل عام وفي نظرية كوك بشكل خاص، بصفتها تتمحور على

الواقع الفعلي وعلى تقدم مسيرة الخلاص فيه. فخلاص الأرض يتم، عند الصهيونية العلمانية، كما عند كوك، وإن يكن بتأكيد ثيولوجي خاص، بواسطة دونم ثم دونم آخر، ومستوطنة أخرى. وباعتقادي أن جذور هذه البروتستانتية الكوكية تعود إلى قبالاة آري التي قالت إن إصلاح الانكسار العالمي يتم عبر مراكمة أفعال قصدية يهودية بروحية السر: صلاة أخرى وفعل آخر من أفعال القبالاة ستغيِّر مسار التاريخ، خطوة ثم خطوة أخرى. فنظرية القبالاة ذاتها تنطوي على قوة خلاصيه وذلك من خلال قدرتها على تحويل الإحساس بالدونية والعجز اللذين عاناهما اليهودي في المنفى إلى إحساس بالتفوق والسيطرة، وهما اللذان بديا للقبالي ليس تفوقاً وسيطرة ميتافيزيائيين بل لهما أيضاً أهمية حقيقية عملية.

فبالنسبة للقبالي، فإن تداعيات أفعاله تمس وتبدل وتحسم مصائر، سواء مصير الفرد أو مصير الشعب سواء بسواء، في الاستعداد للخلاص، وأيضاً مصير العالم من أجل إصلاح انكسار أوانيه. فكما نذكر، فلقد اتجهت القبالاة ومنذ بداياتها، وبقوة متزايدة، نحو الداخل وتمحورت حول جسد اليهودي، حول السيطرة على غرائزه وأفكاره، فثمة أساس للخلق الإلهي في كل عضو من أعضائه.

وهذا التوجه نحو الجسد، نحو الفعل البسيط - نحو وضع التفيلين - كمثل حركة جناحي الفراشة الذي ينقذ ويغير عوالم - يوجد به أساس حديث.

فمن خلال التركيز على الفرد وعلى مسؤوليته الشخصية عن أفعاله لتغيير العالم، انتهى الانتظار السلبي، فلم تعد فقط اليهودية الملتزمة بحذافير الشريعة من أجل خلاص الرب، كما قال الفلاسفة واليهودية الكلاسيكية، هي التي تجلب خلاص العالم، بل يجلبه أيضاً فعل شخصي سليم واقعي في العالم - نية ثم نية أخرى. فالمسيح لا يصلح، بل يأتي إلى عالم قد أصلحه الإنسان.

وهكذا ارتبطت قوة القبالاة الداخلية بتغيرات راديكالية بل حتى

عنيفة في مسار التاريخ يستطيع الفرد إحداثها من خلال جسده وأفعاله. واليهود في عهدنا، خلافاً للماضي يمتلكون قوة للتأثير العملي الفعلي على التاريخ وليحاولوا بفعل أو بأفعال واقعية لتغيير وجهته، فما عاد الأمر يقتصر على الصلاة أو على إصلاح سري، بل ثمة أفعال حقيقية. وكل ما كُتب وأُنتج من خلاله حالة الضعف والإذلال في المنفى وكتعويض عليها، انقلب فجأة، مع تحول اليهودية إلى ذات قوة، ليصبح عملياً حقاً. وكان هذا في الأساس ما ترتب على قبالاة كوك وعلى النتاج الهائل الذي اقتفى خطاها، أي الثيولوجيا التي يتوقف فيها إصلاح العالم على إجراءات في العالم التاريخي، إجراءات تكون في بعض الأحيان خطايا مقدسة.

وفوق هذا، فإن الإحساس بالسر وبالسيطرة قاد إلى الإحساس بقرب الخلاص وإلى الإحساس بأن فعلاً واحداً آخر أو اثنين، وعلى الأغلب أفعال رسول من النخبة القبالية، ستأتي بالتغيير الكوني، دون أن تكون هناك ضرورة لأن يكون هذا الرسول من النخبة نفسها. فعملها هو تفسير أفعاله ليس إلا .. فهذه هي مملكتهم: تفسير أفعال الرسل.

في قصة شهيرة عن باعل شمطوف[1] يروى عما حل بصلاة يوم الغفران التي حضرها شاب جاهل من المرعى. فعلى رغم تضرعات الأب لم يستطع الابن الصمود – الذي لم يفهم كلمة من الصلاة –، فبدأ في العزف على مزماره. أوقف البعشاط[2] الصلاة، لرعب الأب، وقال إن تصرف الابن هو الذي فتح أبواب السماء. فمثلما أن شاب بعشاط الذي ببساطة العزف على مزماره رفع كل صلوات الربابنة، كذلك يمكن للرسول الذي يفتح السماء ألا يكون من عظماء إسرائيل. فيكفي أن تكون نيته قوية وطاهرة كفاية مثل نية قاتل رئيس الحكومة.

في عهد حكومة رابين في أوائل التسعينات، وعلى ضوء التصور المسيحاني وفي مواجهة الظلمة التي سادت، بدأ مسحاء يظهرون من كل

---

[1] المؤسس الفعلي للحسيدية – م –.

[2] بعشاط اختصار الاسم باعل شمطوف – م –.

أطـراف المعسـكر الدينـي. فظـهر مسـحاء إضـافيون إلـى الرابـي لوبـابيتش واسـحاق غرنيريبورغ اللذيـن اعتبر كل واحد منهما أنـه مسيح فعلـي. وسـبب عدم انجـرار الجمهور العريض وراء أغلب أدعياء المسيحانية هـؤلاء، عـلاوة على النقص في المعرفة الكاملة لجوهر التغييرات الثيولوجية، هو أن الرسالة المسـيحانية سـرية. فحكـم المسـيح، لأسـباب عميقـة ولأسـباب تكتيكيـة، ألا ينكشف أمام الجمهور العام إلاّ مع الانتصار على القشور، مع التجلي الفعلي. ولهذا بقيت إدّعاءات المسيحانية من قبل آري والرابي حاييم فيتال والبعشاط خفية عن أعين أغلبية الجمهور باستثناء دائرة ضيقة من الحسيديم. والأمر ذاته مع حركات شبتاي تسفي واللوبايتيشار، إذ لم يتم الجهر بالمسيحانية إلا بعد سنين من بدئها في وسط الأتباع المقربين.

وعوزي مشولام هو الأبرز والأكثر إثارة من بين المسحاء الجدد نازعي الختم السابع، فهو مسيح يمزج غضب المهاجرين من مستوعبيهم مع الحكم المسيحاني ومـع الختـم السـابع الزلزلـي الـذي سـينفتح قبـل اسـتكمال تجلـي المسيح على رؤوس العصاة.

لمزيد من الدقـة، يطلـق حسـيدو مشـولام عليـه لقـب الرابـي عـوزي مشولام دافيد (بن داود المسيح) حفظه الله. وعـوزي مشـولام إسـرائيلي مـن أصل يمني بدأ نشـاطه كقبالي عملي تتركز أغلب قوته فـي مسـائل الحسد والزواج والولادة، وعرف كقبالي من يهود. ومع الزمن أخذ يُظهر في مواعظه القبالية نزوعاً نحـو المسـيحانية مـن خـلال تمـيزه بعدائـه للدخـلاء، أولئـك المتنكرين كيهود والذين يحكمون إسرائيل عشية الخلاص.

فبرأي مشـولام فإن أغلب الإسـرائيليين دخـلاء، وخاصـة اليسـاريين منهم والعلمانيين بشكل عـام. غير أنـه ليس هـؤلاء فقط هـم الدخـلاء، بـل كذلك جانب لا بأس به من المتنكرين كيهود مؤمنين وربانـة. ويـرى كذلـك أن السماوات ستنفتح عما قريب وستبيد الزلزلـة جيـوش الدخـلاء المذكوريـن والذين اعتقدوا أن السيطرة قد عقدت لهم.

ولقـد جذبـت إليـه مسـيحانيته السـافرة ولغتـه الرنانـة شـباباً كـثراً،

وأغلبهم من حضارة «مركز الرابي» الذين كانت روحهم المسيحانية من المدرسة الدينية تبحث عن مسيح حقيقي. وقد بلغ هذا الأمر حداً دفع مركز الرابي إلى إصدار حرم ديني ضد عوزي مشولام لكي يمنعوا التلاميذ من الذهاب إليه. وقد صدر هذا الحرم في الأساس من قبل أوساط الرابي تسفي طاو.

عوزي مشولام، على غرار اللوبابتيشار، وكأغلب التقليد اليمني، تمسك، علاوة على القبالاة، بالرامبام. ولذلك اعتقد، حسب فقه الرامبام، أن المسيح لابد وأن يكون اليهودي الأكثر صلاحاً في عصره والذي يفرض التوراة على إسرائيل والذي يحارب حروب الرب. فكانت كل أفعال مشولام، مثل اللوبابتيشار من قبله، محكومة بدافع البرهنة على أنه مرجعية العصر الذي يحارب حروب الرب.

ركز مشولام حربه على أبناء إسرائيل المخطوفين. مفهوم أن الحديث يدور هنا على أبناء كل الطوائف، على الأبناء من الشرق ومن البلقان، وليس على أبناء اليمن كما تشوه وسائل الإعلام الإسرائيلية، فهو مسيح للإسرائيليين الحقيقيين أجمعين (ليس الكثير من الاشكناز من ضمنهم). وحيث أن سرقة أبناء إسرائيل هي خطيئة رهيبة، على خلاف سرقة الغوي غير المحظورة شرعاً، فإن حربه تثبت ولايته. وتثبت ما هو أكثر من ذلك أيضاً. فليس العلمانيون الدخلاء فقط هم المذنبون، بحسب رأي مشولام، بل النظام كله مذنب. ويرى كذلك أن الربابنة والصهيونيين المتدينين كما الحريديم ساهموا في الشر العظيم أو بالسكوت على الأفعال التي تعلو بخطورتها على خطورة أفعال النازيين، وبهذا أثبت كل ربابنة إسرائيل أنهم ليسوا إلاّ متنكرين كيهود، مخلين بذلك الطريق أمام الوحيد الجدير بتاج ولي إسرائيل، ألا وهو الرابي (غير الحاصل على إجازة للربيّة) عوزي بار دافيد ( من نسل بيت داود حسب الموعود بشأن المسيح)، مشولام حفظه الله (هذا التعبير الذي كان عزيزاً جداً على الحركة الشبتية)، مسيحنا الحق. إذاً، فإن ربابنة اغودات إسرائيل، وربابنة المفدال، حسب مشولام، ليسوا

جميعاً خدماً للنظام فقط، بل رسل حقيقيون للشيطان أيضاً. فمن جراء بيع يوسف واحد، حسب الموروث، استشهد العشرات من عظماء إسرائيل، والرابي عكيفا من ضمنهم، يقول مشولام في مواعظه، ولذلك فإن العديدين سيموتون بسبب جريمة بيع آلاف الأبناء الأبرياء - بتعاون ربابنة - في الزلزلة الكبرى التي تقترب بخيرها.

ولكن هناك أيضاً، بحسب حسيدي مشولام، أقلية صالحة من بين الربابنة، مثل الرابي القبالي برلاند الذي صادق على صحة مسيحانية مشولام، وهناك بالطبع سينياي، شيخ القباليين في حينه وجدّ مشولام بالتبني والذي فاز باعتباره معلمه من سن الثالثة.

وكالكثيرين من المسحاء قبله، اعتبر مشولام نفسه حاملاً لرسالة مقدسة إلى داخل مملكة القشور، مملكة اليسار والشيطان. فشبتاي تسفي اعتقل من قبل المسلمين وأودع السجن ضمن شروط متميزة، وحينذاك وصلت حركته لذروتها. ولقد عرف ناتان الغزي، ثيولوجي الحركة، كيف يفسر سر الأحداث، حيث هناك، برأيه، مهمة مقدسة في أفعال المسيح شبتاي. فدخول شبتاي تسبي إلى داخل مملكة القشور، في البدء عن طريق ارتكاب الخطايا، ثم بدخوله للمعتقل الإسلامي ومن ثم للإسلام ذاته كمرتد عن دينة، كان ينطوي على رسالة مقدسة. إذ بهذه الطريقة يطبق المسيح جملة «هادميك ومخربيك منك يخرجون» وقد تحولت لتدمير القشور. فهكذا لا يمكن تدمير سلطة اليسار والقشور إلا من خلال الولوج إلى داخلها. وبينما كانت مملكة القشور هذه، بالنسبة لناتان الغزي، هي مملكة الغوييم، فإن مملكة القشور والشيطان، برأي عوزي مشولام، إنما هي داخلية، في داخل إسرائيل، وتشمل، كما أسلفنا، الأغلبية الساحقة من الشعب، كما تشمل بالتأكيد النظام برمته بعلمانييه ومتدينيه.

وعليه فإن مهمة الهدم من الداخل في حالة شبتاي جرت في السجن الإسلامي، بينما هذه المرة، في حالة مشولام، فإن السجن هو سجن إسرائيلي.

تقول السيرة الذاتية للرابي عوزي مشولام، والتي يؤمن بها حسيديوه،

أنه دخل إلى عالم القشور متخفياً كعلماني، فخدم في وحدة الأركان مع أيهود باراك وبنيامين نتنياهو وتعلم أساليبهم، وهو مستعد الآن لإبادة مملكة الشر الإسرائيلية من الداخل، كما أنه تسلل أيضاً إلى قلاع الحريديم. فمسلحاً بلمته أدار، وبمعرفة حسيدييه، حواراً حاداً مع الرابي شاخ وأثبت له أنه، على عكس عوزي نفسه بالطبع، لا يملك نفساً قدسيه، فهو حتى لم يستطع أن يعرف أن شعر مشولام هو لمة مستعارة.

ووجّه مشولام اتهاماً إلى شاخ بأن نظريته لا تشمل أن «سارق نفس من إسرائيل موتاً يموت»، فحاول شاخ المنذهل شراء سكوت مشولام بإقامة مدرسة دينية كبيرة لليمنيين، إلا أن مشولام لم ينكص ولم يتراجع، فوبخ الرابي الشرير، مكتفياً بكشك تافه.

وفي تكرار التاريخ لذاته، عنَّف مشولام يوسف باجاد. فقد جاء عضو الكنيست السابق باجاد، إلى سجن أيلون في محاولة لإقناع مشولام بأنه لا يجوز له الصيام في الفصح، لأن أكل الفطير والجرجير فريضة، ولو كان بلقمة صغيرة، فشرح مشولام لباجاد، في سجنه في مجدل عوز، بتكرار لحديث شبيه لشبتاي تسفي، قدراته المسيحانية التي تبيح له، في ظروف خاصة، تغيير النص الظاهري للفرائض: «حين تعمل من أجل الرب، تجاوز التوراة». وتعتقد الحركة أن عوزي مشولام مزود بقدرة استبصارية (ليس مصادفة أن يطلق هذا اللقب أيضاً على رائي المسيحانية – كوك) كتلك التي نُسبت إلى ناتان الغزي، وأن باستطاعته رؤية دخيلة الإنسان وسر تناسخاته وأن يجد إصلاحه.

إلا أن قوة مشولام ليست روحية فحسب. فهو يعيش في إسرائيل. فانسجاماً مع عالم المادة والقوة الساري في إسرائيل، تنسب إلى عوزي أيضاً عجائب عملية من نوع الدخول إلى المحفوظات والوصول إلى مادة سرية، عمليات عسكرية، وأعمال بطولية من أعمال الكرامات الأخرى. فلقد أضيفت في الأرض المقدسة لبطولة الروح وأفاعيلها القوة الحقيقية التي تتولى زمام الأمور وزمام الخيال أيضاً.

عموماً، يمثل مشولام هنا، وعلى نحو متطرف، نزوعاً شائعاً لدى كل تيارات اليهودية المسيحانية والتي تشكل أغلب يهودية وقتنا، ألا وهو النزوع إلى توجيه كل ما كُتب ضد سلطات الشر والطغيان في العالم بعد المذابح والاضطهادات، باتجاه الداخل، باتجاه النظام والحكومة الإسرائيلية، فتردد صدى النداء «امح حكومة الشر عن الأرض» في كل أرجاء المعسكر من أقصاه إلى أقصاه. لقد تم تشخيص العدو، إنه هنا في الداخل.

كما أسلفنا، فلقد كان لهذا صدى واسع في الكتابات - كما لدى الحجة من فيلنا، الذي اعتبر أن الصراع ضد الدخلاء (المتنكرين كيهود) هو الصراع الأهم -، إلا أنه لم يحصل أبداً أن وُجهت الجبهة على هذا النحو باتجاه الداخل. وإلى الغضب المقدس أضيف المسدس أيضاً هذه المرة.

يمثل مشولام هنا خطاباً أساسياً في يهودية عصرنا. لقد كان الميل إلى توجيه الاتهامات الرهيبة للنظام الإسرائيلي منتشراً على الدوام في وسط الجمهور الحريدي، إلا أن هذا الميل أخذ مع مرور الزمن ينحى نحو التطرف. فجلي بالمطلق لكاملي الإيمان الإسرائيليين، أن الاشكناز الإسرائيليين مستوعبي الهجرة قد ارتكبوا جرائم. فلقد هجم اليسار، وبسوء نية، على الهجرة، بقصد ردها عن دينها. والصهيونيون العلمانيون هم الأكثر جرماً من بين كل أعداء إسرائيل، لأنهم حاولوا دفع النفس للإثم وليس قتل الجسد فقط. وقد نُفذت هذه الجريمة ضد السفارديين أساساً. وهذا ما كان الوعاظ الحريديون ووعاظ شاس بالتأكيد، وبقية الوعاظ الحريديين، يعيدون ويكررون في مواعظهم. إلا أن مشولام بزهم جميعاً بأن شمل، كما قلنا، بقية الربابنة مع النظام الكريه الآثم دافع الكثيرين نحو الخطيئة.

مشولام، كما شبتاي تسفي، أقام في ما يدعى سجناً في أيلون. وكان موقف حركة مشولام إزاء هذا الوضع متطابقاً مع موقف الحركة الشبتية. فمن جهة أولى اعتبروا الأمر بمنزلة الظلمة التي تسبق النور، بمنزلة احتجاب ليس من شأنه إلا أن يثبت اصطفاء «حمل مولانا» الذي يتألم من أجل الكل، ولن يلبث «العكس» أن يتحقق، أي سر عيد البوريم الذي يرفع

الصدّيق المتألم إلى الأعلى ويحاسب الأشرار. ولذلك فلقد كان أبناء حركة مشولام ينشدون بأنهم سوف يشنقون موشي شاحل[1]، هامان العملاقي، على شجرة، وأن الرب تبارك سيرفع الرجل الذي اختاره، مشولام مسيحنا الصادق، إلى أعلى ومن ناحية ثانية ركزت الحركة على محاولة إثبات أن قوة المسيح لم تفارقه حتى وهو في السجن، وأنه مايزال يحافظ على قدراته وعلى استقلاله الذاتي وعلى سيطرته على العالم. وهكذا أقام شبتاي تسفي وعوزي مشولام كل في حصنه مرتديين ثياباً متشابهة: جلباب أبيض وشال حريري أحمر، وهو لون العدل المطلق والرجولة، ورمز بيت داود وملكوت المسيح.

ان الأساس عند رجال مشولام، كما كان عند شبتاي تسفي ويسوع، وكما هو بمعنى لا بأس به عند حاباد وعند بارسلاف الآن، هو الإيمان. فالجسد ليس إلا رداء للنفس، والأساس ليس في الطقوس العملية بل بالإيمان بمصداقية المسيح، فهذا الإيمان هو الذي سيحسم من سيُنقَذ من آلام مخاض المسيح ومن، كالأشرار اليهود الكثر، سيُقتل فيها.

ولم تشرق الشمس المسيحانية في أيلون فحسب. فمن كل أرجاء المعسكر علت الرجاءات المسيحانية، رجاءات جديرة بالتحقق، فيما يأمل كل جمهور أن يتم تحققها في جسد شيخه حياً أو غير حي. وحتى لدى بارسلاف ازداد وتصاعد هياج التسعينيات المسيحاني. لطالما كانت حسيديات بارسلاف تعيش توتراً مسيحانياً باعتبار أن رابيها، الرابي نحمان البراسلافي، كان بمنزلة مسيح، كما كان، على حد اعتقاد مريديه، يختلف عن، وأعظم من، كل مسحاء العصر، ويفترض أن روحه ستعود في تناسخ جسد براسلافي وأن تجلب الخلاص، علماً أن الحديث يدور هنا عن نفس عليا تناسخت عن موسى والآري، والتي لابد لها في وصولها الثالث للعالم بشخص الرابي نحمان من براسلافيا، من إنقاذ العالم. إلا أن بارسلاف لم تصبح قبل وقتنا المسيحاني مسيحانية بشكل نشط، إذ كانت تركز في

---

[1] وزير الأمن الداخلي في حينه، عضو في حزب العمل – م –.

بارسلاف على الجوانب التي كانت تجذب يهودية القرن التاسع عشر ويهودية الشتات، أي على روح الحرية الشخصية الفياضة بالمشاعر والتي أحياناً، وباسم النوايا، تبدّل في التوراة.

إلا أن براسلاف في التسعينات، والتي امتلأت، كحاباد، بالتائبين ممن جاءوا إليها بأغلبيتهم يحدوهم سحر سنوات الستينات والوعد الروحاني الشخصي، اندفعت وبسرعة إلى قطب مسيحاني فعلي. قطب الجيل، فأجزاء واسعة من الحسيديات اقتربت من المدرسة الدينية «تولدت أهرون» (ريب اهرلاخ – مرتدي البيجامات)، وأساساً من تزمتها بشأن نظرية الدخلاء، ممّا جر في أعقابه اعتبار أغلبية الإسرائيليين، بما فيهم معظم المتدينين، حتى من وجهة نظر مسيحانيي براسلاف، عماليق يستحقون الموت. وعلى هذا النحو انجرفت حركة الشخص الأكثر روحانية من بين حسيديي إسرائيل والذي يستقبل الخراف الضالة، مع الموجة المسيحانية التي توجب ذبح أغلب القطيع الإسرائيلي – والذي هو بحسبهم، ليس إسرائيلياً أبداً بل هو قطيع أجاج[1] العملاقي. وهكذا في ليلة مقتل رابين برز دوف بارسلاف بين الراقصين برقصة روحانية حسيدية شخصية فوضوية من شغاف القلب اليهودي.

وكذلك انعقدت آمال مسيحانية حول مردخاي الياهو، الرابي الأول الأسبق للشرقيين. إذ جلب الياهو إلى الإدعاء المسيحاني، علاوة على ما يحمله من لَقَبيّن، عملاً كبيراً في حقل القبالاة العملية من اصلاحات وتناسخات وسر العوالم.

صحيفة «هتسوفيه» هي الناطقة الرسمية باسم حركة مزراحي التي أنتجت المفدال. وقبل جيل وقبل عِقْد كانت مسائل القبالاة العملية تبقى خارج المعسكر حسب عقيدتها. إلا أن الأمر لم يعد كذلك. فالذي أُخرج إلى خارج المعسكر هم غير المؤمنين.

وهكذا أوردت الصحيفة في منتصف التسعينات، ضمن إطار أحمر

---

[1] اجاج: هو حسب النص التوراتي، ملك العماليق الذي حاربه شاؤول أول ملوك إسرائيل – م –.

وبحماس هائل، خبراً عن مردخاي الياهو وعن أفعاله الكبرى في الواقع الفعلي بقوة السر. ففي يوم كان الرابي يعمل فيه بعمله المقدس، رن الهاتف في مقره. وقد أزعج هذا الهاتف الرابي بعد توتر العمل بتضرعاته ورهبته. كان المتحدث (على الهاتف) زوج من مستشفى في إيطاليا يطلب بركات الرابي لزوجته التي ستخضع لعملية قيصرية. أخذ الياهو اسم الزوجة واسم أمها. وبدلاً من البركات طلب من الزوج المذهول عدم إجراء العملية. لقد قرر الرابي أن على الزوجة أن تقرأ سفر يونان (الذي خرج من جوف الحوت) بدلاً من العملية، وكل شيء سيكون على ما يرام. وهذا ما سيحصل بالطبع، أوليست كل المعلومات الطبية المطلوبة محشورة في اسم الزوجة واسم أمها. وبعد فترة وجيزة اتصل الطبيب من ايطاليا بمقام الرابي وتوسل إليه السماح بإجراء العملية القيصرية لأن الأمر يتعلق بخطر جدي على الزوجة وعلى الجنين وليس ثمة مجال لمجازفات لاداعي لها. «كلا، كلا، فلتقرأ سفر يونان» قال الرابي حاسماً. وبعد ساعتين اتصل الأب السعيد كل شيء على ما يرام مع الحوت. لقد حصلت الولادة بسلام، وبالطبع، كان المولود ذكراً.. إنها معجزة الياهو.

كلما ازدادت انجازات الإنسان وبدا للعقلانيين أن الرب قد انحشر في زاوية صوفية، كلما تحاذقت الروح وقدمت تفسيراً لأفعاله. فهكذا انقلب الطب الحديث إلى مبرهن على قوة الربانة الذين يسيطرون بقوة بركاتهم عليه وهو الذي أنتجته ايد علمانية وأغلب العاملين فيه من الأبيقوريين المحظور بالمطلق الاستطباب عندهم (بحسب الرامبام، لئلا يؤدي نجاهم إلى جذب الكثيرين إليهم).

لقد استولى الإيمان على منتوج حقل النشاط الإنساني بالذات ولم ينعزل في داخل الخلق الديني، بل بالعكس، فمع انتقال الأرض وصعود قوة الجيش والطب – وهو ما تم على أيد علمانية – حاول الإيمان السيطرة عليهم. وبهذا تحققت نبؤوة «الخزري الحديث»، فتوجه صوفيون حريديون للاستيلاء على ما لم يكن من إبداعهم ولم يحاربوا من أجله بل رافقوا إقامته بالحرم.

ومردخاي الياهو ذاته يتمتع بقوة كبيرة، ليس في الولادة القيصرية فقط، بل أيضاً في معرفة الدخلاء الذين في داخل إسرائيل وأيضاً في الفتاوى بموضوع «لاتقتل» بما يخص الغوييم وبقية الحِكَم السامية.

من المفهوم أن عوباديا يوسف ومريديه لم يستطيعوا الوقوف مكتوفي الأيدي فيما آخر يحمل لقب «ريشون تصيون» - الأول في صهيون - ويمكن أن يصبح أولاً في صهيون، أي مسيح حقيقي. فعلى خلاف نهجه في سنوات الثمانينات حين كان يوسف يشجب مسيحانية لوبابيتش، الاشكنازية في أساسها، لم يعد في سنوات التسعينات بقادر على الصمود أمام الموجه المسيحانية الطاغية والتي جرفت إليها يهود الشرق أيضاً. وكما قلنا: فإن يوسف لم يمنع، بل شجع باتجاه وضعه على رأس هذه الموجة بصفته يستحق هذا التاج لكونه أكبر مؤثر على يهودية العصر. وهذا بالطبع بما يناقض التاج الذي يتوج به الرابي رأوبين الباز نفسه بصفته كبير المعيدين للدين (التوابين) فهو لذلك الفارض الأكبر لليهودية في الزمان، فيستحق تاج بمثابة.. الخ.

بيد أن الرجاء المسيحاني الذي استوطن القلب بيقينه، لم يُقيد على حساب أحد، ولا حتى لمسيح عجيب مثل عوزي مشولام أو الرابي نحمان البراسلافي أو الرابي من لوبابيتش أو اسحاق غيزنبورغ أو مردخاي الياهو أوكدوري أو رأوبين الباز أو عوفاديا يوسف، إذ يستطيع عملياً أن يستجيب حتى شاؤول يهلوم، أو الأفضل من ذلك، اسحاق ليفي، للشروط المطلوبة. فحسب الرامبام، يكفي في الواقع المسيحاني في الأرض المقدسة، وقد قامت فيها الدولة وتتوفر فيها شروط الوعد المسيحاني من ناحية نهاية عبودية الأمم ولم الشمل، أن يسيطر يهودي متدين على الدولة ليصبح هو بالذات المسيح حقاً. وكما نذكر، فلقد توفرت في الدولة، وفي خالقها بن غوريون، شروط «المسيح الفعلي»، إلا أن المشكلة الوحيدة كانت هي أن بن غوريون والدولة لم يستجيبا للشرط السابق بمسألة بمنزلة مسيح، حيث أنه لم يبدو أن بن غوريون يهودياً متديناً يفرض التوراة على إسرائيل.

إلا أن هذا الوضع كان قابلاً للإصلاح، فليس في التوراة، كما هو معروف، متقدم أو متأخر. لذلك فيكفي ممن يستحق بفعل تدينه أن يكون بمنزلة مسيح، يكفي منه أن يقف على رأس الدولة ويفرض اليهودية على مواطنيها فيكون بدون أدنى شك هو المسيح الحق. فالحمار المادي العلماني جاهز وقد تم إخضاعه منذ أمد.

والأمل الذي خفق في قلب حاباد بأن تنادي الكنيست بالرابي اللوبابيتشي حاكماً، فتبدأ، مع الإقرار بصولجان إمارته، مسيحانيته العلنية، هذا الحلم كان ينطبق أيضاً على أولياء آخرين، إذ يكفي ليهودي ملتزم بالشعائر أن يُنتخب لرئاسة الحكومة وأن يكون ذي نسب إلى بيت داود ليكون مسيح الرب. ومسيحاً ديلوكس[1] هو. فهو معفى من (اشتراطات) النجاحات في الواقع لكون المضمون الواقعي الإيجابي من استقلال وهجره قد تم إنجازه بواسطة أيد علمانية. أما كل مسائل بعث الموتى وسائر المعجزات الأخرى فهي غير ذي صلة بناء على فقه الرامبام في مسألة المسيح. فمهمة المسيح، بحسبه، هي السلطة فقط. فما على المرشح للمسيحانية إذاً سوى أن يستمر في حكم الدولة، وعلى نحو ديني هذه المرة، وبشكل يفرض فيه الدين على كل إسرائيل، فيكون مسيحاً فعلياً.

ومادام الأمر كذلك، ومادام حلول المسيح وشيك لهذه الدرجة، فمن الواضح إذاً أن كل إبطاء إنما هو إثم أو مسألة زلزلية تنذر بمجيئه. إن التمرد المسيحاني الخلاصي قد ابتدأ.

وإذا ما لاح في منتصف الثمانينات أن النقاش بشأن التمرد المسيحاني لا يمثل سوى هامشيين وغير مركزيين، على أهميتهم، إلا أن الصورة تبدلت بعد عقد من الزمن.

وقتذاك، في منتصف الثمانينات، ناقش تلامذة كبار في المدرسة الدينية في كريات أربع مسألة ما إذا كان يجب الانتظار وعدم الشروع بإقامة الهيكل إلى أن يعود الشعب كله إلى الدين أم لعله من الجائز، كما في

---

[1] هكذا في الأصل العبري.

أيام عزرا ونحميا، البدء أولاً في الشروع بالأفعال كتفجير المساجد فيعود عندئذ الشعب إلى الدين. والرأي الذي كانت له الغلبة في حينه هو أن الاتيان بعمل متطرف، من ناحيتهم، كتفجير المساجد وقتل كل العرب إنما هو خطأ. أما عمل منطقي بتفجير المساجد فقط فإنه بالتأكيد سيدفع نحو تقريب الخلاص. إن مدرسة كريات أربع الدينية هي من أكبر المدارس الدينية العسكرية كما أن رابيها، الرابي ليئور، هو من أكبر المرجعيات. وبعد عقد تحرك التمرد المسيحاني أكثر باتجاه المركز وسيطر على زمام الأمور بشكل تام.

وحتى في حركة الشبيبة جميلة العينين، بني عكيفا، أُعلن عن تمرد مقاتلٍ ضد مراسيم حكومة الشر وجيشها خائن رسالته. فلقد أوضح أحد قرارات الحركة أن خريجيها الأبرياء يمتثلون لربابنتهم وليس لمن يدعي أنه صاحب السلطة. وكما نذكر، فإن أمراً كهذا بالعصيان ضد الحكم الإسرائيلي وضد الجيش اليهودي غير ممكن نظرياً إلاَّ عند الإعلان عن الحكم بأنه حكم هراطقة، وإنه حكم متمرد على الرب. ووضع من هذا النوع حيث يكون الحكم فيه هرطقياً إنما هو، كما جاء في التلمود وفي مصادر عديدة أخرى، من الدلائل الأكيدة المبشرة بالتجلي المسيحي. ولقد صدر أمر العصيان، وكذلك الفكر التمردي الذي من خلفه، عن كل الربابنة المركزيين في الصهيونية الدينية: الرابي شفيرا وبصفته كبير الحاخامات الأسبق، والرابي دروكمان والرابي ليئور والرابي ميلميد والرابي مردخاي الياهو الذي وقف خلفهم، ومعهم كل صفهم القيادي.

لقد انصهر الجميع، إذاً، في يقينية مسيحانية واحدة. والكل أُعد لتجلي المسيح. هذا هو، حسب رأي كل التيارات اليهودية موقف التوراة وموقف عظما إسرائيل. وعلى هذا فإن سلطة الظلام للدخلاء اليساريين وقائدها رابين، ليست إلا الحجب الأخير للوجه، والأغنية الأخيرة التم[1] قشور اليسار. (والتم طائر نجس في اليهودية).

---

[1] التم: من أنواع الإوز، ويقال أنه يعني أغنية بعينها قبل موته – م –.

لقد نبضت النار المسيحانية في كل القلوب رغم الاختلاف داخل المعسكر الذي نجم عن نقاشات تكتيكية بصدد الهيكل، أيكون بناؤه بنار جاهزة تنزل من السماء أم يشيده الإنسان.

لقد بقيت شخصية المسيح مفتوحة بين مختلف التيارات، وكذلك السؤال فيما إذا كان سيأتي من بين الأموات أو من بين الربانية الأحياء، أو لربما من بين أعضاء الكنيست، إلا أن اليقين بقرب حلوله ومعه الزلزلة الكبرى التي تسبقه فتعلو من كل حدب وصوب. ففي منتصف التسعينات كان الختم السابع مهيأ للانفتاح.

وتوحدت كل التيارات في يهودية واحدة وبيقينية صريحة حول هوية القربان العتيد. فالحديث يدور عن قربان سهل سبق وأن قذفت عليه في منتصف القرن الأختام الستة الأولى وبقي في انتظاره، ومنذ جيلين، ختم واحد فقط، هذا الذي من الداخل، وهو الختم السابع المقدس، وهذا القربان هو بطلنا الحمار بالطبع. ولقد وقع الاختيار على الحمار بصفته يجمع في ذاته الثالوث النجس الكريه: الحمار والعلماني والمرأة الرديئة. وكما نذكر، فقد كان واضحاً لكافة المعسكرات في منتصف التسعينات أن الذي يجسد الشر هم اليهود العلمانيون، ممثلو الشيطان على الأرض، والذين تسيطر عليهم شهوات بهيمية وصلافة ما قبل قدوم المسيح والرغبة في الهلينة وفي الذوبان ودفع الكثيرين إلى الأثم وعَلْمنة يهودٍ ملتزمين. والآن فإن القشور قد أصابهم الوهن، فيتراجعون عن مناطق ويعزفون عن الجيش وتقودهم شهواتهم وراء نسائهم الفاسقات.

لقد تحدث كل تيار واضعاً التأكيد على ما هو عزيز عليه. فتحدثت المسيحانية الكوكية التي ابتلعت الصهيونية الدينية على خطيئة الحمار العلماني المتمثلة بالمادية والفسوق ونقص التضحية القومية العسكرية، وبالطبع على الأخطر على الإطلاق، هو التنازل عن أرضٍ تقرّب الخلاص. أما الحريدية، فقد انجرفت في القبالاة المسيحانية، فتحدثت عن خطايا العلماني المادية والفسوق وتخليه حتى عن التضحية العسكرية، وتحدثت

بالطبع عن الأخطر من الكل، العلمانيين اليساريين دافعي الكثيرين إلى الإثم وهو الأمر الأكثر إثماً من قتلهم كما فعل الألمان غاب ذكرهم. وكأغلب الحريديين، كذلك رأى مشولام أن الحمار، علاوة على سائر الأثام، دخيل غير يهودي. والأخطر من أي شيء آخر، فلقد اعتبره أسوأ من النازيين ومدان بالإثم تجاه أبناء اليمن، وهو الإثم الأخطر من كارثة أوروبا. والوعاظ السفارديون الأخرون قذفوا الحمار بأنه مادي وشرير وفاسق، وأساساً آثم بدفع اليهود الشرقيين السذج إلى الإثم وباغتصاب مجدهم التليد ويقص ضفائرهم وبإغوائهم بواسطة نسائه العاريات اللواتي ما كان ليوسف أن يصمد أمامهن.

يبدو أن لعنة بابل قد غادرت يهود عصرنا. فبصوت واحد وبلغة واحدة وبكلام موحد هدرت كل طبول حرب الخريف. وعلى الحمار العلماني انفتح وانسكب الختم السابع..

# الفصل السابع عشر

## عام تشناو[1] سيكون عام معجزات وأعاجيب

بعد رأس السنة من عام تشناو بأيام قلائل، وذات مساء خريفي لطيف، وقفت ناديا مطر قائدة حركة «نساء بالأخضر»، إحدى الحركات التي أخذت بالتمرد على حكومة رابين الشريرة - خطيبة أمام جمع ثائر في منطقة بيت لحم، وقالت وهي تشير إلى ممثل التحالف المسيحي الذي وقف إلى جوارها: «إن هذا الرجل أكثر يهودية من كل وزراء الحكومة، ومن رابين بالتأكيد». كيف لا وهو من المؤمنين حقاً بأرض إسرائيل الكاملة.

لم تكن ناديا مطر على دراية بالسيناريو المسيحاني الذي جعل الكنائس البروتستانتية الأمريكية المسيحانية تؤازر اليمين الإسرائيلي. فناديا مطر وأصحابها، من وجهة نظر هذه الكنائس، هم حمار المسيح.. ولابد، على حد اعتقاد هذه الكنائس، من تجميع جميع أعداء المسيح على أرض إسرائيل قبل أن يعود يسوع. وآية هذا التجميع هي عودة إسرائيل الخطاة إلى أرض إسرائيل التاخية.

وبعد أن يعود اليهود تقع حرب يأجوج ومأجوج فيُقتل اليهود الذين في أرض إسرائيل في الزلزلة وفي ختمها السابع، وعند ذاك فقط يستطيع يسوع

[1] تسمى الأعوام في التقويم العبري بالأحرف التي لكل منها قيمة عددية. وهذه السنة المؤلفة من الأحرف: (ت، ش، ن) تقابل عام 1996 في التقويم الميلادي - م -.

العودة إلى الأرض. هذا هو الدافع وراء دعم البروتستانت النصارى لإسرائيل توسعية ومقاتلةً واستفزازيةً قدر الإمكان، وجالبةً نهاية زلزلية على رأسها. ولكن لاح في عام 96 أن الذي يتحقق أولاً إنما هو السيناريو المسيحاني اليهودي. فقد بدأت الزلزلة في الوقوع على رأس الحمار العلماني. لقد بدأت الزلزلة وعن حق. إذ لابد لسلطة اليسار العلماني بصفتها سلطة الدخلاء من أن تنفق قبل مجيء المسيح اليهودي الحقيقي.

ثمة سحر للسنة العبرية في الأعين العلمانية. فخلافاً لرأس السنة الأجني الذي يتقدم في تقويمه بصرامة، فإن رأس السنة العبرية يبقى كالقابع في دائرة تدور على نفسها فلا يتقدم إلى أي مكان. فعلى سبيل المثال، يعطي عام 1996 لكل علماني مفهوماً حاسماً عن عمره الذي يتقدم وعن توقعاته من هذا الوقت وكم هو بعيد عن هذه التوقعات، وعما أعتقد أنه سيكون عليه في هذا العمر، وعن مدى قرب عام 2000، وعن كيف كان كل شيء في متناوله ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً. أما سنة تشناو، النظيرة العبرية لعام 96، فإن عمرها غير معروف. وليس هناك أي علماني فكر في طفولته اين سيكون في (تشناو) أو في (تشع) أو في (تشاس) التي تقابل عام 2000. فأعوامه لا تتقدم ولا تترمز مع التقويم اليهودي. فرأس السنة اليهودية يتحرك في دائرة بالنسبة للعلماني، ويرمز إلى البدء الذي لا يتحرك إلى الأمام في الزمان، وما يتغير هي الأحرف فقط.

تشناو، السنة العبرية التي بدأت في أيلول من عام 95، أخذت وحتى قبل دخولها الحروف المسيحانية «لتكن سنة معجزات وأعاجيب»[1]. وبالفعل فلقد شهد البلد من أقصاه إلى أقصاه معجزات وأعاجيب أرسلتها السماء.

بالنسبة إلى اليهودي المتدين، فإن عام المعجزات والأعاجيب يتحرك بالقطع إلى الأمام في الزمان، باتجاه الخلاص الناجز. لقد قلنا في الفصول السابقة أن اليهودية لم تعد إلى التاريخ بالصهيونية فقط بل بالقبالاة كذلك، وبالأخص بقبالاة الآري وباستمرارها عند كوك، إذ عند قبالي الإصلاح هناك عملية تاريخية تدريجية يتم فيها التهيئة لإنقاذ العالم ببطء وتؤده عبر خطوة

---

[1] هذه العبارة تبدأ كلماتها بنفس احرف السنة: ت ش ن و – م –.

وخطوة أخرى. وإصلاح وإصلاح آخر. ولأفعال الفرد اليهودي فيها قوة كلية بمقدورها تغيير مجرى التاريخ تغييراً جذرياً ودفعة واحدة من خلال إصلاحاته الدينية وقيامه بالشعائر الدينية. وبالفعل شهدت سنة تشناو تغييراً. ولقد رأينا كوك يضيف الفعل التاريخي إلى الصيرورة الغيبية التي يحدثها اليهودي بحسب الآري.

فبحسب كوك لا ينحصر تأثير اليهودي الفرد بالشعائر العملية التي يقوم بها وما تنطوي عليها من نواياه في غرفته على سريره، بل أيضاً بأفعال تاريخية واقعية مادية قومية من نوع إقامة المستوطنات وتخزين القوة العسكرية والذخائر وبقية الأفعال في التاريخ الحسي المنظور. فالأفعال الواقعية هذه، بحسب كوك، وخطوة وراء خطوة، ستجلب الثورة التاريخية الكبرى المحمولة في الوعد الإلهي والتي ستغير العالم. وأكثر من هذا، فلقد سبق ورأينا أن الخطايا والخطاة العتاة، بحسب كوك، هم الذين سيتمكنون من جلب الخلاص بأعمالهم وخطاياهم.

وكذلك رأينا في الفصول السابقة ما يحمله النجاح من دلالة هائلة في العين اليهودية، وبالأخص النجاح في التاريخ الحقيقي. فالتاريخ اليهودي شديد العوز في النجاحات الحقيقية، إذا استثنينا معجزات من قبيل نجاة فرد من كارثة الملايين الستة، أو نجاته من حادثة طرق مات بها العديد. ولذلك فإن اليهودية تمتاز بمقدرة هائلة في تبرير الفشل وفي عرض الإخفاقات كنجاحات، ومادام الحال كذلك فإن أي نجاح حقيقي بارز لعيون الكل، دون جدال تأويلي، يتمتع بقوة صاعقة. فالنجاح التاريخي يحمل ختماً إلهياً. والاختيار الإلهي يقع في اتجاه هذا الفعل التاريخي. وبالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بسيناريو خلاصي واضح ويسير متقدماً إلى الأمام فإن النجاح يتمتع بأعينهم بقوة أكبر. وقد أصبح أغلب اليهود المتدينين في أرض إسرائيل من هذا الصنف من المؤمنين المسيحانيين المنتظرين بثقة قرب ورود الإشارة من السماء. فالنبوءة الخيرة التي تتحقق هي، كما رأينا، محك النبي الحقيقي.

كانت سنة تشناو تخبئ في أحشائها معجزات وأعاجيب من جملتها نجاحات مذهلة جاءت من أفعال إصلاح واقعية في العالم السياسي التاريخي،

نجاحات تركت سيماها الواضحة على جبين المؤمنين بالعملية الخلاصية التاريخية الآخذة في التقدم. إن الرب معنا.

الأيام الأولى من تشناو شهدت انبعاث قوة اليمين والتمرد على سلطة اليسار الكافر معيق الخلاص ودافع إسرائيل إلى الإثم. وكما نذكر، فإن المراجع تؤكد أن سلطة الشر تستبق سلطة المسيح. وإلى الشوارع اندفع المؤمنون في إسرائيل مدعومين بفتاوى كبار الربابنة سعياً وراء عمل صلاحي. ولقد كان واضحاً للمؤمنين المعنى الشرعي لفتاوى الربابنة. ومن ضمنهم الحاخاموّن الرئيسيّون الأسبقون حول رفض أوامر الجيش وإلغاء الصلاة من أجل سلامة قادة الدولة. والمعنى هو أن الملكوت قد غدا هرطقة وسلطة شر، والتمرد عليها واجب مقدس. وبالفعل نهض قابيل المسكين من الأرض وقتل أخاه.

إلا أن التمرد، والذي لم يكن سوى رجع صغير لأحاديث الربابنة ولفكر الأغلبية الغالبة من متديني إسرائيل، كان قد وقع في الشارع حتى قبل الرصاصات الثلاث. الأغلبية الساحقة من المتظاهرين كانوا من واضعي القبعات والتي وإن كانت خيطية في معظمها، إلا أن الحريديين فيهم لم يكونوا أقلية، بل كانت لهم مشاركة برقم يفوق بكثير رقم العلمانيين – جانب اليمين المقدس. وقد كانت قوة التمرد المعلن ضد سلطة اليسار معيق الخلاص تتزايد بشكل مستمر في هذه المظاهرات. وعبَّر هذا التمرد عن نفسه بالمناشير وكذلك بالصدامات العنيفة ولكنها – إلى حين – غير مسلحة، فيما كانت الهتافات التي كان الجمهور يرددها بلا انقطاع وفي مظاهرة تلو الأخرى تقول: «بالدم بالنار نطرد رابين» «بالدم بالنار نطرد رابين».

تقريباً لم يكن ثمة علمانيون بين هذا الجمهور، ولكنهم على المنصة كانوا. فقادة اليمين العلماني، وزعيم المعارضة على رأسهم، هم الذين رعوا وأشرفوا على نار هذا العمل المشين. وقد أخذ الجمهور مشاركة نتنياهو في هذه المظاهرات ومساهمته في تنظيم بعض هذه الأنشطة، باعتباره تشجيعاً لهم. فلم يعد هؤلاء المتمردون يتمتعون بمؤازرة الربابنة فقط، فدعم نتنياهو لهم مثّل دعماً للتمرد من جانب النصف الصالح من اليهود العلمانيين.

وقد ابتهجوا، وبحق، بذاك الدعم. فنتنياهو كان قد اتخذ قراره الواعي بتهييج الشارع على نحو غرس لدى المتمردين على السلطة الثقة بأن «ليس الرب معنا فحسب، بل نتنياهو أيضاً». ونتنياهو يمثل الجزء الإسرائيلي الحقيقي بين اليهود العلمانيين الذين هم، بحسب ما هو موعود في الزوهار، من سيقف في وجه اليهود اليساريين المرقة، ويقاتلون الألد من بين أعداء الملك المسيح.

إذاً، فإن تلك الملصقات ضد رابين، سواء تلك التي كانت أكثر شيوعاً والتي مثلته بكوفية عرفات أو تلك الأندر والتي عرضت بطل 67 بزي ضابط اس اس أحمر، كانت تستند إلى بنية راسخة وتمثيلية في الأصول. ولطالما تراقصت هذه الملصقات بين نتنياهو في مظاهرة تلو الأخرى. بالطبع كانت ثمة بنية تحتية إضافية للرقص إلى جانب عمق المصادر التاريخية، ألا وهو الدعم القوي الذي قدمه ربابنة العصر. كما لم يكن، في هذا المجال، بأقل أهمية ذلك الإحساس بالتمثيل الذي منحته أفعال رئيس المعارضة لدعم الشعب.

لم يتخذ نتنياهو قراراً بالقتل، غير أنه كان يؤمن أن عنف الشارع يفيد في نزع الشرعية عن حكومة رابين، ولذلك نظم أوري الوني، اليد اليمنى لنتنياهو، أطقماً تعقبت رابين أينما حل وارتحل لتثير بواسطة العنف الجسدي، الاضطرابات في كل مكان يظهر فيه، ولذلك أيضاً تم إرسال تساحي هنغبي، قبل أن يصبح وزيراً للعدل بعام، للسيطرة على ميكروفونات رابين والتجديف عليه بهتافات إرهابية، ولذلك أيضاً تجاهل نتنياهو تحذيرات رئيس الشاباك إليه كي يتوقف عن التعاون مع اليمين المتطرف والذي قد يقود إلى القتل، وواصل، بالتعاون مع اليمين المتطرف، تنظيم مظاهرات برز فيها نجم توابيت الموتى وهي تسير إلى جانب نتنياهو. ولذلك أيضاً لم يندد بقوة بالتمرد العنيف لحركة «هذه أرضنا» والتي كانت تحت قيادة ألون، عضو الكنيست العتيد. كما لم يقل شيئاً ذا شأن ضد تمرد الربابنة على الجيش، بل استمر في التعامل مع هذا الجمهور كرافعة، حتى حين كان هذا الجمهور يندفع من ساحة صهيون ويحاول اغتيال الجنرال احتياط فؤاد بن اليعازر.

إن هـذه المؤازرة مـن جـانب نتنيـاهو، وإن كـانت بـالصمت الـذي فسـر كموافقـة، تتمتـع بأهميـة عـلاوة على مـا تحملـه مـن دلالـة ثيولوجيـة بعيـدة الأثـر، فهي ترمز إلى أن الإيمان قادر مبدئياً على هزيمة الواقع، فهو بالتالي غير معني بتقلبه ظرفياً. والحال فليس مصادفة أنه لم تحدث مظاهرات ذات بال عندما وقع نتنياهو نفسه على اتفاق إخلاء الخليل، هذا الاتفاق الذي يشكل نسخة دقيقة عن اتفاق أوسلو الذي بسببه حدثت مظاهرة ميدان صهيون التي اندفع الجمهور خلالها إلى الكنيست وإلى محاولة الاعتداء على بن اليعازر، ويعود هذا إلى أن المؤمنين لم يجدوا من بين الجمهور العام من يدعمهم بما يكفي ليعتقدوا أن شريعتهم تستطيع وأن إيمانهم قادر على إخضاع الواقع، فيما كان الحال غير هذا أيام حكومة رابين، حين فهم الجمهور المؤمن أن نتنياهو أعطى، بغمزة عين، الضوء الأخضر للإرهاب اليهودي.

وعلى هذا النحو، وعبر رئيس شبان الليكود أوري ألوني، أخذ الذين اعتبروا أنفسهم رسلاً لرئيس المعارضة الذي لم يعتقد أن الأمور ستبلغ حد القتل، يهتفون كل يوم جمعة وبالقرب من بيت ليئه واسحاق رابين: «سنشنقكم مثل تشاوشيسكو». وهكذا حاول رجاله وبشكل منظم استخدام العنف لتفجير كل مناسبة يشترك فيها رابين إلى أن انتهى الأمر إلى الانفجار الأكبر، اصلاح الإصلاحات، الإصلاح في الساحة التي كانت لما تزل تدعى ساحة الملوك[1].

يمكن أن يكون صنيع داود مع بتشبع وأوريا عينةً على الفجوة القائمة بين اليهودية الرسمية – التي تبدو للعين العلمانية كأنها واحدة – وبين اليهودية القائمة فعلياً في قلب المؤمنين بها والتي تملأ صفحات هذا الكتاب.

إن خطيئة داود، بالنسبة لقارئ النص كما هو، بَيِّنةٌ وواضحةٌ، كما هي بارزة قوة هذه الثقافة التي تكشف أخطاء أبطالها أمام التاريخ. ولكن هناك صورة أخرى مختلفة تبرز لمن يتمعن في التفسير اليهودي المأخوذ به والذي هو وحده يحيا في قلب المؤمنين بصفته الحقيقة اليهودية. إذْ يتضح، بحسب هذا

---

[1] يشير المؤلف إلى الساحة التي اغتيل فيها رابين والتي سميت باسمه بعد مقتله بعد أن كان اسمها ساحة الملوك – م –.

التفسير، أن داود لم يأثم على الإطلاق، بل على العكس من ذلك. فقد جاء في الجماراة أنه مخطئ كل من يعتقد أن داود ارتكب إثماً.

فالمعروف في عالم التفسير أن بتشبع لم تكن متزوجة. نظراً إلى أنه برزت بشكل حاد في أيام حروب داود مشكلة الهجران[1] بسبب ازدياد عدد المفقودين في الحرب. ولذلك كان الجنود يعطون قبل خروجهم للحرب طلاقاً مشروطاً يودع لدى المحكمة. لذا فالقول أن بتشبع كانت متزوجة لم يكن سوى إشاعة لا غير. ومن ناحية أوريا، فإن قتله كان واجباً. فهو ليس لم يكن يهودياً فحسب بل كان في الحق خادم جوليات أيضاً، الخادم الذي وعده داود بالحياة مقابل سيفه الذي به قطع داود، غير الممتلك لسيف، رأس جوليات القتيل. فلابد إذاً من إيجاد طريقة لقتل أوريا الشاب.

إن هذه القصة العجيبة تقدم عينة على مداخل التأويل المقبول عند أغلب يهودية زماننا باعتباره يمثل الأسلوب السليم لفهم النص. كل هذا ونحن لم نصل بعد إلى مداخل القبالاة التي تفتح أمامنا فهماً أجد وأعمق. فهنا يتضح أن داود، صاحب مزامير الرب، كان يتمتع بقدرات نبوئية ورأى، بفضل قدرته على معرفةجذور النفس، إن أوريا هو من تاسخات الشيطان بينما بتشبع هي حواء، فيما هو، داود، فهو آدم بالطبع: ولذلك فإنه يقوم بعمل كبير إذ يقتل الثعبان – أوريا – إذ يصلح بهذا خطأ حواء وآدم الأول ويبيد الثعبان، مدشناً بذلك العملية التي يتممها سليله المسيح بإصلاح العالم، فالنفس العليا نفس واحدة مثلثة: آدم، داود، المسيح، وهي النفس التي ستسود العالم. وإلى جانب النفس، فما يسود عالم المؤمنين هو التأويل وليس ظاهر النص.

إن حادثة داود وبتشبع لا تقدم نموذجاً على قوة التأويل – تأويل النص الظاهري وتأويل السر – مقابل النص القرائي فحسب، بل تقدم كذلك نموذجاً على خط الانتقائية في اليهودية الحديثة. إن محن المنفى الفيزيائية متضافرة مع القوة الكلية التي نبضت بها قلوب السر اليهودية، غذت لدى الكثيرين من

[1] أو «عجينوت» حسب التعبير الشرعي اليهودي، وهي الحالة التي يغيب فيها الزوج أو الزوجة دون طلاق رسمي حيث لا يستطيع أي منهما الزواج إلى أن يكون هناك طلاق رسمي – م –.

مفسري اليهودية والضالعين بسرها تماهياً مع القوة المنتصرة حتى وإنْ كانت آثمة. وخير تعبير عن هذا الخط نجده في فكر الرابي ليئور، رابي كريات أربع، من حيث إنه يشكل استمراراً لأولئك الذين يعتبرون سفر أيوب ليس أكثر من مَثَل، ولكنه عميق وعسير على الفهم، والذين يؤمنون بأن القاعدة العامة هي أن كل شيء يحدث عن حق، وإن كل معاناة إنما هي بسبب إثم وإن كل نجاح إنما يعود لفضل الإنسان الناجح.

لا يحتل الرابي ليئور موقعاً عميقاً بين القيادة الدينية لجيلنا، فحسب، بل يربض كذلك عميقاً في داخل التقليد التأويلي السائد، هذا التقليد الذي يُعتبر، من وجهة نظر الأغلبية المطلقة للعصر، أنه هو اليهودية وليس ثمة يهودية غيره، وان ما يقوله ليس تأويلاً بل هو المصدر الإلهي ذاته.

والتأويل السائد يؤمن أن كل إنسان يُقتل فإنما عن حق قُتل. صحيح أن هذا لا يعني أن القاتل بريء، لكنه يشكل الوسيلة الإرهابية بيد السخط الإلهي المعني بمعاقبة الخاطئ. وكما في نظرية كوك التي ترى أن ثمة دوراً ووظيفة في المخطط الإلهي لمنتهكي الواجبات الدينية، فكذلك ثمة دور ومهمة إلهية في التاريخ للكثير من المجرمين: فالقتلى كثر، وكلهم بعدل قُتلوا، وكلهم يستحقون قاتلهم، المبعوث الخاطئ من الرب. فهذه هي النظرية لليهود القساة في زمن المقرا الذين بالنسبة لهم «أشور هو العصا»، أي أن اشور الذي سبى إسرائيل إنما هو عصا الرب على من يستحقها، فكم بالحري أن ينطبق الحال على اليهود الأقل تقوى. فالحق ان من يُقتل فإنما بعدل يُقتل، وما موته إلاّ إثباتٌ على ذنبه من وجهة نظر الرب.

وهكذا ينقلب التأويل ويُفسِّر حتى للنساء في «أخرجن وانظرن» جُملة: وينهض قابيل على أخيه هابيل تفسيراً جميلاً. فمعني هذه الفقرة، على حد هذا التفسير، هو أن قابيل لم يفعل سوى الدفاع عن نفسه فقط. فهابيل هو الذي حاول قتل قابيل وأسقطه على الأرض وحاول خنقه، وفقط في اللحظة الأخيرة نجا قابيل المسكين وقام عن الأرض. ولذلك قيل «ونهض قابيل». فكل ما فعله قابيل أنه استبق مهاجمه هابيل وقتله.

إن هذا المنحى في المعالجة (الذي سيدعوه هواة سقط المتاع من الأدب بأنه تضامن مع القاتل الناجح) والذي ازدهر في سنوات المنفى، شهد ازدهاراً متزايداً في الأرض المقدسة ذات القوات الفعلية والتي تغير السياق واقعياً، فتقلب ما كان في النص ضحية نادمة إلى معتدٍ حقيقي. فعلى هذا النحو، كما نذكر، انقلب شمعون وليفي، اللذان قتلا كل أهالي شكيم، إلى بطلين حقيقيين في التفسير المعاصر في مواجهة أبيهما يعقوب الذي شجبهما مدعوماً بالتناخ. ففي أيامنا انقلب المهاجم الخاطئ إلى وليٍّ، وغدا موت القربان إثباتاً على سخط الرب عليه، وهكذا هو الأمر بالنسبة لكل ضحية. وهذا هو بالتأكيد حال رابين الخاطئ.. إن صنيع قابيل في ساحة المدينة[1] أدخل اضطراباً في قلب اليهودية المتدينة في أرض إسرائيل. صحيح أنهم رقصوا في العديد من الكنس، ولا سيما في مراكز مسيحانية كبراسلاف وحاباد ومانهاتن وباريس والقدس، وأنهم في كُنُس أخرى تلوا دعاء قنوت النوازل[2] من أجل سلامة القاتل وابتهالات لتدفع عنهم المحن الكبرى، كما تلو صلوات: «هذا ما سيصيب كل أعدائك يا إسرائيل»، إلا أن معظم اليهودية أصيبت بالهلع. كلا لم يهلعوا مما حل بالدين في وقتنا بل مما قد يحل بالمتدينين لأنه لاح أن الحكومة، سياسياً وصوفياً، ستصبح مضمونة لليسار إذا ما توجه السخط العام ضدهم، وهو الأمر الذي من شأنه إعلاء قوة القشور. إذاً فإن الصدمة كانت براغماتية، صدمة من محاولة فاشلة، مثل محاولة يوسف دي لارينه لجلب الخلاص ولكنها لا تفعل سوى إبعاده، وليس صدمة من الفعل ذاته. وكما نذكر، فإن رجلاً صالحاً وحيداً في سدوم عصرنا الدينية، وهو عوباديا يوسف، طلب قراءة المزامير عندما سقط ملك إسرائيل صريعاً أمامنا، وهذا حينما لم يكن موته قد أعلن بعد، بل عن إصابته فقط. وعندما أعلن لاحقاً أنه مات، أمر الرابي بقراءة الصلوات لصعود روحه.

وحتى هذا الحد الأدنى من الواجب الذي يستحقه أي يهودي، لم يعلن

---

[1] الإشارة هنا إلى قاتل رابين الذي اغتاله في ساحة الملوك – م..

[2] لم نجد افضل من هذا المصطلح المستعار من الفقه الإسلامي ليقابل النص الأصلي – م –.

عنه ولا أي رابي ذو وزن أو منصب، لا في الحاخامية الرئيسية ولا في أية حاخامية من حاخاميات المدن. هذا دون الحديث عما يحمله القتل من أبعاد دينية كبيرة لكل من يؤمن، ولو قليلاً، بالصهيونية. فهذا القتل هو بمنزلة قتل ملك إسرائيل وهو الأمر الذي يلزم تمزيق الثوب، تماماً كالفرض الواجب على من يشاهد بعينيه خراب الهيكل، كما يفترض بعده أيضاً صياماً وحداداً دينيين كما هو متبع منذ ألفي عام في حالة تدنيس الإسم (التجديف على الرب – م). إلا أن شيئاً من هذا لم يحصل البتة ولا بأقل القليل منه. وكل ما حصل هو عقد اجتماع وحيد لمراجعة النفس.

وحتى في هذا الاجتماع، كما نذكر، كان هناك من أعاد القول مرة أخرى أن الموت هو حكم رابين بصفته تخلى عن مناطق. وبعد هذا الاجتماع اليتيم أُعلن الحرم على الوحيد الذي حاول إجراء حساب داخلي مع المسؤولين الدينيين وهو الرابي يوئال بن نون، والذي أصبح بعد ذاك، رغم فكره المسيحاني بحاجة إلى حراسة من الشاباك على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم.

ولابد أن نعرف كذلك أن قتلة العرب في أعمال العنف السابقة، مثل باردوخ غولدشتاين ويهودا عتصيون، حظيوا بتمجيد رفيع في مناطقهم وبدفاع براءة حماسي من قبل خيرة الربابنة، بصفتهم قديسين وأولياء حقيقيين. وعلى هذا النحو غدا يهودا عتصيون، إيديولوجي الحركة السرية اليهودية، رجلاً مركزياً يحظى بالقبول في مستوطنة عفرا في حين يعاني جاره في الاستيطان، يوئال بن نون، النبذ من الجميع.

ولم يطل عمر رابين قليلاً إلاّ لأن ما فهمه القاتل لم يكن الكثيرون يفهمونه، وهو حقيقة أن رصاصاته تنطوي على فائدة براغماتية كبيرة. فقوة هذه الرصاصات تكمن في أنها تحل بيرس المبغوض والضعيف سياسياً محل رابين ذي الشعبية. وهكذا فالرصاصات الخلاصية تصفي احتمال أن يستطيع هذا الحمار الممتاز، رابين، بفضل ماضيه العسكري ومكانته الجماهيرية، حمل شعبه على ظهره إلى ما وراء نهر جحيم الحرب. وقد أدرك القاتل، وعلى نحو صائب، أن رابين هو ركيزة هذه العملية، لكون الجمهور فاقد الهوية المبلورة

وحامل مخزون الاشتياق للسلام كان بحاجة إلى مثل هذا الحمار الأمني الموثوق، فهو وحده – الجمهور – لا يعرف كيف يجتاز نهر جحيم الحرب، فكل ما يتوفر عنده هو مجرد نزوع غامض مع عدم معرفة كيف يبلل أقدامه، فكان لا بد لرابين على شق المياه أمامهم، وكان قادراً على ذلك.

ولكن في جيلنا الحالي، على خلاف جيل الخروج من مصر، لم يكتف الشعب بالتذمر على موسى، لقد تقدم الشعب في عصرنا. فالعودة إلى أرض الحرب في مصر بباذنجان وثوم وبصل معاركها أنجزت بمساعدة المسدس المنقذ. إذاً، فإن عدم انهيار الحراسة الهشة على رابين قبل الرابع من تشرين بوقت طويل لا يعود إلى اعتراض داخلي ثيولوجي ضد فعل القتل، بل إلى خشية فعلية من أن فعلاً كهذا قد يعزز اليسار. وهكذا ما إن تبين للجمهور الديني في 29 أيار، بعد الانتخابات[1]، بأن المحنة قد تحولت إلى سعادة كبرى، وإن «العكس» هو الذي حصل، حتى تلألأ ختم النجاح الإلهي بضوء أخضر.

وبشكل عام، فالعجب هو لماذا لم يحدث المزيد من أعمال العنف: فالنصوص القديمة في تأويلاتها العصرية لا تتخلف عن «الأعشاب الضارة» بل تسبقها بكثير. يتضح أن المنفى لم يغادر اليهود بعد، فهناك خوف كبير من أن أعمالاً صحيحة في عالم الواقع، أعمالاً تنسجم والنص، قد تثير عالم الواقع ضدهم. فلم ينفذ بعد إلى كل المعسكر مدى عمق زمان النجاح، هذا الزمان الذي يستجيب الواقع فيه للصلاة دونما مقاومة تقريباً.

ولذلك، وبعد القتل مباشرة، حاول المعسكر الديني الانتفاض وإبعاد التهمة عنه وغسل يديه. فرابين لم يكن ملكاً بل قتيلاً ملقى في الحقل وينتظر إقامة فريضة العجلة مقطوعة الرأس[2]. ولا من رأى ولا من علم، فالأمر ليس أكثر من عشب ضار[3].

معارضو رابي عكيفا، محدث حركة كوخبا المسيحانية، قالوا له أن شعراً

---

[1] الإشارة هنا إلى نجاح نتنياهو في الانتخابات وسقوط بيرس – م –.

[2] تفرض الديانة اليهودية قطع رأس عجله في المكان الذي فيه جثة قتيل مجهولة الفاعل. – م –

[3] كناية عن ابن ضال، أو عمل فردي من شخص أو أشخاص ضلوا السبيل كأفراد. – م –

سينبت على كفي يديه وعشباً على خديه قبل مجيء ابن داود. ولقد نبتت الأعشاب على كل خد وفي كل كف في بني عكيفا.

والد جوهرة الرب صديقة القاتل من بيت ايل، مرغليت هارشفي، والتي حُملت على أكف الراقصين بقيادة رابي المستوطنة، الرابي ابنير المعتدل سياسياً، حين عادت من سجن الكفرة - حاول الدفاع عن ابنته بالقول أنها تعاملت مع أقوال القاتل بشأن خططه لقتل رابين كتبجحات خطيب يحاول التأثير على امرأة. لقد نمت الأعشاب إلى هذه الدرجة، إلى درجة أنهم على مرجة كلية الحقوق يحاولون التأثير على شابة من خلال خطة عملياتية لقتل رئيس الحكومة. ولم تفتح الأرض فاها. بل على العكس، إذ بدا أن الأمر قد حسم عندما، بعد القتل بوقت وجيز، نظمت الحراسة على أصدقاء القاتل. كلا، لم يكن هذا خوفاً من أن تقوم الجماهير على محاسبة قاتل بطل إسرائيل المنتصر في حرب الأيام الستة ومحرر القدس، وإنما تحسباً من أن يعتدي الجمهور اليميني عليهم لأنهم وشوا بالقاتل.

يكمن سبب انهيار المجتمع الإسرائيلي الحديث والديمقراطي أمام أقلية عنيفة في ثلاث مقولات وردت في الفصول السابقة، عنيتُ مقولة «الجدار» و«دلالة النجاح» و«غياب طبقة وسطى ثقافية».

وكما أوضحت، فإني أعتقد أن بناء معنى ثقافي منظم لمسلمات ثقافية يتوقف على وجود طبقة وسطى ثقافية تحمل هذه المسلمات على كتفيها. وكما رأينا، فلا وجود لمثل هذه الطبقة في إسرائيل. ففي إسرائيل يوجد مجتمع مهاجرين ينتج ثقافة «طوائف الأبناء» وثقافة «التائبين» الذين يتوافدون إلى داخل ثقافته الغائمة. ووضع من هذا القبيل، حيث تكون فيه الثقافة غير الواضحة محمولة وتتبدل على يدي الشباب، مع غياب مركز ثقافي ذي تقاليد، هو بالتأكيد ليس بالوضع المستقر، وخاصة عندما يتعلق الأمر بشباب يحيون في وضع ثوري أكثر من أي وقت مضى، وضع ثوري ثقافي تحكمه قوانين القوة. وفي مجتمع كهذا، حيث ثقافته على العموم، وثقافته اليهودية على وجه الخصوص، تعيش في ظلمة غير مُدركَة وغير مُحددَة هوياتياً، في مجتمع كهذا

يلعب وجود الحدود أو غيابها أهمية حاسمة. فالحدود تقوم بوظيفة الإشارات الضوئية في صراع القوى. وعندما تكون الحدود السياسية والثقافية غائبة، يفترض على الأقل أن يكون هناك «جدار». إن مصطلح «جدار» يحيل هنا إلى مبدأ الواقع الذي يعني أن هناك أموراً يمكن إنجازها وأموراً لا يمكن إنجازها، وأن ثمة أموراً تُفعل وأخرى لا تُفعل، وحيث يوجد قانون للثواب والعقاب، وقضاء وقاض.

كان جابوتنسكي قد استعار مفهوم الجدار ليقدم مفهومه بشأن «الجدار الحديدي» والذي مفاده أن سلاماً لن يتحقق مع العرب طالما لم يستوعبوا أنهم لا يستطيعون إبادة إسرائيل وأنهم سيدفعون ثمن الحرب ضدهم.

ومفهوم الجدار هنا يرمز إلى ما يفترض أن يكون بديهية قانونية واقعية فعلية في داخل المجتمع. فالمشكلة، كما رأينا، هي أن الجدار يتحرك دوماً في مسائل الدين.

فخلال السنوات العشرين الماضية تكررت أعمال العنف، من إلقاء الحجارة على الشوارع في أيام السبت، مروراً بصدامات جسدية مع الجيش، وانتهاء بأعمال قتل وذبح كما في مغارة المكفيلة في الخليل، وفي كل هذه الأحداث دون استثناء كان العنف يؤتي أكله.

إن القوة تربح، لنضرب مثلاً، فحكم من يقذف الحجارة على السيارات هوسبع سنوات سجن لأنه يعرض الحياة على طريق عام للخطر. إلاّ أن الحجارة كانت تُقذف على شارع بار ايلان على مدار أعوام، وكان الشارع يُغلق ولا أحد يُعتقل. والأمر نفسه فيما يتعلق بالربابنة المحرضين والمتمردين والذين يثيرون التمرد على تلال المناطق وعلى طرق إسرائيل دون أن يُعاقب أحد منهم، بل على العكس. فحتى القاتل نفسه سُحب أكثر من مرة من منطقة عسكرية في تلة هداجان دون أن يتم اعتقاله ولا مرة واحدة. إن العنف يهزم الواقع. والشريعة، كما رأينا، توازن بين الموجود والمرغوب، والشيء الوحيد الذي يحد من التطرف هو الخطر الفعلي (المترتب على هذا الطرف)، فمبدأ السلامة يفرض دوماً الاكتفاء بالقليل. مبدأ الواقع هو الذي يفرض تأجيل تحقيق كل التشدد الديني

إلى حين قدوم المسيح، غير أن الواقع المسيحاني في إسرائيل دينامي، والجدار يتحرك ما إن يميلوا عليه.

وهذا الواقع، أو لمزيد من الدقة، هذا الغياب لمبدأ الواقع في المجتمع الإسرائيلي هو الذي خلق المزيد والمزيد من الطاقة المسيحانية المتطرفة التي جلبت نجاحاتها المزيد والمزيد من الأعمال الإصلاحية في التاريخ الفعلي، وهي أعمال إصلاحية تستهدف بناء الخلاص وتهيئة الشقة بالتجهيزات.

ومادام الأمر كذلك، فلقد كان من الحيوي لحياة المجتمع الإسرائيلي ولصورة الدين اليهودي في إسرائيل، وبعد 4 نوفمبر على الأقل، أن يتم وضع جدار يحول دون انتصار القاتل. إلا أن القاتل انتصر والجدار لم ينهض، فلم يكن هناك، عفوياً، من يقيمه. إن هوية الجمهور العريض الباحث عن حياة ديمقراطية واعتيادية في إسرائيل، هي توق فقط، كتهيدة عميقة أو كسير على شاطئ البحر، وليس هوية واعية لذاتها، هوية مستعدة للدفاع عن نفسها وللقتال من أجل حياتها. أي على العموم، هوية لا تدرك من هم الذين يتهددونها ولماذا، ومن هم طالبو نفسها.

وفي ظل غياب هذه الهوية الواعية، وغياب طبقة وسطى ثقافية تقاتل دفاعاً عن حياتها وقادرة على التلويح بقبضتها، في ظل هذا لابد للجدار من أن يهبط من السماء جاهزاً كهيكل من نار. ولأن سماء العلمانيين ليست من صنع الرب، بل من صنع الإنسان، فالأمر إذاً يتعلق بقوة القيادة السياسية.

لقد حدثت المعجزة مع إسحاق رابين الذي كان بمقدوره، بفضل شخصيته وماضيه العسكري وشعبيته، وبفضل كونه هو من احتل القدس، أن يحمل على كاهله الحماري المجيد الجمهور الإسرائيلي إلى ما وراء نهر الحرب باتجاه الأراضي السوية والراحة والحداثة. وقد كان الجمهور، في ظل غياب هوية مبلورة وواعية، بحاجة إلى كبش فداء يفتدي، بجسده وبروحه فعلاً، المؤمنين به من كوابيس ماضيهم. وفي مساء 4 نوفمبر اكتملت المعجزة واكتمل الخبز والنبيذ.

بعد الرابع من نوفمبر تُرك الجمهور الإسرائيلي وحيداً، وعلى رأسه أسوأ

قائد ممكن، شمعون بيرس، القائد الأضعف والساعي أكثر من أي قائد آخر وراء محبة باغضيه. صحيح أن تلك اللحظة كانت لحظة مؤاتية، لحظة الغروب، حيث كان الانتشاء المسيحاني يتوقع ضربة تبعده عن مسرح التاريخ الحقيقي، إلا أن الجمهور، آخذاً دور يوسف دي لارنيه الذي كان يفترض أن يقذف إبليس إلى الهاوية، وقف مرتبكاً، غير مدرك لهويته، وشمعون بيرس على رأسه.

وشمعون بيرس، بالطبع، أحرق القليل من البخور أمام أنف الحلم المسيحاني، فانتفض الأخير من قيوده ومن الاتهام الموجه إليه وبسط جناحيه الكبيرين المنتصرين، اللذين يحجبان الشمس لاتساعهما، ومعها أغلب الجمهور الديني، وما إن حلق حتى عاد يسيطر على سماء إسرائيل، وبقوة متزايدة هذه المرة.

كان ياما كان رجل كره ظله ومقت آثار قدميه

ولكي يهرب من ظله أخذ يركض.

وكلما ركض كان ظله يركض معه.

وكلما ركض كانت آثار قدميه تزداد.

ففكر: لست سريعاً كفاية. ولذلك سارع من طاقته وسارعها إلى أن لفظ أنفاسه ومات.

أية حماقة. فلو وقف لاختفت آثار قدميه. ولو وقف في الظل لاختفى ظله.

يالها من خسارة.

(من تشوانغ – تسا – ترجمة يوئال هوفمان).

أنا هو هذه القوة الأخرى

التي تسعى وراء الخير وتنتج الشر

(باريوس على فاوست غوته).

لا مندوحة لنا هنا من محاولة فهم، وباختصار، الرد السياسي أو غيابه متعدد الدلالات، في الفترة الواقعة ما بين مقتل رابين وبين انتخابات 1996. فغياب الرد لعب دوراً جوهرياً في خلق الثيولوجيا الجديدة.

شمعون بيرس لم يفهم أبداً، ولم يكن راغباً ولا قادراً أن يفهم حكمة السلطة (السياسي الناجح يقف في الظل) ويقف في ظل حدث أكبر منه. فبدلاً من التظلل بالظل الكبير لرابين القتيل، وبظل إسرائيل الديمقراطية وريشة أحلام يهودية ما قبل الكارثة، وأن يدير باسمهم معركة كبرى من أجل الديمقراطية ومن أجل ثقافة يهودية لا مسيحانية، وإجراء انتخابات على الفور أو في موعدها فور الذكرى السنوية لرابين، بدلاً من ذلك شرع في التراكض مهتاجاً في كل الاتجاهات المتعاكسة. وبصفته رمزاً للضعف والارتباك الهوياتي اليهودي العلماني شرع في إضاعة الوقت في سياسات ضيقة، ثم بدأ محاولة متهافتة حاول فيها الجري وتحسين صورته المفقودة، وكانت النتيجة سبعة أشهر من اللعب بالسيد الأمن وبالشعارات الانتخابية مثل «إسرائيل قوية» والعدو إلى مغامرة في قرية قانا وضحاياها المائة وبطاقات بيضاء في أكفانهم.

لقد انفتحت أمام بيرس وأمام الجمهور الإسرائيلي اللامسيحاني في الوقت الذي تلا الرابع من نوفمبر آفاق واسعة للعمل، وكان بإمكانهم توقيف الربانية المحرضين، وإقامة لجنة تحقيق حقيقية لا تتلطى فقط خلف ظهر رابين القتيل في محاولة للتدقيق في من وقف هنا ومن كان هناك، بل تحاول فهم كيف وصل المجتمع الإسرائيلي الديني إلى حد القتل، وما هي الرياح التي قادت إلى هناك، ومن هم الربانية الذين تولوا القيادة في هذا الاتجاه، ومن الذي أعطى المؤازرة السياسية لمظاهرات التحريض، كما كانوا يستطيعون كذلك تفكيك الألغام التي زرعت في حدود الاستيطان في يهودا والسامرة وفي المدارس الدينية العسكرية وفي سائر الوحدات العسكرية.

فلقد كان بالإمكان، على سبيل المثال، سحب السلاح المرخص - ورابين قتل بسلاح مرخص - من كل من يقيم خلف الخط الأخضر، ولا يُعاد إلا لمن يجتاز امتحان جهاز كشف الكذب، امتحاناً يُسأل فيه فيما إذا كان يعتقد أن رابين خائن أو مضطهِد (بكسر الهاء)، وما إذا كان يعتقد أن باروخ غولدشتاين قديس وأن يُسأل كذلك، من أجل التوازن، فيما إذا كان يعتقد أن أودي أديب قديس، أو إذا فكر ذات مرة في الاعتداء على شريكه الزوجي (أغلب أحداث

القتل العائلي تتم بسلاح مرخص). كما كان بالإمكان أيضاً إعفاء كل أولئك الربابنة الكثر جداً الذين دعوا إلى انتهاك الأوامر العسكرية وإلى التمرد على السلطة من مناصبهم العسكرية والرسمية. كما كان بالإمكان كذلك النظر مجدداً بسياسة الميزانيات الهائلة التي تفوق في مجملها العام ميزانية الأمن والتي تسهل، برعاية الدولة، نشوء حضارة دينية مستقلة تفتقر إلى المسؤولية الاقتصادية، وتثقف، جهاراً، بالخروج على السلطة الكافرة.

وكان ممكناً كذلك إعادة النظر في بنية الجهاز التعليمي الذي يمنح منظومات تربوية عملاقة استقلالاً ذاتياً ومخصصات مالية، في حين أن التعليم في هذه المنظومات موجه نحو التمرد على الدولة العلمانية ونحو الكراهية للجمهور العلماني ممثل الشيطان. كما أن بُنى هذا الاستقلال تساعد في خلق مسيحانية عنيفة مستغلةً اسم اليهودية.

في الولايات المتحدة، وفي انتخابات عام 1964 بعد مقتل كندي، كان بالكاد يمكن العثور على جمهوري في مجلسي الولايات المتحدة، الكونغرس والشيوخ، والقتل هناك لم يكن سياسياً أو عقب تحريض مستمر. إلا ان الناخب هناك قرر منع حدوث «قتلت وورثت أيضاً». وفي الهند، بعد مقتل غاندي، استمر حزبه لسنوات طويلة في السلطة. والأمر نفسه حدث في التجمع اليهودي في فلسطين قبل قيام الدولة، حيث استغل بن غوريون مقتل أورلوزوروب بعد تحريض من اليمين، ليتحول من وضع متساو معهم إلى وضع من الهيمنة السياسية الصريحة.

فقط في إسرائيل، ومع معجزات سنة تشناو، جرى إسكات خلفية القتل. صحيح أن شمعة رابين أطفئت في وقت قريب من عيد الأنوار، وصحيح ان استخدام شموع الأنوار أمر محظور، ولكن أقله كان من الجائز ومن الواجب إظهارها. بيد أنه كان من غير المسموح لا إظهار ولا استخدام مقتل رابين.

وكان بيرس، في عماه السياسي، يقدم النموذج على الجمهور الإسرائيلي العلماني الحديث وعلى الضبابية الهوياتية الثقافية اليهودية الغارق فيها، هذه الضبابية التي تغذي أزهار الشر.

فمن خلال توقه الغائم، حسن النوايا، إلى يهودية جده الضائعة، وإلى حضارة يهود أوروبا ما قبل الكارثة التي منها جاء كولد، إلى البلاد، ومن خلال صورته كمهاجر غريب والتي لم يتخلص منها أبداً - حاول بيرس استرضاء اليهودية المتدينة، إلا أن هذه الأخيرة كانت تختلف بالمطلق عن يهودية جده القابعة في ذاكرته العمياء. فيهودية عصره، عصرنا، يهودية نهاية القرن العشرين - اليهودية التي قتلت رابين، لم تفعل سوى استنشاق روائح القرابين التي قدمها لها لتنطلق إلى الأعالي وتنشر العتمة في الفضاء الأزرق الذي يعلو رمال شاطئ البحر وقصورها التي بدت شديدة الروعة.

فخلال وقت وجيز، بضعة أسابيع، فهمت كل اليهودية الدينية أن السلطة واهنة ومرتبكة ولا تدري ماذا تصنع بشبتاي تسفي الذي سقط لوهلة بين يديها، فشرعت على الفور في الاستفاقة والخروج مما بدا أنه نهاية الحلم المسيحاني، لتعود إلى النور المخلص.

كان الحريديون أول المستفيقين، وبدأوا، خلال برهة قصيرة، في التقليل من شأن القتل وفي السخرية منه ومن الضجة حوله، مستخدمين كلمات ككلمات المسيح الذي في أيلون، وانضمت إليهم من كانت ذات مرة صهيونية دينية.

وإذا ما بدا لوهلة أن هذه الصهيونية الدينية عادت إلى ما كانته ذات مرة (فعادت ميمار إلى المعسكر، وحتى في «هتسوفيه» عادت كلمة الديمقراطية من منفاها كمنبوذة بكونها من نجاسة الغوييم، إلى أحضان الجد إسرائيل) إلا أنها لم تلبث، خلال بضعة أسابيع، أن عادت إلى مسيحانيتها كما في السابق.

وكما نذكر، فإن الاجتماع الذي عقد في ساحة القتل، بعد خمسة أسابيع فقط من الحادثة، لم يجر، مرة أخرى، كما كان مخططاً، أي ليكون اجتماعاً لذكرى رابين أو لوحدة الشعب، بل تحول إلى اجتماع لإنقاذ الصهيونية الدينية ولذكرى الرابي نيريا، وهو الرابي الذي قاد إدخال التعديل على الصلاة لسلامة الدولة، وهو التعديل، الذي تمنى، بمعناه، موت رابين. ومرة أخرى لم يُدع الرابي

عميطال إلى هذا الاجتماع وهو المؤمن بنبوءة كوك المسيحانية ولكن المنبوذ بسبب اشتراكه بسلطة اليسار الكافر، وفي هذا الاجتماع وفي هذه الساحة، عادت وبقوة مضاعفة النغمات المسيحانية التي ترى في العلمانيين دخلاء أنجاس. ويالها من عودة مباركة إلى البيت.

لم يتضح للجمهور الديني المدلول الكامل والممثل للنجاح الكامن في تشناو وفي أفعال المتبئ بالدولة المسيحانية من هرتسليا إلا في نهاية الربيع، أي بعد الانتصار الكبير الذي تحقق في الانتخابات. إلا أن الإحساس بالنجاح كان يملأ القلوب منذ الشتاء. فها هو الحاجز الأخير قد تم اجتيازه، فلقد قصمنا في الجبهة ظهر الجدار الأخير، بطل حرب الأيام الستة ورئيس إسرائيل. لقد ضحينا بإسحاق دون أن يعترض أي ملاك، ودون أن يحدث شيء. وسلام لكل المحرضين مطلقي الفتاوى والكتابات.

وأكثر من هذا، فها هو النهج يشطأ بأزهار جديدة، والصحافة الدينية، والحريدية منها أساساً، تزخر بلغة تحريضية جديدة ضد العماليق اليساريين. كل هذا بعد شهر أو شهرين من تظاهرات التحريض والقتل. ولا شيء يحدث. والعالم يسير كعهده.

للسكوت على القتل أصداء لابد وأن تجد رجعاً لها في أي عالم معنى، فما بالك في عالم المعنى الديني. إن اجتيازاً متطرفاً للحدود بتلك الدرجة، ودونما أي عقاب، لابد وأن تكون له آثار بعيدة المدى عند ذلك العالم الذي كان مشبعاً بالخوف إلى حد بعيد من أن يقود فعل اليد المرتعشة إلى خلق مئات الألوف من ملائكة التخريب الذين سيؤذون اليهودية ويرسلون الشاب إلى جهنم. وإذا كان ارتكاب معصية دونما عقاب له مغزى ومعنى كبيرين في العالم الديني بشكل عام، فكم بالحري أن يكون الأمر كذلك في عالم ديني مسيحاني ينتظر طوال الوقت إشارة من السماء.

والأمر نفسه بالنسبة إلى القاتل. فلقد بحث طوال الوقت، وهو المقتنع بعدالته، عن إشارة تفيد أن عمله صالح، إلى أن قرر، كما هو معتمد، أنه إذا حالفه النجاح في الساحة، فإن هذا النجاح سيكون بمنزلة الإشارة الكبرى.

والنجاح وقع. ومع النجاح الإشارة الإلهية كذلك. وبدا فعل القتل، بعد أن نجح، كإشارة من نبي حقيقي لا تخيب أبداً، إشارة تثبت بنجاحها مشيئة الرب. وهكذا، في العالم القبالي المسيحاني الذي هيمن على اليهودية الدينية في أرض إسرائيل، فإن عدم وقوع الأهوال التي كان متوقعاً نزولها على رأس العالم المسيحاني، بلور يقيناً مسيحانياً إضافياً في القلوب ومعه إحساس بأن أيام سقوط سلطة الشر باتت وشيكة، ومسموح من أجل تحقيق ذلك فعل أي شيء، ولقد تم فعل كل شيء حقاً.

في انتخابات عام 1996، ظاهرياً على الرغم من القتل، ولكن بسببه عملياً، إضافة إلى أسباب أخرى. فُتحت كما قلنا مستودعات الحرب التي لم تُفتح من قبل أبداً. إن جبروت الإله الثيولوجية لمحو اليسار – العماليق – لم يسبق له مثيل. وقد تخطت هذه الآلة كل حد وقدر.

وكما نذكر، فلقد وضعت انتخابات سنة شناو الجمهور الديني، والحريدي منه على وجه الخصوص، أمام مأزق جديد. فلأول مرة يجد هذا الجمهورنفسه، بشبابه ونسائه، مضطراً لأن ينتخب وبشكل مباشر واحداً من المرشحيّن العلمانييّن، فيما واحد منهما مذنب بواحدة من الموبقات الثلاث وهي غشيان المحارم (باعترافه بالزنا مع امرأة متزوجة) والتي حُذر الشعب منها، بأنه إذا ما عاد إلى عادات أرض مصر، سينزل الخراب والشتات عليه.

اعتقد أن كثيراً من الربابنة، في ظروف أخرى بدون القتل وبدون أجواء الفوضى المسيحانية التي هيمنت على الجُمهور حتى الرجل الأخير فيه، كانوا سيأنسون في أنفسهم القوة للاعتقاد أن الجمهور سينصاع لهم، ويقيمون جداراً ويطلقون النداء الشرعي المنطقي الوحيد وهو الامتناع عن التصويت. ومعقول أيضاً أن الأمور كانت ستتخذ هذه الوجهة لو كان رابين مرشحاً، من حيث إن فوزه كان سيكون أكيداً بفضل مكانته المركزية، فمن الأفضل والحالة هذه عدم الدخول في مواجهة مع الشرير.

عموماً، فإن جزءاً لا بأس به مما عرف كحلف تاريخي بين حزب العمل والمتدينين استند إلى حقيقة أن بن غوريون كان في السلطة وأنه كان الوحيد

الذي يستطيع إقامة حكومة، والسؤال كان فقط من سيسير معه. وإلى حالة شبيهة بهذا وصل رابين مع الكتلة المانعة بعد انتخابات سنة 1992.

إلا أن الشرير بيرس بدا بعد القتل بالغ الضعف لحد أنه لم يكن هناك أي حاجز أمام نار الحقد وأمام هياج الفوضى المسيحانية وخاصة عندما لاح أن النجاح يحالف الواقع المسيحاني، والنجاح هو الوقود الأقوى للنار المسيحانية الملتهبة التي بدت وكأنها تحتل مناطق العمق في الواقع الإسرائيلي.

في الأشهر التي سبقت الانتخابات (وعلى إثر غياب الرد) أعلن وبشكل رسمي في الصحف الحريدية ما لم يكن من قبل ليحظى أبداً بمنبر كهذا. فالمقالات الافتتاحية في «يتيد نئمان»، لسان حال شاخ العقلاني المعتدل، امتلأت القبالاة مسيحانية عدوانية وتكرر فيها تشخيص اليسار كدخلاء، كفير يهود، كعماليق، ككلب وحمار. ومرة تلو الأخرى قيل إننا نعيش، كما هو موعود في المراجع، تحت سلطة الدخلاء عشية قدوم المسيح، هؤلاء الدخلاء الذين سيبادرون في القريب العاجل.

وبدا أن الحرب ضد نور الهسكالاه ليست إلا مداعبة قياساً إلى السخط القبالي، إذ هنا أيضاً أخذوا يرعدون بانتظام ضد اليسار الذي هو، بصفته دافعاً لكثيرين للإثم، حسب التفسير الذي أعطي لـ (دافعك للإثم أسوأ من قاتلك)، أردأ من النازيين.

وعادت كل الأبواق توضح أن اليسار وحده يتحمل آثام الصهيونية العلمانية، من حيث إنه هو وحده من يرفع راية البديل الطلائعي الصباري المتنور بديلاً عن الولي والحاخام. أما اليمين العلماني فليس أكثر من طفل وقع في الأسر وانجر وراء اليسار الشيطاني.

من الطريف تأمل ما بدا، من وجهة نظر الليتوانيين، أنه الزلزلة التي ستحدث إن انتصر اليسار في انتخابات 1996. فبعد أن عددوا للجمهور كل الكوارث والاضطهادات والفسوق وانتهاكات السبت وانتهاكات التقاليد التي ستقع إن حصل وفاز اليسار، والعياذ بالله، في الانتخابات، وصلوا إلى الأفظع والذي سيحدث في النهاية، وهو أن إسرائيل ستغدو مثل البلاد الغربية من جهة

أن التعليم المجاني سيكون مقتصراً على التعليم الرسمي فقط وسيتعين على من يرغب في تعليم حريدي أن يدفع مقابل ذلك. والكاتب المدرك لقطيع رعيته ينهي بالمقطع التالي: «ترى كم واحداً منا سيتمكن من الدفع وإرسال الأولاد لتعليم حريدي؟».

فالاطمئنان الحريدي كان قد وصل بهم إلى الدرجة التي أصبح واضحاً لهم فيها أن كل الرذائل والفواحش ستحدث قبل أن يتجرأ أحد ما على مس قدس الأقداس، أي تغذية الأمعاء الحريدية المسيحانية الهازئة بالرامبام والتي تأمل وتتضرع لكي تنزل الكارثة على رأس مموليها العلمانيين.

وانصب كذلك غضب مقدس على رأس شاس المتهمة بالتعاون مع الوثنيين اليساريين تعاوناً يوازي إثم النصارى الذين يمزجون الإيمان بإله واحد مع وثنية الإيمان بالثالوث. إلا أن هذا الغضب كان بلا مبرر إذ على الرغم من مصلحة شاس الواضحة في أن يتولى حزب العمل السلطة، وعلى رغم الدعم البارز من قائدها لنهج حكومة العمل، على رغم كل ذلك صوت، كما نذكر، أكثر من 98٪ من ناخبي شاس لصالح بنيامين نتنياهو، منضمين بذلك إلى نسبة مشابهة في أوساط بقية الأحزاب الدينية. فالروح المسيحانية القبالية اجتاحت جمهور شاس أيضاً في طريقها لإطباق سيطرتها على الوضع.

وفي تلك الأيام التي كانت فيها النار والكبريت تنهطل من السماء عبر الصحافة والأدبيات الحريدية على اليسار العماليقي، كان ممثلو اليسار ومبعوثو بيرس يجولون بين الساحات ويوزعون الوعود، معتقدين أن الكل مفتوح، فلعل وعسى يصوت الحريديون لصالح الحمار.

وكلما كان موعد الانتخابات يقترب، كلما كان المزيد والمزيد يخرج للملأ، حتى من المنابر المكشوفة على الجميع، كما في البث التلفزيوني الانتخابي الذي كان تحريضاً سافراً ضد العلمانيين. والصراع المقدس لإبادة العماليق بالانتخابات من خلال التصويت لليمين وهزيمة الحمار، تطور، عبر عملية كبيرة نفذتها حاباد (بتخطيط مسبق من نتنياهو) من منشورات الشوارع إلى فوضى

جماهيرية عند صناديق الاقتراع. إنها معجزات وعجائب حقاً. لقد تقوت يدالرب ورفعت في 96/5/29 من تعتقد انه يستحق الرفع.

لقد فسر الإعلام الإسرائيلي الذي تابع الأحداث معصوب الأعين انتصار اليمين بفارق 15.000 صوت في انتخابات عام 96 بأنه اختيار من الجمهور الإسرائيلي للمزيد من المحافظة.

فرغم حقيقة أن ازدياد قوة الأحزاب الدينية في الانتخابات جاء من ناخبي اليمين وأنه نبع من تغيير اسلوب الانتخابات الذي أتاح للناخبين المتدينين أن يقسّموا اقتراعهم، وعلى الرغم من العدد الضئيل من العلمانيين الذين صوتوا للأحزاب الدينية، وعلى الرغم من الأسباب السياسية العامة للنتائج، وعلى رأسها صورة بيرس اليسارية، وعدم استخدام مقتل رابين، ورعب العمليات التي حدثت، رغم كل ذلك وجد الإعلام أن الذنب يقع أساساً على اليسار بابتعاده عن التقاليد. بل حتى العلمانيين اعتبروا أن الحمار هو المذنب. فتبنى الجمهور العام، بعد الحدث، وبسعادة، تفسيراً يهودياً مُحرَّفاً لانتخابه الأمني لنتنياهو.

لقد اكتملت معجزة عام تشناو، معجزات وعجائب ونصر مؤزر للحلم المسيحاني.

لقد أوردنا في هذا الفصل ثلاث مقولات باعتبارها هي المسؤولة عن انهيار الديمقراطية الإسرائيلية الحديثة أمام عنف أقلية وهذه المقولات هي: غياب طبقة وسطى ثقافية كبيرة كفاية، وغياب جدار من مسلمات الواقع والقانون ومفهوم النجاح.

وكما رأينا، فحتى قبل مدة طويلة من انتخابات سنة 1996 صبغ النجاح الخطة المسيحانية الإلهية بطابع إلهي، إلا أن هذه الانتخابات رفعت النجاح إلى رأس مسراتنا. ويبدو جلياً أن الجمهور الإسرائيلي اختار، رغم، ولعه بسبب، اغتيال بطل إسرائيل، اليد اليمنى للمسدس الديني المسيحاني، اختاره وتقبل سيادته الواضحة عليه.

إن نشوة الانتصار والنجاح وما ينطوي عليه من إشارة إلهية جرف

اليهودية الدينية نحو المزيد والمزيد من الانتشاء المسيحاني ونحو سماحها لذاتها بفعل المزيد والمزيد من أجل التقدم الخلاصي. ولقد تم إيضاح أن كل أنبياء هذا الخلاص المسيحاني، من الرابي كدوري، مروراً بالرابي شاخ واللوبابتيشار والرابي كوك الأب والابن، وصولاً إلى روح القدس في هرتسليا، إنهم إنما بالحق تكلموا وأن الرب معهم، وأن شيئاً مما تعهدوا من تعهدات خيِّرة لن يخيب. فالرب ملك رحيم وصادق هو. وبلطف ورعاية اليمين خرجت المزيد من الأحلام إلى النور، ففازت فتوى الرابي شاخ القائلة أن حكم المضطهد (بكسر الهاء) يسري على كل اليسار، بمزيد من العلنية، كما حدثت المزيد من معارك السبت في الشوارع وكذلك المزيد من محاولات إلحاق الهزيمة، وبالقوة، بما لاح أنه المعقل الأخير للديمقراطية، أي المحكمة العليا. وبدا، مع نهاية سنة تشناو، أن المعركة قد حُسمت.

# الفهرس

## صدر عن دار كنعان 2000 - 2001 - 2002 - 2003 - 2004 - 2005

| م | عنوان الكتاب | المؤلف / المترجم |
|---|---|---|
| 1 | شعرية التمرد | جان جنيه |
| 2 | قضايا وشهادات / سعد الله ونوس «نافذ» | مجموعة باحثين |
| 3 | السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 + ج2 + ج3 | خالد آغة القلعة |
| 4 | ياءٌ.. وعد على شفة مغلقة «نافذ» | إسماعيل الرفاعي |
| 5 | من قريب من بعيد | كلود ليفي شتراوس |
| 6 | اعترافات عربي طيب | يورام كانيوك |
| 7 | شرك الدم | إعداد مصطفى الولي |
| 8 | قصيدة هيروشيما | وفيق خنسة |
| 9 | مواعيد «نافذ» | محمد صارم |
| 10 | موكب البط البري «نافذ» | علي الكردي |
| 11 | إسرائيل وحرب المياه القادمة «نافذ» | ظافر بن خضراء |
| 12 | على غفلة من يديك «نافذ» | هنادي زرقة |
| 13 | سيكلوجية الحب والعلاقات الأسرية | سيرغي كوفالوف |
| 14 | دلمونيات | علي الجلاوي |
| 15 | قبلة في مهب النسيان | سوسن دهنيم |
| 16 | ملقوس حافية | نجيب عوض |
| 17 | اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان «نافذ» | نبيل السهلي |
| 18 | الخديعة المرعبة «نافذ» | تيري ميسان |
| 19 | الجنرال | آلان سيلتو |
| 20 | العقلانية العملية | بيير بورديو |
| 21 | بابل والكتاب المقدس | جان بوتيرو |
| 22 | الرقص مع الذئاب | نك يانغ |
| 23 | البحث عن السيد جلجامش | محمد سيف |
| 24 | وعليك تتكئ الحياة «نافذ» | ممدوح عدوان |
| 25 | بيان ضد الأبارتايد | د.محمد حافظ يعقوب |
| 26 | القيمة والمعيار | يوسف سامي اليوسف |
| 27 | من دولة الإكراه إلى الديمقراطية | عماد شعيبي |
| 28 | القلم والسيف | إدوارد سعيد |
| 29 | بين الإسلام والغرب | مكسيم رودنسون |
| 30 | صعود وأفول فلسطين | نورمان ج. فنكلستين |
| 31 | ومض الأعماق | ت د.علي نجيب إبراهيم |
| 32 | رائحة الأنثى | أمين الزاوي |
| 33 | بؤس العالم (ثلاثة أجزاء) | بيير بورديو |
| 34 | المرأة في الإسلام | د. برهان زريق |
| 35 | الخيال والحرية | يوسف سامي اليوسف |
| 36 | ساعي البريد | ممدوح عدوان |
| 37 | الضغينة والهوى | فواز حداد |

| | | |
|---|---|---|
| 38 | جنجر وفريد | فيدريكو فيلليني |
| 39 | التباس «نافذ» | ماهر منزلجي |
| 40 | الدُعابة المرة | محمد القيسي |
| 41 | محطات الانتظار «نافذ» | محمد توفيق |
| 42 | حوارات المنفيين | برتولد بريشت |
| 43 | بوح في المتاح | إلياس شوفاني |
| 44 | استمرارية التاريخ | عمانوئيل فاليرشتاين |
| 45 | باب الحيّرة | انيسة عبود |
| 46 | مقال في الرواية | يوسف سامي اليوسف |
| 47 | جماليات اللفظة | د. علي نجيب إبراهيم |
| 48 | عباس كياروستامي / فاكهة السينما الممنوعة | فجر يعقوب |
| 49 | متى يصبح الإنسان شجرة | د. ماهر منزلجي |
| 50 | شتاء البحر «نافذ» | غزالة درويش |
| 51 | زمن يحترق «نافذ» | غزالة درويش |
| 52 | عام مضى والانتفاضة تتجذر «نافذ» | تيسير قبعة |
| 53 | سورية واللاجئون الفلسطينيون | ظافر بن خضراء |
| 54 | كارل ماركس «نافذ» | سريست نبي |
| 55 | جزيرة الهدهد | صبري هاشم |
| 56 | همس / الجثة لا تسبح ضد التيار | يحيى علوان |
| 57 | أطياف الندى | صبري هاشم |
| 58 | التدريب على الرعب «نافذ» | خيري الذهبي |
| 59 | الحصار | مازن النقيب |
| 60 | نساء في الحرب | جواد الأسدي |
| 61 | فلامنكو البحث عن كارمن | جواد الأسدي |
| 62 | آلام ناهدة الرمّاح | جواد الأسدي |
| 63 | مداريات حزينة | كلود ليفي شتراوس |
| 64 | الكلمة الخرساء | جاك رنسيير |
| 65 | صفر واحد | رفيق عنيني |
| 66 | الريح والملح | الفارس الذهبي |
| 67 | الوجه السابع للنرد | فجر يعقوب |
| 68 | عالم مختلف | د. ماهر منزلجي |
| 69 | اليوم الأخير لبيت دمشقي | طه حسين حسن |
| 70 | الحضارة الأوروبية في عصر الأنوار | بيير شونو |
| 71 | حنين المناصر «نافذ» | عائشة أرناؤوط |
| 72 | الاتجاهات النقدية الحديثة | عمر كوش |
| 73 | السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد | د. عماد فوزي شعيبي |
| 74 | امرأة.. مرآتها صياد أعزل «نافذ» | فراس سليمان |
| 75 | مرايا الرماد «نافذ» | سهيل بدور |
| 76 | الغاوي | بهيجة مصري ادلبي |
| 77 | عشاق الدير | د. محمد الدروبي |

| ت. إسماعيل دبج | حمار المسيح | 78 |
|---|---|---|
| محمد خميس | تراتيل القيثارة «نافذ» | 79 |
| أفلاطون | هيبياس الأكبر | 80 |
| وليد إخلاصي | سمعت صوتاً هاتفاً | 81 |
| محمد منصور | فيروز والفن الرحباني | 82 |
| محمد عبيدو | السينما الصهيونية شاشة للتضليل | 83 |
| بروتولت بريشت | درامية التغيير | 84 |
| محمد ملص | الليل | 85 |
| د. عبد السلام نور الدين | الحقيقة والشريعة في الفكر الصوفي | 86 |
| د. ماهر منزلجي | تصفيق بيد واحدة | 87 |
| د. محمد الدروبي | وعي السلوك | 88 |
| عدنان مدانات | تحولات السينما البديلة | 89 |
| سمير طحان | أرواح تائهة / القناع في الطباع | 90 |
| يوسف سامي اليوسف | رعشة المأساة «مقالات في أدب غسان كنفاني» | 91 |
| بيير بورديو | التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول | 92 |
| فخري صالح | النقد والمجتمع | 93 |
| إيله شوحاط | ذكريات ممنوعة | 94 |
| تيسير خلف | عجوز البحيرة | 95 |
| ماهر اليوسفي | الزهرة والحجر | 96 |
| فتحية القلا | أشياء لا تُشترى | 97 |
| جبارة البرغوثي | المرأة.. الحب والجنس | 98 |
| عصام حسن | هيك وهيك | 99 |
| كبير مصطفى عمي | اقتسام العالم | 100 |
| بهية مارديني | للحب رائحة الخبز | 101 |
| ميادة لابيدي | عطش الرغبة | 102 |
| جبارة البرغوثي | أتباع الشيطان | 103 |
| كونت هامسن | بينوني | 104 |
| خالد آغة القلعة | السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج4 | 105 |
| جاستون باشلار | النار / التحليل النفسي لأحلام اليقظة | 106 |
| نهاد سيريس | خان الحرير | 107 |
| آلان ميناژغ | جدار شارون | 108 |
| جان رولان | تجوال «رواية» | 109 |
| جاك دريدا+اليزابيث رودينسكو | ماذا عن غد؟.. «قيد الطباعة» | 110 |
| أديب ديمتري | نفي العقل ج1-عصر الفاشيات وهزيمة العقل«قيد الطباعة» | 111 |
| أديب ديمتري | نفي العقل ج2-جذور العرقية وأسطورة الجنس المتفوق «قيد الطباعة» | 112 |
| د. محمد الدروبي | محنة البيت القديم «قيد الطباعة» | 113 |
| د. محمد الدروبي | حكواتي، ليس إلا «قيد الطباعة» | 114 |
| مازن النقيب | النازيون الجدد «قيد الطباعة» | 115 |
| صبري هاشم | حديث الكماة «قيد الطباعة» | 116 |
| تيسير خلف | الجولان في مصادر التاريخ العربي «قيد الطباعة» | 117 |

# حمار المسيح

## الأصولية اليهودية الحاضر و الجذور

بعد وقت قصير من وصول حكومة رابين، الحكومة المعروفة بلقب «حكومة الشر»، أدخلت جهات دينية عديدة تغييرات على الصلاة من أجل سلامة الدولة. وقد حدث هذا في عام 1992، أي قبل وقت طويل من اتفاق أوسلو «الخائن». أما سبب التعديل فهو أن صلاة سلامة الدولة تتضمن الدعاء التالي: «يا رب ابسط عليها مظلة سلامك، وأرسل نورك وخشيتك على قادتها ووزرائها ومستشاريها، وامنحهم المشورة الجيدة من لدنك»، أي الطلب من الرب الاعتناء بعافية وسداد رأي قادة الدولة. إلا أن الصلاة لسلامة الدولة لم تصمد بعد انتقال الحكم عام 1992، وقد كانت هناك صيغ متعددة للتغيير، يجمع بينها القاسم المشترك المتمثل في إلغاء الدعاء لصحة وعافية وسداد خطوات وزراء الحكومة. كذلك كان هناك من لم يكتف بهذا التعديل فذهبوا إلى أبعد، وأضافوا جملة: «أزل حكومة الشر من البلاد» وهو دعاء اللعنة نفسه الذي كان يقال ضد هتلر. والبعض غالى أكثر فذهب إلى صلاة الثمانية عشر المقدسة التي تؤدى ثلاث مرات في اليوم وتشكل أساس الصلاة اليهودية. إذ في هذه الصلاة أيضاً ألغوا الدعاء لسلامة قادة الشعب، وزادوا بأن استبدلوه بالدعاء لإزالة حكومة الشر.

ولعل هذا يشكّل مؤشراً واضحاً للهيمنة الرهيبة لليمين الصهيوني المتطرف، الذي دفع بشارون [illegible] نتنياهو إلى سدة السلطة.. والذي يرى أن [illegible] الدموية لتلك الرموز رغم فاشيتها غير كافية، [illegible] إجهاض أي تسوية مهما كانت مجحفة بحق [illegible] الفلسطيني.

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية

Designed by: JAMAL ABTAH